ASSASSIN'S CREED

عقيدة الحشاشين

الأخوية





أوليفر بودين

ترجمة: إيمان شاهين





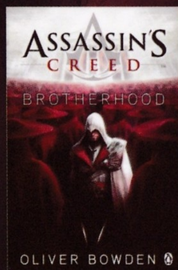
ASSASSIN'S CREED

عقيدة الحشاشين

الأخوية

سأجوب الأرض طولاً وعرضًا إلى العمق المُظلم لإمبراطورية فاسدة لاستئصال أعدائي. لكن روما لم تبنَ بين ليلة وضحاها ولن يُرجعها حشاش وحده إلى سابق عهدها. أنا إتزيو أوديتوري الفلورنسي. وتلك أخويتي...

روما التي عاشت مجد تليد فيما سبق، يسودها الخراب. وعمت المعاناة والتدهور أرجاء المدينة، ويعيش أهلها في ظل عائلة بورجيا التي لا ترحم. لكنَّ ثمة رجلاً وحيدًا يمكنه تخليص الناس من بطش آل بورجيا، إتزيو أوديتوري، كبير الحشاشين.



ستختبر الرحلة التي سينطلق فيها إتزيو حدود قدراته. لن يهدأ تشيزاري بورجيا، الرجل الأشر والأخطر من والده البابا، حتى يحتل كل ربوع إيطاليا. وفي مثل تلك الأوقات التي يسودها الغدر، ينتشر التآمر في كل مكان، حتى بين صفوف الأخوية ذاتها.

غلاف: محمود هشام







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

ASSASSIN'S CREED

عقيدة الحشاشين

الأخوية

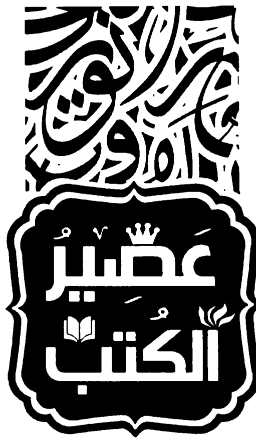




أوليفر بودين

ترجمة: إيمان شاهين







telegram @
yasmeenbook

- العنوان الأصلي:
Assassin's Creed: Brotherhood
- العنوان العربي:
عقيدة الحشاشين: الأخوية
- حُقوق النشر:
copyright © by 2010 Ubisoft Entertainment
- الطبعة الأولى: يناير/2025م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- تأليف: أوليفر بودين
- ترجمة: إيمان شاهين
- تحرير: أحمد حسين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 26868/2024م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-448-9



مقدمة

مرت أحداث الخمس عشرة دقيقة الغريبة والمذهلة -التي ربما كانت خمس عشرة ساعة أو حتى يومًا، لأنها بدت سرمدية- في ذهن إتزيو من جديد وهو يخرج متخبطًا من القبو السري الكائن تحت كنيسة سيستينا، وانتابت عقله حالة من التشوش والارتباك.

وتذكَّر، رغم أن الذكرى بدت حُلمًا، أنه في أعماق القبو السري قد رأى تابوتًا كبيرًا مصنوعًا مما يشبه حجر الجرانيت. ولما خطا مقتربًا منه، راح التابوت يشع، لكن ضوأه كان جذابًا مُرحبًا.

لَمس إتزيو غطاءه فانفتح كما لو كان خفيفًا كالريشة. وشعَّ منه ضوء أصفر دافئ، ومن داخل هذا الشعاع قام جسدٌ، لم يستطع إتزيو أن يتعرف إلى ملامحه رغم إدراكه أنه ينظر إلى امرأة. امرأة ذات قوام خارج عن النمط الطبيعي تعتمر خوذة وتتربع على كتفها اليمنى بومةً بنية مصفرة اللون.

أعمته هالة الضوء التي أحاطتها.

ثم قالت مناديةً إياه بالاسم الذي أُسند إليه على نحو غامض: «تحياتنا أيها المُختار، لقد طال انتظاري لك على مدار عشرة آلاف ألف سنة».

لم يجرؤ إتزيو على رفع بصره.

- أرني التفاحة.

مَد إتزيو يده بالتفاحة في تواضع جمٍّ.

قالت: «آه». وراحت يدها تتحسس الهواء المحيط بالتفاحة إلا أنها لم تلمسها وتوهجت التفاحة ونبضت. أمعنت المرأة النظر فيه، واستطردت: «لا بدَّ أن نتحدث». وأمالت رأسها كما لو أنها تفكر في أمرٍ ما، وخُيل لإتزيو وهو يرفع رأسه أنه رأى أثر ابتسامةٍ على وجهها الوضَّاء.

- مَن أنتِ؟

- أوه، يا لكثرة ما أملك من أسماء! لما... متُّ، كان مينيرفا.

تعرَّف إتزيو على الاسم، وقال: «إلهةُ الحكمة! البومة على كتفكِ. والخوذة. هي أنتِ بكل تأكيد». ثم حَنى رأسه إجلالًا لها.

- لقد رحلنا عن العالم الآن، الآلهة التي عبدها أسلافك؛ جونو ملكة الآلهة، وأبي جوبيتر ملكهم، الذي أعادني للحياة من خلال جبهته. لم أكن ابنته من صلبه، بل من صميم عقله!

استولى الذهول على إتزيو، وراح يتطلع على التماثيل المصطفَّة حول الجدران. الإلهة فينوس. والإله ميركوري. والإله فولكان. والإله مارس...

ثم علا ضجيجٌ يشبه صوت انكسار الزجاج من بعيد أو الصوت الذي يصدر من نجم ساقط، كان ذاك صوت ضحكتها. وقالت: «كلا، ليسوا آلهة. لقد جئنا ببساطة من قبل ذلك، وحتى لما سرنا في العالم، أعيا بني البشر فهم وجودنا. لقد كنَّا أكثر تقدمًا عنهم». وسكتتْ لبرهة ثم تابعت: «غير أنك قد لا تفهمنا، إلا أن عليك استيعاب تحذيرنا».

- لا أفهم قصدكِ.

- لا تخف، أودُّ الحديث إليك، ولكن كذلك من *خلالكَ*. أنت المصطفى لزمانك. *المختار*.

أحسَّ إتزيو كأنما يلفُّه دفء الأم ويزيل عنه تعبه.

رفعت مينيرفا ذراعيها وغدا سقف القبو السري هو قبة السماء الزرقاء. واكتسى وجهها الوضَّاء بحزنٍ بالغ.

- اسمع وانظر.

لم يقوَ إتزيو على تحمُّل وقْع الذكرى، فقد رأى الأرض كلها والسماوات تحيط بها وصولًا إلى مجرة درب التبانة، ولم يستطع عقله استيعاب الرؤية. فقد رأى عالمًا -عالمه- دمره البشر وسهلًا تعصف به الرياح. لكن بعدها رأى أُناسًا منكسرين سريعي الزوال، لكن صامدين.

قالت مينيرفا: «لقد منحناكم عدن، لكنها غدت جحيمًا. فقد احترق العالم حتى العدم ولم يبقَ منه سوى الرماد. لكننا خلقناكم على صورتنا، وخلقناكم باختيارنا، أيًّا ما كان ما تقترفونه، أيًّا ما كان قدرُ الشر المستشري فيكم، وذلك لأننا جعلناكم مُخيرين من أجل النجاة. وأعدنا البناء. بعد الدمار، أعدنا بناء العالم وقد غدا، بعد دهور عتيقة، العالم الذي تعرفونه وتسكنونه. وبذلنا جهدنا لنضمن عدم تكرار مثل هذه المأساة».

عاود إتزيو النظر إلى السماء. فوجدها مجرد أُفق. وكانت فيها معابد وأشكال، ونقوش صخرية تشبه الكتابة ومكتبات مليئة بالمخطوطات وسفن ومدن وألحان ورقص، وأشكال ورسوم من حضارات بائدة لم يعرفها، لكنه أدرك أنها من صنيع بني جنسه.

أخذت مينيرفا تقول: «لكن الآن قومي يحتضرون، ولن يكون الوقت في صالحنا... وستنقلب الحقيقة إلى خرافة وأسطورة. لكن يا إتزيو أيها المختار والقائد، مع أنك لا تملك إلا القوة الجسدية لإنسانٍ بشري، فإنك سترقى إلى بأس قوتنا، وفيك ستحفظ كلماتي».

حملق فيها إتزيو والذهول يتملكه.

فتابعت مينيرفا: «ولتجلب كلماتي كذلك الأمل. لكن يجب عليك أن تُسرع، لأن الوقت ينفد. احذر من آل بورجيا واحذر من صليب فرسان الهيكل».

ساد الظلام القبو السري، وكانت مينيرفا وإتزيو وحدهما، يغمرهما وهج دافئ يتلاشى تدريجيًّا.

- على قومي الرحيل عن هذا العالم الآن. لكن الرسالة قد بُلغت. والأمر إليك الآن، وليس لنا من الأمر شيء.

ثم هبط الظلام والصمت، وغدا القبو السري مجرد طابق سفلي ثانيةً، خاويًا من أي شيء.

ومع ذلك...

سلك إتزيو طريقه للخروج، محدقًا إلى الجسد المتلوِّي لرودريغو بورجيا الإسباني، البابا ألكسندر السادس، قائد فصيل فرسان الهيكل، الذي كان ملطخًا بالدماء في حشرجات موته الظاهر، ولم يقوَ إتزيو الآن على حمل نفسه على تسديد ضربةٍ قاضية له. فقد بدا الرجل يحتضر من جرَّاء قتله نفسه. ومن مظهر رودريغو، بدا أنه قد تجرع سُمَّ الكانتريلا بلا شك الذي جرَّع العديد من خصومه إياه. حسنًا، ليسلك طريقه إلى الجحيم. فلن يرأف به إتزيو ويُهديه موتًا رحيمًا.

خرج إتزيو من ظُلمة كنيسة سيستينا إلى نور الشمس. وما إن وصل إلى الرواق المُعمد، حتى رأى في انتظاره أصدقاءه ورفاقه من الحشاشين، أعضاء الأخوية الذين عاش إلى جانبهم العديد من المغامرات ونجا من العديد من الأخطار.



الجزء الأول

بكل تأكيد لا يُمكن أن نُطلق صفة الفضيلة على أفعال من قبيل اغتيال المواطنين وخيانة الأصدقاء ونكث العهود والتجرُّد من الرحمة ومظاهر التدين. لأن هذه الوسائل قد توصل الأمير إلى السلطة، لكنها لا تورثه المجد.

نيكولو ماكيافيلي، الأمير

1

وقف إتزيو للحظة مشدوهًا ومشوشًا. أين كان؟ ما هذا المكان؟ ولما استعاد وعيه تدريجيًّا، رأى عمه ماريو ينسلُّ مبتعدًا عن مجموعة من رفاقه الحشاشين ويقترب منه، ثم أمسك بذراعه.

- هل أنت على ما يرام يا إتزيو؟

- حد... حد... حدث قتال بالداخل، مع البابا، مع رودريغو بورجيا، لقد تركته في يد الموت.

ارتجف إتزيو ارتجافًا شديدًا، ولم يقوَ على تمالك نفسه. هل يمكن أن يكون الأمر حقيقيًّا؟ فمنذ عدة دقائق مضت، رغم أنها بدت مثل مئة عام خلت، اشتبك في صراع حياة أو موت مع الرجل الذي لطالما كرهه وخشيه، زعيم فرسان الهيكل، المنظمة الشرسة التي كرَّست نفسها لدمار العالم الذي حارب إتزيو ورفاقه في أخوية الحشاشين بشدة لحمايته.

لكنه تغلَّب عليهم، وقد استعان بالقوى العظمى للتحفة الغامضة، التفاحة، قطعة عدن التي منحته إياها الآلهة القديمة لضمان أن استثمارهم في البشرية لم يذهب هباءً في سفك الدماء والجَور. وقد خرج منتصرًا.

أو هل كان كذلك؟

ما الذي قاله؟ «تركته في يد الموت؟». بلا ريب بدا رودريغو بورجيا العجوز الدنيء الذي شقَّ طريقه بصعوبة نحو منصب رئيس الكنيسة

وتولى زمام أمورها بشغله كرسي البابا أنه يحتضر بالفعل. لقد تجرع السُّم.

لكن في الوقت الحالي سيطر على إتزيو شكٌّ مريع. أفي إظهاره الرحمة، الرحمة التي هي ركيزة عقيدة الحشاشين والتي يجب، وهو يعرف ذلك، أن تنزل بالجميع إلا أولئك الأشخاص الذين تمثل حياتهم خطرًا على بقية بني البشر، أكان *ضعيفًا* حقًّا؟

لو كانت هذه حاله، لم يكن ليسمح لشكوكه بالظهور، ولا حتى لعمه ماريو، قائد الأخوية. فَردَ إتزيو كتفيه، إذ إنه ترك الرجل يموت بملء إرادته. وقد تركه وعنده متسعٌ من الوقت حتى يبتهل لطلب المغفرة. فلم يطعنه في قلبه ليتأكد من قتله.

أحكمت يدٌ باردة قبضتها على قلبه وردد صوت واضح في ذهنه: وَجب عليك *قتله*.

نفض نفسه حتى يتخلص من أفكاره المنغصة كما ينفض الكلب الماء عن نفسه بعد السباحة. إلا أن أفكاره أَبَت إلا السكن في تجربته المُحيرة في القبو السري الغريب الموجود تحت كنيسة سيستينا في الفاتيكان في روما، المبنى الذي خرج منه لتوه على ضوء الشمس الحاد غير المألوف. وقد بدا كل شيء من حوله هادئًا وطبيعيًّا على نحو غريب، وبَرزت مباني الفاتيكان كعادتها، براقة في الضوء الساطع. ورجعت له ذكرى ما حدثَ في القبو السري، إذ استولت على وعيه نوبات تذكُّر هائلة. لقد وقعتْ رؤية، لقاء مع إلهة غريبة، فلا سبيل آخر لوصف هذا الكيان إلا على هذا النحو، والتي غدا يعرفها الآن باسم مينيرفا، ربة الحكمة الرومانية. إذ أرته كلًّا من الماضي الغائر والمستقبل البعيد بطريقة تدفعه لبُغض المسؤولية التي تحملها جراء المعرفة التي أُنزلت عليه.

فمع مَن يمكنه تقاسمها؟ كيف يمكنه شرح أيٍّ *منها*؟ الأمر برمَّته يبدو ضربًا من الخيال.

فكلُّ ما يعرفه على وجه اليقين بعد تجربته، والتي يُفضل تسميتها محنة، أن القتال لم ينتهِ بعد. وربما في يومٍ ما سيحين وقتٌ يعود فيه إلى فلورنسا مسقط رأسه، ويهنأ بالًا رفقة كُتبه ويحتسي الشراب صحبة أصدقائه في الشتاء ويصطاد معهم في الخريف ويلاحقون الفتيات في الربيع ويُشرف على محاصيله في أراضيه في الصيف.

لكن لم يكن هذا ما عليه الحال.

في صميمه عَرف أن فرسان الهيكل وكل الشر الذي تمثَّل فيهم لم ينتهوا بعد. ففيهم قد حارب وحشًا له رؤوس أكثر من هيدرا، وعلى غرار هذا الوحش، الذي لم ينل منه إلا رجلٌ واحد وهو هرقل، كانوا كأنهم خالدون.

- إتزيو!

كان صوت عمه حادًّا، إلا أنه جعله يعود من شروده الذي أمسك به بين براثنه. فعليه أن يستجمع ذاته ويفكر بذهن صافٍ.

استعرت نيران في عقل إتزيو، وراح يردد اسمه لنفسه كنوع من السلوان والتهدئة: أنا إتزيو أوديتوري الفلورنسي. أنا قوي، أنا سيد تقاليد الحشاشين.

ثم عاد إلى الواقع، إذ لم يعرف ما إذا كان في حُلمٍ أم في واقع. فما قدمته الإلهة الغريبة من التعاليم والوحي في القبو قد زعزع ثوابته ومعتقداته حتى النخاع. كان الأمر أشبه بانقلاب الزمان رأسًا على عقب. وبخروجه من كنيسة سيستينا، حيث خلَّى وراءه البابا الشرير، ألكسندر السادس يحتضر على *ما* يبدو، زَرَّ عينيه ثانيةً في الضوء الحاد. وتجمَّع رفاقه الحشاشون ويعلو الأسى والعزم الشديدان وجوههم.

لم تكفَّ الفكرة عن ملاحقته: *أتوجَّب عليه قتل رودريغو، والتأكد من وفاته؟* لقد اختار ألا يفعل، وبدا الرجل مصممًا على إنهاء حياته بنفسه، إذ قد فشل في إنجاز هدفه الأخير.

بيدَ أن صوتًا واضحًا ظل يتردد في ذهن إتزيو.

كان هنالك ما هو أكثر من ذلك: قوة مبهمة بدا أنها تجره مرة أخرى إلى الكنيسة، إذ اعتراه شعور بأن ثمة شيئًا لم يكتمل.

ليس رودريغو. ليس رودريغو *فحسب*. رغم أن بإمكانه القضاء عليه تمامًا الآن. إنه شيءٌ *آخر*.

سأله ماريو: «ما الأمر؟».

ردَّ إتزيو: «لا بدَّ لي أن أعود»، وقد تدارك ثانية بقلب مرتجف، أن الصراع لم ينتهِ بعد وأن التفاحة يجب ألا تفلت من يديه. وبينما تعصف به هذه الفكرة، تملَّكه شعور غامر بوجود ضرورة مُلحة. وانتزع ذاته من بين ذراعَي عمه اللتين تلُفَّانِه، وقفل راجعًا بسرعة إلى الظلام. وتبعه ماريو الذي أمر الآخرين بالتزام أماكنهم ومواصلة الحراسة.

***

وصل إتزيو إلى المكان الذي ترك فيه رودريغو بورجيا المحتضر، إلا أن الرجل لم يكن هناك! تكومت عباءة بابوية كثيرة الزخرفة من القماش الدمشقي على الأرضية مبقعة بدمٍ مسفوح، لكن صاحبها اختفى. وعاودت اليد، التي ترتدي قفازًا مدرعًا فولاذيًّا شديد البرودة، القبض على قلب إتزيو وبدا أنها ستسحقه.

أُغلق الباب الخفي المؤدي إلى القبو السري ولم يعد بالإمكان رؤيته، لكن بينما يصل إتزيو إلى الموضع الذي تذكر أن الباب كان موجودًا فيه،

فانفتح الباب بسلاسة لما لمسه إتزيو. فاستدار إلى عمه وتفاجأ برؤية الخوف مرتسمًا على وجه ماريو.

سأل الرجل المُسن وهو يحاول جاهدًا الحفاظ على رصانة صوته: «ما الذي يوجد هناك؟».

ردَّ إتزيو: «اللغز».

ترك إتزيو ماريو عند العتبة وراح يقطع الممر الخافت الإضاءة، آملًا ألا يكون الأوان قد فات، وإن مينيرفا تنبأت بهذا وعليه تُظهر له الرحمة. وبلا ريب لم يكن ليسمح لرودريغو بالدخول إلى هنا. ومع ذلك، أبقى إتزيو على النصل الخفي في وضعية الاستعداد، ذاك النصل الذي أورثه والده إياه.

وفي القبو السري وقفت أجسام بشرية هائلة -إلا أنها كانت أجسام بشرية *خارقة للطبيعة*، أكانت تماثيل؟- تحمل الصولجان.

إحدى قطع عدن.

بدا أن الصولجان ملحومٌ في الجسم الذي يمسكه، وبينما يحاول إتزيو انتزاعه، بدا الجسم كأنه يتوهج ويُحكم قبضته، كما فعلت النقوش الرونية على جدران القبو السري.

تذكر إتزيو أنه لا يجوز لأي يدٍ بشرية أن تلمس التفاحة دون شيء يحميها. بعدها ابتعدت الأجسام ثم غاصت في الأرض، تاركة القبو السري خاليًا من أيِّ شيء إلا التابوت والتماثيل المحيطة به.

تراجع إتزيو للوراء، متطلعًا حوله لبرهة في حيرة قبل أن يقرر ما يعرفه بالفطرة أنه ستكون مغادرته الأبدية لهذا المكان. ما الذي توقعه؟ أكان يأمل أن تُظهر مينيرفا نفسها له مرة أخرى؟ لكن ألم تخبره بكُل ما يجب؟ أو بالأحرى كل ما لا تستجلب معرفته أيَّ خطورة عليه؟ لقد

مُنح التفاحة. وكانت التفاحة ومعها قطع عدن الأخرى ستنمح رودريغو السيادة التي تاق إليها، وأدرك إتزيو بخبرته الحياتية أن تلك القوة المُجمَّعة حوت خطورة بالغة بوجودها في يد بني الإنسان.

وصل صوت ماريو الذي لا يزال متوترًا على غير العادة إلى الأسفل، قائلًا: «أكلُّ شيء على ما يرام؟».

ردَّ إتزيو: «كل شيء على ما يرام». وراح يعود أدراجه إلى الضوء ثانية في تردد يشوبه الفضول.

وبمجرد أن أصبح مع عمه، أراه إتزيو التفاحة.

- والصولجان؟

هَز إتزيو رأسه بالنفي.

قال ماريو وأظهر علامات الفهم السريع: «يُفضل أن تكون في يد الأرض أفضل من يد الإنسان. لكنك لا تحتاج إلى أن أخبرك بهذا. هيًّا، ينبغي لنا ألا نتلكأ».

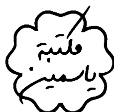
- وعلامَ العجلة؟

- كل شيء يتطلب العجلة، أتظن أن رودريغو سيتراجع ببساطة ويدعنا نخرج من هنا؟

- لقد تركته لأنه كان بين يدَي الموت.

- الأمر ليس كأن تتركه وهو يواجه الموت المحتوم، أليس كذلك؟ هيًّا!

شقوا طريقهم خارجين من القبو السري حينها، بكل ما أوتوا من سرعة، وبدا أن ريحًا باردة تتبعهم في خروجهم.



2

«أين ذهب الآخرون؟». سأل إتزيو ماريو وعقله لا يزال مشوشًا من تجاربه التي خاضها للتو في أثناء رجوعهما إلى ممشى كنيسة سيستينا الشاسع، لما لم يجدا الحشاشين المتجمعين هناك.

- لقد أخبرتهم أن يغادروا. ورجعت باولا إلى فلورنسا وتيودورا وأنتونيو إلى البندقية. إذ نحتاج إلى الحفاظ على إخفاء هُوِيَّاتنا في كل أنحاء إيطاليا. لقد انكسرت شوكة فرسان الهيكل لكنهم لم ينتهوا. سيعيدون تجميع أنفسهم إن لم تنتبه أخوية الحشاشين. إن لم نكن منتبهين للأبد. وسبقتنا بقية رفقتنا وستنتظرنا في مقرنا في مونترجيوني.

- لقد كُلفوا بالمراقبة.

- لقد فعلوا ذلك، لكنهم عرفوا موعد انتهاء مهمتهم. يا إتزيو لا وقت لدينا لنضيعه. جميعنا نعلم ذلك.

واكتسى وجه ماريو بالجدية.

- تعين عليَّ التأكد من موت رودريغو بورجيا.

- هل ألحق بك الأذى في القتال؟

- لقد حماني دِرعي.

رَبَّت ماريو على ظهر ابن أخيه، وقال: «لقد تحدثتُ على عجالة من قبل، وأظن أنك كنت محقًّا في عدم القتل بلا داعٍ. ولطالما نصحت

بالاعتدال والتوسط في الأمور. وقد ظَننت أنه قتل نفسه وأنه ميت لا محالة. لكن مَن يعلم؟ ربما زيَّف الأمر، أو ربما أخفق في إعطاء نفسه جرعة قاتلة من السم. فعلى أيِّ حال علينا التعامل مع الوضع كما هو عليه الآن وألا نهدر طاقتنا في التفكير فيما تعين أن يكون عليه الوضع. وعلى أيِّ حال، لقد أرسلناك، رجلًا واحدًا ضد جيش كامل من فرسان الهيكل. ووفيتَ واجبك وزيادة. وأنا لا أزال عمك الكبير، وساوَرَني القلق عليك. هيًّا يا إتزيو، علينا الخروج من هنا. فلدينا عمل نقوم به، وآخر شيء ينقصنا هو القلق حيال حراس آل بورجيا».

- لن تصدق الأمور التي رأيتها يا عمي.

- احرص فحسب على حياتك، ثم بعدها يمكنني سماعها. أنصت، لقد ربطت حصانين بعد كنيسة سانت بيتر خارج نطاق الفاتيكان. وبمجرد أن نصل إليهما، سنقدر على أن نسلك طريقنا بأمان بعيدًا عن هنا.

- أتوقع أن آل بورجيا سيحاولون إيقافنا.

تبسَّم ماريو ابتسامة عريضة، وقال: «بالطبع سيفعلون، *وأ*توقع أن آل بورجيا سيفجعون لخسارة الكثير من الأرواح الليلة!».

في الكنيسة تفاجأ إتزيو وعمه بأنهما يواجهان عددًا من القسيسين الذين عادوا من أجل استكمال القدَّاس الذي قاطعته مواجهة إتزيو مع البابا في قتاله هو ورودريغو من أجل السيطرة على قطع عدن التي اكتشفوها.

قابلهم القسيسون بغضب، وأحاطوا بهم وراحوا يصيحون في صوتٍ واحد، قائلين: «ما الذي تفعلانه هنا؟ لقد دنستما حرمة هذا المكان المقدس!». وأضافوا: «حشاشون! يشهد الرب أنكم ستنالون جزاء جرائمكم!».

وبينما يشق ماريو وإتزيو طريقهما من بين الحشد الغاضب، شرعت أجراس كنيسة سانت بيتر تدق الإنذار.

قال إتزيو لأحد القسيسين الذي وقف ليحجب طريقهما: «أنت تعترض على ما لا تفهمه». وأثارت هشاشة جسم الرجل اشمئزاز إتزيو ما جعله يدفعه جانبًا برفق قدر الإمكان.

قال ماريو في عجالة: «علينا الرحيل يا إتزيو. *حالًا!*».

صدح صوت قسيسٍ آخر قائلًا: «إن صوته صوت الشيطان».

وقال آخر: «ابتعد عنهما».

شقَّ إتزيو وماريو طريقهما من خلال الحشد خارجين إلى فناء الكنيسة الشاسع. وهناك واجهوا جمعًا مهولًا من العباءات الحمراء. وبدا أن مَجْمَع الكرادلة بأكمله قد اجتمع، بدا عليهم الارتباك لكنهم لا يزالون تحت سطوة البابا ألكسندر السادس، رودريغو بورجيا، رئيس جماعة فرسان الهيكل.

أخذ الكرادلة يُنشدون: «إن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم، مع ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحيين في السماويات. من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل، حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به تقدرون على أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة».[1]

سأل إتزيو: «ما خطبهم؟».

ردَّ ماريو في حزن: «إنهم متخبطون ويريدون الرشاد. هيًّا، علينا الفرار قبل أن يلاحظ حراس آل بورجيا وجودنا». ونظر إلى الخلف نحو الفاتيكان. فظهر لمعانُ درعٍ تحت ضوء الشمس.

- لقد فات الأوان، ها هم قد جاؤوا، هلُمَّ!

---

(1) رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، الإصحاح السادس.

3

كانت ملابس الكرادلة الكهنوتية المتطايرة كأنها بحرٌ أحمر اللون فرقه أربعة من حراس آل بورجيا الذين اجتاحوا الجَمع في محاولة منهم لملاحقة إتزيو وماريو. استولى الفزع على الحشد إذ شرع الكرادلة يصيحون خائفين ومحذرين، ووجد إتزيو وعمه نفسيهما محاطَين في حلبة مليئة بالبشر. وشَكَّل الكرادلة الذين لا يعرفون إلى أين يتجهون، دون وعيٍ منهم حاجزًا، وربما زادت شجاعتهم بلا إدراك منهم بوصول الحراس المدججين بالأسلحة، الذين لمعت دروع صدروهم تحت ضوء الشمس. واستلَّ حراس آل بورجيا الأربعة سيوفهم ودلفوا إلى الحلبة لمواجهة إتزيو وماريو، اللذَيْنِ بدورهما استلَّا سيفيهما.

قال الجندي القائد بينما يتقدم بخطواته للأمام: «اخفضا سلاحيكما واستسلما أيها الحشاشان، فإننا نحاصركما من كل الجهات ونفوقكما عددًا!».

قبل أن يتفوه بكلمةٍ أخرى، قفز إتزيو من مكانه وقد عادت القوة إلى أطرافه المتعبة. ولم يتسنَّ الوقت للحارس القائد لأن يصدر عنه رد فعل، فلم يتوقع من خصمه أن يتحلى بالجرأة في وجه هذه المزايا الهائلة. وراحت الذراع التي يحمل بها إتزيو سيفه تلفُّ في الهواء بسرعة البرق، والنصل يصدر صفيرًا بينما يضرب في الهواء. حاول الحارس بلا جدوى أن يرفع سيفه ليتحاشى الضربات، لكن كانت حركات إتزيو في غاية

السرعة. أصاب سيف الحشاش هدفه بدقةٍ ثابتة، قاطعًا رقبة الحارس المكشوفة، ومن أثر تلك الضربة تدفق الدم ينهمر. فوقف الحراس الثلاثة المتبقون بلا حراك، وتملكتهم الدهشة من سرعة الحشاش وحلَّت عليهم البلاهة كونهم في مواجهة مثل هذا الخصم الماهر. ودلَّ تأخرهم في الرد على إتزيو على موتهم المحتم. فما كاد سيف إتزيو ينهي قوس الدوران القاتل الأول حتى رفع يده اليسرى، فصدر عن التركيب الآلي لنصله المخفي صوت نقر بينما يخرج النصل المُدبب القاتل من كُمِّه. واخترق النصل الحارس الثاني في الموضع الذي بين عينيه قبل حتى أن يُحرك ساكنًا كي يدافعِ عن نفسه.

في حين أن ماريو خطا خطوتين جانبًا دون أن ينتبه له أحد، فأغلق زاوية الهجوم على الحارسين المتبقيَين، اللذين انصرف انتباههما تمامًا إلى المشهد الصادم للعنف الذي انبثق أمامهما. وبخطوتين إضافيتين، اقترب منهما ثم غرز سيفه تحت درع صدر أقرب حارس له، فارتفعت سنُّ السيف بصورةٍ مريعة إلى جذع الحارس العلوي. وتلوَّى وجه الحارس من الألم المبرح غير المفهوم. وبهذا تبقَّى رجلٌ واحد. استدار الرجل والرعب يملأ عينيه كما لو أنه سيجد سبيلًا للفرار، لكن قد فات الأوان. فقد ضربه نصل إتزيو في خاصرته اليمنى بينما اخترق سيف ماريو فخذه. وسقط الرجل جاثيًا على ركبتيه وهو يئن، فركله ماريو.

جال الحشاشان بنظريهما في الأنحاء، فوجدا دم الحراس ينتشر على الأرض المُعبدة، وتمتصه الحواشي القرمزية لملابس الكرادلة الكهنوتية.

- لنذهب قبل أن يلحق بنا المزيد من رجال آل بورجيا.

وراحا يلوحان بسيفيهما في وجوه الكرادلة المرتعبين الآن، الذين لاذوا بالفرار من طريق الحشاشَين، وافسحوا لهما طريقًا سيخرجهما من الفاتيكان. وسمعا صوت أحصنة تقترب تقطع طريقها بشراسة باتجاه

الجنوب الشرقي، وبلا شك دلَّ هذا على قدوم المزيد من الجنود، تجري بأقصى سرعتها على طول امتداد الساحة، بعيدًا عن الفاتيكان باتجاه نهر التيبر. كان الحصانان اللذان أعدهما ماريو من أجل هروبهما مقيدين خارج المنطقة المجاورة لمقر الكرسي الرسولي. لكن أولًا تعيَّنت عليهما الاستدارة نحو هؤلاء الحراس الباباويين الذين تبعوهما ممتطين خيولهم وبدأوا يقتربون منهما سريعًا، وأخذ صوت حوافر الأحصنة الحاد يتردد على حجر الرصف. واستطاع إتزيو وماريو باستخدام سيفيهما الأحدبين إبعاد المطارد التي أخذ الحراس يهاجمونهما بها.

قتل ماريو أحد الحراس بسيفه تمامًا في اللحظة التي أوشك فيها على طعن إتزيو من الخلف برمحه.

هتف إتزيو بامتنان: «ضربةٌ لا بأس بها من رجل مُسن».

- أتوقع منك رد الجميل، وهذا شيء بسيط من «رجلك العجوز»!

- لم أنسَ كل شيء علمتني إياه.

قال إتزيو: «لا أرجو ذلك، انتبه!»، واستدار في اللحظة الحاسمة وقطع رجلَي حصان امتطاه حارس كان يعدو به، حاملًا صولجانًا مخيف الشكل.

صاح ماريو: «أحسنت صنعًا».

قفز إتزيو جانبًا، متحاشيًا اثنين من ملاحقيه واستطاع أن يفك سراج حصانيهما بينما يسرعان نحوه، مندفعين للأمام بقوة حركتيهما. وفَضَّل ماريو بحكم ثقل وزنه وكِبر سنِّه أن يبقى مكانه ويضرب أعداءه قبل أن يقفز بعيدًا عن متناول أيديهم. ولكن بمجرد أن وصل الحشاشان إلى طرف الساحة الواسعة المقابلة لكنيسة كاتدرائية سانت بيتر، صعدا سريعًا إلى حِمي الأسطح متسلقين جدران المنازل المتداعية بخفة مثل البُرص، وأخذا يركضان للفرار من على الأسوار ويقفزان من فوق الفجوات التي شَكَّلتها الشوارع كأنها أخاديد. لم يكن الأمر سهلًا على الدوام، وفي

لحظةٍ ما، كاد ماريو يفشل في الهروب، وكانت أصابعه تتخبط بحثًا عن مزاريب المياه وهو على وشك السقوط. وبأنفاسٍ متهدجة رجع إتزيو ليسحبه، ونجح في اللحظة نفسها التي راحت سهام ملاحقيهم تهتز وتُخشخش بلا جدوى متخطيةً إياهم ومتجهةً نحو السماء.

لكن انطلاقهما كان أسرع بكثير عن الحراس المرتدين للدروع الثقيلة والمفتقدين لمهارات الحشاشين، الذين حاولوا بلا جدوى أن يجاروهما ركضًا رغم وجود الممرات من تحتهم حتى تخلَّفوا عنهما.

توقف ماريو وإتزيو على سطحٍ يطل على ساحة صغيرة على حافة حي تراستيفيري. ووقف هنالك حصانان كستنائيان ضخمان مهيبا المظهر مسرَّجان وجاهزان خارج نُزل متواضع، مكتوب على لافتته أن اسمه الثعلب النائم، في حين يحرسه رجل أحدب أحول العينين له شارب كثٌّ.

همس ماريو: «جياني!».

نظر الرجل إلى الأعلى، وفي التوِّ فك الأحبال التي تربط الحصانين بحلقةٍ حديدية ضخمة موجودة في حائط النزل. قفز ماريو من فوره هابطًا من السطح، جاثمًا على الأرض ومنها وثب إلى سرج الحصان الأكبر والأقرب له. صهل الحصان وراح يضرب الأرض بقدميه في ترقب مرتبك.

قال ماريو للحصان: «اهدأ أيها البطل، ثم رفع بصره إلى المكان الذي لا يزال إتزيو واقفًا فيه على حاجز السور فوق السقف، وهتف قائلًا: «هيًّا! ما الذي تنتظره؟»».

ردَّ إتزيو: «لحظة واحدة يا عمي»، واستدار ليواجه اثنين من حراس آل بورجيا اللذين استطاعا أن يقطعا طريقهما إلى السطح وكانا في تلك اللحظة يواجهانه ويصوبان نحوه، لدهشته، بندقيتين ذواتي طارق من نوع لم يألفه قط. بحق الجحيم، من أين لهما أن يحصلا عليهما؟ إلا أن الوقت لم يكن يسمح بطرح الأسئلة، لذا فقد دار في الهواء من فوقهما،

مطلقًا نصله الخفي وقاطعًا حبلَي وريدَيهما بدقة قبل أن تسنح لهما الفرصة لإطلاق النار.

قال ماريو وهو يُلجم فرسه النَّزق: «مُذهل، والآن أسرِع! ما الذي تنتظره بحق الجحيم؟».

رمى إتزيو بنفسه من على السقف ليهبط بالقرب من الحصان الثاني والذي أحكم الرجل الأحدب قبضته عليه ثم قفز من على الأرض ليستقر فوق سرج فرسه. فشبَّ الحصان بانفعال بسبب وزنه إلا أن إتزيو أحكم سيطرته عليه فورًا ثم استدار به ليلحق بعمه وهو ينطلق مسرعًا نحو التيبر. في الوقت نفسه، توارى جياني في النزل، وجاءت سرية من خيالة آل بورجيا مسرعةً من عند زاوية الطريق إلى الساحة. لكز إتزيو خاصرتَي الحصان بكعبيه ليلحق على عجل بعمه وهما يسلكان طريقهما بأقصى سرعة في شوارع روما المتهالكة باتجاه النهر القذر الراكد. تسنى لماريو وإتزيو أن يسمعا من خلفهما صيحات حراس آل بورجيا من على ظهور خيولهم وهم يسبُّون هدفيهما، فركضا بحصانيهما عبر متاهة الشوارع القديمة، وابتعدا تدريجيًّا.

بوصولهما إلى جزيرة التيبر، عبرا النهر من على جسر آيلٍ للسقوط راح يهتز بسبب حوافر حصانيهما، ثم عادا مرة أخرى متجهين شمالًا ليسلكا الشارع الرئيسي المؤدي إلى خارج البلدة الصغيرة الشديدة البؤس والقذارة التي كانت يومًا ما عاصمة العالم المتحضر. ولم يتوقفا حتى وصلا إلى أعماق الريف، وطمأنا نفسيهما أنهما أصبحا خارج متناول أيدي مطارديهما.

بالقرب من مستوطنة ستباني وتحت ظل شجرة دردار هائلة بجانب الطريق المُغبر الذي يمتد بمحاذاة النهر، ربط إتزيو وماريو حصانيهما وأخذا بعض الوقت ليتنفسا الصعداء.

- كان هذا وشيكًا يا عمي.

هَز العجوز كتفيه وابتسم ابتسامة بها مسحةٌ من الألم. ثم أخرج ماريو من حقيبة السرج قنينة جلدية كبيرة بها خمرٌ أحمر لاذع ثم قدمه لابن أخيه.

وقال وهو يلتقط أنفاسه ببطء: «تفضل، سيساعدك هذا».

شَرب إتزيو منه ثم امتعض وجهه، وسأله: «من أين لك هذا؟».

ردَّ ماريو وعلى وجهه ابتسامة عريضة: «إنه أفضل ما يمكنهم تقديمه في نزل الثعلب النائم. لكن ما إن نصل إلى مونترجيوني فستجد ما هو أفضل».

تبسم إتزيو وأرجع القنينة إلى عمه، ثم بدا الاضطراب على ملامحه.

سأله ماريو بنبرات ألطف: «ما الخطب؟».

أخرج إتزيو التفاحة بتأنٍّ من الجراب الذي يحفظها فيه. وقال: «هذه، ماذا أنا فاعل بها؟».

تجهَّم وجه ماريو واكتسى بالجدية، وقال: «إنها مسؤولية كبيرة، لكن عليك أنت وحدك حَملها على عاتقك».

- كيف يمكنني ذلك؟

- ما الذي يخبرك به قلبك؟

- يخبرني قلبي أن أتخلص منها، لكن عقلي...

قال ماريو برصانة: «لقد مَنحتك... إياها أيًّا ما تكُن القوى التي قابلتها في القبو السري. ولم يكونوا ليرجعوها إلى أيدي الفانين إن لم يوجد غرض مُعين منها».

قال إتزيو: «إنها في غاية الخطورة، إن وقعت في الأيادي الخاطئة مرة أخرى...». ثم راح ينظر نظرة تشاؤمية إلى النهر الكسول المتدفق بالقرب منه. وأخذ ماريو يراقبه في ترقب.

رفع إتزيو التفاحة في يده اليمني المغطاة بالقفاز محاولًا تقييم وزنها، لكن ما زال التردد يلازمه. أدرك إتزيو أنه ليس بمقدوره رمي

مثل هذا الكنز الثمين، كما أن كلام عمه قد أثَّر به. فبكل تأكيد لم تكن مينيرفا لتسمح له باستعادة التفاحة بلا سبب وجيه.

قال ماريو: «لا بدَّ أن يكون القرار قرارك وحدك، لكن إن شعرت بعدم الارتياح بسبب وجودها في حوزتك في الوقت الحالي، فأعطني *إياها* لأتعهد بحفظها. وتستطيع استعادتها عندما تهدأ بالًا».

لا يزال التردد متربصًا بإتزيو، لكن حينها سمعا من بعيد صوت حوافر تصم الآذان وعواء كلاب الصيد.

قال ماريو وهو يجز على أسنانه: «لا يستسلم أولئك الأوغاد بسهولة، هيَّا، أعطني إياها».

تنهد إتزيو، وأعاد التفاحة إلى جرابها الجلدي ورمى بها إلى ماريو، الذي أخفاها سريعًا في حقيبة سرجه.

قال ماريو: «والآن، علينا جعل هذين الفرسين العجوزين يقفزان إلى النهر والسباحة بهما إلى الجانب الآخر. فهذا سيضلل الكلاب اللعينة، وحتى إن كانت ذكية كفاية لعبور نهر التيبر بنفسها، فسنقدر على تضليلها في الغابة التي هناك. هيَّا فأنا أريد الوصول إلى مونترجيوني في هذا الوقت من الغد».

- ما توقعك لمدى صعوبة سيرنا بالخيل؟

لكز ماريو خاصرتَي جواده بكعبيه، فشَبَّ الحصان على قدميه الخلفيتين، وتجمع الزبد على جانبَي فمه، وقال: «بالغ الصعوبة، لأننا من الآن فصاعدًا لا نواجه رودريغو فحسب، بل ابنه وابنته معه، تشيزاري ولوكريتزيا».

- وما صفتهما...؟

- أخطر شخصَين قد تقابلهما على الأرجح.

4

بحلول ظهيرة اليوم التالي، ظهرت لهما بلدة مونترجيوني الصغيرة المسوَّرة على تلَّتها في الأفق، والتي تسيدها حصن ماريو. ووصلوا في وقتٍ أبكر عما توقعوا وأبطأوا من خطاهم رأفة بالحصانين.

استرسل إتزيو قائلًا: «... ثم أخبرتني مينيرفا عن الشمس. لقد حكت عن كارثة وقعت منذ زمن مضى، وتنبأت بأخرى ستقع...».

- لكن ليس قبل وقت بعيد في المستقبل، أليس كذلك؟ وبذلك لا يتعين علينا القلق حيال الأمر.

ردَّ إتزيو: «أجل، أتسأل كم من العمل علينا القيام به». وأطرق متفكرًا، ثم أردف: «ربما سينتهي الأمر عما قريب».

- هل سيكون الأمر بالغ السوء؟

كان إتزيو على وشك الرد عندما قاطعه صوت انفجار، كان صوت مدفع أطلق من ناحية المدينة. فاستل سيفه، ووقف على سرجه ليتفحص حواجز أسوار الحصن.

قال ماريو وهو يضحك ضحكةً خالصة من قلبه: «لا تقلق، إنها مجرد تدريبات. لقد حَدَّثْنا الترسانة هنا وركَّبنا مدفعًا جديدًا على طول الشرفات الدفاعية للحصن. ونعقد حلقات تدريب يومية».

- ما داموا لا يُصوبون نحونا.

كرر ماريو القول: «لا تقلق، صحيح أن الرجال لا يزالون يحتاجون إلى صقل مهاراتهم، لكنهم يتمتعون بقدر كافٍ من العقل يجعلهم لا يطلقون النار على رئيسهم!».

بعد فترةٍ قصيرة كانا يجتازان البوابة الرئيسية المفتوحة للبلدة متوجهَين ناحية الطريق العام الرئيسي المؤدي إلى القلعة. وبينما هما يعبران، تجمعت الحشود واصطفُّوا على جانبَي الطريق، متطلعين إلى إتزيو بمزيج من الاحترام والإعجاب والحب.

صاحت إحدى النساء قائلة: «مرحبًا بعودتك يا إتزيو!».

ردَّ إتزيو بابتسامة وهو يومئ برأسه قليلًا: «شكرًا لكِ سيدتي».

صدح صوت طفل يقول: «اهتفوا ثلاث مرات لإتزيو!».

ردَّ عليه إتزيو: «صباح الخير يا أخي الصغير». ثم استدار إلى ماريو وقال: «شعورٌ رائع أن يعود المرء إلى موطنه».

قال ماريو: «أظنهم أسعد برؤيتك مني»، بيدَ أنه كان يبتسم في أثناء حديثه، وفي الواقع معظم الهتاف، لا سيما هتاف أهل البلدة الأكبر سنًّا، اختُص هو به.

قال إتزيو: «أتطلع إلى رؤية مقر العائلة القديم مرة أخرى، لقد مرَّ وقت طويل».

- الحال كذلك حقًّا، وهنالك بضعة أشخاص يتطلعون لرؤيتك.
- مَن؟
- ألا تستطيع التخمين؟ يصعب أن تكون مشغولًا لهذا الحد بواجباتك مع الأخوية.
- بالطبع. تعني أمي وأختي. كيف حالهن؟

- حسنًا، حزنت أختك حزنًا شديدًا لموت زوجها، لكن الوقت يداوي معظم الأشياء، وأعتقد أنها أفضل حالًا بكثير الآن. وفي الواقع، ها هي.

سارا بحصانيهما إلى فناء مسكن ماريو المُحصَّن، وبينما ينزلان عن ظهر حصانيهما، ظهرت شقيقة إتزيو كلاوديا أعلى السلم الرخامي المؤدي إلى المدخل الرئيسي ثم نزلت الدَّرج مسرعة وارتمت بين ذراعي أخيها.

وصاحت بينما تحتضنه: «أخي! إن عودتك إلى الديار هي أفضل هدية عيد ميلاد قد أتمناها».

قال إتزيو ممسكًا بها عن قُرب: «عزيزتي كلاوديا، يا له من أمرٍ طيب أن يرجع المرء للديار، كيف حال أُمنا؟».

- بخير، الحمد للرب. إنها تتوق لرؤيتك، لقد كنا في حالة ترقُّب منذ أن أتتنا أخبار عودتك. فسيرتك تسبقك.

قال ماريو: «لندخل».

تابعت كلاوديا وهي تأخذ بذراعه وتصطحبه إلى أعلى السلم: «ثمة شخص آخر سيسعد لرؤيتك. كونتيسة فرولي».

قال إتزيو وهو يحاول إخفاء الحماس في صوته: «كاترينا؟ هل هي هنا؟».

- لم نعرف على وجه التحديد متى ستصل. فهي وأمنا بصحبة رئيسة الراهبات، سيكنَّ هنا عند مغيب الشمس.

قال ماريو بنبرة الخبير: «العمل أولًا، أنا أدعو لاجتماع مجلس الأخوية هنا الليلة. أعرف أن ماكيافيلي يريد بشدة الحديث معك».

سألت كلاوديا باهتمام: «هل انتهى الأمر، إذن؟ هل لاقَى الإسباني حتفه حقًّا؟».

تصلبت عينا إتزيو الرماديتان، وقال لها: «سأشرح لكِ كل شيء في الاجتماع هذا المساء».

ردَّت كلاوديا وكانت عيناها مضطربتين وهي تغادر: «حسنًا».

وقال إتزيو من ورائها: «ورجاءً، أبلغي تحياتي إلى الكونتيسة عند عودتها. سوف أراها الليلة هي وأمي. غير أن لديَّ عملًا أؤديه أولًا مع ماريو لا يمكن تأجيله».

وما إن صارا وحدهما، حتى اكتست نبرة ماريو بالجدية، وقال: «عليك أن تستعد جيدًا من أجل الليلة يا إتزيو. سيكون ماكيافيلي هنا عند مغيب الشمس وأعرف أن في جعبته الكثير من الأسئلة ليطرحها عليك. وسوف نناقش الأمور الآن، بعدها أنصحك بالاستراحة قليلًا، لا ضير إن تعرفت على البلدة من جديد».

***

بعد أن خاض إتزيو حديثًا عميقًا مع ماريو في مكتبه، سلك طريقه عائدًا إلى مونترجيوني. وما زال التساؤل حول نجاة البابا يُخيم بشدة على عقله وأراد أن يصرف ذهنه عنه. واقترح عليه ماريو أن يزور الخيَّاط ليطلب منه حياكة ملابس جديدة له ليستبدلها بملابسه التي اتسخت بغبار السفر، لذا اتجه إلى محل الخيَّاط حيث وجده يجلس على مقعده عاقدًا قدميه، ويحيك عباءة من البروكاد لونها أخضر زمردي طاغٍ.

أُعجب إتزيو بالخيَّاط، إذ كان رجلًا ودودًا وأصغر من إتزيو بقليل. حيَّا الخيَّاط إتزيو بحرارة.

وسأله: «أيُّ شرفٍ أدين لك به؟».

قال إتزيو بنبرة خالطتها مسحة من أسًى: «أظن أني أحتاج إلى ملابس جديدة. قل لي ما رأيك، وكُن صريحًا».

- حتى لو لم تكن صنعتي أن أبيعك الملابس يا سيدي، كنت سأسديك النصح بأن بزة جديدة ستكون أصلح شيء لك.

- هذا ظني أيضًا! حسنًا!

- سوف آخذ قياساتك الآن، ثم بعدها تختار الألوان التي تحبها.

ترك إتزيو نفسه لما يعرضه عليه الخيَّاط من خدمات واختار مخملًا رماديًّا قاتم اللون من أجل الصدرة، وسروالًا من الصوف باللون نفسه.

- هل يمكن أن يكون جاهزًا الليلة؟

ابتسم الخيَّاط، وقال: «ليس إن أردتني أن أُحسن حياكته لك يا سيدي. لكن يمكننا محاولة تجربة الملابس بحلول منتصف نهار الغد».

ردَّ إتزيو وهو يأمل أن الاجتماع الذي سيحضره هذا المساء لن ينجم عنه مغادرته الفورية لمونترجيوني قائلًا: «جيد».

وبينما يشقُّ طريقه في ميدان البلدة الرئيسي، لاحظ امرأة جذابة شقَّ عليها حمل صندوق من الورود الحمراء والصفراء بسبب وزنه الذي بدا واضحًا أنه ثقيل للغاية عليها حتى ترفعه. ولم يتجول الناس في هذه الأنحاء في هذا الوقت من اليوم، ولطالما تعذَّرت على إتزيو مقاومة شعوره عند رؤيته امرأة في محنة.

سألها وهو يتجه نحوها: «هل يمكنني مساعدتكِ؟».

تبسمت المرأة في وجهه، وقالت: «أجل، فأنت الرجل الذي أحتاج إليه. كان يفترض بالبستانيِّ العامل لديَّ أن يأتيني بهذه الأزهار، لكن زوجته مريضة وتعيَّن عليه الذهاب إلى المنزل. وبينما كنت أمرُّ من هذا

الطريق ظننت أنه يمكنني إحضارها معي، لكن الصندوق ثقيل جدًّا عليَّ. هل تظن أن بإمكانك...؟».

توقف إتزيو وقال: «بالطبع»، ورفع الصندوق على كتفيه. وأردف: «الكثير من الأزهار، أنتِ امرأة محظوظة».

- وزاد حظي أكثر الآن بمصادفتك.

لا شكَّ أنها كانت تغازله، فقال إتزيو: «كان بمقدوركِ أن تطلبي من زوجكِ، أو أحد خادميكِ الآخرين، إحضارها لكِ».

ردَّت المرأة: «لديَّ خادمة أخرى فقط، وليست بنصف قوتي. وبخصوص الزوج، فليس لديَّ زوج».

- فهمت.

قالت المرأة وهي تنظر إليه: «لقد طلبت هذه الأزهار من أجل عيد ميلاد كلاوديا أوديتوري».

- يبدو هذا ممتعًا.

توقفت لبرهة، وقالت: «سيكون كذلك، في الواقع إن أحببت تقديم مزيد من العون لي، فأنا أتطلع إلى لشخص ذي مكانة يصطحبني إلى الحفل».

- أتظنين أني أتمتع بالمكانة الكافية؟

تحلَّت بجرأة أكبر الآن، وقالت: «أجل! لا يوجد أحدٌ في البلدة بأكملها له مشية أبهى منك يا سيدي. أظن أن أخا كلاوديا، إتزيو بنفسه، سيُذهل».

تبسم إتزيو، وقال: «لقد أغدقتِ عليَّ بالثناء، لكن ما الذي تعرفينه عن إتزيو ذاك؟».

- كلاوديا، التي هي صديقة مقربة إليَّ، تحبه حبًّا جمًّا. إلا أنه قلَّما يزورها، والذي أستشِفُّه هو أنه في مكانٍ بعيد للغاية.

قرر إتزيو التصريح لها، فقال: «هذا حقيقي، للأسف، لقد كنتُ... في مكانٍ بعيد للغاية».

شهقت المرأة، وقالت: «أوه لا! *أنت* إتزيو! لا أصدق هذا. لقد قالت كلاوديا إن عودتك قريبة. ويُفترض أن الحفل مفاجأة لها. عدني ألا تقول لها شيئًا».

- من الأفضل إخباري مَن أنتِ الآن.

- أوه، بالطبع، أنا أنجلينا تشيريزا. والآن اقطع لي وعدًا.

- ما الذي ستفعلينه لإسكاتي؟

نظرت إليه بخبث، قائلة: «أوه، أنا متأكدة من أنه يمكنني التفكير في العديد من الأمور».

- أتشوق لمعرفة ما تلك الأمور.

في هذا الوقت، كانا قد وصلا إلى باب بيت أنجلينا. ففتحت مدبرة المنزل العجوز الباب لهما فوضع إتزيو صندوق الأزهار على مقعد حجري في الفناء. ثم توجه إلى أنجلينا وتبسم.

- الآن، هل ستخبرينني؟

- فيما بعد.

لمَ ليس الآن؟

- أطمئنك يا سيدي أن الأمر يستحق الانتظار.

ولم يدرك كلاهما أن الأحداث ستتغلب عليهما، ولن يتجدد لهما لقاء.

غادر إتزيو وهو يرى النهار ينزوي والظلام يُسدل أستاره، واتجه في سيره راجعًا نحو القلعة. بينما كان يقترب من إسطبلات الخيل لاحظ فتاة صغيرة تتجول في منتصف الشارع، وعلى ما يبدو كانت وحدها. كان على وشك التحدث إليها لما قاطعه صوت صراخ مُفزع وصوت

حوافر الأحصنة الذي يصم الآذان. وبأسرع ما يكون، شدَّ الطفلة بسرعةٍ خاطفة ونقلها إلى الأمان في أحد المداخل. وكان كذلك حاضرًا في اللحظة المناسبة، إذ عند الناصية عدا فرس حرب قوي بكل قوته وعليه سرجه الكامل لكنه بلا فارس. وجاء المسؤول عن إسطبلات ماريو على قدميه، وهو عجوز يسمى فيديريكو، والذي عرفه إتزيو.

هتف فيديريكو في يأسٍ من خلف الحصان الشارد: «عُد إلى هنا أيها الحصان اللعين!». ولما رأى إتزيو، قال: «هل يمكنك مساعدتي يا سيدي؟ إنه الجواد المفضل لعمك. لقد كنتُ على وشك فك سرجه والاعتناء به، غير أن شيئًا ما لا بدَّ أفزعه، فهو سريع الانفعال».

- لا تقلق، سأحاول إرجاعه من أجلك.

قال فيديريكو وهو يمسح عن جبينه: «شكرًا لك، شكرًا جزيلًا. أصبح التقدم في العمر يُعجزني عن القيام بمثل هذه الأمور».

- دع عنك القلق، انتظر هنا فحسب وراقِب هذه الطفلة، أظن أنها تائهة.

- بالتأكيد.

انطلق إتزيو خلف الحصان، الذي وجده دون أدنى صعوبة. وقد هدأ وراح يتغذى على بعض التبن المُحمل على عربة واقفة. قاوم الجواد قليلًا عندما اقترب منه إتزيو، لكنه تعرَّف عليه ولم يركض. وضع إتزيو يده الحانية على عنق الجواد وربَّت عليه مطمئنًا إياه قبل أن يأخذ بلجامه ويقوده عائدًا من الطريق الذي أتيا منه.

وفي طريقه تسنت له الفرصة حتى يصنع معروفًا آخر عندما لاقى امرأةً شابة يبدو عليها الفزع والقلق، والتي تبين أنها أم الطفلة التائهة. شرح لها إتزيو ما قد حدث، مراعيًا تخفيف وطأة الخطر الذي حدَّق بالفتاة. وبمجرد أن أخبرها بمكان الفتاة، راحت تركض سابقة إياه،

ونادت باسم الطفلة، «صوفيا! صوفيا!»، وسمع إتزيو صرخة مُجيبة تقول «ماما». وبعد لحظات انضم إتزيو إلى المجموعة الصغيرة وناول الرَّسَن لفيديريكو الذي جدد شكره له، ورجاه ألا يتفوه بشيء لماريو. فوعده إتزيو بألا يفعل وقاد فيديريكو الفرس ليرجعه إلى الإسطبلات.

كانت المرأة لا تزال تنتظر مع ابنتها فالتفت إتزيو إليهن وتعلو وجهه ابتسامة.

قالت الأم: «أرادتْ أن تشكرك».

قالت صوفيا بنبرة نابعة من حس الواجب وهي ترفع بصرها إليه بمزيج من الإعجاب والرهبة: «شكرًا لك».

قال إتزيو بنبرة عطوفة: «الزمي أمكِ في المستقبل. ولا تبتعدي عنها على هذا النحو، أفهمتِ؟».

أومأت البنت الصغيرة بالإيجاب في صمت.

قالت الأم: «كنا سنضيع من دون حمايتك أنت وعائلتك لنا يا سيدي».

قال إتزيو: «نفعل ما بوسعنا»، لكن اضطربت أفكاره وهو يدلف إلى القلعة. ورغم أنه تيقن من قدرته على الثبات على موقفه، لم يكن يتطلع إلى مقابلته مع ماكيافيلي.

***

كان لا يزال هنالك متسع من الوقت قبل الاجتماع، لذا لتجنب القلق حيال ما قد يؤول إليه، وبدافع الفضول الغريزي، تسلق إتزيو حواجز السور التي تعلو القلعة لإلقاء نظرة أقرب على المدفع الجديد الذي ركَّبه ماريو ويفتخر به للغاية. كان هنالك العديد منها، وصُنعت جميعها من البرونز المصبوب المنقوش نقشًا جميلًا، ومع كل واحد منها كومة من قذائف المدفعية الحديدية المُكدسة بترتيب إلى جانب عجلاته. كان أكبر

مدفع له أسطوانات بطول عشرة أقدام، وقد أخبره ماريو أن هذه تزن قدر 20000 رطل، لكن كذلك وُجِدت بينها مدافع نحاسية طويلة المدى أخف وأسهل في المناورة. وفي الأبراج التي تقطع الأسوار، نُصب مدفع صقر على حوامل من الحديد المصبوب، بالإضافة إلى مدافع صغيرة ثقيلة الوزن على عربات خشبية.

اقترب إتزيو من مجموعة من جنود المدفعية التفوا حول واحدٍ من أكبر المدافع. وقال: «وحوش جميلة»، وراح يُجري يده على الزخرفة المحفورة بوضوح حول فتحة الإشعال.

قال قائد المجموعة الحامل لرتبة رقيب أول والذي اتَّسم بملامح خشنة وتذكره إتزيو من زيارته الأولى إلى مونترجيوني في ريعان شبابه: «إنها كذلك بالتأكيد يا سيد إتزيو».

- سمعت في وقتٍ أبكر أنكم تتدربون، هل لي أن أطلق واحدًا من هذه؟

- يمكنك بكل تأكيد، لكننا كنا نطلق المدفع الأصغر قبل ذلك. وتلك الكبيرة، جديدة كليةً، ولا يبدو أننا نملك ما يلزم لتلقيمها بعد، ويبدو أن المسؤول الرئيسي عن تشغيل الأسلحة المفترض به تركيبها قد غادر.

- هل أرسلت مَن يبحث عنه؟

- بالتأكيد لقد فعلنا يا سيدي، لكن لم يحالفنا الحظ بعد.

- سألقي نظرة في الجوار كذلك، فقبل كل شيء، هذه الأشياء ليست هنا للزينة ولا تعلمون متى نحتاج إليها عما قريب.

انطلق إتزيو، وهو يتابع جولاته فوق حواجز الأسوار أعلى القلعة، ولم يبتعد أكثر من عشرين أو ثلاثين ياردة لما تناهى إلى مسامعه

صوت نخير عالٍ آتيًا من سقيفة خشبية نُصبت على قمة أحد الأبراج. وفي مكانٍ ما قريب بالخارج، وُضع صندوق أدوات، وبينما يقترب من صوت النخير تحول إلى صوت شخير.

كان الجوُّ داخل السقيفة مظلمًا وحارًّا، وفاحت منها رائحة عِفنة لخمر فاسد. ولما تكيفت عينا إتزيو مع الضوء المعتم، رأى في الحال هيئة رجل ضخم بأكمامه شديدة الاتساخ مُمددًا ذراعيه وقدميه على كومةٍ من القش. فركل الرجل برفق، لكن تأثيرها اقتصر على أن الرجل صدر منه بعض الهمهمات، وأزاحت عن عينيه النوم قليلًا، ثم استدار الرجل موجهًا وجهه إلى الحائط.

قال إتزيو وهو يعاود دفع الرجل بركلة أشد هذه المرة بمقدمة حذائه: «مرحبًا يا سيدي».

لف الرجل رأسه ثانيةً لينظر إليه وفَتَح عينيه، وقال: «ما الأمر يا صديقي؟».

- نريدك أن تُركب المدفع الجديد على الشرفات الدفاعية.

- ليس اليوم يا صديقي. غدًا أول شيء في الصباح.

- هل غيب الخمر عقلك لدرجة أنه يجعلك تتقاعس عن عملك؟ لا أظن أن القائد ماريو سيُسر كثيرًا إن عَلم بهذا.

- لا مزيد من العمل اليوم.

- لكن الوقت لم يتأخر كثيرًا، هل تعلم كم الوقت الآن؟

- لا، ولا أبالي حتى. فأنا أصنع المدافع، وليس الساعات.

قرفص إتزيو ليتكلم إلى الرجل، الذي بدوره استقام في وضعية الجلوس ونفخ في وجه إتزيو نفحة من نَفَسه، الذي فاحت منه رائحة لاذعة مُحملة برائحة الثوم وخمر مونتالتشينو الرخيص، وهو يتجشأ

بارتياحٍ كبير. فنهض إتزيو على قدميه. وقال: «نحتاج إلى تجهيز تلك المدافع من أجل إطلاقها، ونحتاج إليها جاهزة الآن، أتريدينني أن أجد شخصًا آخر أكثر كفاءة منك في القيام بذلك؟».

اندفع الرجل ناهضًا على قدميه، وقال: «لا تتعجل يا صديق، فلن يمس أحدٌ آخر مدافعي». ومال ناحية إتزيو بينما يستعيد أنفاسه، وأردف: «أنت لا تعرف كيف تسير الأمور، فبعض أولئك الجنود، لا يكنون أيَّ احترام لسلاح المدفعية. إنها أشياء حديثة العهد للكثير منهم بلا ريب، أوافقك الرأي، لكن كيف لهم القيام بذلك. فهم يتوقعون أن يعمل المدفع بمفعول السحر، هكذا فحسب! هم لا يفهمون طريقة عمل المدافع بنجاح».

سأله إتزيو: «أيمكننا التحدث بينما نسير؟ الوقت ينفد، كما تعلم».

استطرد المسؤول الرئيسي عن تشغيل الأسلحة: «أتعرف، تلك الأشياء التي نملكها هنا، إنها فريدة من نوعها. وهي الأفضل لدى القائد ماريو، غير أنها في غاية البساطة. ووقعت يديَّ على تصميمٍ فرنسي لمدفع محمول باليد. ويسمونه القاتل المصنوع من الحديد. إنه أمر شديد الذكاء. فكِّر في الأمر فحسب، مدفع محمول في اليد، هذا هو المستقبل يا صاح».

وبحلول هذا الوقت، كانوا يقتربون من المجموعة التي تلتف حول المدفع.

قال إتزيو بنبرةٍ مبتهجة: «يمكنك إلغاء مهمة الباحثين، فها هو ذا».

زرَّ الرقيب الأول عينيه وهو ينظر إلى مسؤول الأسلحة، وقال: «كفيل بها، أليس كذلك؟».

أجاب مسؤول الأسلحة بحدة: «قد أكون مرهقًا قليلًا، لكن في صميمي أنا رجلٌ مسالم. وفي تلك الأثناء، فإن تشجيع المحارب الكامن بين جنبيَّ

هي الطريقة الوحيدة للبقاء حيًّا. لذا فإنه من واجبي أن أحتسي الخمر». ودفع الرقيب جنبًا، وتابع: «لنرَ ما لدينا هنا...».

بعد فحص المدفع لعدة لحظات، استدار المسؤول الرئيسي عن الأسلحة بحدة نحو الجنود، وقال: «ما الذي كنتم تفعلونه؟ لقد كنتم تعبثون بها، أليس كذلك؟ حمدًا للرب أنكم لم تطلقوا واحدًا منها، كنتم ستردوننا جميعًا قتلى. إنها غير جاهزة بعد. عليَّ تنظيف الفتحات جيدًا أولًا».

قال له الرقيب: «ربما بوجودك في الأنحاء لا نحتاج إلى مدفع من الأساس، علينا جعلك تتنفس في وجه الأعداء فحسب!».

لكن انشغل مسؤول الأسلحة بعصا تنظيف وقطع من القطن الخشن المُزَيت. ولما انتهى، نهض وفَردَ ظهره. وقال: «إليكم، لقد انتهيت منه»، ثم التفت إلى إتزيو، وتابع: «ما عليك سوى جعل هؤلاء الرفاق يلقمونه، هذا شيءٌ يسهل عليهم فعله، رغم ذلك فالرب يعلم أن هذا استغرق منهم وقتًا طويلًا حتى يتعلموه، ثم يمكنك المحاولة. انظر إلى هناك عند التلة. لقد وضعنا بعض الأهداف على ارتفاع أفقي موازٍ لهذا المدفع. ابدأ بالتصويب على شيء ما على الارتفاع نفسه، بهذا الشكل، وإذا انفجر المدفع، على الأقل لن يقتلع رأسك معه».

قال إتزيو: «يبدو هذا مُطمئنًا».

- جرب الأمر وحسب يا سيدي. إليك الفتيل.

وضع إتزيو فتيل الإشعال البطيء في فتحة الإشعال. ولوهلة طالت قليلًا لم يحدث شيء، ثم قفز متراجعًا للخلف بينما يرتد المدفع للوراء ويصدر دويًّا. ولما نظر إلى الجانب المقابل على الأهداف، رأى قذيفته وهي تهشم واحدًا منها.

قال مسؤول الأسلحة: «أحسنت صنعًا. ممتاز! أخيرًا ثمة فرد آخر، غيري هنا، يعرف كيف يُصوب».

جعل إتزيو الرجال يلقمون المدفع مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يُصب.

قال مسؤول الأسلحة: «لا يمكنك إصابة جميعها. عُد عند الفجر، سنتدرب ثانيةً وسيمنحك هذا فرصة للتحسن».

قال إتزيو، ولم يدرك أنه عندما يطلق مدفعًا في المرة القادمة، سيكون بين الحياة والموت: «سأفعل».

5

عندما دلف إتزيو إلى القاعة الكبرى في قلعة ماريو، كان الليل يرمي بظلاله وشرع الخدم في إضاءة المشاعل والشموع لتبديد العتمة. العتمة التي ناسبت مزاج إتزيو الذي أخذ يزداد كآبة مع اقتراب ساعة الاجتماع.

ولما كان غارقًا في أفكاره لم يلحظ في البداية الشخص الذي راح يحوم قرب المدفأة، كانت هيئتها النحيلة لكن القوية في الوقت ذاته تضاءلت بفعل أعمدة الكارياتيد العملاقة التي أحاطت جانبَي المدفأة. لذا فقد جَفل لما اقتربت منه المرأة ولمست ذراعه. وما إن تعرف عليها، حتى لانت ملامحه وتهلل وجهه.

قالت المرأة بطريقةٍ ظن إتزيو أن فيها بعض الحياء المخالف لطبيعتها: «مساء الخير يا إتزيو».

ردَّ إتزيو: «مساء الخير كاترينا»، وانحنى لكونتيسة فرولي. أمست علاقتهما المُقربة السابقة شيئًا من الماضي، رغم أن كليهما لم ينسياها. ولما لمست ذراعه، ظن إتزيو، أن كليهما أحسا بالتناغم الذي يؤلف بينهما في تلك اللحظة. وقال إتزيو: «أخبرتني كلاوديا أنكِ كنتِ هنا، وكنتُ أتطلع إلى رؤيتكِ. لكن...»، تردد إتزيو، ثم قال: «إن مونترجيوني بعيدة عن فرولي، و...».

قالت وفي صوتها أثر من حدة نبرتها السابقة، رغم أنه رأى من ابتسامتها أنها لم تكن جادة تمامًا في كلامها: «لا تُمنِّ نفسك بأني

قطعت ذلك الطريق فقط لأجل أعينك». حينها أدرك أنه لا يزال منجذبًا لتلك المرأة المستقلة وشديدة الخطورة.

«أنا دائمًا في خدمتكِ يا سيدتي، بأيٍّ طريقة كانت». قالها بصدقٍ خالص.

ردَّت سريعًا قائلة: «إن بعض الطرق أصعب من الأخرى»، وهنا اكتسى صوتها بنبرة حادة.

- وما هي؟

تابعت كاترينا سفورزا: «ليس بالأمر اليسير، لقد جئتُ باحثةً عن التحالف».

- أخبريني بالمزيد.

قالت: «أخشى أن عملك لم ينتهِ بعد يا إتزيو، إن الجيوش البابوية تزحف نحو فرولي. ومُلكي صغير، ولحسن الحظ، أو لسوء حظي، يقع في منطقة تحظى بأكبر أهمية استراتيجية لأيٍّ مَن يكُن الشخص الذي يسيطر عليها».

- وترغبين في عوني؟

- إن قواتي وحدها ضعيفة، وسيكون جنودك المرتزقة إضافة كبيرة لقضيتي.

- إن هذا أمر عليَّ مناقشته مع ماريو.

- لن يرفض مد يد العون لي.

- ولا أنا.

- وبمد يد العون لي فلن تُسدي إليَّ معروفًا فحسب، بل ستجابه قوى الشر التي اتحدنا ضدها من قبل.

وبينما يتبادلان أطراف الحديث، ظهر ماريو، وقال وعلى وجهه جدية غير معهودة: «يا إتزيو، يا كونتيسة، لقد تجمعنا ونحن بانتظاركما».

قال لها إتزيو: «سنتحدث أكثر في هذا الأمر. فأنا مدعو إلى اجتماع يعقده عمي. ويفترض عليَّ أن أوضح موقفي، حسبما أظن. لكن لنرتب موعدًا لنلتقي بعد ذلك».

قالت كاترينا: «إن الاجتماع يقلقني كذلك، هلَّا دخلنا؟».

6

كانت غرفة الاجتماع مألوفة لإتزيو. وعلى حائطها الداخلي المكشوف في ذلك الوقت نُظمت أوراق المخطوطة العظمى بالترتيب. وأُخلي المكتب الذي غالبًا ما فرشته الخرائط، وحوله جلس أعضاء أخوية الحشاشين على كراسٍ خشبية قاتمة اللون مستقيمة الظهر، الذين تجمعوا في مونترجيوني، إلى جانب عائلة أوديتوري الذين كانوا على علم بغرض الاجتماع. جلس ماريو خلف مكتبه، وعند أحد الأطراف جلس الرجل الجاد ذو الملابس القاتمة، وكان لا يزال له مظهر الشباب، لكن طُبعت على جبهته تجاعيد عميقة من أثر التفكير، وقد غدا واحدًا من أقرب رفقاء إتزيو، إضافة إلى كونه واحدًا من منتقديه الدائمين: نيكولو ماكيافيلي. أومأ الرجلان بعضهما إلى بعض في احتراس بينما يُحيي إتزيو كلاوديا وأمه، ماريا أوديتوري، كبيرة الأسرة بعد وفاة والده. عانقت ماريا ابنها الوحيد المتبقي على قيد الحياة بشدة، كما لو أن حياتها كانت قائمة على ذاك العناق، وراحت تطالعه بعينين براقتين وهو ينفك من هذا العناق ويجلس إلى جانب كاترينا قبالة ماكيافيلي، الذي نهض حينها وأخذ ينظر إليه في تساؤل. وعلى ما يبدو لن تكون ثمة مقدمة مهذبة للموضوع محل النقاش.

بدأ ماكيافيلي الحديث: «أولًا، ربما أدين لك باعتذار. فلم أكن موجودًا في القبو السري واضطرني عملٌ طارئ للذهاب إلى فلورنسا قبل أن

تتسنى لي الفرصة لتحليل ما حدث هنالك على وجه الحقيقة. وقد قصَّ علينا ماريو روايته، غير أن روايتك وحدها هي الوحيدة الكاملة».

نهض إتزيو وتحدث مباشرةً وببساطة: «لقد دلفتُ إلى الفاتيكان، حيث لاقيت السيد رودريغو بورجيا، البابا ألكسندر السادس، وتواجهت معه. وكان بحوزته أحد قطع عدن، الصولجان، وقاتلني به. وتمكنتُ من غَلبته، ثم وصلت إلى القبو السري باستخدام القوتين المُجمعتين للتفاحة والصولجان، وتركته بالخارج. كان في حالة يأس وترجاني لأقتله. ولم أكن لأفعل هذا»، توقف إتزيو لوهلة.

ثم استحثه ماكيافيلي على مواصلة الكلام بينما يشاهد الآخرون في صمت: «وماذا بعد؟».

قال إتزيو: «حدث العديد من الأشياء الغريبة داخل القبو السري، أشياء لا نَحلم بها في عالمنا». وبدا إتزيو متأثرًا، فأجبر نفسه على مواصلة الحديث بنبرات تخلو من أيِّ تأثر: «تجلت لي رؤية الإلهة مينيرفا. وحدَّثت بمأساة رهيبة ستحل على البشر في وقتٍ ما في المستقبل، لكنها قد حكت كذلك عن المعابد المفقودة والتي، عند العثور عليها، ربما تساعدنا وتدلنا على سبيل من سُبل الخلاص. وبدا أنها تستحضر شبحًا، له صلةٌ وثيقة بي، لكنني لا أعرف ماهية هذا. وبعدما أملت عليَّ تحذيرها وتنبؤاتها، اختفت. وخرجت لأرى البابا في احتضاره، أو هذا ما بدا عليه الأمر، فقد بدا أنه تجرع السُّم. وبعدها شَدني شيءٌ ما للرجوع. وأخذت التفاحة، لكن الصولجان، الذي ربما كان قطعة أخرى من قطع عدن، قد ابتلعته الأرض. وأنا سعيدٌ بذلك، فالتفاحة وحدها، التي أعطيت ماريو إياها لتكون في حمايته، يزيد عبء مسؤوليتها عما أطيقه أنا شخصيًّا».

هتفت كاترينا: «مذهل!».

أضافت كلاوديا: «يستعصي عليَّ تخيل مثل هذه العجائب».

قال ماكيافيلي بنبرة فاترة: «إذن فالقبو السري لا يحوي السلاح المخيف الذي كنا نخشاه، أو على أيِّ حال، لم يقع في قبضة فرسان الهيكل. هذه على الأقل بشرى سارة».

سألت كلاوديا: «ما شأن هذه الإلهة، مينيرفا؟ هل تبدو... مثلنا؟».

أجاب إتزيو: «كان مظهرها بشريًّا، وكذلك فوق بشري. وأثبتت كلماتها أنها تنتمي إلى جنس أكبر وأعظم بكثير من جنسنا. وقد مات بقية جنسها منذ قرون خلت. وانتظرتْ تلك اللحظة من زمن بعيد. أتمنى لو تسعني الكلمات لوصف السحر الذي قامت به».

أضاف ماريو: «ما تلك المعابد التي تحدثتْ عنها؟».

- لا أدري.

- هل قالت إنه يجب علينا البحث عنها؟ كيف لنا أن نعرف ما ينبغي لنا البحث عنه؟

- ربما ينبغي لنا... ربما ستدلنا رحلة البحث.

قال ماكيافيلي بنبرة مباشرة سريعة: «لا بدَّ من القيام برحلة البحث، لكن لا بدَّ من تمهيد الطريق لها أولًا. حدثنا عن أمر البابا. أتقول إنه لم يمت؟».

- لما رجعت إلى القبو السري، كانت عباءته ملقاة على أرضية الكنيسة. لكن هو نفسه كان قد اختفى.

- هل قطع لك أيَّ عهود؟ هل أبدى توبته؟

- ولا أي منهما، لقد أصر على كسب القوة، ولما وجد أنه لن يحصل عليها، انهار.

- وتركته أنت ليموت.

- لم أكن لأدنس يدي بقتله.

- توجب عليك القيام بذلك.

- أنا لست هنا لأجادل في الماضي، أنا مُصرٌّ على موقفي. والآن، علينا مناقشة المستقبل. ما الذي يتعين علينا فعله.

قال ماكيافيلي بحدة: «الذي ينبغي لنا فعله هي الأمور الأكثر إلحاحًا الآن والتي نتجت عن فشلك في القضاء على قائد فرسان الهيكل لما تسنت لك الفرصة». ثم هدأ قليلًا وتابع: «حسنًا يا إتزيو. أنت تعلم مكانتك عندنا جميعًا. وما كنا لنصل إلى هذا الحد من دون تفانيك الذي دام لعشرين عامًا لأخوية الحشاشين ولعقيدتنا. جانب مني يُحيِّيك على امتناعك عن القتل لما رأيته غير ضروري. وهذا أيضًا يستوفي قانون الشرف الذي وضعناه. غير أنك قد أسأت تقدير الأمور يا صديقي، وهذا يعني أننا بصدد مهمة فورية وخطِرة»، ثم توقف عن الكلام وراح يتفحص الصُّحبة المجتمعة بدقة وعناية، وتابع: «يفيد جواسيسنا في روما أن رودريغو أصبح يمثل تهديدًا أقل حدة. فعلى الأقل كُسرت عزيمته. وثمة مثال يقول إنه يقل الخطر عند محاربة شبل الأسد عنه لما تحارب أسدًا عجوزًا يحتضر، لكن في حالة بورجيا فإن الحال مُعاكسة تمامًا. فابنه تشيزاري هو الرجل الذي يجب علينا تهيئة أنفسنا لمواجهته الآن. وبتسلحه بالثروة الكبيرة التي جمعها له آل بورجيا بطرق مشروعة أو غير مشروعة، لكن أغلبها غير مشروعة» -وهنا سمح ماكيافيلي لنفسه بابتسامة ساخرة- وأردف: «إنه يقود جيشًا جرارًا مؤلفًا من قوات عالية التدريب، ويريد السيطرة به على إيطاليا بأكملها، شبه الجزيرة بأكملها، ولا ينوي التوقف عند حدود مملكة نابولي».

صاح ماريو: «لن يجرؤ، لن يمكنه ذلك!».

ردَّ ماكيافيلي سريعًا بحدة: «سيفعل ويمكنه ذلك. إنه محض شرير، وفارس هيكلٍ مخلص شأنه شأن أبيه البابا طوال حياته، لكنه جنديٌّ

بارع رغم أنه عديم الرحمة. فهو لطالما أراد أن يغدو جنديًّا، حتى بعد أن توَّجه والده كاردينالًا على بلنسية عندما كان ابن السابعة عشرة. وكما نعلم جميعًا، فقد استقال من هذا المنصب، ما جعله أول كاردينال في تاريخ الكنيسة يُقدم على فعل ذلك. ويعامل آل بورجيا بلدنا والفاتيكان ويكأنهما إقطاعيتهم الخاصة. وتتمحور خطة تشيزاري الآن حول سحق الشمال أولًا، وإخضاع منطقة رومانيا[1] وعزل البندقية. كما يعتزم اقتلاع جميع مَن بقي منا نحن الحشاشين وتدميرنا، إذ يعرف أنه في نهاية المطاف أننا مَن نملك القدرة على إيقافه. «إما تشيزاري، أو لا شيء»، فهذا شعاره، «فإن لم تكن في صفِّي، فأنت ميت» وهل تعلم، أعتقد أن ذاك المخبول يظن هذا فعلًا».

قال إتزيو: «لقد أتى عمي على ذكر أختٍ له».

التفت إليه ماكيافيلي، وقال: «أجل، لوكريتزيا. إنها وتشيزاري... كيف ينبغي لي قول هذا؟ مقربان. إنها عائلة مترابطة للغاية، فعندما لا يقتلون الإخوة والأخوات والأزواج والزوجات الآخرين، الذين يجدونهم غير مناسبين لهم، فهم... يتزوجون بعضهم بعضًا».

لم تستطع ماريا أوديتوري كبح صرخة تنمُّ عن الاشمئزاز.

ختم ماكيافيلي حديثه قائلًا: «علينا التعامل معهم بكل سُبل الحيطة الممكنة التي نتخذها عند الاقتراب من جحر الثعابين السامة. ويعلم الرب في أيِّ موضع ووقت قريب سيسددون ضربتهم التالية». ثم توقف وشرب نصف كأس من النبيذ، ثم قال: «والآن يا ماريو، سأتركك. وأنت يا إتزيو، آمل أن يكون لنا لقاء قريب».

- هل ستغادر هذا المساء؟

---

(1) منطقة تاريخية وثقافية في شمال إيطاليا، وهي ضمن المنطقة الأكبر إيميليا-رومانيا. وتختلف عن البلد رومانيا. (المترجمة)

- الوقت ضيق يا ماريو العزيز. أنا سالك طريقي إلى روما الليلة. وداعًا.

عمَّ الصمت أرجاء الغرفة بمجرد أن غادر ماكيافيلي. وبعد سكوتٍ طويل، قال إتزيو بمرارة: «إنه يلومني على عدم قتل رودريغو عندما تسنَّت لي الفرصة»، وراح ينظر إليهم جميعًا، وأردف: «إنكم جميعًا تلومونني».

قالت أمه: «ربما يُقدِم أيٌّ منا على اتخاذ القرار نفسه. لقد كنت متأكدًا من أنه يحتضر».

جاء ماريو ووضع ذراعه حول كتفَي إتزيو، وقال: «إن ماكيافيلي يعرف قيمتك، إننا جميعًا كذلك. وحتى لو لم يكن البابا في طريقنا، فلا يزال علينا التعامل مع سلالته».

- لكن لو قطعت الرأس، هل كان سينجو الجسد؟

ربَّت ماريو على ظهره، وقال: «علينا التعامل مع الوضع كما هو، يا إتزيو الطيب، وليس مع فرضية ما كان يجب أن يكون. والآن، بما أنه لدينا يوم حافل غدًا، أقترح أن نتناول العشاء ونستعد للنوم مبكرًا!».

التقت عينا كاترينا بعينَي إتزيو. هل هيأ له خياله هذا، أو أكان هنالك بريق رغبة بهما؟ اعتراه شعور داخلي بعدم الاكتراث، ربما كان هذا من وحي خياله.

7

تناول إتزيو القليل من الطعام، فقط الدجاج المحشوّ مع الخضراوات المطهوة في الفرن، وشرب نبيذ كِيانتي المخفف بالماء. لم يجرِ الكثير من الحديث على طاولة العشاء، وأجاب عن أسئلة أمه بأدب لكن باقتضاب. وبعد كل التوتر الذي ازداد في أثناء ترقب الاجتماع، والذي زال في هذه اللحظة، كان متعبًا للغاية. إذ لم تسنح له الفرصة الكاملة بأن يستريح منذ أن غادر روما، واتضح الآن كأن الوقت سيطول أكثر قبل أن يُدرك طموحه المأمول بقضاء بعض الوقت في منزله القديم في فلورنسا والقراءة والتمشي عند التلال الجميلة المحيطة.

ولما أتيحت له الفرصة المواتية، اعتذر إتزيو للرفقة وغادر نحو غرفة نومه، والتي كانت مكانًا كبيرًا هادئًا معتم الإضاءة تقع في الطوابق العليا ولها إطلالة على الريف بدلًا من البلدة. وما إن وصل إلى الغرفة، حتى صرف الخادم وخلع عنه الفولاذ الذي دعم جسده طوال النهار، فارتخى جسده وتدلَّت كتفاه وهدأت مشيته. كانت حركته بطيئة ومتأنية. ومشى إلى الطرف الآخر من الغرفة إلى حيث ملأ الخادم له حوض الاستحمام. وبينما يقترب منه، خلع حذاءه وملابسه، وحالما أصبح عاريًا، وقف للحظة وهو يمسك بملابسه في يده أمام المرآة التي بطول الجسم على قائم بالقرب من الحوض النحاسي. أخذ يتطلع إلى انعكاسه بعينين متعبتين. وتساءل أين فنيتُ الأربعة عقود الطويلة الأخيرة؟ اعتدل في

وقفته. لقد أصبح أكبر في العمر وحتى أقوى في البدن، وبلا شك أكثر حكمة، لكنه لم يقوَ على إنكار التعب الذي يشعر به.

رمى إتزيو بملابسه على السرير، والذي وُضعت تحته أسلحة أوراق المخطوطة السرية التي صممها له ليوناردو دافنشي في صندوقٍ من خشب الدردار. وكان سيتفحصها أول شيء في الصباح، بعد مجلس الحرب الذي من المفترض أن يعقده مع عمه. أما النصل الخفي فلم يفارقه أبدًا إلا عندما يخلع عنه ملابسه، وحتى في هذه الحالة يبقيه في متناول يده. فهو يرتديه دومًا، لدرجةٍ جعلته كأنه قطعة من جسده.

تنفس إتزيو الصعداء، ودخل إلى الحوض وانغمس حتى رقبته في الماء الساخن مستنشقًا برفق البخار المُعطر، وأغمض عينيه وأطلق تنهيدة ارتياح طويلة متأنية. حلَّ السلام أخيرًا. كان عليه الاستمتاع بالساعات القصيرة القليلة التي يهنأ فيها بالسلام.

وما لبث أن غفا وراح يحلم إلى أن أيقظه الصوت الخفيت لانفتاح الباب وانغلاقه خلف المنسوجة الثقيلة المُعلقة. فانتبه إتزيو من فوره، كحيوان جامح. وراحت يده تبحث عن النصل في صمت، وبحركة متمرسة ألصقه بمعصمه. ثم بحركةٍ سلسة واحدة، استدار ووقف منتصبًا في الحوض، واتخذ وضع الاستعداد وهو ينظر باتجاه الباب.

قالت كاترينا وهي تبتسم بينما تقترب منه: «حسنًا، أنت على الأرجح لم تفقد أيًّا من طولك مع مرور السنين».

ابتسم إتزيو، وقال: «أنتِ تتمتعين بميزة عني أيتها الكونتيسة، فأنتِ مرتدية كامل ملابسكِ».

- أعتقد أنه يمكننا القيام بشيء لتغيير هذا. لكنِّي أنتظر.

- تنتظرين ماذا؟

قالت: «أنتظرك لتقول إنك لا تحتاج حقًّا إلى النظر بنفسك. أنتظرك لتقول إنك متأكد بأن الطبيعة الأم كانت حانية، إن لم تكن أكثر حنوًّا عليَّ، كما كانت عليك». واتسعت ابتسامتها من حيرة إتزيو، وتابعت: «لكني أتذكر أنك لم تُجد الإطراء أبدًا مثل إجادتك تخليص العالم من فرسان الهيكل».

- تعالي إلى هنا!

- دلِّلني، ودلِّل نفسك.

تبسم إتزيو، فهذا كان أفضل من النوم. فالنوم يمكنه الانتظار.

وجد إتزيو أنه تعين عليه تأخير النوم لثلاث ساعات، وخلاله تكورت كاترينا بين ذراعيه. ثم غفت قبله وراح يراقبها لفترةٍ من الوقت. لقد كانت الطبيعة أكثر حنوًّا عليها بالتأكيد. فجسدها النحيف جميل الحنايا في الوقت ذاته، ذو الخاصرتين الممشوقتين والكتفين العريضتين، كان لا يزال جسم فتاة في العشرين من عمرها، وقد فاحت من كتلة شعرها الأحمر الفاتح الرقيق الذي يدغدغ صدره بينما تضع رأسها عليه الرائحة نفسها التي جذبته طوال تلك السنوات الماضية. ولمرة أو مرتين في قلب الليل، استفاق ليجد أنه تقلَّب مبتعدًا عنها، ولما ضمها إلى ذراعيه ثانيةً، استكانت إليه دون أن تستفيق، متنهدةً تنهيدة ابتهاج ومطبقة يدها على ساعده. تساءل إتزيو فيما بعد عما إذا كانت هذه أفضل ليلة حميمية قضاها في حياته.

وبلا شك استغرقا في النوم، لكن إتزيو ما كان ليستغني عن جولةٍ أخرى لصالح التدريب على المدفع، رغم تأنيب جانب من عقله له على هذا. وفي الخلفية، استطاع من بعيد سماع أصوات سير رجال يرتدون دروعهم ويتحركون بخطى سريعة، وأوامر يُصرخ بها يتبعها دَويُّ المدفع.

قال إتزيو عندما توقفت كاترينا للحظة ونظرت إليه متساءلةً: «التدريب على إصابة الهدف بالمدفع الجديد. إنهم ينفذون مناورات، ماريو صارم جدًّا في عمله».

حجبت ستائر البروكاد الثقيلة المنسدلة على النوافذ معظم الضوء، فظلت الغرفة تلفُّها العتمة المريحة، ولم يأتِ أحد من الخدم لإزعاجهما، وخلوَا بعضهما ببعض بعد غياب.

وعلى حين غرة، انهار سلام الغرفة وهدوؤها. وتحطمت النوافذ من جراء دَويٍّ عالٍ، وأخذت معها جانبًا من الحائط الحجري الخارجي، حيث اخترقت قذيفة المدفع العملاقة الغرفة واستقرت بحرارتها الشديدة على بُعد عدة أشبار من السرير. فارتخت الأرضية تحت وزنها.

رمى إتزيو بنفسه تلقائيًّا فوق كاترينا ليحميها عند العلامة الأولى للخطر، وفي تلك اللحظة حوَّل الحبيبان نفسيهما إلى محترفين وزميلين، فلو تعيَّن عليهما أن يبقيا حبيبين، فعليهما أولًا أن ينجوا بحياتيهما.

قفزا من على سريريهما، وارتديا ملابسهما سريعًا. ولاحظ إتزيو أنه بخلاف قنينة الزيت الزاكية، وضعت كاترينا خنجرًا مُسنن الحافة تحت تنورتها.

هتف إتزيو: «ما الذي يجري بحق الجحيم...؟».

ردَّت كاترينا سريعًا: «اذهب واعثر على ماريو».

طاحت قذيفةٌ أخرى، وهشمت العوارض الخشبية الموجودة فوق سريريهما الذي أُخلي للتو وحطمته وجعلته قطعًا متناثرة.

قالت كاترينا: «إن قواتي موجودة في الساحة الرئيسية. سأجدها وألتف حول ظهر القلعة لمعرفة إذا كان بإمكاننا التغلب عليهم. أخبر ماريو أن هذا ما قررته».

قال إتزيو: «شكرًا لكِ، ابقَي بمنأى عن الأنظار».

قالت كاترينا وهي تضحك: «أتمنى لو أني أملك الوقت حتى أبدل ملابسي. من الأفضل في المرة القادمة أن نحجز في فندق، أليس كذلك؟».

ردَّ إتزيو وهو يضحك أيضًا لكنها ضحكة خالطها التوتر بينما يثبت سيفه بالحزام: «لنتأكد تمام التأكد من وجود مرةٍ قادمة».

هتفت كاترينا: «بالتأكيد! وداعًا»، وذهبت مسرعة من الحجرة دون أن تغفل عن إرسال قبلة له في الهواء.

نظر إلى حُطام السرير. فوجد أن أسلحة المخطوطة، النصل المزدوج والنصل السام والمسدس، دُفنت تحته وبكل الاحتمالات دُمرت. على الأقل كان بحوزته نصله الخفي. فحتى في أحلك الظروف لن ينسى هذا، الإرث الأخير لأبيه القتيل.

8

لم يكن لدى إتزيو أدنى فكرة عن الوقت، إلا أنه عرف بخبرته أن الهجمات تبدأ غالبًا عند مطلع الفجر، عندما كان الضحايا لا يزالون حائرين ويمسحون النوم عن أعينهم. لقد كان محظوظًا أن تدريبه منحه يقظة قطٍّ بري ورشاقته، رغم أنه على مشارف الأربعين من عمره.

وبمجرد أن وصل إلى الخارج واقفًا على الشرفات الدفاعية، تفحَّص المشهد المحيط. كانت البلدة من تحته تأكلها النيران في العديد من الأحياء. ورأى محل الخياط يحترق، ومنزل أنجلينا كذلك. ولن تُعقد حفلة عيد ميلاد لكلاوديا المسكينة الليلة.

خفض رأسه بينما ترتطم قذيفة أخرى بحواجز الأسوار. حبًّا بالرب، ما تلك المدافع التي يستخدمها مهاجموهم؟ كيف يمكنهم إعادة التلقيم والإطلاق بهذه السرعة؟ ومَن كان وراء هذا؟

واستطاع من خلال الدخان والغبار رؤية ماريو، وهو يتفادى حجارة الأبنية المتداعية بينما يأتي باتجاهه. قفز إتزيو عن حواجز السور، وهبط جاثمًا بالقرب من ماريو، وجرى حتى يلحق به.

- عمي! ما هذا بحق الجحيم...؟

بصق ماريو، وقال: «لقد باغتونا. إنهم آل بورجيا!».

- تبًّا!

- لقد قللنا من شأن تشيزاري. لا بدَّ أنهم احتشدوا شرقًا خلال الليل.

- ما الذي علينا فِعله؟

- الشيء الأهم هو إخلاء جميع أهل البلدة، أولئك الذين لم يقتلوا بعد. علينا دحرهم إلى أن نقوم بذلك. فلو استولوا على المدينة والناس بداخلها، فسيقتلونهم جميعًا: فكل مَن في مونترجيوني إما حشاش أو من مساعدي الحشاشين في نظرهم.

- أنا أعرف طريق الخروج، دع الأمر لي.

قال ماريو: «رجل صالح. سأجمع مدافعينا وسنحشد لهم كل ما أوتينا من قوة». أطرق لبرهة، ثم تابع: «انظر، لنواجههم أولًا. اذهب أنت ومُرْ بإطلاق المدافع الموضوعة على حواجز الأسوار».

- وأنت؟

- سأقود هجمةً مباشِرة على جبهتهم. سآخذ المعركة إلى الأوغاد.

- ستحاول كاترينا الالتفاف بقواتها حول الجناح.

- جيد، إذن نملك فرصة النجاح. والآن أسرع!

- انتظر!

- ما الأمر؟

خفض إتزيو صوته، وسأله: «أين التفاحة؟»، ولم يخبر عمه أن أسلحة المخطوطة تدمرت برشقة مدفعية من أول الرشقات التي انهالت عليهم. ودعا من كل قلبه بأن يتقاطع طريقه مع ليوناردو ثانيةً بمعجزةٍ ما، لأنه لم يشك بأن سيد كل الفنون والعلوم سيقدم له العون لإعادة صنعها، حال تطلب الأمر ذلك. في الوقت الحالي، لا يزال بحوزته النصل الخفي، وكان محترفًا متمرسًا في استخدام الأسلحة التقليدية.

طمأنه ماريو قائلًا: «التفاحة بأمان. والآن اذهب، وإذا رأيت آل بورجيا يُظهرون أدنى فرصة لاختراق الأسوار، حَول انتباهك إلى إخلاء البلدة. أفهمت؟».

- أجل يا عمي.

وضع ماريو يديه على كتفَي إتزيو ونظر إليه في أسًى لمدة طويلة، وقال: «إننا لا نملك من أمر مصيرنا إلا شيئًا يسيرًا. شيء محدد فحسب هو الذي في أيدينا. لكن لا تنسَ، لا تنسَ *مطلقًا* يا ابن أخي، أنه أيًّا كان ما يحدث لك أو لي هذا اليوم، فلا يفقد عصفور ريشةً منه قط، إلا وقد أزالتها يد الرب».

- أفهم هذا أيها القائد.

ساد الصمت لحظة قصيرة بينهما، ثم مَدَّ ماريو يده.

- معًا من أجل النصر!

لفَّ إتزيو يده حول يد عمه وشدَّ عليها بحرارة، وقال: «معًا!».

وبينما يلتف ماريو للذهاب، قال إتزيو: «احترس أيها القائد».

أومأ ماريو في أسًى، وقال: «سأبذل ما في وسعي. وأنت خذ أفضل حصان لي واذهب إلى الأسوار الخارجية بأسرع ما تستطيع». واستلَّ سيفه وبصيحة الحرب العظيمة التي أطلقها لتجميع رجاله، انطلق باتجاه العدو.

شاهده إتزيو لفترةٍ وجيزة، ثم انطلق باتجاه الإسطبل حيث كان ينتظر السائس العجوز الذي أنقذ حصانه الشارد في اليوم السابق. كان الحصان الكستنائي الضخم مُسرجًا وجاهزًا.

قال العجوز: «لقد أرسل السيد ماريو بالأوامر بالفعل، ربما لا أكون في ريعان شبابي، لكن لا يمكن لأحد أن يتهمني بعدم الكفاءة. لكن احذر، هذا الفرس مفعم بالحيوية!».

- لقد أحكمتُ السيطرة عليه بالأمس، وسيعرفني اليوم.

- صحيح جدًّا. حظ سعيد. إننا جميعًا نعوِّل عليك.

اعتلى إتزيو السرج وحث الفرس المتحمس على الانطلاق باتجاه الأسوار الخارجية.

وانطلق عبر البلدة المنكوبة. وجد الخياط ميتًا ومُثل بجسده أمام متجره، أيُّ أذى قد اقترفه بحق أي أحد؟ وكانت أنجلينا تنوح أمام منزلها المحترق، ما الجدوى من عدم إظهار الشفقة لها؟

الحرب، كان هذا كل ما في الأمر. وحشية وقاسية. شرسة وطفولية. شعر إتزيو بالغثيان منها.

الحرية والرحمة والحب، تلك هي الأمور المستحقة للقتال والقتل من أجلها، وكانت هي العناصر الأساسية لعقيدة الحشاشين. للأخوية.

وبينما يسلك إتزيو طريقه، صادف مشاهد دمار مريعة. لقد انتشر الخراب والفوضى من حوله في كل جانب بينما يحمله فرسه بين جنبات البلدة المحترقة.

صرخت أمٌّ شابة بينما يمر بها بلا حولٍ منه ولا قوة: «أطفالي! أين أطفالي؟!».

صدح صوت رجل يقول: «احزمي ما تستطيعين من الأغراض ولنخرج من هنا».

صرخ أحد أهل البلدة: «تبًّا، قدمي! لقد أصيبت قدمي بطلقٍ ناري!».

صرخ العديد من الأشخاص وهم يهرعون في الأرجاء في فزع: «كيف يمكننا الهرب؟».

ودَوَّى صوت طفل صغير: «لا أستطيع العثور على أمي! ماما! ماما!».

كان على إتزيو التحلي بالبأس الشديد. فلا يمكنه الانصراف إلى إنقاذ الأفراد، إذ لا يوجد وقت لذلك، لكن إن استطاع تنظيم الدفاع جيدًا، فسيُنقذ المزيد من الناس بدلًا من خسارة أرواحهم.

صرخت فتاة مراهقة لما أجبروها على الركوع وقد حملتها قوات آل بورجيا: «النجدة! النجدة!».

واصل إتزيو سيره في أسًى. وتساءل مَن يكون تشيزاري بورجيا هذا عديم الرحمة؟ أيمكنه أن يكون أسوأ من البابا؟ هل يمكن أن يكون هنالك فارس هيكل أَشر منه؟

وراح صوت رجل يخور في يأس قائلًا: «ماء! ماء! أحضِروا الماء! كل شيء يحترق!».

صاح صوت امرأة تقول: «أين أنت، رجاء يا إلهي؟ أين أنت يا مارسيلو؟».

تابع إتزيو سيره، معقود اللسان، لكن صرخات النجدة لا تزال تتردد في أذنيه: «كيف يمكننا الخروج من هنا؟».

كانت الأصوات تعلو على أصوات القصف: «اهربوا! اهربوا!» وتعالت أصوات صرخات وشهقات بكاء، والتماسات بائسة تطلب النجدة، تستجدي سبيلًا للخروج من البلدة المطوقة بينما تواصل قوات آل بورجيا عديمة الرحمة إطلاق الرشقة تلو الأخرى.

قال إتزيو في نفسه: *رجاءً يا إلهي لا تجعلهم يخترقون الأسوار قبل أن تعمل مدافعنا.* ورغم أنه سمع دَويَّ الانفجارات ومدافع صقر

والمدافع الصغيرة تطلق النيران سريعًا على المهاجمين، فلم يسمع بعدُ دَويَّ المدافع الكبيرة التي صادفها في اليوم السابق، المدفع الوحيد الذي ربما يقدر على تحطيم أبراج الحصار الخشبية الضخمة التي أخذت تُدحرجها قوات آل بورجيا باتجاه أسوار المدينة.

حثَّ إتزيو الفرس على السير إلى أعلى المنحدر الموصل إلى الأسوار وقفز عن الفرس بينما يصل إلى الموضع الذي رأى فيه المسؤول الرئيسي عن تشغيل الأسلحة المخمور آخر مرة إلى جانب المدفع الذي بطول عشرة أقدام. كان في كامل وعيه الآن ويرشد جنود المدفعية لاستخدام المدفع لضرب البرج الذي كان يدفعه مهاجموهم البارعون ببطء لكن بكل تأكيد باتجاه الشرفات الدفاعية. ورأى إتزيو أن قمته تناسبت مع ارتفاع الفتحات أعلى الأسوار.

تمتم: «الأوغاد». لكن كيف يمكن لأي أحد توقُّع السرعة والدقة البالغة للهجمة؟ حتى إتزيو تحتم عليه الاعتراف لنفسه بهذا الأمر.

صرخ الرقيب الأول الأشيب الذي تولى مسؤولية المدفع الكبير الأول قائلًا: «أطلِقوا النيران». دَوَّى المدفع الكبير وارتد للخلف، لكن ابتعدت القذيفة بعض الشيء وأصابت قطعةً خشبية صغيرة فحسب تناثرت من جانب سقف برج الحصار.

صرخ الرقيب قائلًا: «حاولوا إصابة الأبراج اللعينة أيها الأغبياء!».

- نحتاج إلى المزيد من الذخيرة!

- إذن انزلوا إلى المخازن وأسرعوا! انظروا! إنهم يقتحمون البوابة!

وبينما يدوي المدفع الآخر ويُطلق قذائفه سريعًا. سُرَّ إتزيو لرؤية جمع من المهاجمين يُسحق متحولًا إلى بحر من الدماء والعظام.

صرخ الرقيب: «أعيدوا التلقيم. وأطلقوا مجددًا عندما أطلب منكم!».

أصدر إتزيو أوامره قائلًا: «انتظروا حتى يقترب البرج، ثم صوبوا على قاعدته. فإن هذا سيحطمه كليةً. ويمكن للرماة القضاء على أيٍّ ناجين».

- عُلم يا سيدي.

صعد مسؤول الأسلحة، وقال لإتزيو: «أنت تتعلم التكتيكات سريعًا».

- إنها الغريزة.

ردَّ مسؤول الأسلحة: «الغريزة النافعة تُعادل مئة رجل في الميدان. لكنك فَوتَّ تدريبات التصويب على الأهداف هذا الصباح. ولا يُقبل عذرٌ عن ذلك».

سأله إتزيو: «وماذا عنك؟».

ضحك مسؤول الأسلحة، وقال: «هيًا، لدينا مدفع آخر مثل هذه يغطي الجناح الأيسر، وقائد طاقم المدفعية الخاص به قُتل، أصابه سهم من قوس الرمي في جبهته. فمات قبل أن يصطدم بالأرض. أنت تولَّ مكانه. لديَّ عمل مختص به وهو التأكد من عدم سخونة أيٍّ من المدافع أو تصدُّعها».

- حسنًا.

- لكن احذر عند التصويب، فقوات حبيبتك هنالك تقاتل قوات آل بورجيا. ولا نريد إسقاط أيٍّ منها.

- أيُّ حبيبة؟

غَمز مسؤول الأسلحة، وقال: «أسدِ إليَّ معروفًا يا إتزيو. هذه بلدة صغيرة للغاية».

سلك إتزيو طريقه إلى المدفع الثاني الكبير. كان هنالك جندي مدفعية يمسحه بالإسفنجة ليبرده بعد الإطلاق بينما راح جندي آخر

يُلقم فوهته بالبارود المضغوط وقذيفة حديدية بوزن 50 رطلًا. وأعدَّ رجل ثالث الفتيل وأشعله من كلا الطرفين حتى لا يحدث تأخر إذا احترق أحد الطرفين صدفة عند لحظة الإطلاق.

قال إتزيو وهو يصعد: «لنذهب».

- سيدي!

تفحَّص الميدان خلف السور، فوجد العُشب الأخضر مخضبًا بالدماء، والقتلى ساقطين متناثرين بين حزم القمح. ورأى الأزياء السوداء والزرقاء لرجال كاترينا متداخلة مع الملابس التوتية والصفراء لقوات آل بورجيا.

قال إتزيو بحدة: «اجلب واحدًا من المدافع الصغيرة لإسقاط أولئك الأفراد. أخبرهم بأن يصوبوا على الأسود والذهبي. ولنوجه هذا المدفع على برج الحصار هنالك. إنه يقترب جدًّا ليُسهل علينا الأمر، ونحتاج إلى إسقاطه».

رفع جنود المدفعية المدفع في شكلٍ دائري وخفضوا الأسطوانة حتى وُجهت إلى قاعدة البرج المقترب، والذي لم يكن يبعد عن الأسوار بأكثر من خمسين ياردة حينها.

انشغل إتزيو بتوجيه هدفه حينما ضُرب مدفع صقر بالقرب منه. فانفجر وجعل البرونز الشديد السخونة يتطاير في كل اتجاه. وشُقَّ رأس وكتفَا جندي المدفعية العامل تحت إمرة إتزيو بفعل الشظايا، والذي بَعُدَ عنه قدر عدة أشبار. سقطت ذراعا الرجل على الأرض ثم تبعتهما أشلاء جسده، والدم يتدفق منها مثل النافورة. وملأت الرائحة اللاذعة للحم المحترق أنف إتزيو وهو يقفز ليحل محل جندي المدفعية.

هتف لبقية المجموعة: «حافِظوا على رباطة جأشكم». وزرَّ عينيه ناظرًا من عين التصويب في المدفع. وقال: «تجهزوا الآن... و... أطلقوا النيران!».

دَوَّى المدفع بينما يقفز إتزيو جانبًا وراقب القذيفة وهي ترتطم بقاعدة البرج. هل كانت تلك الضربة كافية؟ ترنح البرج ترنحًا شديدًا، وبدا أنه سيثبت ولن يقع، ثم يا إلهي! تحطم وسقط أرضًا، كأنه يتحرك بالحركة البطيئة، وأطاح ببعض الرجال ممن كانوا فيه في حين سَحق الآخرين. وزادت صرخات البغال الجريحة التي كانت تجرُّ البرج من فوضى وتضارب أصوات الفزع والموت، الحاضرين في كل المعارك. راقب إتزيو المشهد حيث تقدمت قوات كاترينا بسرعة من أجل القضاء على الجرحى والمصدومين من الناجين من قوات آل بورجيا. كانت هي بنفسها في الطليعة، وراح يلمع درع الصدر الذي كانت ترتديه تحت ضوء الشمس البارد. ورآها إتزيو تغرز سيفها مباشرةً في العين اليمنى لأحد قادة قوات آل بورجيا، مخترقًا دماغه. وراح جسد الجندي يتلوى في سكرة الموت للحظة طالت، وجعلته سنُّ السيف يدور حول نفسه، حاولت يدا الجندي في يأس أن تمسك بإحكام بالنصل المُثبت وسحبه للخارج.

ولم يتسع الوقت للاحتفاء بنصرهم أو الاكتفاء بما حققوه رغم هذا. ولما نظر إتزيو إلى أسفل حواجز الأسوار، رأى قوات آل بورجيا وهي تجلب الكِباش المعدنية الكبيرة إلى البوابة الرئيسية، وفي الوقت نفسه سمع الصرخة التحذيرية الصادرة من كاترينا. وقال إتزيو في نفسه: *سوف نرسل ألف رجل إلى فورلي لمساعدتها في دحر تشيزاري هذا الوغد.*

قال أحد الأصوات إلى جانب كتفه: «إذا دخلوا، فسيقتلوننا جميعًا». استدار إتزيو ليرى الرقيب الأول المُسن. وقد فقد خوذته وأصيب رأسه بجرحٍ غائر يسيل منه الدم.

- علينا إخراج الناس. الآن.

- لقد استطاع بعضهم الخروج بالفعل، لكن أولئك الذين لم يستطيعوا الخروج بأنفسهم لا يزالون عالقين.

قال إتزيو مستذكرًا تحذير ماريو: «سأتعامل مع الأمر. وأنت تولَّ زمام الأمور هنا يا روچيرو. انتبه! هناك! لقد أحضروا برجًا بالقرب تمامًا من حواجز الأسوار! ورجالهم يقتحمون السور! ضع المزيد من رجالنا هناك قبل أن يفوقونا عددًا».

«عُلم!». واختفى الرقيب الأول وهو يصرخ بالأوامر على مشرف فصيل عسكري تجمع سريعًا عند طلبه والذي اشتبكِ خلال دقائق في قتال عن قُرب مع مرتزقة آل بورجيا الوحشية.

سلك إتزيو طريقه إلى البلدة، مستلًّا سيفه في يده شاقًّا طريقه باتجاه قوات العدو القادمة. وسريعًا نَظم مجموعة من رجال كاترينا الذين أجبروا على التراجع إلى البلدة عند انقلاب مسار المعركة مرة أخرى لصالح قوات آل بورجيا، وفعل ما بوسعه لتجميع أهل البلدة المعرضين للخطر المتبقين وأرشدهم إلى المكان الآمن في القلعة. ولما أتمَّ مهمته، انضمت إليه كاترينا.

فسألها: «ما الأخبار؟».

أجابت: «أخبار لا تسُر. لقد حطموا البوابة الرئيسية. وهم ينتقلون إلى البلدة».

- لا نملك أيَّ لحظة لنضيعها. علينا جميعًا التراجع إلى داخل القلعة.

- سأحشد ما تبقى من الرجال.

- تعالَي سريعًا. هل رأيتِ ماريو؟

- كان يقاتل خارج الأسوار.

- والآخرون؟

- إن أمك وشقيقتك داخل القلعة بالفعل. لقد عملتا على إرشاد أهل البلدة داخل نفق الهروب المؤدي إلى الشمال، خلف الأسوار، إلى بر الأمان.

- حسنًا، عليَّ الذهاب إليهما. وانضمي إلينا بأسرع ما يمكنكِ. علينا التراجع.

صرخ رقيب من قوات آل بورجيا وهو يستدير عند الزاوية على رأس قوة صغيرة من الرجال: «اقتلوهم جميعًا». فرفع جميعهم سيوفهم الملطخة بالدماء عاليًا، ولوَّح رجل متباهيًا برمحٍ علق عليه رأس فتاة. جفَّ حلق إتزيو لمَّا تعرف على الوجه، لقد كانت أنجلينا. فأطلق صيحةً وهجم على جنود آل بورجيا بلا مقدمات. كانت مواجهته منفردًا ستة أشخاص أمرًا لا يشقُّ عليه. وراح يقطع بسيفه ويطعن، وفي غضون ثوانٍ كان يقف وسط حلقة من الرجال المشوهين والمحتضرين، وأخذ صدره يعلو ويهبط وهو يتنفس بصعوبة بسبب الإجهاد.

زال الدم عن عينيه. واختفت كاترينا. فراح يمسح عرقه والدم والوسَخ عن وجهه وسلك طريقه عائدًا إلى القلعة وأخبر حراسها بألا يفتحوا لأحد إلا ماريو وكاترينا. وتسلق البرج الداخلي ونظر إلى الأسفل على المدينة المحترقة.

وبغض النظر عن فرقعة اللهب والتنهيدات المسموعة للجرحى والمحتضرين، تحولت الأحوال إلى صمتٍ يُنذر بالشؤم.

9

لم يسُد الصمت طويلًا. فعندما راح يتحقق إتزيو من أن المدافع على حواجز الأسوار موجهة ومُلقمة بطريقة صحيحة، أطاح انفجار جبار بالبوابات الخشبية الهائلة للقلعة جانبًا. وقذف المدافعين عن البوابة للخلف في الفناء الموجود أسفل المكان الذي يقف فيه إتزيو عند الشرفات الدفاعية، وأودى بحياة الكثير.

ولما انقشع الدخان والغبار، رأى إتزيو مجموعة من الأشخاص يقفون في مدخل البوابة. وظهر على رأسهم عمه ماريو، لكن كان هناك خطبٌ ما شديد بلا شك. إذ اكفهر وجهه وتغير لونه. كما بدا أكبر بكثير من سنه البالغة اثنين وستين عامًا. وتسمرت عيناه بعينَي إتزيو بينما يقفز ابن أخيه نازلًا من على الشرفات الدفاعية لمواجهة الخطر الجديد. سقط ماريو على ركبتيه، ثم على وجهه. وحاول بصعوبة النهوض، لكن سيفًا طويلًا ورفيعًا طاعنًا من نوع بيلباو برز من بين لوحَي كتفيه. ودفعه الرجل الذي خلفه إلى الحصى مجددًا بمقدمة حذائه الأسود ونزل خيط من الدم عند جانب فم الرجل العجوز.

كان الشاب يرتدي ملابسَ سوداء، وقناعًا أسود يغطي وجهه الخبيث جزئيًّا. رأى إتزيو البثور الناجمة عن الداء الإفرنجي على جلد الرجل. فاعترته رجفة داخلية، فلم يعتره شكٌّ بخصوص هُوية الرجل الذي واجهه.

كان على جانبَي الرجل المتشح بالسواد رجلان آخران، وكانا كلاهما في مُقتبل العمر، وامرأة جميلة شقراء لها شفاه بارزة حادة. ورجل آخر يتَّشح بالسواد كذلك يقف بعيدًا منزويًا قليلًا. حمل الرجل في يمناه سيفًا أحدبَ ملطخًا بالدماء، وأمسك في يسراه بسلسلة مربوطة بطوق ثقيل يلتفُّ حول عنق كاترينا سفورزا، التي قُيِّدت يداها وكُمِّم فوها. وتلتمع عيناها بغضب وتحدٍّ متَّقدَين. خفق قلب إتزيو، فلم يقوَ على تصديق أنه لتوه في هذا الصباح قد ضمَّها مرة أخرى، وهي الآن في قبضة قائد قوات آل بورجيا. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ التقت عيناه بعينيها للحظة من طرف الفناء، مرسلًا إليها بوعد أنه لن تطول فترة أَسرِها.

ولم يكن ثمة متسع من الوقت لتخمين كل الأحداث المنبثقة من حوله، إذ استولت على إتزيو غريزة الجندي. وتحتم عليه التصرف توًّا أو أنه سيخسر كل شيء. تقدم للأمام، مُغمِضًا عينيه وقفز من فوق الشرفات الدفاعية، وعباءته ترفرف من ورائه، لقد كانت قفزة إيمان أعمى إلى الفناء في الأسفل. وبرشاقةٍ معهودة هبط على قدميه ووقف شامخًا ليجابه أعدائه، وارتسم عزمه الصارم على وجهه.

انضم المسؤول الأول عن الأسلحة وهو يعاني بقدمه المصابة، ووقف إلى جانب إتزيو، وقال لاهثًا: «مَن هؤلاء الناس؟».

قال الرجل المتشح بالسواد: «أوه، لم نقدم أنفسنا بعد. كم كان تقصيرًا منا. لكن بلا شك أعرفك يا إتزيو أوديتوري، وإن كانت معرفة تقتصر على السمعة. إنه لشرف كبير. فعلى الأقل يتحتم عليَّ إزالة أكبر عثرة في طريقي. من بعد عمك بكل تأكيد».

- ابتعِد عنه يا تشيزاري!

ارتفع أحد حاجبيه ولمعت عيناه الداكنتان في وجهه الوسيم الذي شوَّهته آثار المرض، وقال: «أوه، كم أشعر بالإطراء أنك خمنت اسمي تخمينًا صحيحًا. لكن دعني أقدم شقيقتي لوكريتزيا». واستدار ليواجه الفتاة الشقراء بينما تضغط هي على ذراعه وقربت وجهها من وجهه، ثم تابع: «ورفاقي الأقربين خوان بورجيا ابن عمي وصديقي ومصرِّفي، وحليفي الفرنسي العزيز الجنرال أوكتافيان دي فالوا، وأخيرًا وليس آخرًا، ذراعي اليمنى الذي لا غنى عنه ميكيليتو دي كوريلا. ماذا عساني أفعل دون أصدقائي؟».

- ومال أبيك.

- نكتة سخيفة يا صديقي.

وفي أثناء حديث تشيزاري، طافت قواته كالأشباح في القلعة. ولم يكن لإتزيو حول ولا قوة لإيقافهم، فرجاله كانوا ينهزمون ويُجرَّدون من أسلحتهم بسبب الفارق الكبير في العدد.

تابع تشيزاري حديثه: «لكنني جندي بارع وجانب من المتعة هو اختيار الدعم النافع. لكن عليَّ الاعتراف لم أظنك هشًّا هكذا. لكنك لم تعد شابًّا، أليس كذلك؟».

قال إتزيو بنبرة فاترة: «سأقتلك، وسأمحوك أنت وجنسك من على وجه الأرض».

قال تشيزاري مبتسمًا: «لن تفعل هذا اليوم. وانظر فحسب إلى ما في يدي، هدية من عمك». وغاصت يده المرتدية القفاز في حقيبة أخرج منها التفاحة، مما أفزع إتزيو!

قال تشيزاري وعلى وجهه طيف ابتسامة: «أداة نافعة. أخبرني ليوناردو دافنشي، مستشاري العسكري الجديد، أنه يعرف بالفعل الكثير عنها، لذا أتمنى أن يوضح لي أكثر بخصوصها، وأنا متأكد أنه

سيفعل إن أراد الإبقاء على حياته. الفنانون! تشتري عشرةً منهم بقرش، مثلما أنا متأكد من موافقة رأيك لرأيي».

ضحكت لوكريتزيا ضحكة فاترة على هذا الكلام.

نظر إتزيو على الجانب الآخر إلى صديقه القديم، إلا أن دافنشي تحاشى لقاء عينيه. راح ماريو يتقلب على الأرض ويئن. فدفع تشيزاري وجهه للأرض بحذائه وأخرج مسدسًا، أدرك إتزيو من فوره أنه كان جديد الطراز، وتجدد ندمه على دمار معظم أسلحة المخطوطة في مطلع الهجوم.

قال مسؤول الأسلحة بلهفة: «هذه ليست بندقية فتيل».

قال تشيزاري: «إنه مسدس بقفل دولابي». وأضاف وهو يوجه كلامه إلى مسؤول الأسلحة: «واضح أنك لست غبيًّا. إنها دقيقة وأكثر كفاءة من البنادق القديمة. لقد صممها لي ليوناردو. ويُعاد تلقيمها سريعًا كذلك. هل ترغب في رؤية عرضٍ فعلي؟».

أجاب مسؤول الأسلحة: «بكل تأكيد»، حيث تغلب اهتمامه المهني على أيٍّ غريزة أخرى.

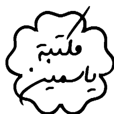
قال تشيزاري: «بالتأكيد»، وهو يصوب المسدس باتجاهه ويُرديه قتيلًا. وتابع: «أَعِد تلقيمها، من فضلك»، ومرر المسدس إلى الجنرال أوكتافيان وأخرج مسدسًا شبيهًا له من حزامه. واستطرد: «لقد سفكنا الكثير من الدماء، ومؤسف أن نتذكر أن الأمر يتطلب المزيد من التطهير. على أيِّ حال، أودُّ منك أن تقبل هذا بروح المحبة، من عائلتي إلى عائلتك».

وانحنى تشيزاري قليلًا ووضع إحدى قدميه في منتصف ظهر ماريو، وسحب سيفه تاركًا الدم يتدفق. واتسعت عينا ماريو بفعل الألم بينما يحاول بصعوبة الزحف باتجاه ابن أخيه.

مال تشيزاري للأمام وأطلق المسدس من مدى قريب على مؤخرة جمجمة ماريو، التي انفجرت إلى نصفين.

صرخ إتزيو: «لا!»، حيث لاحت ذكرى القتل المتوحش لأبيه وأخويه في عقله. وتابع وهو يندفع نحو تشيزاري: «لا!»، وقد اجتاحته وتملكته لوعة الخسارة.

وبينما يقفز إتزيو للأمام، أطلق الجنرال أوكتافيان، الذي أعاد تلقيم المسدس، النار عليه. ترنح إتزيو للوراء وأصيب بالاختناق، ثم غاب عن الوعي.



10

لما استعاد إتزيو وعيه، كان مسار المعركة قد انقلب مرة أخرى وجرت مطاردة المهاجمين من قوات آل بورجيا إلى خارج أسوار القلعة. ووجد إتزيو نفسه يُجر إلى مكان آمن بينما يغلق الجنود الذين استعادوا الحصن البوابة المُحطمة بحاجز، وجمعوا كل المواطنين المتبقين من بلدة مونترجيوني إلى داخل أسوارها وشرعوا في ترتيب هروبهم إلى الريف الموجود خلف القلعة. ولم يعرفوا مدى قدرتهم على الصمود في وجه قوات آل بورجيا العنيدة، التي بدا كأن قوتهم لا حدود لها.

عرف إتزيو كل هذا من الرقيب الأول الأشيب وهو يستعيد وعيه.

- لا تتحرك يا سيدي.

- أين أنا؟

- على نقالة، إننا نأخذك إلى الملاذ الآمن. إلى المُعتكف. فلن يصل إليك أحد هناك.

- أنزلني، فأنا أقدر على المشي.

- علينا تضميد هذا الجُرح.

تجاهله إتزيو وصرخ بأوامره على حاملي النقالة. لكنه لما وقف ترنَّح رأسه.

- لا أستطيع القتال على هذه الحال.

علا صوت الرقيب بصرخة: «أوه، يا إلهي، ها هم قادمون مجددًا»، في حين يرتطم برج المراقبة بالفواصل العلوية لسور القلعة، مما قذف بقوة جديدة أخرى من جنود بورجيا.

استدار إتزيو ليكون في مواجهتهم، وأخذ الظلام يزول من رأسه تدريجيًّا، وطغى تمالكه الشديد لذاته على الألم الحارق الناجم عن جرح الطلقة النارية. أحاطت به الجنود المرتزقة من الحشاشين سريعًا ودحروا رجال تشيزاري. وتمكنوا من التراجع بعدد قليل من الإصابات، لكن في طريقهم إلى المتسع الداخلي للقلعة، هتفت كلاوديا من عند المدخل، متلهفة لسماع أخبار عن سلامة أخيها. وبينما تخطو إلى المنطقة المكشوفة، أسرع أحد قادات آل بورجيا باتجاهها، وكان بيده سيف ملطخ بالدماء. راقب إتزيو المشهد في فزع، لكنه استجمع رباطة جأشه بما يكفي ليصرخ على رجاله. فجرى اثنان من الحشاشين باتجاه شقيقة إتزيو ليتمكنوا في اللحظة الحاسمة من وضع أنفسهم بينها وبين السيف اللامع للقاتل التابع لقوات آل بورجيا. وتطايرت الشرارات من الاحتكاك الحاصل بين السيوف الثلاثة حيث رفع الحشاشَان سيفيهما في الوقت ذاته لمنع الضربة القاتلة. ترنحت كلاوديا ساقطة أرضًا وفغرت فاها بصرخة صامتة. ودفع أقوى جندي من الحشاشَين، الرقيب الأول، سيف العدو للأعلى، مثبتًا المقابض عند واقيات اليد، في حين أن الحشاش الآخر أخرج سيفه ثم غرزه للأمام في أحشاء قائد قوات آل بورجيا. استعادت كلاوديا رباطة جأشها ووقفت ببطء على قدميها. وفي ظل الأمان الذي وفره لها أفراد قوة الحشاشين هرعت إلى إتزيو، ومزقت قطعة قماش من تنورتها وضغطت بها على كتفه، وتلطخت قطعة القماش البيضاء باللون الأحمر من جراء الدم النازف من الجرح.

قال لها إتزيو: «تبًّا! لا تخاطري هكذا!»، وشكر الرقيب بينما يدحر رجاله العدو بعيدًا، حيث رموا بعضهم بعضًا من الشرفات الدفاعية العالية في حين فرَّ الآخرون.

هتفت كلاوديا: «علينا إدخالك إلى الملاذ بالداخل. هيًّا!».

ترك إتزيو الرجال يحملوه مجددًا، إذ قد فقد الكثير من الدماء. وفي تلك الأثناء، تجمع حولهم أهل البلدة ممن لم يستطيعوا الفرار بعد. وغدت مونترجيوني بحد ذاتها مهجورة وتحت السيطرة التامة لقوات آل بورجيا. وحدها القلعة فحسب التي ظلت في قبضة الحشاشين.

في نهاية المطاف، وصلوا إلى مبتغاهم، الغرفة المُحصنة الغائرة تحت سور القلعة الشمالي، والمتصلة بالمبنى الرئيسي بواسطة ممر سري يمتد من مكتبة ماريو. وفي اللحظة الأخيرة كان واحد من رجالهم، وهو لص من البندقية يُدعى باجانينو كان في سابق أمره تحت إمرة أنتونيو دي ماغيانس، في طريقه إلى إغلاق الباب السري المؤدي إلى بيت الدرج مع مرور آخر الفارين منه.

هتف: «لقد ظننا أنك قُتلت يا سيد إتزيو!».

ردَّ إتزيو في تجهم: «لم يتمكنوا مني بعد».

- لا أعرف ما عليَّ فعله، إلى أين يؤدي هذا الممر؟

- إلى الشمال، خارج الأسوار.

- إذن فالأمر حقيقي. لطالما ظننا أنها مجرد أسطورة.

قال إتزيو وهو ينظر إلى الرجل ويتساءل إن كان في لحظة انفعال، قد قال الكثير من الأشياء لرجل لا يعرف عنه إلا القليل: «حسنًا، والآن صرت تعرف الحقيقة». ثم أمر الرقيب بإغلاق الباب، لكن في اللحظة الأخيرة، انزلق باجانينو من خلاله، عائدًا إلى المبنى الرئيسي.

- إلى أين تقصد؟

- يجب عليَّ معاونة المدافعين. لا تقلق، سوف أرشدهم بالعودة إلى هذا الطريق.

- عليَّ إغلاق الباب بالمزلاج من خلفنا. وإن لم تأتِ الآن، فستكون وحدك.

- سأتدبر أمري يا سيدي، كما أفعل دومًا.

- اذهب في رعاية الرب. يتعين عليَّ ضمان سلامة هؤلاء الأشخاص.

تفكر إتزيو مليًّا في الحشد المتجمع في الملاذ. واستطاع في الظلمة رؤية ملامح ليس فقط أخته كلاوديا من بين الفارين، بل أمه كذلك. فتنفس الصعداء بارتياح.

فقال لهم: «لا وقت لدينا لنضيعه»، وأحكم إغلاق الباب خلفه بقضيب حديدي كبير.

11

أسرعت أمُّ إتزيو وشقيقته بلفِّ جرحه وتضميده جيدًا، وأنهضوه على قدميه، ثم وجَّه إتزيو الرقيب بلف ذراع التحكم الخفية الموجودة في تمثال كبير الحشاشين، ليونيوس الواقف إلى جانب رفِّ الموقد الضخم في وسط السور الشمالي للملاذ. فانفتح الباب المخفي ليكشف عن الممر الذي يمكن للناس الفرار منه إلى حِمَى الريف الواقع على بُعد نصف ميل خلف حدود المدينة.

وقفت كلاوديا وماريا عند المدخل، وأرشدتا أهل البلدة إلى المرور من خلاله. كان الرقيب الأول قد تقدم ومعه فصيل عسكري حاملين المشاعل لتوجيه اللاجئين وحمايتهم بينما يشقُّون طريقهم للهروب.

حثَّ إتزيو المواطنين في دخولهم إلى فتحة النفق المظلمة على الإسراع قائلًا: «*هلموا!* لا تفزعوا. أسرِعوا لكن لا تجرون. فلا نريد حدوث تدافع داخل النفق».

وسألته أمه: «وماذا عنَّا؟ ماذا عن ماريو؟».

- ماريو -كيف يمكنني إخبارِك بالأمر؟- لقد قُتل ماريو. أُريدك أنتِ وكلاوديا أنت تقطعا طريقكما إلى الديار نحو فلورنسا.

صرخت ماريا قائلة: «هل مات ماريو؟».

سألت كلاوديا: «ما الذي تبقى لنا في فلورنسا؟».

فرد إتزيو يده، وقال: «منزلنا. لقد تعهَّد لورنزو دي مديتشي وابنه بإرجاع قصر آل أوديتوري لنا، وأوفوا بوعدهم. والآن المدينة تحت قبضة السلطة الحاكمة مرة أخرى، وأعرف أن الحاكم سوديريني يُحسن الاعتناء بها. اذهبن إلى الديار. ضعا أنفسكنَّ في عناية باولا وآنيتا، وسألحق بكما متى ما استطعت».

- هل أنت متأكد؟ إن الأخبار التي وصلتنا بخصوص منزلنا القديم مختلفة تمامًا. لقد تأخر السيد سوديريني كثيرًا على إنقاذه. وعلى أيٍّ حال، إننا نريد البقاء معك حتى نقدم لك العون.

كان آخر المتبقين من أهل البلدة يدخلون في النفق المظلم الآن، وبينما يفعلون علا صوت طرق بالمطرقة وارتطام ضربات شديد يقع على الباب الفاصل بين الملاذ والعالم الخارجي.

- ما هذا؟

- إنها قوات آل بورجيا. أسرِعوا! أسرِعوا!

أرشد عائلته لدخول النفق، وبقي في مؤخرة الصف رفقة القليل من قوات الحشاشين الناجين.

***

كان طريقهم داخل النفق شاقًّا، ولما وصلوا منتصف الطريق، سمع إتزيو صوت تحطم عند اقتحام رجال آل بورجيا الباب المؤدي إلى الملاذ. وعما قريب سيقتحمون النفق بأنفسهم. فأصدر أوامره العاجلة بالتقدم السريع، صارخًا على المتخلفين بالإسراع وسمع صوتَ وقْع خطوات أقدام جنود مسلحين يركضون في النفق من خلفهم. وبينما تركض المجموعة متخطين البوابة التي تقع عند نهاية أحد أقسام الممر، أمسك إتزيو بذراع مثبتة في الحائط، وفي الوقت الذي يسرع

آخر الفارين من الحشاشين للعبور، سحب إتزيو الذراع بشدة، فأنزل البوابة ليغلق الممر. ولما نزلت وجاء معها صوت تحطم، لحق بهم أول مطارديهم إلا أن حديد البوابة الثقيل سوّاه أرضًا. وملأت صرخات ألمه جنبات الممر. كان إتزيو قد سبقهم بالفعل، مطمئنًّا أنه وفَّر لأهل بلدته وقتًا ثمينًا ليتمكنوا من الفرار بسلام.

وبعد ما بدا أنه ساعات، لكنه لم يكن سوى دقائق معدودة، اتضح أن انحدار الممر يتغير، إذ راح يعتدل ويرتفع بشكلٍ طفيف. وبدا الهواء أكثر انتعاشًا في هذه اللحظة إذ قد أوشكوا على الخروج. فقط ليسمعوا في اللحظة نفسها صوتَ دويٍّ ثقيل لنيران المدافع المتواصلة، لا بدَّ أن قوات آل بورجيا قد أطلقت كامل قوة نيرانهم على القلعة، عملٌ أخير من أعمال التدنيس. اهتز الممر وتساقطت أكوام من الغبار من السقف، وكان بالإمكان سماع صوت تشقق الصخور، هادئًا في البداية لكنه غدا عاليًا على نحو يُنذر بالشؤم.

ناحت إحدى نساء البلدة: «يا إلهي أرجوك أنقذنا، إن السقف سيسقط!». وراح الآخرون يصرخون إذ شاع الخوف من الدفن على قيد الحياة بين أفراد الحشد.

وعلى حين غرة بدا سقف النفق ينفتح ويتساقط منه وابل من الحُطام. أسرع الفارين بالتقدم، محاولين الفرار من الصخور الساقطة، لكن كلاوديا تجاوبت مع الأمر على نحو بطيء، واختفت في سحابة من الغبار. استدار إتزيو مذعورًا وهو يسمع صراخ أخته، لكنه عجز عن رؤيتها. وصرخ وصوته كله خوف: «كلاوديا!».

أتى الرد: «إتزيو!»، وبينما ينقشع الغبار قطعت كلاوديا طريقها بعناية من بين الأنقاض.

- حمدًا للرب أنكِ بخير. هل سقط عليكِ أيُّ شيء؟

- لا، أنا على ما يُرام، هل أمُّنا بخير؟

أجابت ماريا: «أنا بخير».

نفضوا الغبار عن أنفسهم، وحمدوا أربابهم على نجاتهم حتى هذا الوقت، وشقوا طريقهم إلى الجزء الأخير من ممر الهروب. وفي نهاية المطاف خرجوا إلى الهواء الطلق. ولم يكن للعشب ولا للأرض رائحة أذكى من تلك التي تنسَّموها في ذلك الحين.

كانت فتحة النفق مفصولة عن أرض الريف بمجموعة من جسور الحبال المعلقة فوق وديان فسيحة. وقد صممها ماريو على هذا النحو كجزء من خطة الهروب الكبرى. ستسلم بلدة مونترجيوني من انتهاكات آل بورجيا. فبمجرد أن تدمرها قوات آل بورجيا، فلن يكون لها أهمية بالنسبة إليهم، لكن سيعود إتزيو لما تسنح الفرصة ويُعيد بناءها لتكون المعقل الشامخ للحشاشين. كان إتزيو واثقًا من ذلك. وقطع وعدًا على نفسه أن البلدة ستغدو أكثر من كونها معقلًا للحشاشين، سيجعلها نُصبًا تذكاريًّا لعمه النبيل، الذي ذُبح بلا رحمة.

لقد فاض به الكيل من الفظائع المُرتكبة في حق عائلته بسبب الجرائم الخسيسة عديمة الجدوى.

عَزم إتزيو على قطع الجسر من خلفهم وهم يهربون، لكن كان تقدمهم بطيئًا حيث اصطحبوا معهم أُناسًا من كبار السن وجرحى متخلفين عن الركب. ومن وراء ظهره سمع صرخات ووقع خطوات مطارديهم تقترب سريعًا. ولم تكن به القدرة الكافية ليحمل أيَّ أحد على ظهره، لكنه قدر على رفع امرأة خارت ساقاها على كتفيه القويتين، وراح يخطو خطواته المترنحة على الجسر المعلق الأول، الذي اهتز بشدة بفعل وزنه.

صرخ مشجعًا حامية المجموعة الذين كانوا في خضم اشتباك مع جنود آل بورجيا بالفعل قائلًا: «هيًّا!»، وانتظر على الجانب الأبعد إلى أن

وصل آخر رجل من رجاله إلى بر الأمان، لكن استطاع رجلان من رجال آل بورجيا العبور للجانب الآخر. فوقف إتزيو في طريقهما، مستعينًا بذراعه السليمة ليستخدم سيفه، واشتبك مع العدو. وحتى مع إصابته، فاق إتزيو خصميه في القتال ولم يكن مجرد مكافئ لهما، فقد صدَّ سيفه اللامع هجماتهم بحركة سريعة، وتصدى للسيفين بضربة واحدة. وانحنى جانبًا ثم انخفض ليتفادى ضربةً سريعة قام بها أحد الرجلين وهو يستخدم سلاحه لقطع مفصل ركبة درع ساق الرجل. انقلب الجندي على وجهه لأن ساقه اليسرى قد خارت قوتها.

وهجم المهاجم الآخر، معتقدًا أن إتزيو قد اختل توازنه، لكن إتزيو تدحرج جانبًا، فاصطدم سيف مهاجمه بالصخور، مطيحًا بشظايا من الصخور في الوادي. جَفل الرجل لما اهتز سيفه من آثار الضربة ما جعل عظام يده وذراعه تهتز بدورها. أدرك إتزيو فرصته، فنهض بصعوبة، ورفع سيفه فوق ذراع خصمه المتدلية وضربه في منتصف وجهه. سقط الرجل أرضًا، وبحركة انسيابية واحدة قطع إتزيو بسيفه الحبال التي تُعلق الجسر. فانقطعت في الحال، وانهارت راجعة للخلف فوق الوادي. وانطوى الجسر مثل الأكورديون مبتعدًا عن الصخور، وسقط رجال آل بورجيا الذين بدأوا في العبور وهم يصرخون في الهاوية بالأسفل.

ولما نظر إتزيو للخلف على الجهة المقابلة من الوادي، رأى تشيزاري. وإلى جانبه كانت كاترينا مقيدة بالسلاسل، وأمسكت بها لوكريتزيا بمظهرها الشرير. ووقف إلى جانبه خوان بورجيا وميكيليتو شديد الشحوب والرجل الفرنسي المتعرق الجنرال أوكتافيان.

كان تشيزاري يلوح بشيءٍ ما باتجاه إتزيو.

وصرخ في غضب، قائلًا: «أنت التالي».

لما رآه إتزيو وجد أنه كان رأس عمه.

12

لم تعُد لإتزيو وجهة الآن إلا مكانًا واحدًا. وقد قُطعت الطريق أمام قوات تشيزاري وسيستلزم الأمر منهم أيامًا حتى يلتفوا حول الوادي ويلحقوا بالناجين من الحشاشين. ووجه اللاجئين إلى بلدات خارج سيطرة آل بورجيا، إلى اللحظة كانت تلك البلدات هي سيينا وسان جيميجنانو وبيزا ولوكا وبستويا وفلورنسا، حيث سيجدون فيها ملاذًا آمنًا. كما حاول إقناع أمه وشقيقته بأهمية الحكمة من العودة إلى الأمان في فلورنسا، بغض النظر عما حدث لقصر آل أوديتوري وبغض النظر عن الذكريات الحزينة التي تحملها المدينة، وحقيقة أن كلتيهما تملكتهما رغبة عارمة في الانتقام لموت ماريو.

أما إتزيو نفسه فقد عقد العزم على التوجه إلى روما، إلى حيث يعلم أن تشيزاري سيذهب إلى هناك لإعادة تنظيم صفوفه. أو ربما يؤول الأمر إلى اعتقاد تشيزاري بعجرفته المعهودة أن إتزيو قد هُزم أو نفق في الطريق مثل الجيفة. وإن كان الحال كذلك، فهذا سيصبُّ في صالح الحشاش ليس إلا. وكان ثمة أمر آخر يقضُّ مضجع إتزيو رغم ذلك. إذ غدت الأخوية بموت ماريو بلا قائد. وتمتع ماكيافيلي بقوة نافذة في الأخوية، ولا يبدو في الوقت الحالي أنه على وفاق مع إتزيو. وكان هذا أمرًا لا بدَّ من إيجاد حلٍّ له.

وإلى جانب البشر الناجين من أهل البلدة، كان هنالك عدد من الماشية، من ضمنها الحصان الكستنائي الضخم الحربي الذي عشقه ماريو. امتطى إتزيو الجواد الذي أمسكه له العجوز القائم على شؤون الإسطبل، الذي استطاع الهروب، رغم أن معظم الأحصنة وقعت في قبضة آل بورجيا.

ألجم إتزيو فرسه، وودع أمه وشقيقته.

سألته ماريا: «هل يتحتم عليك الذهاب إلى روما حقًّا؟».

- إن أفضل وسيلة لكسب هذه الحرب يا أمي هي بأخذها إلى العدو.

- لكن كيف لك أن تتغلب على قوات آل بورجيا؟

- أنا لست عدوهم الوحيد. وإلى جانب هذا، ماكيافيلي موجود هناك. وعليَّ إصلاح شؤوني معه حتى يمكننا العمل يدًا بيد.

قالت كلاوديا برصانة: «التفاحة بحوزة تشيزاري».

ردَّ إتزيو: «لندعُ ألا ينجح في إتقان قواها»، رغم أن في داخله قد ساورته شكوك بالغة. وليوناردو الآن يعمل لصالح تشيزاري، ولا يخفى على إتزيو ما لصديقه القديم من ذكاء ألمعي. فإذا أَعلم ليوناردو تشيزاري بأسرار التفاحة، والأسوأ من ذلك، إذ وقعت التفاحة في قبضة رودريغو مرة ثانية...

هزَّ رأسه حتى يُخلص نفسه من هذه الأفكار. فلا يزال الوقت كافيًا لمواجهة خطر التفاحة حال عُرِّض له.

سألته كلاوديا: «لا ينبغي لك الانطلاق الآن. فروما تبعد أميالًا إلى الشمال. ألا يمكنك على الأقل التمهل ليوم أو يومين؟».

ردَّ إتزيو بخشونة: «لن يهدأ آل بورجيا، كما أن شر فرسان الهيكل يسري في نفوسهم. ولن يهنأ أحد بنوم حتى تُكسر شوكتهم».

- ماذا إن لم تنكسر قط؟

- لا يتعين علينا ترك القتال. ففي اللحظة التي سنفعل فيها ذلك، نكون قد خسرنا.

قالت أخته: «صحيح»، وارتخت كتفاها ثم استقامتا ثانيةً، وأردفت قائلة بحزم: «ليس علينا ترك القتال *أبدًا*».

قال إتزيو: «حتى الموت».

- حتى الموت.

- توخَّ الحذر في طريقك.

- توخَّ الحذر في طريقك.

مال إتزيو للأسفل من على سرجه لتقبيل أمه وشقيقته قبل أن يُدير الجواد ويتجه نحو الجنوب. أخذ رأسه يخفق من شدة الألم الناجم عن جرحه ومن إجهاد المعركة. والأكثر من هذا هو تعب قلبه وروحه من فقدان ماريو وأسْر كاترينا. وانتفض من فكرة وجودها في براثن عائلة بورجيا الشريرة، ويعلم تمام العلم المصير الذي قد يحل بها وهي بين أيديهم. كان سيلتف حول قوات آل بورجيا، لكن قلبه أوعز إليه بأن هدف تشيزاري الرئيس قد تحقق، ألا وهو تحطيم معقل الحشاشين، وسيتجه إلى الديار. ثم عَنَّ له السؤال الخاص بسلامة كاترينا، رغم أنه يعرف أنه لو أحد سيقاتل حتى النهاية، فسيكون هي.

والمسألة الأهم هي التخلص من الورم المستشري في ربوع إيطاليا، وإزالته في أقرب وقت، قبل أن ينتشر في كل أرضها.

غرز إتزيو كعبَي حذائه في جانبَي الفرس وعدا به باتجاه الجنوب قاطعًا طريقًا ترابيًّا.

كان رأسه يدور من الإرهاق، لكن حرص على البقاء مستفيقًا. وأقسم ألا يرتاح حتى يصل إلى العاصمة المحطمة لبلده المطوق. وأمامه الكثير من الأميال ليقطعها قبل أن يهنأ بالنوم.

13

كم كان أحمقَ لينطلق في رحلة طويلة بعيدًا جدًّا باتجاه الشمال وهو جريح، ولم يتوقف سيره إلا من أجل الفرس. ولو استعان بحصان نقل البريد لكان مناسبًا، لكن الفرس الكستنائية أنييلا كانت رابطه الوحيد بماريو.

أين كان؟ تذكَّر ضاحية متداعية وخرِبة، ويرتفع منها قوس حجري أصفر كان بديعًا ذات يوم، وكان في سابق عهده البوابة التي تفتح أسوار إحدى المدن الشامخة فيما مضى.

كانت نية إتزيو هي توحيد صفوفه من جديد مع ماكيافيلي من أجل تصحيح الخطأ الذي ارتكبه بعدم تأكده من موت رودريغو بورجيا.

لكن كان حقًّا منهكًا.

استلقى على فراش القش الذي وجد نفسه عليه. كان بمقدوره شمُّ رائحة القش الجاف التي حملت معها شيئًا من رائحة روث البقر.

أين كان؟

اجتاحت عقله صورة لكاترينا فجأة. عليه تحريرها. يجب أن يكونا معًا في نهاية المطاف.

لكن ربما عليه كذلك تحرير نفسه *منها*، إلا أن شيئًا في قلبه أخبره أن هذا لم يكن ما أراده بحق. كيف يمكنه الوثوق بها؟ كيف يمكن

لرجلٍ بسيط أن يفهم المتاهات المُحيرة لعقل المرأة؟ وا أسفاه، يبدو أن عذابات الحب لا تخبو مع مرور العمر.

هل كانت تستغلُّه؟

لطالما أبقى إتزيو في قلبه على مساحة داخلية أشبه بقدس الأقداس والتي لطالما بقيت مغلقة، حتى على أقرب أصدقائه وأمه، التي تعرفها وتحترمها، وأخته وإخوته وأبيه الراحلين.

هل اقتحمتها كاترينا؟ لقد تعذَّر عليه منع قتل أبيه وإخوته، وبحق المسيح والصليب لقد بذل ما في وسعه لحماية ماريا وكلاوديا.

بإمكان كاترينا الاعتناء بنفسها، لقد كانت كتابًا مغلقًا، ورغم ذلك... ورغم ذلك، كم تاق لقراءته.

نادى قلبه على كاترينا رغمًا عنه قائلًا: «أُحبك». وفيها وجد امرأة أحلامه أخيرًا، في هذا الوقت المتأخر من العمر. لكنه قال لنفسه إن واجبه له الأولوية، وكاترينا... كاترينا لم تفصح عن نواياها أبدًا. عيناها البنيتان الغامضتان وابتسامتها وطريقتها في التلاعب به بمهارة. والقُرب. القُرب. وانسيابية خصلات شعرها الذي لطالما فاحت منه رائحة الفانيلا والأزهار...

كيف قدر على الوثوق بها، حتى بعدما أراح رأسه على صدرها بعد لقائهما، وأراد بشدة الإحساس بالأمان؟

لا! الأخوية. الأخوية. الأخوية! رسالته ومصيره.

قال إتزيو لنفسه: لقد قضيت نحبي. بل أنا ميت بالفعل من الداخل، لكن عليَّ إنهاء ما عليَّ فعله.

***

تلاشى الحلم وفتح جفنيه، فانكشفت له سيدة ذات صدر ممتلئ، عجوز ترتدي قميصًا به فرق كالبحر الأحمر.

أسرع إتزيو بالجلوس، ووجد جرحه مضمَّدًا بعناية الآن، وقد خَف ألمه حتى إنه لا يكاد يشعر به. ولما ركزت عيناه، رأتا غرفة صغيرة لها جدران من الحجارة غير المصقولة. وانسدلت ستائر من قماش الكاليكو على النوافذ الصغيرة، وفي زاوية من الغرفة اشتعل موقد حديدي، وشكلت الجمرات الظاهرة من بابه المفتوح الضوء الوحيد في المكان. كان الباب مغلقًا، لكن أيًّا ما كان الشخص الذي معه في الغرفة، فقد أشعل جزءًا متبقيًا من شمعة.

جثت امرأة في منتصف عمرها، بدت فلاحة، إلى جانبه، ضمن محيط رؤيته. بدت على وجهها أمارات الطيبة بينما تميل على جرحه لتعيد ضبط الكمادة والضماد.

جفل إتزيو من شدة الألم.

قالت المرأة: «اهدأ، سيزول الألم عما قريب».

- أين فرسي؟ أين بطلتي؟

- في أمان، تستريح. الرب يعلم أنها تحتاج إلى ذلك. لقد نزفت من فمها. يا لها من فرس جيدة. ما الذي كنت تفعله بها؟

وضعت المرأة وعاء الماء الذي كانت تحمله ووقفت.

- أين أنا؟

- في روما يا عزيزي. لقد وجدك السيد ماكيافيلي وأنت فاقد للوعي على سرجك، وفرسك يخرج الزبد من فمها وأحضركما إلى هنا. لا تقلق فقد دفع لي ولزوجي أجرًا للاعتناء بكما. وبعض العملات تحت تصرُّفك الخاص. لكنك تعرف السيد ماكيافيلي، عارضه على

مسؤوليتك الخاصة. على أيِّ حال، لقد قمنا بهذا العمل من قبل لمنظمتك.

- هل ترك لي أيَّ رسائل؟

- أوه أجل. ينبغي لك لقاءه عندما تواتيك الظروف عند ضريح أغسطس. أتعرف مكانه؟

- إنه أحد الأطلال، أليس كذلك؟

قالت: «صحيح تمامًا. ولا يعني هذا أنه أقل خرابًا عن معظم المدينة البشعة في الوقت الحالي. تخيل أنها كانت ذات يوم مركز العالم. لكن انظر إلى حالها الآن، أصغر من فلورنسا، ونصف مساحة البندقية. لكن ثمة شيء نتفاخر به». ثم قهقهت.

- وما هو؟

قالت: «يقطن خمسون ألفًا من البائسين فحسب في هذه البلدة الفقيرة من المدينة التي كانت يومًا ما تفتخر بأنها روما، ومن بينهم خمسة آلاف عاهرة. لا بدَّ أن هذا رقمًا قياسيًّا». ازدادت قهقهتها، وأضافت: «ولا عجب أن الداء الإفرنجي قد طال الجميع هنا. لا ترافق أيَّ فتيات هنا. إن لم ترغب في أن يُرديك مرض الزهري صريعًا. فحتى الكرادلة مصابون به، ويقولون إن البابا نفسه وابنه من ضمن المصابين».

***

تذكر إتزيو روما كأنه في حلم. غدت مكانًا غريبًا الآن صُممت أسواره القديمة المتعفنة من أجل ضم مليون نسمة. والآن أصبحت معظم المنطقة مخصصة لزراعة الفلاحين.

كما تذكر الأرض الخراب المهدمة التي كانت في سابق عهدها الساحة الكبرى في قديم الزمان، لكنها أضحت الآن مرعى للأغنام والماعز. وقد

سرق الناس الرخام القديم المنحوت وأحجار الرخام السماقي المبعثرة على العشب لبناء زرائب الخنازير أو لطحنها من أجل التبيض. ومن وسط خراب الأحياء الفقيرة والشوارع الملتوية والقذرة، ارتفعت المباني الجديدة العظيمة للبابا سيكتوس الرابع وألكسندر السادس ارتفاعًا فاحشًا، مثل كعكات الزفاف على طاولة لم يكن عليها سوى الخبز البائت ليؤكل.

لقد تحقق تعظيم الكنيسة بعد العودة أخيرًا من المنفى البابوي في أفينيون. وأعاد البابا كرسيه إلى روما مرة أخرى، وهو الشخصية الرائدة في العالم الدولي متفوقًا ليس فقط على الملوك لكن كذلك على ماكسيمليان الأول حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة نفسه.

ألم يكن البابا ألكسندر السادس، بحكمته العظيمة، الذي قسم القارة الشمالية من الأمريكيتين بين البلدين المستعمرين إسبانيا والبرتغال في معاهدة توردسيلاس في العام 1494؟ وكان هذا هو العام ذاته الذي تفشى فيه الداء الإفرنجي في نابولي في إيطاليا. لقد أسموه المرض الفرنسي، باللاتينية موربوس *جاليكوس*، لكن الجميع يعرف أنه جاء من العالم الجديد مع بحارة كولومبس الجنويين. لقد كان مُصابًا جللًا. انتشرت الفقاقيع والدمامل على أجساد الناس، وتشوهت وجوههم لدرجةٍ صعب معها التعرف عليها في مراحله الأخيرة.

هنا في روما، اعتاش الفقراء على الشعير والقديد، حين يتسنى لهم الحصول على القديد، واحتضنت الشوارع القذرة أمراض التيفوس والكوليرا والموت الأسود. أما المواطنون، فكان من بينهم الأثرياء ثراءً فاحشًا، في حين بدت الأغلبية مثل رعاة البقر وعاشوا حياتهم البائسة نفسها.

ويا له من تناقض بالنظر إلى بذخ الفاتيكان في استعمال الذهب. لقد أضحت مدينة روما كومة من مخلفات التاريخ. وعلى طول الأزقة الوضيعة التي تقوم مقام الشوارع، التي أمست مرتعًا للكلاب والذئاب المتوحشة الآن، تذكر إتزيو الكنائس التي راحت تتداعى في هذه الأوقات والأماكن المهجورة التي ضربها العفن التي ذكرته بالدمار المحتمل لمقر عائلته في فلورنسا.

قال إتزيو وهو يُبعد هذه المناظر عن مخيلته: «عليَّ النهوض. عليَّ إيجاد السيد ماكيافيلي».

ردَّت عليه ممرضته: «كلٌّ بأوانه. لقد ترك لك بزة جديدة. ارتدِها عندما تكون جاهزًا».

وقف إتزيو لكن في وقوفه دار رأسه. فانتفض حتى يتخلص من هذا الشعور ثم ارتدى البزة التي تركها له ماكيافيلي. كانت جديدة ومصنوعة من الكتان، ولها قلنسوة من الصوف الناعم التي لها رأس مدبدب مثل منقار الصقر. وكان معها قفازان متينان ناعمان وحذاء من الجلد الإسباني. ارتدى ملابسه وهو يكبح الألم الناتج عن المجهود الذي بذله، ولما انتهى قادته المرأة إلى شرفة. أدرك إتزيو أنه لم يكن في كوخ متواضع صغير الحجم، بل في بقايا ما كان ذات يوم قصرًا عظيمًا. ولا بدَّ أنهم في الطابق الرئيسي. التقط أنفاسه وهو يطالع حُطام المدينة المهجور المنتشر بالأسفل. وركض فأر مسرعًا بلا خوف على قدميه، فركله بعيدًا.

فقال بنبرة ساخرة: «أوه، روما».

رددت المرأة وهي تقهقه مجددًا: «ما الذي بقي من روما».

- شكرًا لكِ يا سيدتي. إلى مَن أدين بالفضل...؟

قالت: «أنا الكونتيسة مارجريتا ديلجي كامبي»، واستطاع إتزيو أخيرًا في الضوء المعتم رؤية التجاعيد الرقيقة لوجه كان يومًا ما جميلًا. وقالت المرأة مستطردة: «أو ما تبقى منها».

قال إتزيو محاولًا إخفاء الحزن في صوته بينما ينحني مُحيِّيًا إياها: «كونتيسة».

ردَّت وهي تبتسم وتشير قائلة: «الضريح هناك. هذا هو المكان الذي يُفترض عليكما أن تلتقيا فيه».

- لا يمكنني رؤيته.

- في تلك الجهة، للأسف، لا يمكنك رؤيته من قصري.

زر إتزيو عينيه محدقًا في الظلام، وقال: «ماذا عن رؤيته من برج الكنيسة؟».

نظرت إليه، وقالت: «كنيسة سانتو ستيفانو؟ بالطبع، لكنها مُهدمة. والدَّرج الموصل إلى البرج قد انهار».

هيأ إتزيو حاله، إذ يحتاج إلى الوصول إلى مكان اجتماعه بالقدر الممكن من السلامة والسرعة. ولا يريد أن يُعطله المتسولون وبائعات الهوى وقطاع الطريق الذين ينتشرون في الشوارع ليل نهار.

قال للمرأة: «لا مشكلة في هذا»، وتابع بالإيطالية: «أشكرك على ما قدمتِه لي أيتها الكونتيسة الكريمة، وداعًا».

ردَّت وقد ارتسم على وجهها ابتسامة ساخرة: «على الرحب والسعة. لكن هل أنت متأكدٌ من أنك بالحالة التي تسمح لك بالمغادرة سريعًا؟ أظن أنه ينبغي لك زيارة الطبيب. وسأوصي لك بواحدٍ، لكن لا يمكنني تحمل تكلفته بعد الآن. لقد نظفت جرحك وضمدته، لكني لست خبيرة».

- لن ينتظر فرسان الهيكل ولا حتى أنا. أشكرك مجددًا، وداعًا.

- اذهب في رعاية الرب.

قفز من الشرفة إلى الشارع، وجفل من أثر الاصطدام، وسريعًا عبَر الساحة التي كان بها القصر المتهالك متوجهًا نحو الكنيسة. وقد تاه البرج من مرمى بصره مرتين، فاضطر إلى الرجوع من الاتجاه نفسه. واعترضه متسولون مصابون بالجزام ثلاث مرات وواجه ذئبًا في مرة، تسلل إلى أحد الأزقة وبين فكَّيه ما يبدو أنه طفل ميت. في نهاية المطاف وصل إلى الساحة المفتوحة أمام الكنيسة. كانت الأرضية مغطاة بالألواح الخشبية، وشُوهت تماثيل القديسين المنحوتة من الحجر الجيري التي تزين مدخلها من جراء الإهمال. واحتار في أمر ما إذا كان عليه الوثوق في المنحوتات الحجرية المتآكلة، لكن ما باليد حيلة، عليه تسلقها.

قدر إتزيو على تسلقها، رغم أنه قد زلت قدماه في الكثير من المرات، وفي إحدى المرات انزلقت قدماه فوق فتحة انهارت من تحتهما، وتركته متشبثًا بأطراف أصابعه. لم تكن قوته قد خارت، رغم الجروح التي أصابته وتمكن من الارتفاع بعيدًا عن الخطر حتى وصل أخيرًا إلى قمة البرج الجاثم فوق سقفها المصنوع من الرصاص. لمعت قبة الضريح لمعانًا غير براق تحت ضوء القمر على بُعد عدة بنايات. ثم وصل إلى هناك وانتظر وصول ماكيافيلي.

عَدَّل نصله الخفي وسيفه وخنجره وكان على وشك القيام بقفزة إيمان أعمى على عربة قش تقف بالأسفل في الساحة إلا أنه تراجع من الألم الذي أحسَّ به بسبب إصابته.

قال لنفسه: «لقد ضمدت الكونتيسة كتفي جيدًا، لكنها كانت محقة، لا بدَّ لي من زيارة الطبيب».

تسلق إتزيو البرج نزولًا إلى الشارع والألم يؤرقه. ولم يكن يملك أدنى فكرة عن المكان الذي يمكنه إيجاد طبيب فيه، لذا فقد شقَّ طريقه

باتجاه نُزُل، حيث حصل على إرشادات مقابل بضع دوكات، كما اشترى كوبًا من مشروب سانجينيوس البشع، الذي خفف عنه الألم نوعًا ما.

كان الوقت متأخرًا عندما وصل إلى عيادة الطبيب. وتعيَّن عليه قرع الباب عدة مرات قرعًا شديدًا قبل أن يسمع ردًّا مكتومًا من الداخل، ثم انفتح الباب مواربًا ليظهر رجلٌ بدين ملتحٍ في الستين من عمره تقريبًا، يضع نظارات سميكة. وبدا منهكًا من التعب، فقد استطاع إتزيو شمَّ رائحة الشراب تفوح من أنفاسه، وبدت واحدة من عينيه أكبر من الأخرى.

قال الرجل: «ما الذي تريده؟».

- هل أنت الطبيب أنتونيو؟

- وإذا كنت كذلك...؟

- أحتاج إلى مساعدتك.

قال الطبيب: «إن الوقت متأخرٌ»، لكن نظرته قد تفحصت الجرح الموجود في كتف إتزيو، واكتست عيناه بمزيدٍ من التعاطف في حذر. وقال: «ستزيد التكلفة».

- أنا لست في وضع يسمح لي بالجدال.

- حسنًا، ادخل.

فكَّ الطبيب سلاسل بابه وتنحى جانبًا. دخل إتزيو وعليه أمارات الامتنان مترنحًا إلى الرواق الذي عُلقت في عوارضه الخشبية مجموعة من الأواني النحاسية والقنينات الزجاجية والخفافيش والسحالي والفئران والثعابين المجففة.

وجَّهه الطبيب إلى غرفة داخلية تحتوي على مكتب كبير مبعثرة فوقه الكثير من الأوراق وسرير ضيق في أحد الزوايا، وخزانة أظهرت

أبوابها المفتوحة المزيد من القنينات وحقيبة جلدية مفتوحة كذلك تضم تشكيلة من المباضع والمناشير الصغيرة.

تتبع الطبيب عينَي إتزيو وأطلق ضحكة قصيرة. وقال: «إننا الأطباء مجرد آليين متباهين. استلقِ على السرير وسأتفحصك. وقبل أن تقوم بهذا، فإن التكلفة ثلاثة دوكات مقدمًا».

سلَّمه إتزيو المال.

كشف الطبيب الجُرح وراح يضغط ويشد إلى أن فقد إتزيو وعيه من شدة الألم.

قال الطبيب متبرمًا: «اثبت!». وجال باحثًا في الأنحاء وسكب بعضًا من سائل لاذع من قارورة فوق الجرح ثم مسح عليه بقطعة من القطن وأخرج ضمادات نظيفة وأعاد ربطها بإحكام.

قال الطبيب: «إن شخصًا بعمرك لا يمكنه التعافي من جرح كهذا بالدواء». وأخذ الطبيب يُقلب في خزانته وأخرج قنينة بها مادة لزجة. وأردف: «إليك شيئًا لتسكين الألم. لا تشربه دفعة واحدة. وهذا تكلفته ثلاثة دوكات أخرى على أيِّ حال. لا تقلق ستتعافى مع مرور الوقت».

- شكرًا لك أيها الطبيب.

- كان سيوصي أربعة أطباء من أصل خمسة بالعلاج بالعَلَق، لكنه لم يُثبت نجاعته في علاج مثل هذا النوع من الجروح. ما سببه؟ إن لم تكن حالة نادرة، لقلت إنها بسبب طلق ناري. عُد إليَّ إن احتجت إلى شيء. أو يمكنني أن أوصي لك بعدد من الرفقاء البارعين في أنحاء المدينة.

- هل يتقاضون أجرًا باهظًا مثلك؟

تبسم الطبيب أنتونيو ابتسامة ساخرة، وقال: «يا سيدي الفاضل، لقد رأفتُ بحالك».

خرج إتزيو إلى الشارع. وبدأ ينزل مطر خفيف وأخذ الوحل يتكون في الشوارع.

قال إتزيو متبرمًا: «شخصٌ بعمرك، يا لها من صدمة!».

وقفل عائدًا إلى النزل حيث لاحظ أن لديهم غرفًا للإيجار. وسيقضي ليلته هناك ويتناول بعض الطعام، وبعدها يسلك طريقه إلى الضريح في الصباح. وحينها ما عليه إلا انتظار قدوم رفيقه الحشاش. ربما تعين على ماكيافيلي ترك خبر بوقت اللقاء مع الكونتيسة. كان إتزيو عارفًا بحرص ماكيافيلي على الأمان قبل كل شيء. ولا شك أنه يأتي في المكان المحدد كل يوم في أوقات مختلفة. ولن يتعين على إتزيو الانتظار طويلًا.

سلك إتزيو طريقه بحرص وعناية في الشوارع والأزقة المهدمة، وكان يختبئ في ظلام المداخل سريعًا لما تمر به دورية من قوات آل بورجيا، والتي يسهل التعرف عليها من أزيائهم التوتية والصفراء.

كان قد حل منتصف الليل عندما وصل إلى النزل ثانيةً. وشرب جرعة كبيرة من قنينة السائل الداكن، الذي كان ناجعًا، ودق على الباب برمانة سيفه.

14

في اليوم التالي غادر إتزيو النزل مبكرًا، كان جُرحه متيبسًا، لكن الألم أخف وكان أقدر على استخدام ذراعه حينها. وقبل مغادرته، تدرب على تسديد الضربات بالنصل الخفي ووجد أن بإمكانه استخدامه بلا صعوبة، وكذلك الأمور التقليدية المتعلقة بالسيف والخنجر. ومن حسن الحظ أنه لم يُصب بطلق في كتف ذراعه التي يستعملها للسيف.

ولم يكن على يقينٍ تام من معرفة قوات آل بورجيا وشركائهم من فرسان الهيكل أنه قد لاذ بالفرار من معركة مونترجيوني لينجو بحياته، ولما لاحظ العدد الكبير للجنود المدججين بالبنادق ويرتدون ملابس حمراء توتية داكنة وصفراء الخاصة بآل بورجيا، شق طريقًا غير مباشرة إلى ضريح أغسطس، وكانت الشمس قد أشرقت بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى المكان.

لم يكن هناك الكثير من الناس في أرجاء المكان، وبعدما استطلع إتزيو أنحاء المكان ليطمئن لعدم وجود حُراس يراقبون المكان، اقترب من المبنى في حذرٍ وانسلَّ إلى الداخل المعتم من مدخل مُهدم.

ولما تكيفت عيناه مع عتمة المكان، استطاع رؤية شخصٍ ما يرتدي الأسود ويستند إلى نتوء صخري ويقف بلا حراك كالتمثال. جال إتزيو بعينيه في جنبات المكان ليتأكد من وجود مكانٍ ما ليختبئ خلفه قبل أن يراه هذا الشخص، لكن بخلاف كُتل الأعشاب النابتة بين الأحجار

المهدمة من الطلل الروماني القديم، لم يكن ثمة شيء. حدد أفضل شيء يفعله تاليًا، ثم بدأ التحرك سريعًا لكن في صمتٍ نحو الظلام الأعمق عند أسوار الضريح.

لقد تأخر كثيرًا، فقد رآه هذا الشخص، وعلى الأرجح لمحه بمجرد دخوله المكان، وتحرك باتجاهه. ولما اقترب الشخص منه، تعرف إتزيو على الشخص الذي يرتدي بزة سوداء وهو ماكيافيلي الذي وضع إصبعه على شفتَي إتزيو عند اقترابه منه. وأشار له ماكيافيلي متوخيًا الحذر بأن يتبعه في هدوء، ودخل إلى مكانٍ أعمق وأظلم في قبر الإمبراطور الروماني القديم والذي قد بُني من قبل ما يقرب من ألف وخمسمئة عام.

وأخيرًا، توقف واستدار.

ثم قال وهو ينتظر ويُصغي بمسامعه بانتباه: «صه».

- ماذ...؟

قال ماكيافيلي موبخًا وهو لا يزال يُنصت في اهتمام: «اخفض صوتك، اخفض صوتك للغاية».

وبالأخير هدأ، ثم أردف: «حسنًا، لا يوجد أحدٌ هنا».

- ماذا تقصد؟

زاد هدوء ماكيافيلي بعض الشيء، وقال: «لتشيزاري بورجيا أعين في كل مكان. سُررت لرؤيتك هنا».

- لكنك تركت لي ملابسَ في قصر الكونتيسة...

ابتسم ماكيافيلي، وقال: «صدر لها أمر بمراقبة وصولك إلى روما. أوه، أنا أعرف أنك ستأتي إلى هنا بمجرد أن تطمئن على سلامة أمك وشقيقتك. فقبل كل شيء، هما المتبقيتان من آل أوديتوري».

قال إتزيو بشيء من الامتعاض: «لا تروقني نبرتك».

سمح ماكيافيلي لنفسه بابتسامة بسيطة، وقال: «لا متسع للتحذلق يا رفيقي العزيز. أعرف الذنب الذي يطاردك بسبب فقدان عائلتك، حتى إنك لست الملوم ولو من بعيد عن تلك الخيانة الكبرى»، وتوقف عن الحديث، ثم تابع: «لقد شاعت الأخبار بشأن الهجوم على مونترجيوني في أنحاء المدينة. وكان بعضنا على يقين من أنك مِتَّ هناك. وتركت الملابس مع صديقتنا الثقة لأني أعرف أنك أفضل من أن تذهب لحتفك وتتركنا في مثل هذا الوقت العصيب، أو في ظل أيٍّ ظرف، من باب الحيطة».

- إذن فأنت ما زلت تؤمن بقدراتي؟

هزَّ ماكيافيلي كتفيه، وقال: «لقد ارتكبت خطأً فادحًا، ذات مرة، وذلك لأن غريزتك في الأساس تميل إلى إظهار الرحمة والثقة. إنها غرائز طيبة. لكن الآن علينا تسديد ضربتنا، وبقوة. لنرجو ألا يعرف فرسان الهيكل أنك على قيد الحياة».

- لكن لا بدَّ أنهم قد عرفوا بالفعل.

- ليس بالضرورة، لقد أخبرني جواسيسي أن هنالك الكثير من التخبط والحيرة.

توقف إتزيو عن الحديث لاستجماع أفكاره: «سيعرف أعداؤنا عما قريب أني على قيد الحياة، وقريب جدًّا. كم عدد الذين نحاربهم؟».

- أوه، يا إتزيو البشرى السارة هي أننا قد ضيقنا الخناق. وقضينا على الكثير من فرسان الهيكل في كافة أرجاء إيطاليا وفي أنحاء أخرى خارج حدودها. أما الأخبار التي لا تَسُر فهي أن فرسان الهيكل وآل بورجيا قد اتحدوا وتكاتفوا وسيقاتلون كأسد مُحاصر.

- أخبرني بالمزيد.

- إننا وحدنا هنا تمامًا علينا التخفي وسط الحشود في قلب البلدة. سنذهب إلى ملعب مصارعة الثيران.

- ملعب مصارعة الثيران؟

- تشيزاري بارع في مصارعة الثيران. فهو إسباني قبل كل شيء. بل في الحقيقة ليس إسبانيًّا بل كتالونيًّا، وقد يُثبت بمرور الأيام أن هذه ميزة تصبُّ في صالحنا.

- كيف ذلك؟

- إن ملك إسبانيا وملكتها يريدون توحيد دولتهم. يحكمان أراجون وقشتالة. والكتالونيون كالعقبة في طريقهما، رغم أنهم أمة قوية. تعالَ وتوخَّ الحذر. علينا استعمال مهارات الاندماج التي علمتها لك باولا منذ أمدٍ طويل في البندقية. آمل ألا تكون قد نسيتها.

- جرِّبني.

مشيا معًا في المدينة شبة المُهدمة والتي كانت إمبراطورية ذات يوم، محتمين بالظلال ينسلُّون بين الجموع دخولًا وخروجًا كما تختبئ الأسماك في الأسَل. وأخيرًا وصلا إلى حلبة مصارعة الثيران، حيث جلسا في الجانب الأعلى والأكثر ازدحامًا وظلًّا، وراحا يشاهدان لمدة ساعة تشيزاري والعديد من رجاله الاحتياطيين وهم يطلقون ثلاثة ثيران مخيفة. راقب إتزيو طريقة تشيزاري في القتال: استخدم عصا باندريليرو ورجال بيكادور لإضعاف الحيوان قبل تسديد الرمية القاتلة بعد قدرٍ كبير من الاستعراض. لكن لا ريب في شجاعته وقوته خلال طقس الموت الرهيب، رغم حقيقة أنه استعان بأربعة من صغار مصارعي الثيران لمساعدته. نظر إتزيو خلفه في ترقُّب على صندوق رئيس القتال: وهناك رأى الوجه القاسي لكن الجميل على نحو جذاب

للوكريتزيا شقيقة تشيزاري. هل كانت مخيلته التي هيأت له أنه قد رأى لوكريتزيا تعضُّ شفتيها حتى نزفتا أم كان الأمر حقيقيًّا؟

على أي حال، عرف إتزيو شيئًا عن الطريقة التي يتصرف بها تشيزاري في ميدان القتال، وإلى أي مدى يمكن الوثوق به في أي نوعٍ من القتال.

وفي كل مكان راح حراس آل بورجيا يراقبون الحشود، مثلما يفعلون في الشوارع، وجميعهم مسلحون بتلك الأسلحة النارية الجديدة ذات المظهر الخطر.

قال لا إراديًّا وهو يفكر في صديقه القديم: «ليوناردو...».

نظر إليه ماكيافيلي، وقال: «أُجبر ليوناردو على العمل عند تشيزاري تحت طائلة الموت، موت قاسٍ شديد. إنها مهمة، مهمة مريعة، لكنها مهمة عليه القيام بها رغم ذلك. إن المغزى هو أن قلبه لا يدين بالولاء لسيده الجديد، الذي لن يحظى مطلقًا بالذكاء أو الموهبة للتحكم في التفاحة كليةً. أو على الأقل آمل أن الأمر ليس كذلك. علينا التحلي بالصبر. سنسترجعها ونسترجع معها ليوناردو».

- آمل أن أتحلى بهذا القدر من اليقين.

تنهد ماكيافيلي، وقال في نهاية المطاف: «ربما تكون حكيمًا في شكِّك».

قال إتزيو: «لقد استولت إسبانيا على إيطاليا».

ردَّ ماكيافيلي: «واستولت بلنسية على الفاتيكان، لكن يمكننا تغيير هذا. لدينا حلفاء في مَجْمَع الكرادلة، وبعضٌ منهم يتمتع بالنفوذ والقوة. وهم ليسوا دمًى يُتحكم فيها. وتشيزاري رغم غروره، يعتمد على أبيه

رودريغو في الأمور المالية». ثم حدج إتزيو بنظرة، واستطرد: «لهذا السبب كان عليك التأكد من مقتل هذا البابا المتطفل».

- لم أعرف هذا.

- أستحق اللوم بقدرك تمامًا. كان عليَّ إخبارك. لكن كما قلت، إنه الحاضر الذي ينبغي علينا التعامل معه، وليس الماضي.

- أنت محق.

- نعم محق.

سأل إتزيو بينما ينهار ثور آخر بسيف تشيزاري عديم الشفقة الذي لا يُخطئ: «لكن كيف لهم تدبُّر تكلفة كل هذا؟».

ردَّ ماكيافيلي: «البابا ألكسندر عبارة عن مزيج غريب. إنه مسؤول عظيم وقد فعل بعض الخير للكنيسة، إلا أن جانب الشر فيه يغلب دومًا جانب الخير. لقد تقلد منصب أمين خزانة الفاتيكان لسنوات ووجد طرقًا لجمع المال، ونفعته خبرته في هذا. فهو يبيع ترقيات الكرادلة، مما يجتذب العشرات من الكرادلة إلى صفه بلا ريب. وحتى إنه عفا عن القتلة شريطة امتلاكهم المال الكافي حتى يفلتوا من حبل المشنقة».

- وكيف برَّر هذا؟

- بكل بساطة، يعظ بالقول إنه يُستحسن للمذنب العيش والتوبة بدلًا من الموت وإعفائه من مثل هذا الألم.

لم يقوَ إتزيو على منع نفسه من الضحك، إلا أن ضحكته اتسمت بالكآبة. وقد عاد ذهنه إلى الاحتفالات الحالية للاحتفال بالعام 1500، عام نصف الألفية العظيم. وبالفعل، كان هناك أشخاص يجلدون أنفسهم بالسوط يجوبون أرجاء البلاد في انتظار الدينونة الأخيرة، أو لم ينخدع

الراهب المجنون سافونارولا، الذي وقعت التفاحة تحت سيطرته لفترةٍ وجيزة، والذي هزمه هو بذاته في فلورنسا، بهذه الخرافة؟

كان العام 1500 عام يوبيل عظيم. وتذكر إتزيو أن آلاف الحجاج المفعمين بالأمل شقوا طريقهم إلى الكرسي الرسولي من كل أنحاء العالم. وحتى قد احتفل بالعام في البؤر الاستعمارية الصغيرة عبر البحار البعيدة الممتدة إلى الغرب، في الأراضي الجديدة التي اكتشفها كولومبس، وأكَّد بعده أمريكو فسبوتشي وجودها بعدة سنوات. وتدفقت الأموال على روما حيث اشترى المخلصون صكوك الغفران لتخليص أنفسهم من ذنوبهم في انتظار عودة المسيح إلى الأرض ليدين الجميع، الأحياء منهم والأموات. وتزامن هذا كذلك مع الوقت نفسه الذي شرع فيه تشيزاري في بَسْط سيطرته على المدن المستقلة لمنطقة رومانيا، ومع استيلاء ملك فرنسا على ميلان، مُبررًا أفعاله بزعم أنه الوريث المُستحق، كونه حفيد جان جالياتسو فيسكونتي.

وقد نصب البابا ابنه تشيزاري القائد العام للقوات البابوية، والغونفالونييري للكنيسة الرومانية المقدسة في مراسم عظيمة في صباح الأحد الرابع من الصوم الكبير. وكان في استقبال تشيزاري الصبيان مرتدِين عباءات حريرية وأربعة آلاف جندي يرتدون زيَّه الشخصي. وبدا انتصاره متكاملًا حيث في العام الماضي في شهر مايو تزوج من شارلوت دالبرت شقيقة جون ملك نَبْرة، والملك لويس، ملك فرنسا الذين تحالف معهم آل بورجيا وقد منحه هذا دوقية فالانس. ولكونه كاردينال بلنسية بالفعل، فلا عجب أن الناس قد منحوه لقب فلانتينو نسبةً إليها.

والآن هذا الثعبان الخبيث في ذروة نفوذه.

كيف يتسنى لإتزيو هزيمته؟

طرح هذه الأفكار على ماكيافيلي.

قال نيكولو: «في النهاية، سنستغل غطرستهم من أجل إسقاطهم. لديهم نقطة ضعف، وكل شخص لديه نقطة ضعف. وأنا أعرف نقطة ضعفك».

ردَّ إتزيو سريعًا والغيظ بادٍ عليه: «وما هي؟».

ردَّ ماكيافيلي: «لا أريد أنا أخبرك باسم تلك المرأة. لكن احذر منها»، وحينها قرر تغيير دفة الحديث مستطردًا: «أتذكُر حفلات العربدة؟».

- هل هي مستمرة؟

قال ماكيافيلي: «إنها كذلك بالفعل. لكم يحبها رودريغو، أرفض أن أسميه بالبابا بعد الآن. وعليك أن تعترف بمهارته في ذلك، فهو في السبعين من عمره»، وضحك ماكيافيلي ضحكة استهزاء، ثم اكتسى بالجدية فجأة، وتابع: «سيغرق آل بورجيا تحت وطأة انغماسهم في الملذات».

تذكر إتزيو حفلات العربدة جيدًا فقد شهد إحداها. كان البابا يُقيم عشاء في جناحه ذي الطراز النيروني بالغ الزخرفة والمُذهَّب وحضرته خمسون من أفضل عاهرات المدينة، أو المرافقات، كما يُفضلن تسمية أنفسهن، لكن بالرغم من ذلك فهنَّ عاهرات. ولما انتهى تناول الطعام، أو أيجب تسميته بالإطعام؟ رقصت الفتيات مع الخدم الحاضرين، وبعدها تخففن من ملابسهن. كانت الشمعدانات الموضوعة على الطاولة قد أُنزلت على الأرضية الرخامية، ورمى الضيوف الأعلى رتبة الكستناء المُحمص بينها. ثم أُمرت العاهرات حينها بالزحف على الأرضية على أطرافهنَّ الأربعة مثل البهائم من أجل التقاط الكستناء. ثم انضم الجميع إليهن تقريبًا. وتذكر إتزيو في ازدراء كيف تفرج رودريغو وتشيزاري ولوكريتزيا على هذا. وفي النهاية، منحت الهدايا المؤلفة من عباءات

حريرية وأحذية جلدية جميلة واردة من إسبانيا بالطبع وقبعات من المخمل باللونين التوتي والأصفر مرصعة بالماس والخواتم والأساور وجعبات من البروكاد كلٌّ منها تحتوي على مئة دوك وخناجر وأي شيء تتخيله إلى الرجال الذين تسلُّوا مع العاهرات. وكان آل بورجيا الذين يلهون بعضهم مع بعض هم الحكام الرئيسيين.

***

غادر الحشاشان ملعب مصارعة الثيران وأخفيا نفسيهما بين الجموع التي ملأت الشوارع في باكورة المساء.

قال ماكيافيلي بصوتٍ فيه بعض الحدة: «اتبعني. الآن وقد واتتك الفرصة لرؤية عدوك اللدود وهو في القتال، يُفضل أن تشتري أيَّ معدات تنقصك. واحذر من لفت الانتباه غير اللازم إليك».

وجد إتزيو نفسه مغتاظًا من جديد من ملاحظات الشاب، وقال: «هل فعلت من قبل؟». لم يكن ماكيافيلي قائد الأخوية، فبعد موت ماريو، لم يُنصب أحد في هذا المنصب، ويجب أن تنتهي فترة خلو المنصب هذه عما قريب. أردف إتزيو: «على أيٍّ حال، لديَّ نصلي الخفي».

- والحراس لديهم أسلحتهم النارية. تلك الأشياء التي صنعها لهم ليوناردو، تعرف أن عبقريته لا يمكن كبحها، وهي سريعة التلقيم، كما رأيت، وعلاوةً على ذلك لديهم أسطوانات مُعبأة ببراعة في الجزء الداخلي منها لجعل الطلقة أكثر دقة.

- سأعثر على ليوناردو وأتحدث إليه.

- ربما يتعين عليك قتله.

- إنه ذو قيمة لنا في حياته عن مماته. وقد قلت بنفسك إن قلبه لا يدين لآل بورجيا بالولاء.

قال ماكيافيلي: «لقد قلت ما آمله»، أطرق، ثم تابع: «انظر، إليك بعض المال».

قال إتزيو وهو يأخذ الجعبة المعروضة عليه: «شكرًا».

- ولأنك مدينٌ لي، استمع إلى صوت المنطق.

- ما إن تنطق به، فسأفعل.

ترك إتزيو صديقه وشقَّ طريقه إلى حيٍّ صناع الأسلحة، حيث اشترى لنفسه درع صدر جديدًا وأساور فولاذية وسيفًا وخنجرًا أفضل في الاتزان وأعلى في الجودة مما يملكه. ورغم كل شيء، إلا أنه افتقد واقي الرسغ القديم الخاص بالمخطوطة المصنوع من معدن سري والذي تفادى العديد من الضربات التي لولاه لقتلته. لكن فات الأوان على التحسُّر على فقدانه. عليه الاعتماد على فطنته وتدريبه. إذ لا أحد ولا حادثة يمكن أن يسلبه هذا.

عاد إلى ماكيافيلي الذي انتظره في نُزل، من أجل لقائهما المحدد مسبقًا.

وجده إتزيو في مزاج منفعل.

قال ماكيافيلي: «جيد للغاية، والآن بإمكانك النجاة بحياتك في مسيرة عودتك إلى فلورنسا».

- ربما، لكني لست بعائد إلى فلورنسا.

- حقًّا؟

- ربما عليك أنت ذلك. إنها المكان الذي تنتمي إليه. فأنا لم تعد لي ديار هناك بعد الآن.

فتح ماكيافيلي يديه، وقال: «صحيح أن منزلك القديم قد تهدم. فلم أُرد أن أخبرك بهذا. لكن بلا شك أمك وأختك في أمان هناك الآن. إنها

مدينة بمنأى عن بطش آل بورجيا. فسيدي بييرو سوديريني يُحسن حراستها. يمكنك التعافي هناك».

سرَتْ رعشة في جسد إتزيو عندما تحققت أفظع مخاوفه. ثم استجمع ذاته وقال: «أنا باقٍ هنا. لقد قلتها بنفسك لن ننعم بسلام حتى ننقضَّ على عائلة بورجيا وفرسان الهيكل بأكملهم الذين يخدمونهم».

- يا له من كلام شجاع! وبعد ما حدث في مونترجيوني.

- يا لخستك يا نيكولو. كيف لي أن أعرف أنهم سيجدونني سريعًا؟ أو أنهم سيقتلون ماريو؟

تحدث ماكيافيلي بإخلاص ممسكًا بكتف رفيقه، وقال: «أيًّا ما يحدث يا إتزيو لا بدَّ أن نُعد أنفسنا بحرص. فلا ينبغي لنا الضرب في اندفاعة الغضب. إذ إننا نحارب العقارب، وهي أسوأ من الثعابين! فلها القدرة على الالتفاف حول عنقك وعض إليتك بحركةٍ واحدة. وهم لا يعرفون شيئًا عن الصواب والخطأ، كل ما يعبؤون به هو هدفهم. ورودريغو يُحاوط نفسه بالثعابين والقتلة. وحتى ابنته لوكريتزيا قد صُقلت لتكون أحد أمكر أسلحته، فهي تعرف كل ما يلزم معرفته عن فنِّ القتل بالسم». أحجم عن الكلام، ثم أردف: «غير أنها حتى ليست على القدر نفسه من مهارة تشيزاري».

- تشيزاري ثانيةً.

- إنه طموح وعديم الرحمة وقاسٍ لأبعد مما تتصوره مخيلتك، حمدًا للرب! إنه لا يعبأ بقوانين بني البشر. إذ قد قتل أخاه شخصيًّا، دوق غانديا ليشق طريقه إلى السلطة المطلقة. ولن يوقفه شيء.

- سوف أدمره.

- فقط حال لم تكن مندفعًا. ولا تنسَ أن التفاحة بحوزته. لتساعدنا السماء إن كان بالفعل يعرف مكنون قواها.

خطر ليوناردو على بال إتزيو، واعترته انفعالة، فليوناردو يفهم التفاحة تمام الفهم...

استرسل ماكيافيلي: «إنه لا يُبالي بالخطر ولا بالتعب. فالذين لا يسقطون بسيفه، يطالبون بالانضمام إلى صفوفه. إذ سيقت عائلتا أورسيني وكلونا وأُجبرتا على الركوع عند قدميه، والملك لويس ملك فرنسا يسانده». توقف ماكيافيلي عن الكلام ثانيةً متفكرًا، وتابع: «لكن على الأقل سيبقى الملك لويس حليفه ما دام مستفيدًا منه...».

- أنت تبالغ في تقدير الرجل.

بدا أن كلمته لم تصل إلى مسامع ماكيافيلي، إذ كان غارقًا في بحر أفكاره: «ما الذي يعتزم فعله بكل ذاك النفوذ والمال؟ ما دافِع هذا الرجل؟ ذاك الشيء الذي ما زلت أجهله. لكن يا إتزيو»، استطرد وعيناه ثابتتان على صديقه: «تشيزاري يضع عينيه على كل إيطاليا، وبهذا الشكل سيستولي عليها».

تردد إتزيو مذهولًا: «أهذه... أهذه نبرة *إعجاب* أسمعها في صوتك؟».

تصلب وجه ماكيافيلي، وقال: «إنه يعرف كيف ينفذ إرادته، وهي ميزةٌ نادرة في العالم حاليًّا، وهو ذاك النوع من الرجال الذي له قدرة على تطويع العالم لإرادته».

- ما الذي تعنيه بالتحديد؟

قال ماكيافيلي: «الأمر ببساطة أن الناس يحتاجون إلى شخصٍ يتطلعون إليه، أو يعبدونه حتى. قد يكون الرب أو المسيح، غير أن أفضل من هذا، شخص يمكنك رؤيته حقيقة، وليست مجرد صورة. رودريغو،

تشيزاري، أو حتى ممثل أو مغنٍّ عظيم، ما داموا مهندمي الملبس ويؤمنون بأنفسهم. أما البقية فتأتي بطريقةٍ منطقية تمامًا». ارتشف ماكيافيلي بعضًا من الخمر، وأردف: «إنه جانب من تكويننا، كما ترى. إن هذا لا يستهويني أنا ولا أنت ولا ليوناردو، لكن هنالك أناس لديهم نَهَم أن يكون لهم أتباع وهم الأخطر»، أنهى مشروبه وتابع: «ولحسن الحظ، يمكن كذلك التلاعب بهم من قبل أشخاص مثلي».

- أو يهلكون على يد أشخاص مثلي.

جلسا في صمتٍ طال قليلًا.

ثم سأله إتزيو: «مَن الذي يتولى قيادة الحشاشين الآن بما أن ماريو مات؟».

- يا له من سؤال! إننا في حالة من الفوضى وهناك عدد من المرشحين. إنه أمرٌ مهم لا شك، وسيُتخذ القرار في الوقت المناسب. وفي الوقت الحالي، هيًّا لدينا عمل نقوم به.

***

قال إتزيو مقترحًا: «أيجب علينا أن نصطحب الأحصنة؟ ربما يكون نصف روما قد انهار، لكنها لا تزال مدينة كبيرة».

- إنه أمرٌ سهل قوله، صعب تطبيقه. فبما أن فتوحات تشيزاري في منطقة رومانيا تتسع، ومع بسطه لسيطرته على معظم المنطقة في الوقت الحالي، تزداد قوة آل بورجيا، فهم قد استولوا على أفضل الأماكن في المدينة وأخذوها لأنفسهم. ونحن في منطقةٍ تخصُّ آل بورجيا الآن. ولن نحصل على الأحصنة من الإسطبلات هنا.

- إذن فإرادة آل بورجيا هي القانون الوحيد السائد هنا في الوقت الحالي؟

- ما الذي ترمي إليه يا إتزيو؟ وهل تقصد أنني أوافق على ذلك؟

- لا تتظاهر بالغباء معي يا نيكولو.

- أنا لا أتظاهر بالغباء مع أحدٍ؟ هل لديك خطة؟

- سنرتجل.

مشيا باتجاه مكان الإسطبلات المحلية التي تعرض خيولًا للإيجار، سالكين الشوارع حيث، لاحظ إتزيو، وجود العديد من المحلات التي يفترض أن تكون فاتحة أبوابها، مغلقة. ما الذي يحدث؟ اتضح أنه كلما اقتربا، زاد عدد الحراس المرتدين للأزياء التوتية والصفراء وزاد خطرهم. كما لاحظ إتزيو أن ماكيافيلي يزداد توترًا.

لم يستمر الحال طويلًا، فقد اعترض طريقهم واحد من الرقباء ضخم الجثة يتقدم اثني عشر قاطع طريق أو يزيد فظيعي المنظر ويرتدون زيًّا موحدًا.

بادر الرجل إتزيو بالسؤال: «ما شأنكما هنا؟».

همس ماكيافيلي: «هل حان وقت الارتجال؟».

ردَّ إتزيو بنبرةٍ فاترة على الرقيب: «نريد استئجار بعض الخيول».

أطلق الرقيب ضحكة عالية، وقال: «لن تفعلا هذا هنا يا صاح. امضيا في طريقكما». وأشار إلى الطريق الذي قد جاءا منه.

- أهو غير مسموح؟

- لا.

- لمَ لا؟

استلَّ الرقيب سيفه وحذا الحراس الآخرون حذوه. وثبَّت سنَّ سيفه على عنق إتزيو ودفعه بعض الشيء، وعلى إثره هذا خرجت قطرة دم. وقال: «تعلم ما فعل الفضول بالقط، أليس كذلك؟ والآن اغرب عن وجهي!».

وبحركةٍ تكاد تكون غير مرئية أخرج إتزيو النصل الخفي سريعًا فبَتر النصل أوتار معصم الرقيب الحامل السيف، فسقط السيف أرضًا مُصدرًا صوت قرقعة. أطلق الرقيب صيحة مدوِّية وراح يتلوى وهو يمسك بجرحه. في الوقت ذاته، قفز ماكيافيلي للأمام وضرب بسيفه بحركةٍ دائرية واسعة أقرب ثلاثة حراس، فتراجعوا جميعًا للوراء مذهولين من الشجاعة المفاجئة للرجلين.

أدخل إتزيو سريعًا النصل الخفي، وبحركة انسيابية أخرج السيف والخنجر من غمديهما. كانت أسلحته انسيابية ومتأهبة في الوقت المناسب لقتل أول اثنين من مهاجميه اللذين استعادا شيئًا ما من رباطة جأشيهما وتقدما للأمام للانتقام لرقيبهم. ولم يتمتع أيٌّ من رجال آل بورجيا بالمهارة في استعمال الأسلحة اللازمة لمواجهة أيٍّ من إتزيو أو ماكيافيلي، كان تدريب الحشاشين من نوعٍ مختلف تمامًا. ورغم هذا لم تكن الفرص في صالح الحليفَين، فقد كانا مغلوبَين بالكثرة العددية. غير أن الشراسة غير المتوقعة لهجماتهما منحتهما أفضلية لا تُضاهى.

ولذهول الرجال التام من هول المفاجأة وعدم الاعتياد على الخروج بنتائج سيئة في أيٍّ مواجهة، سرعان ما تفرقوا. إلا أن جلبة الشجار أثارت الانتباه، فأتى رجال بورجيا على وجه السرعة، بما يزيد على مجموعتين مؤلفتين من أربعة وعشرين رجلًا إجمالًا. وقد أُرهق ماكيافيلي وإتزيو من الأعداد الكبيرة ومن المجهود المبذول من أجل مواجهة العديد من الرجال دفعةً واحدة. ونُحي رونق الأسلوب الذي تمكنا من القتال به

جانبًا وحلَّ شكلٌ أسرع وأكثر كفاءة من المبارزة بالسيف، وهو القتل في ثلاث ثوانٍ، ضربة واحدة بالسيف تكفي. صمد الرجلان وأطلَّ الإصرار الشديد من وجهيهما، وفي نهاية المطاف كان خصومهما ما بين هاربٍ أو مطروح بجرحه أو قتيل أو يحتضر تحت قدميهما.

قال ماكيافيلي وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة: «يُستحسن لنا الإسراع. ولا يعني أننا أرسلنا بعضًا من خدم آل بورجيا إلى خالقهم أننا سنصل إلى الإسطبلات. العديد من الأناس العاديين لا يزال يتملكهم الخوف ولهذا السبب لن يُفتح الكثير منهم محلاتهم».

وافقه إتزيو الرأي: «أنت محق. نريد أن نرسل إليهم إشارة. انتظرني هنا».

واشتعلت نيران في كانون على مقربةٍ منهما. أخذ إتزيو منها جذوة، ثم قفز إلى سور الإسطبل، حيث تُرفرف في النسيم العليل راية آل بورجيا ذات الثور الأسود في الحقل الذهبي. أشعلها إتزيو وفي أثناء احتراقها انفتح باب متجر أو اثنان في حذر وكذلك بوابات الإسطبلات.

هتف إتزيو: «هذا أفضل!». ثم التفت إلى الحديث مع الحشد الصغير الذي اعتراه بعض التشكُّك في الوقت ذاته. وقال: «لا تهابوا آل بورجيا، ولا تخضعوا لهم فأيامهم معدودة وقد آن أوان تصفية الحسابات معهم».

توافد الكثير من الناس، وهم يرفعون أصواتهم بالهتاف.

قال ماكيافيلي: «سيعودون».

- أجل، سيفعلون. لكننا أرينا هؤلاء الناس أنهم ليسوا الطغاة مُطلقي القوة كما تصوروهم.

قفز إتزيو من على السور إلى باحة الإسطبل حيث لحق به ماكيافيلي. واختارا على وجه السرعة حصانين قويين وأسرجاهما.

قطع إتزيو وعدًا للسائس المسؤول عن الإسطبل: «سنعود. حريٌّ بك تنظيف هذا المكان بعض الشيء، بما أنك تستعيد ملكيته ثانيةً بموجب حقك».

قال الرجل: «سنفعل يا سيدي»، لكن الخوف لم يغادره.

- لا تقلق، فلن يؤذوك الآن بعدما رأيتهم وهم يُهزمون.

- كيف لك أن تتوقع هذا يا سيدي؟

- إنهم يحتاجون إليك. فلا يستطيعون تدبر أحوالهم من غيرك. فقط أظهِر لهم أنه لا يقوى أحد على التلاعب بك أو الاستعلاء عليك وسيتملقون لك من أجل مساعدتهم.

- سيشنقوننا أو يفعلون بنا ما هو أسوأ من هذا.

- هل تريدون قضاء بقية عمركم ترزحون تحت أغلالهم؟ قاوِموهم. وسيصغون إلى طلباتكم المنطقية، فطغيان الطغاة لا يدوم إن لم ينصَع له الكثير من الناس.

أخرج ماكيافيلي الذي كان على ظهر حصانه مفكرة صغيرة ودوَّن فيها شيئًا وهو يبتسم بينه وبين نفسه. ثم قفز إتزيو فوق السرج بحركةٍ سريعة.

قال إتزيو: «أظن أنك قلت إننا على عجالة من أمرنا».

- إننا كذلك. أنا فقط كنت أُدوِّن ما قلته.

- آمل أن أشعر بالإطراء بسبب هذا.

- أوه، أجل ينبغي لك. بربك.

واصل ماكيافيلي حديثه وهما في سيرهما: «أنت بارعٌ في فتح الجراح يا إتزيو، لكن أتقدر كذلك على مداواتها؟».

- أعتزم مداواة المرض الكامن في قلب مجتمعنا، وليس علاج الأعراض فحسب.

- إنه كلام شجاع، لكنك لستَ مضطرًّا للجدال معي، لأننا في الجانب نفسه، لا تغفل عن هذا. أنا أوضح وجهة نظر أخرى فحسب.

قال إتزيو متوجسًا: «هل هذا اختبار. إذا كان الأمر كذلك، لنتحدث بصراحة. أعتقد أن موت رودريغو بورجيا لم يكن ليحل مشكلاتنا».

- حقًّا؟

- حسنًا، أقصد انظر إلى هذه المدينة. إن روما هي مركز حكم آل بورجيا وفرسان الهيكل. وما قلته لتوِّي لسائس الإسطبل صحيح. فمقتل رودريغو لن يُبدل الأمور، وبالتأكيد قطْع رأس الرجل يعني إنهاء حياته. لكننا نتعامل مع رجلٍ أشبه بوحش الهيدرا.

- أفهم ما ترمي إليه، مثل الوحش ذو الرؤوس السبعة الذي تعين على هرقل قتله، وحتى مع ذلك فإن الرؤوس تنمو من جديد حتى عرف خدعة تمنع حدوث هذا.

- بالضبط.

- إذن، أنت تقترح أن نطلب تأييد الشعب؟

- ربما. ومَن غيره؟

- اعذرني يا إتزيو، لكن الشعب متقلب، والاعتماد عليه كالبناء على الرمال.

- أخالفك الرأي يا نيكولو. فإيماننا بالإنسانية هو جوهر عقيدة الحشاشين.

- وهذا شيء تنوي اختباره؟

كان إتزيو على وشك الرد، لكن في تلك اللحظة ركض لصٌّ شاب بجانبهما، وبسكينه قطع بسرعة وبراعة الخيوط التي تربط جعبة نقود إتزيو بحزامه.

هتف إتزيو: «ماذا بحق...!».

ضحك ماكيافيلي، وقال: «لا بدَّ أنه من دائرة معارفك المقربين. تطلع فيه كيف يركض! ربما تكون درَّبته أنت بنفسك. اذهب واستعِدْ ما سرقه. إننا نحتاج إلى هذا المال. سأوافيك عند ساحة كامبيدوجليو عند تلة الكابيتولين».

أدار إتزيو حصانه وعدا مسرعًا سعيًا وراء اللص. ركض الرجل في أزقة ضيقة جدًّا ليسلكها الحصان واضطر إتزيو للالتفاف، واعتراه القلق من احتمالية ضياع هدفه لكن في الوقت نفسه يعرف أنه لو ركض وراءه على قدميه فإن الشاب سيتفوق عليه في الركض بكل تأكيد، وهو ما أجَّج إحساس المرارة بداخله. ومن حركات الرجل، بدا كأنه قد تلقى تدريب الحشاشين. لكن كيف يمكن هذا؟

في نهاية المطاف، طوق الرجل في زقاق مسدود واستعان بجسم الحصان ليوقف الرجل عند حائط النهاية المسدودة. وقال بنبرة فاترة وهو يستل سيفه: «أعِد ما أخذته».

بدا الرجل كأنه ما يزال مُصرًّا على الهروب، لكن لما رأى كيف أن موقفه ميؤوس منه، تهدل جسمه ورفع يده التي كانت تمسك بالجعبة في صمت. انتزعها منه إتزيو وأخفاها عن الأنظار في أمان. وفي أثناء قيامه بهذا ترك حصانه يرجع إلى الوراء مسافة صغيرة جدًّا، وفي غمضة عين تسلق الرجل السور بسرعة فائقة واختفى في الجانب الآخر.

هتف إتزيو قائلًا: «مهلًا! عُد إلى هنا! لم ينتهِ الأمر بيننا بعد!»، لكن الرد الذي سمعه هو صوت قدمين تهربان بعيدًا. تنهد إتزيو وتجاهل الجمع الصغير الذي احتشد وأدار الحصان باتجاه تلة الكابيتولين.

***

كان الغسق قد خضب السماء لما لحق إتزيو بماكيافيلي.

- هل حررت مالك من صديقنا؟

- أجل لقد فعلت.

- انتصار صغير.

- لكنه يُحسب لنا وفي الوقت المناسب سنحقق المزيد بالعمل.

قال ماكيافيلي: «لنأمل أن ننجح في هذا قبل أن تقع أنظار تشيزاري علينا ونُهزم ثانيةً. لقد كان نجاحه بحق الجحيم وشيكًا في مونترجيوني. والآن لنواصل المضي قدمًا». وهمز حصانه ليحثه على السير.

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى مُدرج الكولوسيوم. لدينا موعد مع فينتشو، أحد معارفي.

- وماذا بعد...؟

- أتوقع أن يكون في جعبته شيء لي. هيًّا.

وبينما يسلكان طريقهما عبر المدينة باتجاه الكولوسيوم، علق ماكيافيلي متهكمًا على العديد من المباني الجديدة التي أنشأها البابا ألكسندر السادس خلال توليه منصبه.

- انظر إلى كل تلك الواجهات التي تتنكر في هيئة مبانٍ حكومية. إن رودريغو يتمتع بالذكاء البالغ في الطريقة التي يُبقي فيها هذا المكان قيد العمل. وهذا يخدع أصدقاءك «الشعب» بسهولة كبيرة.

- متى أصبحت متشائمًا لهذا الحد؟

ابتسم ماكيافيلي، وقال: «أنا لست متشائمًا مطلقًا. أنا فقط أصف *روما* على حالها اليوم. لكنك محق يا إتزيو، ربما أنا لاذع بعض الشيء، ومتشائم في كثيرٍ من الأحيان. لا يزال يلوح أملٌ. والبُشرى أن لدينا حلفاء في المدينة، سوف تقابلهم. ولا يخضع مَجْمَع الكرادلة كليةً لسيطرة رودريغو بالقدر الذي يرغب فيه، غير أنه أمر غير مُتيقَن منه...».

- ما الأمر غير المُتيقَن منه؟

- نجاحنا المطلق.

- علينا المحاولة فحسب، فالاستسلام طريق مؤكد للفشل.

- مَن أتى على ذكر الاستسلام؟

قطعا طريقهما في صمت حتى وصلا إلى الهيكل الخَرِب لطَلل مدرج الكولوسيوم، المبنى الذي لا تزال تلوح فيه، بالنسبة إلى إتزيو، الأهوال التي لا تُنسى للمباريات التي جرت هناك منذ ألف عام مضت. ولفت انتباهه في الحال مجموعة من قوات آل بورجيا معهم رسول بابوي. كانت سيوفهم مسلولة ومطاردهم موجهة بوحشية ويحملون مشاعل تومض وميضًا أحمر وكانوا يضايقون رجلًا صغير البنية يبدو عليه الانزعاج.

قال ماكيافيلي بنبرة هادئة: «تبًّا، إنه فينتشو. لقد وصلوا إليه أولًا».

أبطأ الرجلان من سرعة حصانيهما بينما يقتربان من المجموعة في هدوء وبالقدر الممكن من الحذر ليستفيدا أقصى استفادة من عنصر المفاجأة. وفي اقترابهما، سمعا مقتطفات من الحديث الدائر.

كان أحد الحراس يسأل: «ما الذي في جعبتك؟».

- لا شيء.

- تحاول سرقة رسالة رسمية تخص الفاتيكان، أليس كذلك؟

- عذرًا يا سيدي، لا بدَّ أنك مخطئ.

قال حارس آخر وهو ينكز الرجل بالمطرد: «لا يوجد خطأ أيها اللص الحقير».

- لصالح مَن تعمل أيها اللص؟

- لا أحد.

- جيد، إذن لن يأبه أحد لما يحدث لك.

قال ماكيافيلي: «لقد سمعت ما يكفي. علينا أن ننقذه ونحصل على الرسالة التي يحملها».

- رسالة؟

- بربك!

غرز ماكيافيلي كعبيه في خاصرتَي الحصان، فاندفع الحصان المتفاجئ للأمام بينما يُحكم ماكيافيلي الإمساك بلجامه. شَبَّ الخيل الجامح على قدميه الخلفيتين وراحت قدماه الأماميتان تركلان بشدة وداستا على صدغ أقرب حارس من حراس آل بورجيا، ما جعل خوذته تنسحق في جمجمته. وسقط الرجل كالحجر. في حين التفَّ ماكيافيلي بجسده إلى اليمين، ومال للأسفل عن سرجه. وفي وصوله إلى الأسفل سدد ضربة وحشية بسيفه إلى كتف الحارس الذي كان يُهدد فينتشو. أسقط الرجل المطرد من فوره وانهار من جرَّاء الألم المستعر في كتفه. حفَّز إتزيو حصانه ليندفع للأمام، ومال باتجاه الحارسين الآخرين واستعان برمانة سيفه لتسديد ضربه قاتلة شديدة على رأس الرجل الأول وصفع الرجل الثاني على عينيه بجانب السيف المسطح. تبقى حارس واحد. ولارتباكه من الهجمة المفاجئة لم يلحظ فينتشو وهو يمسك بمقبض مِطرده وشعر بنفسه يندفع للأمام. وكان خنجر فينتشو في انتظاره، فشقَّ حلق الرجل. وسقط مُصدرًا صوت غرغرة مروعًا بفعل امتلاء رئتيه بالدم. وللمرة الثانية منح عنصر المفاجأة

الحشاشين الأفضلية، فجنود آل بورجيا لم يكونوا معتادين على ما يبدو على المقاومة الفعالة لمضايقاتهم. لم يهدر فينتشو أيَّ وقت وأشار إلى الطريق العام الرئيسي المؤدي من الساحة الرئيسية. أمكن رؤية حصان يصدر جلبة من بعيد في الساحة، ووقف الرسول بثبات في رِكابه وهو يحثُّ حصانه على السير.

أصدر ماكيافيلي أمره قائلًا: «أعطني الرسالة، لا تتلكأ!».

صاح فينتشو وهو يشير باتجاه الجواد الهارب: «لكنها ليست بحوزتي، بل معه. لقد أخذوها مني».

صرخ ماكيافيلي على إتزيو: «الحق به! مهما كلف الأمر، احصل على هذه الرسالة وأحضرها لي في حمامات دقلديانوس بحلول منتصف الليل. سأكون في انتظارك.

ركب إتزيو حصانه وانطلق في مطاردته.

كانت ملاحقة الرسول أيسر من الإمساك باللص. إذ كان حصان إتزيو أفضل من حصان الرسول، ولم يكن الرجل الذي يطارده مقاتلًا. فقد سحبه إتزيو من على الحصان بسهولة. لأنه لم يُحبذ قتل الرجل، لكنه لم يستطع تحمل مسؤولية إطلاق صراحه ودقِّه ناقوس الخطر. قال إتزيو بهدوء بينما يشق حلقه: «ارقد بسلام». ووضع الرسالة، مغلقة، في جعبة حزامه وصنع حبلَ جرٍّ من لجام حصانه ليتسنى له أخذ حصان الرسول معه. ثم أدار حصانه واتجه نحو أطلال حمامات دقلديانوس.

كان الظلام حالكًا في هذا التوقيت، إلا من بعض الأماكن حيث خفتَ لهيب المشاعل المعتادة الموضوعة في حوامل المشاعل المثبتة بالجدران. وكي يصل إتزيو إلى الحمامات، عليه قطع فسحة كبيرة من الأرض الخراب وفي منتصف الطريق شبَّ الحصان على خلفيتيه وصهل في فزع. وفعل مثله الحصان الآخر، فانشغل إتزيو بتهدئتهما. وعلى حين غرة وصل إلى أذنيه صوت تقشعر له الأبدان، أشبه بعواء الذئاب،

غير أنه لم يشبهه تمامًا، بل ربما أسوأ منه. كان الصوت أكثر شبهًا بالأصوات البشرية التي تقلد الحيوانات. أدار حصانه في الظلام وفك حبل الجر الذي صنعه. وحالما حرر حصان الرسول، أطلق الحصان سيقانه للريح وعدا هاربًا في ظلمة الليل. أملَ إتزيو أن يصل إلى منزله بسلام وأمان.

ولم يحظَ بمتسع من الوقت حتى يتفكر في هذا الأمر حيث وصل إلى الحمامات المهجورة. لم يكن ماكيافيلي قد وصل بعد، ولا شكَّ أنه انطلق مجددًا في واحدة من مهماته الخاصة الغامضة في المدينة، لكن حينها...

من بين التلال الصغيرة وكتل العشب التي نمت فوق بقايا المدينة الرومانية القديمة، ظهرت مخلوقات وأحاطت به. أشخاص لها مظهر وحشي، ولم يكن بينهم وبين البشر إلا شبه طفيف. وقفوا منتصبي القامة، لكن كانت لهم آذان طويلة وخطوم ومخالب وأذيال، ويغطي جسدهم شعر رمادي أشعث. بدت عيونهم كأنها تلمع باللون الأحمر. سحب إتزيو نفسًا طويلًا، فماذا كانت هذه المخلوقات الشيطانية؟ دارت عيناه في أرجاء الأطلال، فوجد أنه محاط بما لا يقل عن اثني عشر مستذئبًا. أخرج إتزيو سيفه من غمده مجددًا، إذ بدا أنه لا يعيش أفضل أيامه.

انقضت تلك المخلوقات الشبيهة بالذئاب على إتزيو مطلقة أصوات زمجرة وعواء. ولما اقتربت من إتزيو، رأى إتزيو أنهم كانوا بشرًا مثله، ولكن على ما يبدو يتلبسهم الجنون، مثل بعض المخلوقات عندما تعتريها حالة من النشوة الروحانية. كانت أسلحتهم بمنزلة مخالب فولاذية طويلة وحادة مخيطة في أطراف قفازات ثقيلة، وبتلك المخالب أخذوا يضربون ساقَي إتزيو وخاصرتَي الحصان، محاولين إسقاطه.

نجح إتزيو في إبعادهم بسيفه، ولأن ملابسهم التنكرية لم يبدُ أنها مزودة بدرع مزرود أو أيٍّ وسيلة حماية تحت جلود الذئاب، واستطاع إصابتهم بنصل سيفه الحاد. فقطع ذراع أحد المخلوقات من عند المرفق وانسلَّ مسرعًا، مطلقًا عواء مخيفًا في الظلام. بدت المخلوقات الغريبة عدائية أكثر عن كونها تتمتع بمهارة في القتال، ولم تكن أسلحتها تضاهي سن سيف إتزيو شديد السرعة. أسرع إتزيو بالتقدم نحوهم، شاقًّا جمجمة مخلوق ثانٍ وثاقبًا عين ثالثٍ. فسقط المستذئبان من فورهما، ولحقتهما إصابات خطِرة من ضربات إتزيو. حينها بدا المستذئبان الآخران مترددين في مواصلة هجومهم، فاختفوا في الظلام أو في الوديان والكهوف التي شكلتها الأطلال المكسوة بالأعشاب المحيطة بالحمامات. لاحقهم إتزيو وثقب فخذ أحد مهاجميه المحتملين، في حين سقط آخر تحت حوافر حصانه، فأدى إلى كسر ظهره. وباجتيازه مخلوقًا سادسًا، مال إتزيو للأسفل ودار للخلف وشقَّ بطن الرجل فتبعثرت أمعاؤه على الأرض وتعثر وسقط فوقها صريعًا.

وأخيرًا ساد الصمت في المكان.

هَدَّأ إتزيو حصانه ووقف في رِكابه، وحاول اختراق الظلام بعنينه وأذنيه من أجل التقاط علامات لم تستطع عينيه رؤيتها. في اللحظة الحالية ظن أنه سمع صوتَ أنفاس مضطربة ليس ببعيد منه، غير أن شيئًا لم يكن ظاهرًا. حثَّ حصانه على السير وسلك طريقه سريعًا نحو مصدر الصوت.

بدا أن الصوت آتٍ من عتمة كهف ضحل شكله نتوء قوس متهدم وتُغطيه النباتات المعترشة والأعشاب. نزل إتزيو وربط حصانه بإحكام في جذع شجرة، ثم فرك نصل سيفه بالتراب حتى لا يلمع ويكشف موقعه وتقدم للأمام متوخيًا الحذر الشديد. وللحظة خاطفة ظن أنه قد رأى وميض لهب في جوف الكهف.

وبينما يتحرك للأمام في حذر شديد، باغتته الخفافيش فوق رأسه ثم خرجت إلى ظلام الليل. وانتشرت في المكان رائحة فضلاتها الكريهة. وأخذت حشرات غير مرئية وكائنات أخرى بلا شك تزحف وتُخشخش وهي تبتعد من طريقه. لعنها إتزيو بسبب صوت الجلبة الذي أحدثته إذ قد بدا أنها مرتفعة بشدة كصوت الرعد بالنسبة إليه، لكن الكمين، إن كان ثمة واحد، لم يظهر بعد.

ثم رأى اللهب مجددًا، وسمع ما يجزم بأنه كان أنينًا خافتًا. وأدرك أن الكهف أعمق مما أوحى به القوس المتهدم، وأن ممره منحوت بدقة وفي الوقت نفسه ضيق ويؤدى إلى ظلمة أشد. وفي اتباعه للمنعطف بان أن ومضات اللهب التي لمحها من قبل كانت نارًا صغيرة، وفي ضوئها رأى هيئة مخلوقٍ أحدب.

زاد انتعاش الهواء في ذاك الموضع، فلا بدَّ من وجود منفذ تهوية في مكان ما في السطح لم يره. ولهذا يصل الهواء للنار. وقف إتزيو ولم يحرك ساكنًا وراقب الوضع.

رفع المخلوق متألمًا يده اليسرى المقززة الهزيلة وسحب قضيبًا من الحديد من طرفه كان موضوعًا في النار. وكان طرفه الآخر أحمر ملتهبًا بفعل الحرارة، وسحبه المخلوق بيدٍ مرتعشة واستعدَّ ليضع الطرف على الجَدَعة المبتورة النازفة في ذراعه الأخرى، وكَتم صراخه وهو يحاول كيَّ الجرح.

كان ذاك المخلوق هو المستذئب الذي ضربه إتزيو.

وفي اللحظة التي انصبَّ فيها تركيز الرجل على ألمه وما كان يفعله، تقدم إتزيو نحوه. لكنه تأخر للغاية، إذ أسرع المخلوق وهمَّ بالهروب، لكن إتزيو شدد من إمساك قبضته على ذراع المستذئب السليمة. كان أمرًا عسيرًا، لأن ذراع المستذئب كان زلقًا بفعل الشحم، وكانت الرائحة الكريهة التي أطلقها المخلوق في أثناء تحرُّكه خانقة، لكن إتزيو أحكم

قبضته عليه. قال إتزيو له وهو يلتقط أنفاسه ويركل القضيب الحديدي بعيدًا: «ماذا تكون بحق الجحيم؟».

كان الرد الذي تحصَّل عليه إتزيو هو: «أرجج». لطم إتزيو الرجل بشدة على رأسه بقبضته الأخرى التي لا تزال بداخل القفاز الزردي. تدفق الدم قرب عين الرجل اليسرى وتأوه من شدة الألم.

- مَن تكون؟ تحدث!

«أرجج»، ولما فتح فمه ظهرت مجموعة من الأسنان المتكسرة المائلة للرمادي، وكانت رائحته كريهة للغاية لدرجة أن رائحة العاهرة المخمورة تبدو عطرة مقارنة برائحته.

قال إتزيو: «تحدث»، ودفع إتزيو سنَّ السيف في الجَدَعة المبتورة وأداره في لحمه. فلم يكن لديه الوقت الكافي ليعبث مع حطام شخص. فقد ساوره القلق على حصانه.

أطلق المخلوق صرخة ألم ثانيةً: «أرجج!»، ثم خرج صوت خشن غير مفهوم في نخره غير الواضح يتحدث بإيطالية جيدة، وقال: «أنا تابع لطائفة الذئاب».

- طائفة الذئاب؟ ما هذا بحق الجحيم؟

- ستعرف هذا. فما فعلته الليلة...

قال إتزيو مشددًا قبضته: «أوه، اخرس»، وأجج النار حتى يزداد ضوؤها وراح ينظر في الأنحاء. وحينها وجد أنه كان في حجرة مُقبَّبة، وربما نُحتت مجوفة عن قصد. ولم تزدحم بالكثير من الأغراض، بل احتوت فحسب على بضعة مقاعد وطاولة سميكة عليها حفنة من الأوراق مثبتة بحجر.

- سيرجع إخوتي عما قريب، وحينها...

جذبه إتزيو إلى الطاولة وأشار بالسيف إلى الأوراق، وسأله: «وتلك؟ ما تلك الأوراق؟».

نظر الرجل إليه وبصق، قرب إتزيو سنَّ سيفه من الجَدَعة المبتورة النازفة مجددًا.

صاح الرجل: «لا! ليس مجددًا!».

نظر إتزيو إلى الأوراق، وقال: «إذن أخبرني». وحانت اللحظة التي أنزل فيها سيفه، ولو لفترة وجيزة، حتى يُمسك بالأوراق. وحوت الأوراق بعض الكتابة بالإيطالية وبعضها الآخر باللاتينية، لكن حوت كذلك بعض الرموز الأخرى، والتي بدت في شكلها كالكتابة، لكنه لم يستطع فك رموزها.

ثم سمع صوت خشخشة آتيًا من الاتجاه الذي أتى منه. لمعت عين المستذئب وقال: «أسرارنا».

وفي اللحظة ذاتها، اقتحم الحجرة مخلوقان آخران وراحا يعويان ويضربان الهواء بمخالبهما الفولاذية. استطاع أسير إتزيو الإفلات من بين يديه، وكان سينضم إليهما لولا أن إتزيو قطع رأسه عن كتفيه وأرسله يتدحرج على الأرضية باتجاه صديقيه. واستدار سريعًا إلى الجانب الآخر من الطاولة واقتنص الأوراق وألقى بالطاولة على خصميه.

خفت ضوء النار، واحتاجت النار إلى التأجيج مجددًا، إما بهذا أو بإضافة المزيد من الزيت. أُجهدت عينا إتزيو في تحديد المستذئبين المتبقين. فقد كانا كالظلال الرمادية في الغرفة. عاد إتزيو إلى الظلام مرة أخرى، وأخفى الأوراق في ردائه وانتظر.

ربما يتمتع المستذئبون بقوة المجانين، لكنهم لا يملكون المهارة الكبيرة في القتال، إلا ربما في فن إخافة الناس حد الموت. وهم بلا ريب لا يمكنهم الحفاظ على هدوئهم أو التحرك خفية بلا صوت. واستطاع إتزيو باستخدام أذنيه أكثر من عينيه محاصرتهما، ملتفًّا حول الجدارين

حتى عرف أنه خلفهما، في حين ظننا أنه كان لا يزال في مكانٍ ما في الظلام أمامهما.

لم يكن ثمة الكثير من الوقت لإضاعته. أغمد إتزيو سيفه، وأطلق النصل الخفي، فخرج نصله صامتًا كما لو أن ذئبًا حقيقيًّا واقفًا من خلفهما وأحكم قبضته على واحد منهما من الخلف ثم شقَّ حلقه. مات المستذئب من فوره في صمت، وأرخى إتزيو قبضته عن الجسم ليسقط على الأرض في هدوء. فكر في القبض على الآخر، لكن لم يملك الكثير من الوقت للاستجواب. ربما يوجد الكثير منهم، ولم يكن إتزيو متيقنًا من تمتعه بالقوة الكافية لقتال المزيد. واستطاع إتزيو أن يستشعر خوف الرجل الآخر، الذي تأكد لما تخلى عن تزييف شخصيته، ونادى بقلق في الظلام الصامت، «ساندرو؟».

سهل حينها تحديد موضعه، ومرة أخرى كان العنق المكشوف هو الهدف الذي طمح إليه إتزيو. وفي هذه المرة، بالرغم من هذا، استدار الرجل وهو يضرب الهواء الذي أمامه في فزع بمخالبه. كان بإمكانه رؤية إتزيو، لكن إتزيو تذكر أن هذه المخلوقات لا ترتدي درع الزرد تحت ملابسهم التنكرية. فأدخل النصل الخفي وبخنجره الأكبر والأقل سلاسة، شق صدر الرجل. لمع القلب والرئتين المكشوفتين في ضوء النار الذي يخبو في أثناء سقوط آخر مستذئب على وجهه في النار. وأنذرت رائحة شعر ولحم يحترقان بأنه على وشك الاختناق، لكنه قفز للخلف وشق طريقه بأقصى سرعة ممكنة، وهو يكبح خوفه خارجًا إلى نسيم الليل النقي.

وبمجرد خروجه وجد أن المستذئبين لم يمسوا حصانه. ربما تأكدوا تمام التأكد من الإيقاع به ليشغلوا أنفسهم بقتله أو اقتياده بعيدًا. ففكَّ إتزيو وثاقه، اعترته ارتجافة شديدة بدرجةٍ صعب معها ركوب الحصان. فأعرض عن هذا وأمسك بلجامه وقاده رجوعًا إلى حمامات دقلديانوس.

أمل أن يكون ماكيافيلي موجودًا هناك وأن يكون مسلحًا تسليحًا جيدًا. ولو أنه لا يزال معه مسدس المخطوطة فحسب، أو أحد تلك الأشياء التي يصنعها ليوناردو لسيده الجديد. لكن على الأقل شعر إتزيو بالرضا من معرفته بأنه لا يزال بإمكانه الفوز بالقتالات باستخدام فطنته وتدريبه، شيئان لم يتمكنوا من تجريده منهما إلى اليوم الذي يضعون فيه قبضتهم عليه ويعذبونه حتى الموت.

***

توخى إتزيو تمام الحذر في رحلة العودة القصيرة إلى الحمامات، ووجد نفسه من حين لآخر يجفل من رؤية الظلال، شيء لم يكن ليحدث له وهو في ريعان شبابه. كما أن فكرة الوصول الآمن لم تجلب له أيَّ ارتياح. فماذا لو ثمة كمين آخر بانتظاره هناك؟ وماذا لو أن تلك المخلوقات قد باغتت ماكيافيلي. أكان ماكيافيلي نفسه عالمًا بطائفة الذئاب؟

ولمَن يكون ولاء ماكيافيلي على أيِّ حال؟

وصل إلى الطلل المعتم الفسيح بأمان، ذاك الذي كان نصبًا تذكاريًّا على زمن غابر عندما سادت فيه إيطاليا العالم. لم يرصد أي ملمح لوجود أيِّ أحد أو حياة، لكن حينها خرج ماكيافيلي بنفسه من وراء شجرة زيتون وحيَّاه برصانة.

- ما الذي أَخَّرَك؟

قال إتزيو وهو ينظر إلى رفيقه بينما يثبت عينيه عليه: «لقد كنت هنا من قبلك. لكني... شُغلت بشيء آخر».

- ما الذي تعنيه؟

- بعض المهرجين المرتدين ملابس تنكرية. هل يبدو الأمر مألوفًا بالنسبة إليك؟

احتدت نظرة ماكيافيلي، وسأله: «متنكرين في هيئة ذئاب؟».

- إذن فأنت تعرف بشأنهم.

- أجل.

- إذن لمَ اقترحت هذا المكان ليكون فيه لقاؤنا؟

- هل تُلمح إلى أني...؟

- وماذا عساني أظن؟

تقدم ماكيافيلي للأمام خطوة، وقال: «عزيزي إتزيو أؤكد لك وأقسم بحُرمة عقيدتنا، إني لا أملك أدنى فكرة أنهم سيكونون هنا». توقف، ثم عاد فأكمل حديثه: «لكنك محقٌّ، لقد فكرت في مكان نلتقي فيه بمنأى عن البشر، وقلما أدركت أنهم قد يختارون مثل هذا المكان».

- إلا إن زودهم أحدهم بالمعلومات.

- إن كنت تُشكك في شرفي...

صدر من إتزيو إيماءة تدل على نفاد صبره، وقال: «أوه، انسَ الأمر. فلدينا الكثير لنفعله غير الجدال بعضنا مع بعض». وفي الواقع، يعلم إتزيو أنه يتعين عليه الوثوق بماكيافيلي في الوقت الحالي. وإلى الآن لم يُعرض له سببٌ وجيه لعدم الوثوق فيه. وسيكون حذرًا في قيامه بأموره في المستقبل قبل كل شيء. وسأله: «مَن يكونون؟ وما طبيعتهم؟».

- طائفة الذئاب. أو في بعض الأحيان يطلقون على أنفسهم أتباع رومولوس.

- أحريٌّ بنا مغادرة هذا المكان؟ لقد استطعت اقتناص بعضٍ من أوراقهم ربما يكونون عائدين من أجل استعادتها.

قال ماكيافيلي: «أولًا أخبرني إن كنت قد استعدت الرسالة، وأخبرني سريعًا ما الذي جرى لك غير هذا. تبدو كما لو أنك خضت حروبًا».

بعدما أخبره إتزيو، ابتسم صديقه، وقال: «أشك في أنهم قد يعودون الليلة. فكلانا مدربان ومسلحان ويبدو أنك قد ردعتهم ردعًا شديدًا. إلا أن هذا بحد ذاته سيثير حنق تشيزاري. وكما رأيت، نظن أن تلك المخلوقات تعمل لصالح آل بورجيا، رغم عدم وجود الدليل الكافي على ذلك. إنهم ثلة من الوثنيين المزيفين الذين كانوا ينشرون الرعب في المدينة لشهور».

- لأي غرض؟

نشر ماكيافيلي يديه، وقال: «السياسة والدعاية. المغزى أن الناس سيتشجعون على الإلقاء بأنفسهم في ظل الحماية البابوية، وفي المقابل يتعين عليهم تقديم ولاء بعينه».

قال إتزيو: «إنه أمر متناسب. لكن رغم هذا، ألا ينبغي لنا الخروج من هنا الآن؟»، حيث شعر بالتعب فجأة بما لا يثير الغرابة. فقد كان التعب متغلغلًا فيه حتى روحه.

- لن يعودوا الليلة. ومع عدم الاستخفاف ببراعتك يا إتزيو، لكن المستذئبين ليسوا مقاتلين أو حتى قتلة. إذ يستخدمهم آل بورجيا وسطاء موثوقين، لكن مهنتهم الأساسية هي إثارة الخوف والرعب. إنها أرواح بائسة مخدوعة قد غسل آل بورجيا أدمغتهم من أجل العمل لصالحهم. وهم يظنون أن سيدهم الجديد سيساعدهم على إعادة بناء روما القديمة من الأساس. لقد أُسست روما على يد رومولوس وروموس، وأرضعتهما ذئبة وهما صغيران.

- أتذكَّر الأسطورة.

استرسل ماكيافيلي: «بالنسبة إلى المستذئبين، تلك المخلوقات البائسة، إنها ليست بأسطورة. بيدَ أنهم أداة خطِرة في يد آل بورجيا». توقف للحظة، ثم تابع كلامه: «والآن، أعطني الرسالة! وتلك الأوراق التي قلت إنك أخذتها من عرين المستذئبين. أحسنت صنعًا على أيِّ حال».

- إن كان لها أي فائدة.

- سنرى هذا، أعطني الرسالة.

- ها هي.

فضَّ ماكيافيلي باستعجال الختم من على ورق البرشمان، وتمتم: «تبًّا، إنها مشفرة».

- ما الذي تقصده.

- هذه الرسالة تعيَّن أن تكون نصًّا عاديًّا. إن فينتشو يكون، أو كان، جاسوسًا من جواسيسي بين آل بورجيا. وقد أخبرني أنه عرفها من مصدر موثوق منه. الأحمق. إنهم ينقلون المعلومات مشفرة. ودون مستند شفراتهم فلا قيمة لما معنا.

- ربما الأوراق التي بحوزتي ستنفعنا.

ضحك ماكيافيلي، وقال: «بحق السماء يا إتزيو في بعض الأحيان أشكر الرب أننا في صفٍّ واحد. لنلقِ نظرة».

وسريعًا راح يقلب الأوراق التي أخذها إتزيو، وقد تهلل وجهه المكفهر.

- هل من نبأ جيد؟

قال: «أظن... ربما...». وتابع القراءة ثم عقد حاجبيه مرة أخرى، وقال: «أجل! أجل! أظن أنها بحوزتنا». وربَّت على كتف إتزيو وضحك.

ضحك إتزيو كذلك، وقال: «أترى؟ في بعض الأحيان لا يكون المنطق وحده هو السبيل الوحيد لكسب الحرب. ربما يلعب الحظ دوره كذلك. لنذهب! لقد قلت إننا لدينا حلفاء في المدينة. هيًّا، خذني إليهم».

- اتبعني.

15

سأل إتزيو: «ماذا عن الحصان؟».

- أطلقها، وستجد طريقها للعودة إلى إسطبلها.

- لا يمكنني التخلي عنها.

- يجب عليك ذلك. إننا عائدون إلى المدينة، وإن أخذناها إلى هناك، سيعرفون أنك رجعت. وإن تركتها هنا بالخارج، سيعتقدون- إن حالفنا الحظ- أنك لا تزال تدور في أرجاء المنطقة وستُشتت بحثهم إلى هنا.

فعل إتزيو في تردد ما طُلب منه، وقاده ماكيافيلي إلى سُلم حجري مخفي يؤدي إلى تحت الأرض. وكان ثمة مشعل مُوقَد عند قاعدته فأخذه ماكيافيلي.

سأله إتزيو: «أين نحن؟»

- هذا يؤدي إلى نظام أنفاق تحت الأرض قديم يمتد بشكل متقاطع في كل أرجاء المدينة. لقد اكتشفها والدك وبقيت سرًّا حصريًّا لدى الحشاشين منذ ذلك الحين. يمكننا الاستعانة بهذا الطريق لتجنُّب أيِّ حراس يبحثون عنا لأنك بلا شك متأكد من أن المستذئبين الهاربين سيدقون ناقوس الخطر. والأنفاق كبيرة لأنها كانت تُستخدم لغرض النقل وللقوات في الأزمنة القديمة، وهي متقنة البناء كذلك كعهد كل شيء في ذاك الزمان. وقد انهار وسُدَّ العديد

من المخارج داخل المدينة حاليًّا، لذا فعلينا اختيار طريقنا بعناية. ابقَ على مقربة، ستهلك إن ضعت هنا بالأسفل.

وعلى مدار ساعتين راحوا يعبرون متاهة بدت لا تنتهي. وفي طريقهما، لمح إتزيو أنفاقًا جانبية ومداخل مسدودة ومنحوتات غريبة لآلهة منسية على الممرات المقوسة والسلالم الظاهرة من حين لآخر التي يؤدي بعضها إلى الأعلى وبعضها إلى الظلام الدامس وبعضها الآخر يُظهر بصيصًا من الضوء عند مقدمتها. وفي نهاية المطاف توقف ماكيافيلي، الذي حافظ على وتيرة سير ثابتة لكن سريعة طوال الطريق، عند إحدى تلك البسطات.

وقال مُعلنًا: «لقد وصلنا. سأدخل أولًا. لقد اقترب الفجر وعلينا توخي الحذر». واختفى أعلى الدرج.

وبعد ما بدا ردحًا طويلًا من الزمن تساءل فيه إتزيو عمَّا إذا كان قد تركه ماكيافيلي وحده هنا، سمع ماكيافيلي يهمس قائلًا: «كل شيء آمن».

رغم إرهاق إتزيو، صعد الدَّرج، مسرورًا لعودته إلى الهواء المنعش. فقد ضاق ذرعًا من الأنفاق والكهوف التي طال وجوده فيها.

خرج من فتحة صرف كبيرة إلى غرفة فسيحة، فسيحة بما يكفي لتشعر أنها كانت مخزنًا من نوعٍ ما ذات يوم.

- أين نحن؟

- نحن على جزيرة وسط نهر التيبر. كانت تستخدم مستودعًا لسنوات. ولا أحد يأتي إلى هنا الآن، ما عدانا نحن.

- نحن؟

- أخويتنا. إنها مخبؤنا في روما، إن أحببت تسميتها بهذا.

نهض شاب قوي البنية واثق الخطى من مقعد بجانب طاولة يوجد فوقها أوراق وبقايا وجبة طعام، وأتى للترحيب بهم. كانت نبرة صوته محبوبة وودودة. وقال: «نيكولو! سُررت برؤيتك!»، ثم التفت إلى إتزيو، وقال: «وأنت، لا بدَّ أنك إتزيو الشهير! مرحبًا!»، وأمسك بيد إتزيو وصافحه بحرارة، وتابع: «فابيو أورسيني في خدمتك. سمعت عنك الكثير من ابن عمي، رفيق قديم لك، بارتولوميو دا ألفيانو».

ابتسم إتزيو لدى سماعه الاسم، وقال: «محاربٌ بارع».

علَّق ماكيافيلي: «لقد كان فابيو مَن اكتشف هذا المكان».

قال فابيو: «كل سُبل الراحة متوفرة هنا. وبالخارج تغطيها أعشاب اللبلاب وما شابهه، فلن يعرف أحد أنه موجود أصلًا».

- جيد أنك في صفنا.

قال: «لقد تلقت عائلتي بعض الضربات الشنيعة من آل بورجيا في الآونة الأخيرة وهدفي الوحيد هو إزاحة كرسيهم واستعادة إرثنا»، ثم نظر من حوله في تشكك: «بالطبع ربما يبدو لك كل هذا متواضعًا رثًّا بعد إقامتك في توسكانا».

- إنه مثالي.

ابتسم فابيو، وقال: «جيد. حسنًا والآن بما أنك قد وصلت، سامحني لكني مضطر إلى المغادرة من فوري».

سأله ماكيافيلي: «ما خططك؟».

علَت الجدية وجه فابيو، وقال: «أنا مغادر لبدء الاستعدادات من أجل منطقة رومانيا. فاليوم استولى تشيزاري على ضيعتي ورجالي، لكن عما قريب سنتحرر».

- بالتوفيق.

- شكرًا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

ورحل فابيو ملوحًا بودٍّ.

أخلى ماكيافيلي مكانًا على الطاولة وفَرد الرسالة المشفرة إلى جانبها ورقة التشفير الخاصة بالمستذئبين. وقال: «عليَّ العمل على هذا. لا بدَّ أنك متعب، ثمة طعام وخمر هناك، ومياه رومانية جيدة عذبة. أنعِش نفسك في أثناء عملي عليها، فلا يزال هناك الكثير علينا القيام به».

- هل فابيو أحد الحلفاء الذين تحدثت عنهم؟

- بالطبع. وثمة آخرون. وأحدهم ذو أهمية كبيرة.

سأل إتزيو وهو يفكر رغمًا عنه في كاترينا سفورزا: «وهو؟ أو هل نقول 'هي'؟». فلم يستطع نسيانها. كانت لا تزال أسيرة لدى آل بورجيا. وأولويته الخاصة هي تحريرها. لكن أكانت تلعب به الألاعيب؟ لم يستطع التغافل عن ذرة الشك التي تُساوره. لقد كانت رغم هذا روحًا حرة، فهو لم يمتلكها. ولم يُحبذ فكرة التلاعب به ولم يحب أن يعامله أحد على أنه أحمق.

تردد ماكيافيلي كما لو أنه أفصح عن أكثر مما ينبغي، لكنه بعدها، قال: «إنه الكاردينال جوليانو ديلا روفيري. لقد خاض منافسة مع رودريغو على البابوية، وخسرها، لكنه لا يزال رجلًا صاحب نفوذ وله أصدقاء أصحاب نفوذ. ولديه على الأرجح علاقات قوية مع فرنسا، لكنه ينتظر الفرصة السانحة، فهو يعرف أن الملك لويس يستغل آل بورجيا ما دام الأمر يناسبه. وفوق كل شيء، هو يكره آل بورجيا كرهًا شديدًا

مقيتًا. هل تعرف كم من الإسبان وضع آل بورجيا في مناصب السلطة؟ إننا نواجه خطر سيطرتهم على إيطاليا».

- إذن فهو الرجل المناسب لنا. متى يمكنني مقابلته؟

- لم يحن الوقت بعد. كُلْ بينما أعمل أنا.

سَعد إتزيو لتوفر بعض الوقت للراحة، لكنه وجد أن الجوع وحتى العطش، للخمر على الأقل، قد هجراه. شرب بعضًا من الماء بامتنان، وتسلى بساق دجاجة وهو يشاهد ماكيافيلي ينكفئ على الأوراق التي أمامه.

سأل في لحظةٍ ما: «هل الأمر مُجدٍ؟».

- صه!

بحلول الوقت الذي وصل فيه ضوء الشمس إلى أبراج كنائس روما، كان ماكيافيلي قد وضع ريشة الكتابة وسحب نحوه الورقة الاحتياطية التي كان يكتب فيها.

- انتهيت.

انتظر إتزيو في ترقب.

قال ماكيافيلي: «إنها توجيهات إلى المستذئبين. تنصُّ على أن آل بورجيا سيقدمون أموالهم وأوامرهم المعهودة للمستذئبين للهجوم في أنحاء عدة من المدينة التي لا تقع بعدُ تحت سيطرة آل بورجيا، من أجل خلق إلهاء مثير للرعب. وستتزامن الهجمات مع الظهور «وليد الصدفة» لكاهن من آل بورجيا الذي سيستعين بقوى الكنيسة «لطرد» المهاجمين».

- ما الذي تقترحه؟

- إن وافقت يا إتزيو، أظن علينا البدء في التخطيط لهجماتنا على آل بورجيا. استمر في عملك الجيد الذي بدأته في الإسطبلات.

تردد إتزيو، وقال: «أتظن أننا جاهزون لشنِّ مثل هذه الهجمة؟».

- أجل.

- أريد أن أعرف أين يحتجز آل بورجيا كاترينا سفورزا أولًا. فهي ستكون حليفًا قويًّا.

نظر ماكيافيلي والذهول يتملكه. وقال: «لو أسروها، فستكون محتجزة في قلعة سانت آنجيلو. فقد حولوها إلى مَعقل لهم». ثم توقف وبعدها تابع حديثه: «إنه لأمر بغيض أن تكون التفاحة في قبضتهم. آه، يا إتزيو كيف لك أن تدع هذا يحدث؟».

قال إتزيو: «لم تكن موجودًا في مونترجيوني». أحجم إتزيو بدوره عن الكلام وصمت صمتًا مليئًا بالغضب. وقال: «هل نعرف حقًّا ما يجري مع أعدائنا؟ هل نملك على الأقل شبكة سرية هنا للعمل معها؟».

- بالكاد. فمعظم المرتزقة لدينا مثل فابيو مشغولون بمعارك مع قوات تشيزاري. ولا يزال الفرنسيون يدعمونه.

تذكر إتزيو الجنرال الفرنسي في مونترجيوني، أوكتافيان.

سأل: «ما الذي لدينا إذن؟».

- مصدر واحد موثوق. لدينا فتيات تعملن في ماخور. إنه ملهى من الدرجة العالية يرتاده الكرادلة وغيرهم من المواطنين الرومانيين المهمين، لكن تواجهنا عقبة. السيدة العاملة معنا كسولة، ويغلب عليها الاستمتاع بالحفلات من أجل الأُنس لا من أجل تعزيز غرضنا لجمع المعلومات.

سأل إتزيو: «ماذا عن لصوص المدينة؟»، وفكر في اللص البارع الذي كاد يكلفه جعبة نقوده.

- حسنًا، أجل، لكنهم يرفضون التحدث إلينا.

- لمَ؟

هَزَّ ماكيافيلي كتفيه، وقال: «لا أملك أدنى فكرة».

نهض إتزيو، وقال: «يُستحسن إخباري بطريقة الخروج من هنا».

- إلى أين تذهب؟

- لتكوين بعض الصداقات؟

- هل يمكنني السؤال عن أيٍّ نوع من الصداقات؟

- أظن أنه من الأفضل ترك هذا الأمر لي في الوقت الحالي.

16

كان الليل قد حلَّ لما وجد إتزيو مقر جمعية اللصوص الرومان. وقضى يومًا طويلًا يطرح الأسئلة بإمعان في الحانات ويتلقى نظرات مريبة وإجابات مُضللة، إلى أن انتشر خبر أنه لا بأس بالسماح له بمعرفة الموقع السري. وفي تلك اللحظة قاده صبي شريد إلى حيٍّ متداعٍ، عبر متاهة من الأزقة وتركه عند أحد الأبواب، ومن فوره اختفى بالطريقة نفسها التي ظهر بها.

لم يكن منظرًا يسر الناظرين، فقد كان المكان عبارة عن حانة كبيرة خرِبة ولافتتها المائلة تظهر ثعلبًا إما نائمًا أو ميتًا ونوافذها مغطاة بستائر رثة ويحتاج خشبها إلى إعادة الطلاء.

وعلى غير عادة الحانات، كانت أبوابها مُحكمة الإغلاق، وطَرقها إتزيو بلا جدوى.

وفاجأه صوت آتٍ من خلفه يتحدث بنعومة. استدار إتزيو. فلم يكن من دأبه أن يسمح لأحد بالاقتراب منه دون إصدار أيِّ صوت من خلفه بمثل هذه الطريقة. وعليه أن يضمن ألا يتكرر هذا.

ولحسن الحظ، كان الصوت ودودًا، وإن شابه بعض الحذر.

- إتزيو.

كان الرجل الذي تحدث قد خرج من حمى شجرة، وعرفه إتزيو في الحال. كان حليفه القديم جيلبرتو الملقب بالثعلب، الذي قاد اللصوص في فلورنسا بالتحالف مع الحشاشين في وقت سابق.

- الثعلب! ما الذي تفعله هنا؟

تبسم جيلبرتو وهما يحتضنان بعضهما بعضًا، وقال: «أتعني لمَ لست موجودًا في فلورنسا؟ حسنًا، أُجيب عن هذا السؤال ببساطة. لقد مات قائد اللصوص هنا فانتخبوني. وشعرت بأنني أحتاج إلى تغيير الأجواء، وتهيأت الظروف لرفيقي الحشاش القديم كوردان لتولي الأمور في الديار. إلى جانب -وخفض صوته وقال بنبرة تآمرية- في الوقت الحالي، تُمثل لي روما تحديًا... أكبر نوعًا ما، إن جاز لنا القول؟».

- يبدو لي سببًا وجيهًا بالقدر الكافي. هل ينبغي لنا الدخول؟

قال الثعلب: «بالطبع». طرق الباب، وبدا أنه يستخدم طريقة طرق مشفرة. انفتح الباب في الحال تقريبًا ليكشف عن ساحة فسيحة تضم طاولات ومقاعد مرصوصة، لم يخالف هذا ما يتوقعه المرء في الحانة، إلا أن جميعها بدت متهالكة. ضجَّ المكان بحركة مجموعة من الرجال والنساء دخولًا وخروجًا من الأبواب المؤدية من الساحة إلى داخل الحانة، التي كانت مبنية حول الساحة.

سأل الثعلب وهو يشير له بالجلوس على مقعد ويطلب إحضار الخمر: «لا يبدو أنه بالشيء الكثير، أليس كذلك؟».

- حقيقة...

قال الثعلب: «إنه يتناسب مع أغراضنا، كما أن لديَّ خططي. لكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟». رفع الثعلب يده، واستطرد: «تريث! لا تقل لي. أظن أني أعرف الإجابة».

- أنت تعرف في العادة.

- تريد مني أن أجعل لصوصي يعملون جواسيس لصالحك.

قال إتزيو وهو يميل إلى الأمام في تلهُّف: «بالضبط، هل تنوي الانضمام إليَّ؟».

رفع الثعلب كوبه في صمت وارتشف بعضًا من الخمر الذي أُحضر، قبل أن يجيب ببرود قائلًا: «لا».

تفاجأ إتزيو وقال: «ماذا؟ لمَ لا؟».

- لأن هذا لن ينفع إلا نيكولو ماكيافيلي. لا، شكرًا لك. إن هذا الرجل خائن لأخويتنا.

لم يقع هذا من إتزيو موقع المفاجأة، رغم أنه كان بعيدًا كل البعد عن الاقتناع بحقيقة الأمر. فقال: «إن هذا اتهام شديد الخطورة، لا سيما أنه آتٍ من لص. ما الدليل الذي تملكه إثباتًا على هذا؟».

بدا على الثعلب الانزعاج، وقال: «لقد عمل سفيرًا لدى البلاط البابوي كما تعلم، وقد سافر ليكون ضيفًا شخصيًّا لتشيزاري نفسه».

- لقد قام بتلك الأشياء لصالحنا.

- أحقًّا فعل؟ لقد حدث أن علِمت كذلك أنه تخلى عنك قُبيل الهجوم على مونترجيوني.

أومأ إتزيو إماءة اشمئزاز، وقال: «صدفة محضة، انظر يا جيلبرتو ربما لا يتناسب ماكيافيلي مع ذوق الجميع، إلا أنه حشاش، *وليس* بخائن».

نظر إليه الثعلب بوجهٍ تعلوه الجدية، وقال: «لست مقتنعًا بهذا».

وفي هذه اللحظة من حديثهما، هرول اللص الذي أدرك إتزيو أنه الرجل الذي حاول سرقة جعبته وهمس في أذن الثعلب. وقف الثعلب

بينما يهرول اللص مغادرًا. فوقف إتزيو كذلك لإحساسه بوجود مشكلةٍ ما.

قال الثعلب: «أعتذرُ عما بدر من بينتو من سلوك بالأمس، فلم يكن يعرفك حينها، كما أنه قد رآك تسير مع ماكيافيلي».

- تبًّا لبينتو، ماذا هنالك؟

- أوه، لقد جلب لنا بينتو الأخبار، سيلتقي ماكيافيلي أحدهم في حي تراستيفيري عما قريب. وسأرى ما الذي يجري. هل تهتم بمرافقتي لمعرفة ما في الأمر؟

-هيًّا.

- سنستخدم واحدًا من الطرق القديمة، الأسطح. إنها أشق قليلًا هنا عما هي عليه في فلورنسا. هل تظن أنك قادر على القيام بهذا؟

- لنقم بالأمر فحسب.

***

كان الأمر شاقًّا. فأسطح روما متباعدة بعضها عن بعض كثيرًا عنها في فلورنسا، والكثير منها متهالك، مما صَعَّب عليهما إيجاد موطئ قدم ثابت. فأكثر من مرة أوقع إتزيو قرميدة منفلتة وانكسرت على الأرضية. غير أنه لم يكن هناك الكثير من الناس في الشوارع، وكانا يتحركان سريعًا لدرجة أنه في الوقت الذي يتمكن حراس آل بورجيا فيه من القيام بردِّ فعل، يكونان قد اختفيا من مرمى البصر. وفي نهاية المطاف وصلا إلى ساحة إحدى الأسواق، كانت أكشاكه مغلقة إلا من كشك أو اثنين للخمور مضاءَين إضاءة ساطعة حيث تجمع عندهما الناس. توقف إتزيو والثعلب على سطح يُطل على أحد الكُشكَين واختبآ خلف المداخن، وراحا يراقبان المشهد.

ولم يلبثا حتى أتى ماكيافيلي إلى الساحة، كان أول ما فعله هو اختلاس النظر في الأرجاء في حذر. راقب إتزيو الوضع بحرص بينما يقترب رجل آخر يرتدي شعار آل بورجيا على عباءته، ثم سلمه بحرص ما بدا أنه رسالة، ثم مضى في طريقه دون أن يبطئ سرعته. وواصل ماكيافيلي سيره كذلك خارجًا من الساحة.

سأل الثعلب إتزيو: «ما رأيك في هذا؟».

ردَّ إتزيو سريعًا باقتضاب: «سأتبع ماكيافيلي، واتبع أنت الشخص الآخر».

وفي اللحظة نفسها اندلع عراك في إحدى أكشاك الخمور. وسمعا صيحات غاضبة ورَأَيَا بريق الأسلحة.

صاح الثعلب: «أوه، تبًّا! هؤلاء بعض من رجالي. لقد اشتبكوا مع أحد حراس آل بورجيا».

لمح إتزيو ماكيافيلي وهو يبتعد فارًّا من أحد الشوارع المؤدية ناحية نهر التيبر، ثم اختفى. لقد فات الأوان في ذلك الوقت لملاحقته، لذا فقد حَوَّل انتباهه ثانيةً إلى العراك. كان الحارس التابع لآل بورجيا ممددًا على الأرض. وتفرق معظم اللصوص، متسلقين الجدران صاعدين الأسطح ليبتعدوا عن الخطر، إلا أن واحدًا منهم، شابًّا لم تغادره أمارات الصبا، مستلقٍ على الأرض يئن من جراحه، والدم ينبثق من ذراعه بسبب جرح غائر في اللحم.

صاح صوت مملوء بالأسى: «النجدة! النجدة! لقد جُرح ابني!».

قال الثعلب عابسًا: «أنا أعرف هذا الصوت. إنه تريمالكيو». ونظر إلى اللص الجريح، وتابع: «وهذا كلاوديو أصغر أبنائه!».

ظهر حراس آل بورجيا المدججين بالبنادق على حواجز الأسوار لسطحين على كلا الجانبين من سور السوق البعيد وأخذوا يُحددون أهدافهم.

قال إتزيو بنبرة محتدمة: «سيطلقون النار عليه».

- لنسرع إذن، سأتولى أمر المجموعة اليسرى، وستتولى أنت أمر المجموعة اليمنى.

كان هنالك ثلاثة حراس في كل جانب. التفَّ إتزيو والثعلب بخفة الظل وسرعة الفهود حول الجوانب المتصلة للساحة. ورأى إتزيو الرجال الثلاثة المسلَّحين المُكلف بهم يرفعون أسلحتهم ويصوبونها على الصبي الجريح. ركض إتزيو بأقصى سرعته على طول العمود البارز في ظهر السطح حيث لامست قدماه بالكاد القرميد، وبقفزةٍ واحدة كبيرة اندفع نحو الرجال الثلاثة المسلحين. كانت قفزته عالية بما يكفي لسحق الرجل الأوسط بكعبَي قدميه، إذ وصل كعبا قدميه إلى مؤخرة عنق الرجل. وهبط إتزيو بحركة واحدة على قدميه ونزل جاثمًا على ركبتيه ليمتص أثر الهبوط، ثم نهض ناشرًا ذراعيه على كلا جانبيه. وسقط الرجلان المسلَّحان المتبقيان من فورهما، فقد اخترق الخنجر العين اليمنى لأحد الرجلين من الجانب ثم اندفع النصل إلى داخل جمجمته، أما الرجل الآخر فقد شقَّته السنُّ المدببة الشبيهة بالإبرة لنصل إتزيو الخفي، ما تسبب في ثقب أذنه وانساب سائل داكن لزج على رقبته. رفع إتزيو نظره ليجد أن الثعلب قد تخلص من خصومه بالكفاءة نفسها. وبعد دقيقة من الذبح الصامت، كان كل الرجال المسلحين قد لاقوا حتفهم. لكن استجد عليهم خطر آخر عندما اندفع فصيل يحمل المَطارد إلى الساحة خافضين أسلحتهم ومندفعين باتجاه كلاوديو سيئ الحظ. تراجع الناس الموجودون في أكشاك الخمور للوراء.

صرخ الثعلب قائلًا: « كلاوديو! اخرج!».

- لا يمكنني! يشتد عليَّ... الألم...

صرخ إتزيو الذي كان على مقربة شديدة من حيث يرقد الفتى: «اثبت مكانك. أنا قادم إليك!».

قفز إتزيو من على الأسطح وقطع سقوطه إلى الأسفل بالهبوط على السقف القماشي لإحدى بسطات السوق، وما لبث أن وصل إلى جانب الفتى. وسريعًا فحص الجُرح الذي اتضح أنه أسوأ مما بدا عليه.

أمر الصبي قائلًا: «انهض».

قال كلاوديو: «لا أقدر»، وبدا أنه كان في حالة من الفزع: «سيقتلونني».

قال إتزيو: «انظر، يمكنك السير أليس كذلك؟». أومأ الفتى. «إذن تقدر حينها على الجري. انتبه واتبعني. افعل مثلما أفعل تمامًا. فعلينا الاختباء من الحراس».

أنهض إتزيو الفتى على قدميه وقطع طريقه إلى أقرب كشك خمور. وبمجرد دخوله إلى هناك، ذاب في الحشد المؤلف من شاربي الخمور حادِّي المزاج واعترته الدهشة من رؤية مدى السهولة التي فعل بها كلاوديو الأمر نفسه. وانسلُّوا بخفة عبر الكشك إلى الحائط الجانبي الأقرب، في حين أنه على الجانب الآخر اندفع بعض من حاملي المَطارد إلى الداخل. وفي اللحظة المناسبة تمامًا، وصلا إلى زقاق يُخرج من الساحة إلى بر الأمان.

كان الثعلب وتريمالكيو ينتظرانهما.

قال الثعلب: «لقد خمنا أنكما ستأتيان من هذا الطريق»، وبينما الأب يحتضن ابنه قال لهما: «تحركا. فليس لدينا متسع من الوقت لنخسره.

عودا إلى المقر على وجه السرعة واطلبوا من تيريسينا تضميد هذا الجُرح. هيَّا!».

قال إتزيو لكلاوديو: «وأنت، اختفِ عن الأنظار لبعض الوقت، مفهوم؟».

قال تريمالكيو بالإيطالية وهو يغادر: «أشكرك شكرًا جزيلًا يا سيدي». ولفَّ ذراعه حول الصبي وهو يرشده للطريق مؤنبًا إياه، وقال: «اجرِ!».

حالما وصلوا إلى بر الأمان في ساحة هادئة، قال الثعلب: «أنت الآن في ورطة. لا سيما بعد هذا الذي حدث. فقد رأيت بالفعل ملصقات معلقة تخصك بعد تلك الحادثة في الإسطبلات».

- ولا يوجد شيء لماكيافيلي؟

هزَّ الثعلب رأسه بالنفي، وقال: «لا، لكن من المحتمل أنهم لم يتمكنوا من رؤيته جيدًا. فلا يعرف الكثير من الناس كم هو بارع في استعمال السيف».

- لكنك لا تصدق هذا؟

هزَّ الثعلب رأسه بالنفي.

- وما العمل حيال ملصقات «مطلوب»؟

- دع عنك القلق، يعمل رجالي على تمزيقها.

- يسعدني أن بعضهم أكثر انضباطًا من أن يبدأوا في افتعال المشاجرات دون سببٍ وجيه مع حراس آل بورجيا.

- اسمع يا إتزيو، ثمة توتر في المدينة لم تُجربه أنت من قبل.

قال إتزيو: «حقًّا؟». ولم يكن إتزيو قد أخبر صديقه بواقعة المستذئبين.

استطرد الثعلب: «وبالنسبة إلى المنادين، يكفي منح كل واحد منهم بضعة دوكات لإسكاتهم».

- أو... بوسعي التخلص من الشهود.

قال الثعلب بنبرة أخف حدة: «لا داعي لأن يصل الأمر إلى ذلك. أنت تعرف كيفية «الاختفاء». لكن توخَّ الحذر يا إتزيو. ربما يكون لآل بورجيا أعداءً كُثر آخرين غيرك، لكنهم لا ينغصون عليهم عيشهم مثلك. فلن يهدأ لهم بالٌ حتى يعلقوك في الخطافات على أعتاب قلعة سانت آنجيلو».

- سيتعين عليهم الإمساك بي أولًا.

- كُن حذرًا.



عادا أدراجهما من طريق غير مباشر إلى جمعية اللصوص حيث وصل كلاوديو وأبوه بأمان بالفعل. وكانت تيريسينا تُضمد جرح الصبي، وما إن أُوقف النزيف، حتى اتضح أن الإصابة لم تكن سوى جُرح غائر في إحدى عضلات الذراع، كان الألم قاتلًا، لكن لن يسبب ضررًا جسيمًا، كان كلاوديو نفسه أكثر ابتهاجًا.

قال الثعلب والتعب يغالبه بينما يجلسان ليحتسيا كأسًا من نبيذ تريبيانو وطبقًا من السلامي الخشن: «يا لها من ليلة».

- أعرف هذا جيدًا. يكفيني القليل من تلك الليالي.

- لن تقضي مثل هذه الليالي مع استمرار القتال.

قال إتزيو: «اسمع يا جيلبرتو، أنا مُدرك لما رأيته. لكني متأكدٌ من عدم وجود شيء يقلقك من ماكيافيلي. فأنت تعرف وسائله».

نظر إليه الثعلب نظرة فاترة، وقال: «أجل، شديدة المكر». توقف لبرهة، ثم استرسل: «لكنني مدينٌ لك بالشكر على إنقاذ حياة كلاوديو. وإن كنت تظن أن ماكيافيلي لا يزال يُدين بالولاء للأخوية، فأنا أميل إلى الوثوق في حكمك على الأمر».

- إذن ما وضعي بخصوص لصوصك؟ هل ستساعدني؟

قال الثعلب متمعنًا: «لقد أخبرتك أني أعددت خططي بخصوص هذا المكان. وفي الوقت الحالي يبدو أننا نعمل معًا مجددًا، أُحب أن أعرف ما الذي تفكر فيه كذلك».

- هل نحن نعمل معًا؟

ابتسم الثعلب، وقال: «يبدو أن الأمر كذلك. لكني لا أزال أراقب صديقك صاحب الرداء الأسود».

- حسنًا لا ضير من هذا، فقط لا تُقدم على فعل شيء متهور.

تجاهل الثعلب هذا، وقال: «إذن أخبرني، برأيك ماذا ينبغي لنا فعله بخصوص هذا المكان؟».

فكَّر إتزيو، وقال: «علينا التأكد من إبعاد آل بورجيا مهما كلف الأمر. ربما بوسعنا تحويله إلى حانة تصلح للعمل».

- تروقني هذه الفكرة.

- ستتطلب الكثير من العمل، إعادة الطلاء وإعادة تغطية السقف ولافتة جديدة.

- لديَّ الكثير من الرجال، تحت طوعك...

- إذن سأبدأ في التنفيذ.

***

حظي إتزيو بشهر من الراحة والهدوء، أو ما يشبههما، حيث انشغل في أعمال تجديد مقر جمعية اللصوص وعاونه في هذا العديد من الأشخاص الراغبين في تقديم العون. وكان اللصوص فيما بينهم يتمتعون بمختلف المهارات، إذ كان العديد منهم حرفيين خسروا وظائفهم لما رفضوا الانصياع لآل بورجيا. وبنهاية هذه الفترة، تغير المكان كليةً. كان طلاء الحوائط فاتح اللون والنوافذ نظيفة ووُضِعت لها

ستائر متحركة جديدة. ولم يعد السطح متداعيًا واللافتة الجديدة تُظهر ثعلبًا ذكرًا يافعًا، كان لا يزال نائمًا إلا أنه ليس ميتًا بكل تأكيد. وبدا أنه في اللحظة التي سيفيق فيها سيقدر على مداهمة خمسين حظيرة دجاج في المرة الواحدة. ولمعت الأبواب المزدوجة بمفصلاتها الجديدة وبقيت مفتوحة لتكشف عن ساحة نظيفة.

سُرَّ إتزيو، الذي اضطر إلى الذهاب في مهمة إلى مدينة سيينا خلال الأسبوع الأخير من العمل، بالنتيجة النهائية عندما عاد. وبوصوله، كان العمل في المكان يجري بأفضل حال.

قال الثعلب: «لقد أبقيت على الاسم. فأنا أحبه. الثعلب النائم. لا أعرف لماذا».

ابتسم إتزيو وقال: «لنأمل أنه يولِّد لدى الأعداء شعورًا بالأمان الزائف».

- على الأقل لم يجذب كل هذا النشاط أيَّ انتباه غير مرغوب فيه نحونا. ونديره كحانة عادية، حتى أننا نمتلك كازينو، وأنا صاحب فكرة إنشائه. وتبين أنه مصدرٌ عظيم للدخل، بما أننا نضمن أن حراس آل بورجيا الذين يترددون علينا يخسرون أموالهم دومًا!

قال إتزيو بصوت خفيض: وأين...؟».

قال الثعلب: «أوه، من هنا»، وأرشده إلى الجناح الغربي من الحانة، عبر باب مكتوب عليه بالإيطالية *المكتب - خاص* حيث وقف لصَّان للحراسة دون لفت الانتباه.

مرَّا على طول ممر أدى بهما إلى جناح مؤلف من غرف تقبع خلف أبواب ثقيلة. وعُلقت على الجدران خرائط لروما وكانت المكاتب والطاولات مغطاة بأكوام من الأوراق المرتبة التي انكبَّ يعمل عليها رجال ونساء، رغم أن الفجر قد طلع للتو.

قال الثعلب: «هذا هو المكان الذي نؤدي فيه عملنا الحقيقي».

- يبدو أنه يتمتع بالكفاءة العالية.

قال الثعلب: «شيء واحد يميز اللصوص، الجيدون منهم على الأقل، أنهم مفكرون مستقلون ويحبون التنافس نوعًا ما، حتى فيما بينهم».

- أتذكر هذا.

- ربما تقدر على تعليمهم شيئًا أو اثنين إن بادرت بالمشاركة بنفسك.

- أوه، سأفعل.

قال الثعلب: «لكنك لستَ بمأمن لتمكث هنا. لا أنت ولا نحن لكن تفضل بزيارتي حينما تحب، وأكثِر من زيارتي».

قال إتزيو: «سأفعل». وأخذ يفكر في مسكنه الخاص الذي تسوده الوحدة، لكنه يمنح الراحة ويتسم بالسرية التامة. ولم يكن لينعم بالسعادة في أيٍّ مكان آخر. لكنه حوَّل تفكيره إلى العمل الذي بين يديه. وتابع حديثه: «والآن بما أننا قد رتبنا أحوالنا، الشيء الأهم حاليًّا هو تحديد موضع التفاحة. علينا استرجاعها».

- لا بأس بهذا.

- نعلم أنها في قبضة آل بورجيا، لكن بالرغم من بذلنا لأقصى جهودنا فلم نتمكن من تتبعها. وإلى الآن، على الأقل، يبدو أنهم لم يستخدموها. ولا يسعني سوى التفكير في أنهم لا يزالون يدرسونها لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء.

- هل سعوا للحصول على... استشارة خبير؟

- أوه، أنا على يقين من أنهم سيسعون لذلك، لكنه ربما يدَّعي أنه أقل ذكاءً مما هو عليه، ولنأمل ذلك. ولنأمل أن صبر آل بورجيا لا ينفد معه.

ابتسم الثعلب، وقال: «لن أسترسل معك في هذا الشأن. بيدَ أنه في الوقت الحالي عليك أن تطمئن فلدينا رجال يجوبون روما بحثًا عن موقع التفاحة».

- سيبالغون في إخفائها. سيعملون على ذلك بجد. وربما حتى إخفاءها من واحِدِهم الآخر. فثمة نزعة تمردية تتأجج داخل تشيزاري الشاب، وهو أمرٌ لا يروق أباه.
- وما جدوى اللصوص إن لم تكن تكمن في اكتشاف المقتنيات الثمينة المخفية والمخبأة؟
- حسنًا، الآن عليَّ الذهاب.
- هل ترغب في شرب كأس أخيرة قبل مغادرتك؟
- لا، لديَّ الكثير لأقوم به الآن. غير أن لنا لقاء قريب.
- وإلى أين أُرسل تقاريري؟

فكر إتزيو في الأمر، وردَّ: «إلى مُلتقى أخوية الحشاشين في جزيرة التيبر».

17

قرر إتزيو أن الفرصة مواتية الآن للبحث عن صديقه القديم بارتولوميو دا ألفيانو قريب فابيو أورسيني. وقد حارب بارتولوميو جنبًا إلى جنب مع آل أورسيني لمجابهة القوات البابوية في عام 1496 وعاد مؤخرًا من الخدمة في جيش المرتزقة في إسبانيا.

كان واحدًا من أعظم قادات جيوش المرتزقة، ورفيقًا قديمًا لإتزيو في القتال. كما أنه كان رجلًا ذا ولاء وعزم لا ينثنيان، رغم ما يعيب أسلوبه من الجفاء وميله إلى الدخول في نوبات من الغضب والإحباط. وقد جعلته هذه الصفات ركنًا من أركان الأخوية، إلى جانب بغضه الشديد لفصيل فرسان الهيكل.

لكن أين السبيل لإتزيو ليجده في الوقت الحالي؟ سيعرف هذا عمَّا قريب. فقد نمى إلى علمه أن بارتولوميو عاد لتوه من القتال إلى ثكنات جيشه الخاص الواقعة على مشارف روما. وكانت تلك الثكنات بعيدة خارج حدود المدينة، في الريف الواقع في الجانب الشمالي الشرقي، بيدَ أنها ليست ببعيدة عن برج من أبراج المراقبة المُحصنة التي نَصبها آل بورجيا في العديد من مواقع المراقبة المختلفة داخل المدينة وحولها. إن آل بورجيا أفطن من أن يشتبكوا مع بارتولوميو، على الأقل ليس قبل أن يستجمعوا القوة الكافية لسحقه كالصرصور الذي هو في معتقدهم كذلك. وأدرك إتزيو أن قوتهم تزداد يومًا بعد يوم.

وصل إتزيو إلى وجهته بُعيد وقت الغداء. وكانت ذروة الظهَيرة قد زالت وحرارة النهار لافحة، إلا أن النسيم الغربي خفف من وطأة هذه الأجواء. وبوصول إتزيو إلى البوابة الضخمة داخل السياج الخشبي العالي الذي يُحيط بالثكنات، طَرقها بقبضته.

انفتحت عين في البوابة وأحسَّ إتزيو بعينين تتفحصانه. ثم انغلقت وبعدها سمع صوت مُحادثة وجيزة مكتومة. ثم انفتحت العين ثانيةً. وتلاها صوت هتاف مسرور جهير، وبعد سحب الكثير من المزاليج، انفتحت البوابة. كان ثمة رجل ضخم أصغر من إتزيو بعض الشيء يقف هنالك فاتحًا ذراعيه وملابسه العسكرية في حالة فوضى أقل من المعتاد.

- إتزيو أوديتوري، أنت أيها الرفيق القديم! تعالَ إلى الداخل. إن لم تفعل سأقتلك.

- بارتولوميو.

تعانق الصديقان القديمان بحرارة، ثم قطعا ساحة الثكنات باتجاه مقر بارتولوميو.

قال بارتولوميو بحماسه المعهود: «تعال، تعال. ثمة شخص أريدك أن تقابله».

انتهت بهم الحال داخل غرفة واسعة ومنخفضة السقف يتخللها الضوء من النوافذ المواجهة للساحة الداخلية. كانت غرفة تُستخدم لغرضَي المعيشة وتناول الطعام، وهي فسيحة جيدة التهوية. لكن كان هناك أمرٌ فيها مُغاير لطبيعة بارتولوميو. فالستائر المتحركة المعلقة على النوافذ نظيفة، وفُرشت الطاولة التي نُظفت من بقايا طعام الغداء بمفرش مُطرز وعُلقت على الجدران صور. بل حتى كانت هناك مكتبة.

ولم يكن هناك ملمح لبيانكا، سيف بارتولوميو العزيز العظيم. وعلاوة على كل ذلك، كان المكان مُرتبًا على نحو لا يُصدق.

قال بارتولوميو: «انتظر هنا»، وفرقع بأصابعه للجندي الحاجب لإحضار النبيذ، وبدا أنه كان في حالة من الحماس الشديد. واسترسل قائلًا: «والآن خمن مَن الشخص الذي أريدك أن تلتقيه؟».

جال إتزيو بنظرةٍ في أرجاء الغرفة، وقال: «حسنًا، لقد قابلت سيفك بيانكا...».

لوح بارتولوميو بيده بنفاد صبر، وقال: «كلا، لا! إنه في غرفة الخرائط، حيث يقطن هذه الأيام، خمِّن مجددًا».

قال إتزيو بمكر: «حسنًا، أيمكن احتمالًا أن تكون... زوجتك؟».

بدا الإحباط على وجه بارتولوميو حتى إن إتزيو أسِفَ تقريبًا كونه استشفَّ هذا الاستنتاج الدقيق، ولم يكن لهذا مدلول على صعوبة الأمر على وجه التحديد. إلا أن الرجل الضخم ابتهج سريعًا، واسترسل: «يا لها من كنز عظيم. لن تصدق». ثم التفت وهتف باتجاه الغرف الداخلية، قائلًا: «بانتاسيليا! بانتاسيليا!» خرج الحاجب مجددًا حاملًا صينية عليها حلوى وإناء الخمر والكؤوس. وسأل بارتولوميو: «أين هي؟».

سأله إتزيو ساخرًا: «هل بحثت تحت الطاولة؟».

حينها فقط أطلت بانتاسيليا وهي تنزل من على الدرج الممتد على طول الجدار الغربي من الغرفة.

- ها هي!

وقف إتزيو مُحييًا إياها.

ثم انحنى قائلًا: «إتزيو أوديتوري».

- بانتاسيليا باجليوني، حاليًّا باجليوني دا ألفيانو.

كانت، بحكم إتزيو عليها، شابة في منتصف العشرينات أو آواخرها. واستشفَّ من اسمها أنها سليلة عائلة نبيلة، وكانت ملابسها، رغم بساطتها، جميلة وتدل على ذوقٍ راقٍ. وكان لها وجه بيضاوي حاوطه شعرها الأشقر المنساب، وأنفها مائل الطرف كالزهرة وشفتيها ممتلئتان وضاحكتان، وعيناها العميقتان الداكنتان اللتان يُطل منهما الذكاء واللتان تلاقيانك بالترحاب عندما تقع عليك، غير أنهما لا تزالان تحتفظان لنفسيهما بسرٍّ ما. كانت طويلة وطولها يصل إلى كتفَي بارتولوميو ممشوقة القوام ولها منكبان عريضان وخصر صغير، ولها ذراعان طويلتان ونحيفتان وساقان رشيقتان. لقد عثر بارتولوميو على كنز على ما يبدو. وآمل أن لو بمقدور بارتولوميو الحفاظ عليها.

حيِّيته بانتاسيليا بالإيطالية: «سعدت بلقائك».

- وأنا أيضًا.

انتقلت بنظرها بين الرجلين، وقالت لإتزيو بلهجةِ امرأة لا تترك الرجال لانشغالهم بأعمالهم، بل لانشغالها بأعمالها الخاصة: «سيحين الوقت الذي نتعرف فيه بالشكل اللائق في مناسبةٍ أخرى».

- ابقي لبعض الوقت يا كَنزي.

«لا يا بارتو أنت تعلم أن عليَّ رؤية الكاتب. فهو دائم الإخفاق في التعامل مع الحسابات بطريقةٍ ما. وثمة مشكلة في إمدادات المياه. عليَّ التعامل مع هذا أيضًا». ثم قالت لإتزيو بالإيطالية: «أوه، عذرًا، ولكن...».

- على الرحب والسعة.

ثم عادت فصعدت الدرج وهي مبتسمة لكلاهما واختفت عن الأنظار.

سأله بارتولوميو: «ما رأيك؟».

ردَّ إتزيو وتحرى الصدق في إجابته: «لقد سررت بلقائها حقًّا». ولاحظ أن صديقه يكبح جماح نفسه في وجودها. فقد تخيل أن الشتائم والكلام البذيء يقل في غرفة من غرف الثكنات مع وجود بانتاسيليا. وتعجب ما الذي أعجبها في زوجها، إلا أنه لم يكن يعرفها حق المعرفة.

- أظن أنها قد تفعل أيَّ شيءٍ من أجلي.

- أين قابلتها؟

قال بارتولوميو: «سنتحدث عن هذا في وقتٍ لاحق»، وأمسك بإناء الخمر والكأسين ثم وضع يده الفارغة حول كتفَي إتزيو. واستطرد: «لقد سُررت بمجيئك. لقد عُدت لتوي من الحملة لا بدَّ أنك تعلم هذا، وبمجرد أن سمعت بوجودك في روما كنت سأرسل رجالي لمعرفة مكانك. أنا أعرف أنك تحب إبقاء مقر إقامتك سرًّا، وأنا لا ألومك، لا سيما في جحر الأفاعي هذا، لكن لحسن الحظ أنك قد سبقتني إلى هذا. وهو أمرٌ مستحسن إذ إني أريد الحديث إليك بخصوص الحرب. لنذهب إلى غرفة الخرائط».

قال إتزيو: «أعلم أن تشيزاري على تحالُف مع الفرنسيين. كيف جرى القتال ضدهم؟».

- لا بأس به. فالرفاق الذين خلفتهم ورائي هناك، الذين سيخوضون القتال تحت إمرة فابيو، يتدبرون أمورهم. إضافة إلى أنه عليَّ تدريب المزيد من الرجال هنا.

فكر إتزيو في الأمر، وقال: «بدا أن ماكيافيلي يظن أن الأمور كانت... أصعب».

هزَّ بارتولوميو كتفيه، وقال: «حسنًا أنت تعرف ماكيافيلي، إنه...».

لكن قطع حديثهما وصول أحد رُقباء جيش بارتولوميو. كانت بانتاسيليا إلى جانبه. واعترى الرجل الفزع على عكسها كانت هادئة.

قال الرقيب بسرعة مُلحة: «أيها القائد، نحتاج إلى عونك الآن. لقد شنَّ آل بورجيا هجومًا علينا».

ردَّ بارتولوميو قائلًا: «ماذا؟ لم أتوقع قُرب حدوث هذا. أستميحك عذرًا يا إتزيو». ثم هتف ببانتاسيليا قائلًا: «ألقي لي بيانكا».

رمت إليه بالسيف الكبير من فورها من الطرف الآخر من الغرفة، فربطه بارتولوميو على جسمه وانطلق خارجًا من الغرفة في أعقاب رقيبه. تهيأ إتزيو للحاق به، بيدَ أن بانتاسيليا أوقفته لتمنعه وشددت على الإمساك بذراعه.

قالت: «تمهل!».

- ما الأمر؟

بدا عليها القلق البالغ، وقالت: «دعني أتطرق إلى صلب الموضوع. إن رحى القتال لا تدور لصالحنا، لا هنا ولا بالخارج في منطقة رومانيا، لقد هُوجمنا من كلا الجانبين. فقوات آل بورجيا من ناحية، والفرنسيون بقيادة الجنرال أوكتافيان من الناحية الأخرى. لكن أعرف أن موقف آل بورجيا ضعيف. وإن تمكنا من هزيمتهم، يمكننا توجيه تركيز قواتنا على الجبهة الفرنسية. وإن الاستيلاء على هذا البرج سيكون خير عونٍ لنا. لو أن شخصًا ما بإمكانه الوصول إليه بالالتفاف من الخلف...».

مال إتزيو برأسه وقال: «إذن أظنني أعرف طريقة يمكنني المساعدة من خلالها. إن المعلومات التي قدمتِها لا تقدر بثمن. لك جزيل الشكر يا سيدة دا ألفيانو».

ابتسمت، وقالت: «إنه أقل شيءٍ يمكن للزوجة تقديمه لزوجها».

18

شنَّ آل بورجيا هجومًا مباغتًا على الثكنات، واختاروا ساعة القيلولة لتنفيذه. عمل رجال بارتولوميو على دحرهم باستخدام الأسلحة التقليدية، لكن وهم يصدونهم ليرجعوهم باتجاه البرج، رأى إتزيو الرجال المسلحين التابعين لتشيزاري المتجمعين على الشرفات الدفاعية، وكانوا جميعًا مدججين بمسدسات ذات قفل دولابي جديدة، ووجهوها إلى جيش المرتزقة المحتشد بالأسفل.

سار إتزيو متحاشيًا المعارك الدائرة، ونجح في تجنب أيٍّ مواجهة مع قوات آل بورجيا. ودار وسلك طريقه للوصول إلى خلف البرج. وكما توقع، انصبَّ جام تركيز الجميع على المعركة التي تدور رحاها في الجبهة. حينها تسلق الجدران الخارجية، حيث سَهُل عليه إيجاد مواضع لقدميه محفورة في الأحجار غير المصقولة التي بُني بها البرج. كان رجال بارتولوميو مسلحين بالأقواس وبعضهم ببنادق فتيل الإشعال للرمي بعيد المدى، لكنهم لم يقووا على الصمود أمام النيران المميتة من مسدسات القفل الدولابي الجديدة المتطورة.

وصل إتزيو إلى القمة في أقل من ثلاث دقائق، وكانت تبعد عن الأرض بما يقرب من أربعين قدمًا. ثم قفز من فوق السور الصغير الخلفي، باذلًا جُل طاقته، ثم نزل في صمت على سقف البرج. مشي من وراء الجنود المسلحين بالماسكيت وهو يتحرك بخطى حثيثة خطوة

بعد الأخرى مقتربًا من العدو. ثم استلَّ خنجره وأطلق نصله الخفي. وتسلل من خلف الرجال وتحت سطوة القتل المباغتة، قتل بسلاحيه أربعة رجال مسلحين. وحينها فقط أدرك قناصو آل بورجيا أن العدو تسلل بين صفوفهم. لمح إتزيو رجلًا يوجه نحوه مسدس بقفل دولابي، وكان يبعد عنه قدر خمسة عشر قدمًا، لذا فما كان من إتزيو إلا أن أطلق خنجره في الهواء. ودار الخنجر على عقبه ثلاث مرات قبل أن ينغرس بين عينَي الرجل مُصدرًا صوت ارتطام مرعب. سقط الرجل لكن ليس قبل أن يضغط على زناد بندقيته، ولحسن حظ إتزيو انحرفت الأسطوانة عن هدفها المحدد، وطاحت القذيفة إلى يمين الرجل، فأصابت أقرب زميل إليه واخترقت عقدة حنجرته قبل أن تنغرس في كتف الرجل الذي خلفه.

سقط كلا الرجلين، ولم يتبقَّ سوى ثلاثة رجال مسلحين من قوات آل بورجيا على سطح البرج. ولم يتوقف إتزيو إذ قفز على كلا الجانبين وصفع بكفه أقرب رجل إليه على وجهه بالقوة الكافية التي جعلته ينقلب للوراء من فوق الشرفات الدفاعية. وأمسك إتزيو بسلاح الرجل وهو يسقط وحرك عقب البندقية سريعًا في وجه الجندي التالي. فتبع زميله بالسقوط من فوق السور مطلقًا صيحة ألم مدوِّية. رفع الرجل الأخير يديه مستسلمًا، إلا أن الأوان قد فات، إذ وجد نصل إتزيو الخفي طريقه بين ضلوعه.

اقتنص إتزيو بندقية أخرى ونزل الدرج المؤدى إلى الطابق بالأسفل الذي كان فيه أربعة رجال يطلقون النيران من فتحات ضيقة في الجدران الحجرية السميكة. ضغط إتزيو على الزناد وهو مصوبٌ البندقية عند مستوى الخصر، فسقط الرجل الأبعد من قوة اصطدام الطلقة، وانفجر صدره وتدفق منه الدم. خطا إتزيو خطوتين للأمام ولوَّح بالبندقية مثل

الهراوة، موجهًا الأسطوانة أولًا هذه المرة لركبة رجلٍ آخر حتى كانت ملامِسة لها، فسقط الرجل. استدار أحد الرجال المتبقين بما يكفي ليطلق النار. فتدحرج إتزيو سريعًا بدافع من غريزته وأحسَّ بسخونة الهواء عندما فوتت القذيفة خده بمقدار بضع بوصات وانغرست في الجدار وراءه. أدت القوة الدافعة التي صدرت عن جسم إتزيو إلى اصطدامه بالرجل المسلح ما جعل الرجل يتأرجح للوراء وتسبب في سحق رأسه في الشرفة الدفاعية صلبة الحجارة. كان الجندي الأخير قد استدار ليتعامل مع التهديد غير المتوقع. ونظر الرجل إلى الأسفل في الوقت نفسه الذي قفز فيه إتزيو للأعلى من على الأرضية، وما كانت إلا لحظة واحدة حتى اخترق النصل الخفي فك الرجل.

تحرك الرجل الذي هشَّم إتزيو ركبته وحاول الوصول إلى خنجره، فما كان من إتزيو إلا أن ركله في صدغه واستدار غير عابئ به ليشاهد المعركة الدائرة بالأسفل. كانت المعركة تتجه نحو الهزيمة الساحقة لآل بورجيا. ولعدم وجود سلاح ناري كاسح في جانب جنود آل بورجيا، تراجع الجنود مسرعين، وسرعان ما عادوا أدراجهم وفروا تاركين البرج للمرتزقة.

نزل إتزيو الدَّرج إلى بوابة البرج الرئيسية، وتقاتل مع زمرة من الحراس الذي أظهروا مقاومة ضارية قبل أن يلاقوا حتفهم أمام سيفه. ولما ضمن إتزيو أن البرج غدا خاليًا من رجال آل بورجيا، فتح البوابة على مصراعيها وخرج ليلحق ببارتولوميو. وانتهت المعركة وكانت بانتاسيليا قد انضمت إلى زوجها.

- أحسنت صنيعًا يا إتزيو! لقد جعلنا هؤلاء الحثالة الجبناء يفرون إلى التلال.

قال إتزيو: «أجل، لقد نجحنا في ذلك»، وتبادل ابتسامة سرية مع بانتاسيليا توحي بما حدث بينهم من تخطيط. إذ أدت نصيحتها الحكيمة دورًا فعالًا في الفوز بالقتال شأنها شأن أيِّ شيء آخر.

قال بارتولوميو: «لقد استطعنا اقتناص بعض من تلك البنادق حديثة الطراز، بيدَ أننا لا نزال نكتشف طريقة عملها». وأشرق وجهه بابتسامة مستطردًا: «على أيِّ حال، الآن بعدما فرَّ كلاب البابا، سأقدر على اجتذاب المزيد من الرجال إلى القتال إلى جانبنا. لكن في المقام الأول، ولا سيما بعد هذه الواقعة، أريد تعزيز ثكناتنا».

- فكرة سديدة. لكن مَن سيقوم على عمل ذلك؟

هزَّ بارتولوميو رأسه بالنفي، وقال: «لست بارعًا في هذه الأمور. وأنت الشخص الذي تلقيت تعليمًا، لمَ لا تعتمد الخطط».

- هل لديك بعض الخطط الجاهزة؟

- أجل، لقد استعنت بخدمات شاب ألمعي. وهو من فلورنسا مثلك اسمه مايكل أنجلو بوناروتي.

- لم أسمع به من قبل، لكن لا بأس. في المقابل، أريد معرفة كل تحركات تشيزاري ورودريغو. هل يمكن لأيٍّ من رجالك تتبعهم من أجلي؟

- الشيء الوحيد الذي لن أفتقر إليه قريبًا هو الرجال. على الأقل، لديَّ ما يكفي لأمنحك عمالًا مناسبين من أجل أعمال إعادة البناء، وزمرةً من رجال الكشافة الماهرين لتغطية أخبار آل بورجيا من أجلك.

قال إتزيو: «عظيم!». ويعرف إتزيو أن ماكيافيلي له جواسيس تعمل لصالحه، لكن يميل ماكيافيلي إلى السرية على عكس بارتولوميو. كان

ماكيافيلي يتسم بالسرية والغموض، أما بارتولوميو فقد كان كتابًا مفتوحًا. وبما أن إتزيو لا تراوده الشكوك نفسها التي لدى الثعلب، والتي يأمل أن يكون قد تخلى عنها، فلا ضير من أن يكون له مصدر ثانٍ للاستطلاع.

قضى إتزيو شهره التالي في الإشراف على تعزيز الثكنات وإصلاح الأضرار الواقعة جراء الهجوم وبناء أبراج مراقبة أعلى وأقوى وتبديل السياج الخشبي بأسوار صخرية. ولما اكتمل العمل انطلق هو وبارتولوميو في جولة تفقدية.

ابتسم بارتولوميو قائلًا: «أليس ضربًا من الجمال؟».

- أظن أنه غاية في الروعة.

قال بارتولوميو: «والبشرى الأفضل من هذا، هي أن المزيد والمزيد من الرجال ينضمون لصفوفنا كل يوم. وأنا بالطبع أُشجع على التنافس فيما بينهم، فهو يرفع من الروح المعنوية وتدريب مفيد في الوقت نفسه، ليُجيدوا القتال عندما يخرجون إلى ساحة المعركة». وعرض لإتزيو لوحة خشبية كبيرة كانت معلقة على حامل اللوحات وفي أعلاها يتربع شعاره. وتابع حديثه: «كما ترى، تُظهر هذه اللوحة رُتب أعلى محاربينا. فكلما أصبحوا أفضل، ارتفع ترتيبهم إلى أعلى اللوحة».

- وأين أنا؟

رمقة بارتولوميو بنظرة وأشار بيده في الهواء في المنطقة التي فوق اللوحة، وقال: «حسب ما يُمليه عليَّ ظني، في موضعٍ ما هنا».

أتى جندي مرتزق ليخبره أن أحد أبرع رجاله، جان، قد بدأ قتاله في ساحة الاستعراض.

قال بارتولوميو: «إن أردت استعراض مهاراتك، فنحن نعقد مباريات تدريبية كذلك. والآن إن سمحت لي، لقد راهنت بالأموال على هذا الفتى». وغادر ضاحكًا.

شقَّ إتزيو طريقه باتجاه غرفة الخرائط الجديد المُحسنة. كان الضوء الطبيعي أفضل ووُسِّعت الغرفة لتشمل طاولات خرائط وحوامل لوحات أعرض. وانكبَّ إتزيو على خريطة لمنطقة رومانيا يطالعها حينما دخلت عليه بانتاسيليا.

سألته قائلة: «أين بارتولوميو؟».

- يحضر القتال.

تنهدت بانتاسيليا قائلة: «إن له نظرة عدائية تجاه العالم. رغم أنه في ظني التخطيط الإستراتيجي له الأهمية نفسها. ألا تتفق؟».

- أتفق.

- هيًّا، لأُريك شيئًا.

وتقدمت الطريق من الغرفة إلى شُرفة فسيحة تُطل على فناء داخلي في الثكنات. كان في إحدى جنباته برج حَمَام جديد كبير يعجُّ بالطيور.

شرحت بانتاسيليا قائلة: «ذاك هو الحمام الزاجل. تجلب كل واحدة منه، والتي بعث بها ماكيافيلي وهو في المدينة، اسم عميل لآل بورجيا في روما. لقد اغتنى آل بورجيا في يوبيل عام 1500. إذ تدفقت عليهم كل تلك الأموال من الحجاج المتلهفين، والراغبين في شراء الإبراء. ومَن لم يشترِ نُهب».

بدا إتزيو واجمًا.

استرسلت بانتاسيليا في الحديث: «بيدَ أن هجماتك المتعددة قد آرقت آل بورجيا أشد الأرق. ويمشط رجالهم المدينة بحثًا عن رجالنا

ويكشفون أمرهم حيثما كانوا. وقد كشف ماكيافيلي بعضًا من أسمائهم كذلك، ويستطيع في الغالب إرسال أسماء هؤلاء كذلك إليَّ بالحمام الزاجل. في حين أن رودريغو قد ضمَّ المزيد من الأعضاء الجدد إلى البلاط البابوي، في محاولةٍ منه للحفاظ على توازن القوى بين الكرادلة. فكما تعلم أنه صاحب خبرة تمتد لعقود في سياسات الفاتيكان».

- إنه كذلك بالفعل.

- عليك أخذ هذه الأسماء معك في عودتك إلى المدينة. ستفيدك.

- أعجز عن التعبير عن مدى إعجابي بقدراتكِ يا سيدتي.

- طارِد هؤلاء الأشخاص واقضِ عليهم، إن تسنى لك هذا، وسنتنفس جميعًا الصعداء.

- عليَّ العودة إلى روما دون تلكؤ. وسأخبركِ بشيء يجعلني أتنفس الصعداء بارتياح.

- ماذا؟

قال إتزيو: «يثبت ما أفصحتِ عنه للتو أن ماكيافيلي في صفنا بلا شك». لكن تردد، وقال: «ومع ذلك...».

- ماذا؟

- لديَّ ترتيب مشابه مع بارتولوميو. انتظري لأسبوع، ثم اطلبي منه الحضور إلى الجزيرة في نهر التيبر، إنه يعرف المكان وأظنكِ تعرفين كذلك، ليبلغني بما جَمَّعه عن رودريغو وتشيزاري.

- هل لا تزال تساورك الشكوك حيال ماكيافيلي؟

- كلا، ولكن أنا واثق من أنكِ لا تمانعين أنه يُستحسن التحقق من كافة المعلومات التي يحصل عليها المرء، لا سيما في أوقات كهذه.

بدا على وجهها أمارات الحزن، غير أنها ابتسمت وقالت: «سيوافيك هناك».

19

بعودة إتزيو إلى روما، كان أول مكان تطؤه قدماه هو الماخور الذي أخبره ماكيافيلي أنه مصدر آخر للتزود بالمعلومات، وربما أتت بعض الأسماء التي بعث بها إلى بانتاسيليا بالحمام الزاجل من هنا. أراد أن يعرف كيف تجمع الفتيات معلوماتهنَّ، غير أنه قرر الدخول إلى المكان متخفيًا. فلو أنهنَّ عرفنه، فقد يمنحنه المعلومات التي يظنونه يحتاج إليها فقط.

وصل إلى العنوان وتحقق من اللافتة التي تقول: الوردة المتفتحة. لم يكن ثمة شك في أمره، غير أنه لم يبدُ أنه نوع المكان الذي قد يرتاده أصحاب النفوذ من آل بورجيا، إلا لو دخلوه دون مقابل. ولم يرقَ المكان بالتأكيد إلى مؤسسة باولا في فلورنسا، من الخارج حتى على الأقل. غير أن مكان باولا تخفَّى خلف واجهة متجر شديدة السرية. طرق إتزيو الباب في ارتياب.

فتحت له في الحال فتاة جذابة مكتنزة الجسم في عمر الثامنة عشر تقريبًا، مرتدية فستانًا حريريًّا رثًّا.

ابتسمت له ابتسامة احترافية، وقالت: «مرحبًا بك أيها الغريب. مرحبًا بك في الوردة المتفتحة».

ردَّ التحية وهي تفسح له الطريق بالدخول قائلًا: «مرحبًا». كان المدخل أفضل حالًا بلا شك، لكن حتى مع هذا فقد ساد المكان حالة من الإهمال.

سألته الفتاة: «ما الذي تفكر فيه اليوم؟».

- هلَّا تكرمتِ عليَّ وأتيتِ برئيستكِ إليَّ؟

ضاقت عينا الفتاة، وقالت: «السيدة سولاري غير موجودة».

قال إتزيو: «فهمت». وأطرق حائرًا فيما يجب عليه فعله. واستطرد: «أتعرفين أين تكون؟».

قالت الفتاة: «بالخارج». وخفتت نبرة الودِّ الذي كانت تعامله به الفتاة بشكل واضح الآن.

ابتسم إتزيو لها ابتسامة من أكثر ابتساماته سحرًا، لكنه لم يعد في ريعان شبابه وبدا له أن هذا لم يؤثر في الفتاة بأي شيء. لقد ظنته الفتاة أحد المسؤولين. تبًّا! حسنًا، إن رغب في إحراز تقدم أكبر، فعليه أن يتظاهر بأنه زبون. ولو أن التظاهر بأنه زبون يعني فعلًا أن يكون واحدًا من الزبائن، فليكن الأمر.

كان قد نوى سلك هذا المسار لما انفتح باب الشارع فجأة وهرعت فتاة أخرى إلى الداخل، كانت شعثاء الشعر غير مهندمة الثياب. وتملَّكها الاضطراب أشد التملك.

صرخت الفتاة صرخة مُلحة: «النجدة! النجدة! السيدة سولاري...». وأجهشت بالبكاء الذي منعها من مواصلة الحديث.

- ما الخطب يا لوتشيا؟ استجمعي شتات نفسكِ؟ لماذا عدتِ سريعًا؟ لقد ظننت أنكِ سترحلين مع السيدة وبعض العملاء؟

- أولئك الرجال لم يكونوا زبائن يا آنييلا. إنهم... إنهم... قالوا بأنهم سيصحبوننا إلى مكان يعرفونه قُرب نهر التيبر، لكن كان هناك قارب وبدأوا يصفعوننا ويشهرون خناجرهم علينا. وقد أخذوا السيدة سولاري على متن القارب وقيدوها.

قالت آنييلا وهي تلفُّ ذراعها حول صديقتها وتأخذها إلى أريكة موضوعة على طول أحد الجدران: «لوتشيا! يا إلهي! كيف استطعتِ الفرار؟». وأخذت منديلًا وراحت تُربت على بقعةٍ حمراء بدأت تظهر على خد لوتشيا.

- لقد خلُّوا سبيلي، وردوني برسالة فحواها أنهم تجار رقيق. ولن يخلُّوا سبيلها إلا بالدفع مقابل عودتها. وإلا فسيقتلونها.

سألها إتزيو: «كم من المال يريدون؟».

- ألفًا من الدوكات.

- وما مقدار المهلة المحددة لنا؟

- ساعة واحدة.

قال إتزيو: «إذن فلدينا متسع من الوقت. انتظراني هنا. سوف أعيدها لكما». قال إتزيو في نفسه: *يبدو الأمر معقدًا. أحتاج إلى الحديث إلى هذه السيدة*. وتابع قائلًا: «أين هم؟».

- ثمة رصيف ميناء يا سيدي، إنه بالقُرب من جزيرة التيبر. هل تعرف هذا المكان؟

- حق المعرفة.

أسرع إتزيو فلم يسعفه الوقت للوصول إلى بنك كيجي ولا يوجد فرعٌ من فروعه في طريقه، لذا فقد لجأ إلى مُرابٍ خاض مساومة بشروط شديدة، لكنه أكمل المبلغ الذي بحوزة إتزيو بالفعل ليصل إلى الألف دوك المطلوبة. وبتسلُّحه بهذه الأموال، وعزمه في الوقت نفسه على عدم التفريط في فلسٍ واحد منها إن قدر على ذلك، بل وتوعده بتحصيل الفوائد من الأوغاد الذين اختطفوا المرأة التي احتاج بشدة إلى الحديث معها، استأجر حصانًا وركبه واندفع متهورًا في الشوارع ميممًا نحو

نهر التيبر، مفرقًا الناس والدجاج والكلاب التي انتشرت في الشوارع في طريقه.

ووجد القارب، الذي كان أقرب إلى سفينة صغيرة في الواقع، بلا أي صعوبة، وترجل من على حصانه، وجرى إلى نهاية الرصيف الذي رسا عليه القارب، وأخذ يهتف باسم السيدة سولاري.

كان آسروها متأهبين له. وكان هناك رجلين على متن السفينة بالفعل، وقد وجَّها مسدسيهما نحوه. زرَّ إتزيو عينيه مستغربًا. ولسان حاله يقول مسدسات؟ في أيدي مثل هؤلاء الأشرار الحقراء؟

- لا تقترب أكثر من ذلك.

تراجع إتزيو للوراء، لكنه أبقى إصبعه موضوعًا على زناد إطلاق نصله الخفي.

- أحضرت المال اللعين، أليس كذلك؟

أخرج إتزيو بتؤدة الجعبة التي تحوي الألف دوك بيده الأخرى.

- جيد. والآن سنرى إن كان القبطان في مزاجٍ رائق كفاية *لئلَّا* ينحر عنقها اللعين.

- القبطان؟ مَن تظن نفسك بحق الجحيم. أخرجوها! أخرجوها الآن!

أخضع الغضب الكامن في صوت إتزيو تاجر الرقيق الذي تكلم. واستدار قليلًا ونادى أحدًا ما موجودًا تحت سطح السفينة، والذي لا بدَّ أنه سمع الحديث إذ صعد رجلان درج السفينة مصطحبين امرأة يعاملونها بخشونة. كانت المرأة بعمر الخامسة والثلاثين تقريبًا. ولطخت مساحيق الزينة التي وضعتها وجهها بشدة بسبب انهمار دموعها والمعاملة القاسية التي عاملوها بها. وانتشرت كدمات فظيعة في وجهها وكتفيها وثدييها اللذين انكشفا من حيث شُقَّ فستانها

الأرجواني الفاتح، كاشفًا عن المشدِّ الموجود تحته. وخضب الدم طرف فستانها، كما كانت مكبلة اليدين والقدمين.

قال التاجر الذي تحدث أولًا ساخرًا: «ها هي الكنز الصغير الآن».

تهدجت أنفاس إتزيو، إذ كان هذا منعطفًا منعزلًا من النهر، لكن أمكنه رؤية جزيرة التيبر من على بُعد خمسين ياردة فحسب على طول المدى. لو استطاع أن يبعث برسالة لأصدقائه فحسب. ولو تهادى لمسامعهم أيُّ شيء، كانوا سيخمنون أنهم مجرد حفنة من البحارة المخمورين، يعلم الرب أنه يتراصُّ الكثير منهم على طول ضفاف النهر، ولو رفع إتزيو صوته أو طلب النجدة، ستلاقي السيدة سولاري حتفها في التو، وهو كذلك، إلا إذا لم يتمتع الرجال المسلحين بالمسدسات بمهارة في التصويب وذلك لقصر المسافة.

وبينما تلتقي عينا المرأة التي تقطعت بها السبل عينا إتزيو، صعد رجل ثالث غير مهندم يرتدي ما تبقى من سترة قبطان بحري باهتة. نظر على إتزيو، ثم على جعبة المال.

وقال بصوت فظ خشن: «ارمها».

- سَلِّم المرأة أولًا، وانزع عنها تلك القيود.

- هل أنت غبي لعين؟ ارمِ. المال. اللعين!

تقدم إتزيو بحركة لا إرادية منه. فارتفعت المسدسات في الحال مُهدِّدة، وأشهر القبطان سيفًا أحدبَ وشدد الآخران من قبضتهما على المرأة، مما جعلها تئن وتجفل من شدة الألم.

- لا تقترب قيد أنملة، وإلا فسنقضي عليها إن فعلت.

توقف إتزيو، لكنه لم يتراجع. وقدَّر المسافة بين المكان الذي يقف فيه وبين سطح السفينة بعينيه. وارتجفت إصبعه على زناد النصل الخفي.

وقال وهو يلوِّح بالجعبة متقدمًا خطوة واحدة بينما كانت أعينهم مشغولة بها: «بحوزتي المال، المبلغ كامل هنا».

- اثبت في مكانك، ولا تختبرني. فإن تقدمت خطوة أخرى، ستموت تلك المرأة.

- لن تحصل على مالك إذن.

- أوه، ألن نفعل؟ نحن خمسة وأنت واحد، ولا أظن أنك ستضع إصبعًا واحدة من قدمك على متن القارب قبل أن يطلق أصدقائي الحاضرون النار على فمك.

- سلِّم المرأة أولًا.

- انظر، هل أنت غبي أم ماذا؟ لا أحد يقترب من هذا القارب اللعين إلا إذا كنت تريد أن تلقى هذه العاهرة حتفها!

تشنجت المرأة المنكوبة قائلة: «سيدي! النجدة!».

زمجر أحد الرجال المُمسكين بها، وقال: «اخرسي أيتها العاهرة». وضربها على عينيها برمَّانة خنجره.

صاح إتزيو لدى رؤيته دم جديد يتدفق من وجه المرأة: «حسنًا! يكفي هذا. أطلِقوا سراحها. الآن».

ورمى بجعبة المال إلى القبطان فنزلت عند قدميه.

قال تاجر الرقيق: «هذا أفضل. والآن لننهِ هذا العمل».

قبل أن تتسنى الفرصة لإتزيو كي يرد، وضع تاجر الرقيق نصل سيفه على جانب عنق المرأة ثم سحبه على طول عنقها عميقًا، ففصل نصف رأسها عن جسدها.

قال القبطان متهكمًا وجثة المرأة تسقط على سطح السفينة وسط نافورة من الدم: «حال وجود أيِّ اعتراضات، توجه بها إلى السيد تشيزاري». وأومأ إلى الرجلين حاملي البندقيتين بإشارةٍ غير مرئية تقريبًا.

عرف إتزيو ما سيتبع ذلك، وتأهب له. وتفادى الرصاصتين بسرعة البرق، وفي اللحظة نفسها التي رمى بنفسه في الهواء، أطلق النصل الخفي. طعن به أول رجل من الرجلين اللذين أمسكا بالأسيرة طعنة غائرة في عينه اليسرى. قبل حتى أن يسقط الرجل أرضًا على سطح القارب، وفي اللحظة ذاتها التي يتفادى فيها إتزيو ضربة من سيف القبطان، جاء من الأسفل وغرز النصل أسفل بطن الرجل الآخر ومزق لحمه. ولأن النصل لم يكن مُصممًا للقطع، فقد انثنى بعض الشيء وراح يمزق بدلًا من أن يقطع، لكن لا بأس بهذا.

والآن حان دور الرجال المسلحين بالمسدسات، كما توقع إتزيو كانوا يحاولون فزعين إعادة تلقيم أسلحتهم، لكن الفزع أربكهم. فسحب النصل للداخل، وأخرج الخنجر الثقيل من غمده. كانت مسافة القتال قريبة جدًّا مما يعوقه عن استعمال سيفه، واحتاج إلى الحافة المُسننة ولثقل نصل الخنجر. وبه قطع يد أحد الرجال الحاملين للسلاح ثم لكز بشدة جنب الرجل بسن الخنجر. ولم يسعفه الوقت ليُنهي مهمته رغم ذلك، لأن المسلح الآخر الآتي من خلفه ضربه بعقب مسدسه. ولحسن حظه أن الضربة لم تصب هدفها بنجاح، عندئذٍ استدار إتزيو وهو يهز رأسه ليخفف التشوش الناتج عن الضربة، ثم غرز الخنجر في صدر الرجل وهو يرفع ذراعه ليسدد له ضربة أخرى.

جال بنظره في الأرجاء. أين ذهب القبطان؟

لمحه إتزيو يركض متعثرًا على طول ضفة النهر، وهو يضم الحقيبة بين ذراعيه والعملات تنسكب منها. فكر إتزيو في نفسه: *أحمق، كان*

عليه *أن يأخذ الحصان*. وعدا خلفه، وأمسكه بسهولة إذ كانت الحقيبة ثقيلة. وأمسك القبطان من شعره وركله في ساقيه، مُجبرًا إياه على الركوع ورأسه يميل إلى الخلف.

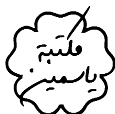
وقال إتزيو: «الآن كما تدين تُدان»، وقطع رأس القبطان مثلما فعل مع السيدة سولاري.

عندها ترك الجسد يسقط متلويًا من الألم على الأرض وأخذ الحقيبة وقفل راجعًا إلى القارب، وجمَّعَ العملات الساقطة على الأرض في طريقه. أخذ تاجر الرقيق المجروح يتلوَّى على سطح السفينة. تجاهله إتزيو ونزل إلى الأسفل وأخذ يفتش القمرة قليلة الأثاث، وبسهولة وجد صندوقًا حديديًّا صغيرًا، فتحه عنوة بنصل خنجره الملطخ بالدم. ووجده مملوءًا بالجواهر.

قال إتزيو لنفسه: «هذا سيفي بالغرض». وتأبط الصندوق خارجًا به من سُلم القارب مجددًا.

حَمَّل جعبة الأموال والصندوق في سرج حصانه بالإضافة إلى المسدسات، ثم عاد إلى الرجل المجروح وكاد ينزلق في الدم الذي نزفه تاجر الرقيق. انحنى إتزيو للأسفل وقطع أوتار ركبتي الرجل، وكمَّم فاه بيده لكتم صراخه. كان ينبغي لهذه الإصابة أن تُبطئ من حركته. للأبد.

وقرب إتزيو فمه من أذن الرجل. وقال: «إن نجوتَ، فارجع إلى الحقير المنكوب بالزهري الذي تدعوه سيدك، وأخبره أن كل ما جرى كان مجاملة من إتزيو أوديتوري. وإن لم تنجُ، فلترقد بسلام».



20

لم يعد إتزيو إلى الماخور من فوره، فقد كان الوقت متأخرًا. إذ أعاد الحصان واشترى جِوالًا من السائس ببضع عملات، ووضع فيه غنائمه والمال. حمل إتزيو الجِوال على كتفه وسلك طريقه إلى المُرابي الذي تفاجأ واغتمَّ في الوقت ذاته لرؤيته عائدًا بهذه السرعة، وأعطاه ما يدين به. ثم عاد إلى مسكنه، حريصًا على الاندماج في الحشود المتسكعة ليلًا عندما يلمح حراس آل بورجيا.

وما إن حطَّ رحاله هناك، حتى طلب منهم جلب الماء ليستحم وخلع ملابسه واغتسل وهو متعب، وتمنى لو أن كاترينا تُطل من الباب مرة أخرى وتفاجئُه. إلا أن هذه المرة لم يكن ثمة أحد يُقاطعه على هذا النحو المبهج. ارتدى إتزيو ملابس نظيفة ورمى بالقديمة التي كان يرتديها، التي أتلفها عمل النهار، في الجِوال ليتخلص منها فيما بعد. ثم نظف المسدسات ووضعها في حقيبة كتف. لقد فكر في الإبقاء عليها، بيدَ أنها كانت ثقيلة وغير عملية، لذا فقد قرر إعطاء بارتولوميو إياها. وسينتهي المطاف بالجواهر إلى بارتولوميو كذلك، لكن بعد أن تفحصها إتزيو، اختار خمسًا من الأكبر حجمًا والأفضل ودسَّها في محفظته. إذ ستغنيهم تلك المجوهرات عن إضاعة الوقت في تدبر أمر المال لفترة على الأقل.

وباقي الأشياء سيجعل الثعلب يرسلها إلى الثكنات. فإن لم يكن المرء قادرًا على الوثوق في لصٍّ صديق، إذن في مَن يثق؟

وما لبث أن تجهز للخروج مرة أخرى. كانت حقيبة الكتف تتدلى من فوق كتفه ويده على قفل الباب لما غلبه التعب. لقد كان متعبًا من القتل، ومتعبًا من الطمع واقتناص السلطة، ومتعبًا من البؤس الذي ينتج عن كل هذا.

تعِب من القتال.

وأرخى يده عن الباب وأنزل حقيبة الكتف ووضعها على سريره. وأغلق الباب وخلع ملابسه مرة أخرى، ثم نفخ ليُطفئ الشمعة وارتمى على السرير. وفقط تسنى له الوقت ليتذكر وضع سلاح للحماية جانب الحقيبة قبل أن يغطَّ في النوم.

فهو يعرف أن الاستراحة لن تدوم طويلًا.

***

سلَّم إتزيو في حانة الثعلب النائم حقيبة الظهر ومعها تعليمات صارمة. ولم يُحبذ تفويض هذه المهمة إلى أيٍّ أحد، لكن كان هناك مكان آخر يلزم أن يكون فيه. ورغم قلة التقارير التي أتى بها جواسيس الثعلب، توافقت نتائجها مع ما أرسله ماكيافيلي بالحمام الزاجل إلى بانتاسيليا، فبددت الشكوك المتبقية لدى إتزيو بخصوص صديقه، بيدَ أن الثعلب بقي متحفظًا. بإمكان إتزيو تفهُّم هذا الأمر. فماكيافيلي يترك انطباعًا بأنه منعزل، بل حتى متبلد المشاعر. ورغم أنهما جمعهما موطن واحد فهما فلورنسيَين، وفلورنسا لا تُكنُّ حبًّا لروما، لا سيما لآل بورجيا، بدا أن الثعلب لا يزال تساوره الشكوك، مع كل الدلائل على نقيض ذلك.

كان كل ما قاله بنبرة صارمة خشنة عندما أصرَّ إتزيو على الحديث في الموضوع: «سَمِّه حدسًا».

لم ترِد أيُّ أخبار عن التفاحة، سوى أنها لا تزال بحوزة آل بورجيا، رغم عدم التيقن من وجودها بحوزة تشيزاري أو رودريغو. فرودريغو يعرف إمكاناتها، رغم أنه بدا لإتزيو أن رودريغو لن يعهد بالكثير مما يعرفه إلى ابنه، بالنظر إلى التوتر القائم بينهما. أما تشيزاري فكان آخر شخصٍ شُوهد والتفاحة في قبضته، رغم عدم ظهور أيِّ دلائل على استخدامه لها. ورجا إتزيو أنه أيًّا ما يكُن الشخص الذي كلفه تشيزاري بدراستها، إن كان *فعل* ذلك حقًّا، فقد أعيته أسرارها الغامضة أو أنه قد واراها عن سيده.

لم تكن هناك إمكانية للعثور على ماكيافيلي. حتى إنه لم يترك أيَّ خبر في المقر السري للحشاشين في جزيرة التيبر. وكان أفضل ما توصل إليه إتزيو من معلومات هو أنه كان في مكان ما «بعيد»، ولم ترد أيُّ تقارير تقول إنه كان في فلورنسا كذلك. كان الصديقان الشابان بالداساري كاستيليوني وبيترو بيمبو، اللذَانِ كانا في روما مؤقتًا في الوقت الحالي ويديران شؤون المخبأ، محل ثقة تامة، وكانا عضوينِ مشاركينِ في الأخوية بالفعل، لا سيما لأن أحدهما على علاقة بتشيزاري والآخر بلوكريتزيا. فكر إتزيو في أن الأمر مُحزن فالأول عليه العودة إلى مانتوا في أقرب وقت والآخر إلى البندقية. وعزى نفسه بفكرة أنهما لن تكون لهما فائدة إلا بوجودهما في بلدتيهما.

واعتراه شعور بالرضا بأنه فعل ما بإمكانه في هاتين الجبهتين، وعاد بأفكاره إلى ماخور الوردة المتفتحة.

في تلك المرة التي زار فيها الماخور، كان الباب مفتوحًا. وبدا المكان منتعشًا أكثر بالهواء والضوء. وتذكَّر اسم الفتاتين اللتين التقاهما في أول يوم لاختطاف السيدة سولاري، وبعد أن ذكرهما للسيدة الأكبر سنًّا والأكثر رقيًّا الموجودة في المدخل، والتي كما لاحظ قد استعانت بشابَّين

مهندمين عليهم حلة الأدب، لكن شديدَي البنية للحراسة، أُرشد لدخول الفناء الداخلي، حيث أخبر أنه سيجد الفتيات فيه.

وجد إتزيو نفسه في حديقة زهور، تحيطها جدران ذات قرميد أحمر. ونُصبت تعريشة على طول أحد الجدران كستها أزهار متسلقة وردية وافرة النماء وتربع في المنتصف نافورة صغيرة يحيطها مقاعد رخامية بيضاء. كانت الفتاتان اللتان يريدهما رفقة مجموعة أخرى من الفتيات وكانتا تتبادلان أطراف الحديث مع امرأتين أخريين تديران ظهريهما إليه. واستدارتا عند اقترابه.

كان على وشك التعريف بنفسه، فقد قرر أن يجرب مسارًا مختلفًا هذه المرة، بيدَ أنه فغر فاه.

- أمي! كلاوديا! ما الذي تفعلانه هنا؟

- في انتظارك، فقد أخبرنا السيد ماكيافيلي أننا قد نجدك هنا. قبل أن يغادر.

- أين هو؟ هل رأيتموه في فلورنسا؟

- لا.

وكرر عليهما السؤال ببلاهة: «لكن ما الذي تفعلانه في روما؟». وكانت الدهشة والقلق يتملكانه: «هل هُوجمت فلورنسا؟».

قالت ماريا: «لا، لا شيء من هذا القبيل. غير أنه تأكدت صحة الشائعات، فقد دُمر قصرنا ولم يعد لنا شيء هناك».

علقت كلاوديا: «وحتى إن لم يصِر مدمرًا، فلن أعود إلى حصن ماريو في مونترجيوني». نظر إليها إتزيو وأومأ وتفهم فكرة أن هذا المكان سيكون مزريًا متخلفًا بالنسبة إلى امرأة مثلها، إلا أن قلبه اضطرب.

تابعت ماريا قائلة: «فقد جئنا إذن إلى هنا. ومكاننا معك».

تسارعت الأفكار في ذهن إتزيو. ففي أعماق قلبه، رغم أنه قلما أقر بها لعقله الواعي، لا يزال يشعر أنه كان بإمكانه منع وفاة أبيه وإخوته، لقد خذلهم. وماريا وكلاوديا هما كل ما تبقى من عائلته. ألا ينبغي له عدم خذلانهما بالطريقة نفسها؟ لم يُرد أن تكونا عبئًا عليه.

فهو يجتذب الخطر، وإن كانتا بالقرب منه، ألن تجذبان الخطر كذلك؟ لم يُرد أن يكون موتهما بسببه. لقد كانتا أفضل حالًا وهما بعيدتين في فلورنسا، مع الأصدقاء وفي أمان، وفي مدينة استعادت استقرارها تحت إدارة بييرو سوديريني.

قالت كلاوديا مقاطعةً أفكاره: «إتزيو، نريد تقديم العون».

قال إتزيو: «أسعى إلى إبقائكما بأمان بإرسالكما إلى فلورنسا». وحاول إخفاء نبرة نفاد الصبر من صوته، لكنه وجد نفسه يتكلم بحدة. وبدت أمارات الصدمة على ماريا وكلاوديا، ورغم أن ماريا تجاهلت الأمر سريعًا، رأى إتزيو أن كلاوديا قد جرحها وساءها هذا الرد. هل استشفت شيئًا من أفكاره؟

ولحسن الحظ قاطعهم آنييلا ولوتشيا. «عذرًا يا سيدي لقد اعترانا القلق. إذ لم تصلنا أيُّ أخبار عن السيدة سولاري. هل تعرف ما حلَّ بها؟».

كان فكر إتزيو لا يزال مشغولًا بكلاوديا والتعبير المُطل من عينيها، لكن تحول انتباهه إلى السؤال. فلا بدَّ أن تشيزاري قد نجح في التغطية على الأمر. لكن على كل حال يُعثر على جثث في نهر التيبر كل يوم تقريبًا، وبعضها موجودة منذ فترة.

باغتهم ردَّ إتزيو: «لقد ماتت».

صرخت لوتشيا: «ماذا؟».

قالت آنييلا بنبرة مقتضبة: «تبًّا».

انتشر الخبر سريعًا بين الفتيات.

سألت إحداهنَّ: «ما الذي ينبغي لنا فعله الآن؟».

سألت أخرى: «أسيتعين علينا إغلاق المكان؟».

استشفَّ إتزيو القلق الكامن لديهن. فقد عملت تلك الفتيات على جمع المعلومات للحشاشين تحت إدارة السيدة سولاري، رغم قول ماكيافيلي بعدم كفاءتها. وبالنظر إلى كونهن بلا حماية، ولو ساورت تشيزاري شكوك حيال ماخور الوردة المتفتحة، كما يوحي موت سولاري، ما المصير الذي ينتظرهن؟ من ناحيةٍ أخرى، إن ظنَّ تشيزاري أن السيدة سولاري لم تكن الجاسوسة *ال*وحيدة في المكان، ألم يكن ليقدم على فعل شيء حتى الآن؟

كان هذا مربط الفرس، إذ لا يزال هنالك أمل.

أخبرهن: «لا يمكنكن الإغلاق فأنا أحتاج إلى عونكن».

- لكن يا سيدي، دون وجود شخص يدير لنا الأمور، سنكون في خطر.

قال صوتٌ ما بالقرب منه بنبرة حاسمة: «سأتولى الأمر».

كان صوت كلاوديا.

التفت إتزيو إليها، وقال: «أنتِ لا تنتمين إلى *هنا* يا أختي!».

ردَّت بحدة قائلة: «أعرف كيف أدير الأعمال. فقد أدرت ممتلكات عمي ماريو في الريف لسنوات».

- هذا أمرٌ مختلف تمامًا.

وتدخل صوت أمه المُهدئ. وقالت: «ما البديل الذي تملكه يا إتزيو؟ أنت تريد أحدهم سريعًا على ما يبدو، وتعلم أن بإمكانك الوثوق بأختك».

تفهم إتزيو الحكمة المنطقية للأمر، لكن سيعني هذا وضع كلاوديا على خط الجبهة، المكان ذاته الذي كره أن تكون فيه. حدق إليها وحدقت هي الأخرى إليه في تحدٍّ.

- إن قمتِ بهذا الأمر يا كلاوديا، فستتحملين مسؤولية نفسكِ. ولن تحظين بحمايةٍ خاصة مني.

قالت ساخرة: «لقد تدبرتُ أموري دون حمايتك لعشرين عامًا».

ردَّ بجفاء: «حسنًا، يُفضل أن تشرعي في العمل من فوركِ. أريد تنظيف هذا المكان بالكامل بإعادة تزيينه وتحسينه بكل الطرق الممكنة. وحتى هذه الحديقة تتطلب عملًا تحسينيًّا متقنًا. أريد لهذا المكان أن يكون أفضل مؤسسة في البلدة. وأنتِ في خضم منافسة بالتأكيد. وأريد أن تكون الفتيات نظيفات، فهذا الداء الإفرنجي لا يبدو أن أحدًا يعرف الكثير عنه، فهو منتشر في جميع الموانئ والمدن الكبرى، لذا فجميعنا يعرف معنى هذا».

ردَّت كلاوديا بفتور: «سنعمل على هذا».

قال وقد حافظ على جمود ملامح وجهه: «يُستحسن لكِ. وثمة شيء آخر. بينما تقومين بهذا، أريد من غانياتكِ أن يعرفن مكان كاترينا سفورزا».

- بوسعك الاعتماد علينا.

- أنتِ الآن تتحملين مسؤولية هذا يا كلاوديا. أيُّ خطأ، ستتحملين عقباه.

- يمكنني الاعتماد على نفسي يا أخي.

قال إتزيو ممتعضًا وهو يستدير مبتعدًا: «آمل ذلك».

21

انشغل إتزيو للأسابيع القليلة التالية، إذ عمل على تعزيز القوات المتبقية من الأخوية المتجمعة في روما، واتخاذ قرار بشأن الانتفاع من المعلومات الأولية التي جمَّعها من الثعلب، ومن التقارير الأولية التي أرسلها بارتولوميو. وقلَّما ساوره أمل في أن تنقلب الأمور ضد آل بورجيا، لكن ربما تكون تلك بداية النهاية. ورغم هذا تذكر القول المأثور القائل إنه من السهل التعامل مع شبل الأسد مقارنةً بالاقتراب من أسد كبير مخضرم. غير أنه عارض تفاؤله الحذِر حقيقة اشتداد قبضة تشيزاري على منطقة رومانيا الإيطالية، مع وقوع ميلان في قبضة الفرنسيين. ولم يسحب الفرنسيون دعمهم من القائد البابوي. فمنذ سنوات خلت حاول كاردينال كنيسة سان بيترو في فانكولي جوليانو ديلا روفيري، أعدى أعداء البابا، تأليب الفرنسيين على آل بورجيا والإطاحة بألكسندر من منصبه، لكن ألكسندر فاقه دهاءً. فكيف لإتزيو أن ينجح حيث فشل ديلا روفيري؟ لكن على الأقل لم يُقدم أحدٌ على تسميم الكاردينال، فقد كان أقوى من أن يحدث له هذا، وبقي ورقة إتزيو الرابحة.

فكر إتزيو كذلك، رغم أنه احتفظ بهذه الفكرة لنفسه، أن مهمته ينبغي أن تكون حثَّ الأخوية على نقل مقرهم نقلًا دائمًا إلى روما. فقد كانت روما في قلب أحداث العالم، ومركز الفساد فيه كذلك. فأين المكان الذي يتناسب مع هذا الغرض، لا سيما أن مونترجيوني لم تعد خيارًا ممكنًا. ولدى إتزيو خطط لوضع نظام لتوزيع تمويلات الأخوية، لتصبح

مكافآت على المهمات الناجحة التي قام بها الحشاشون الفرديون. فتلك الجواهر التي أُخذت من تجار الرقيق كانت ذات نفع كبير ومحل ترحاب لتمويل الحملات.

يومًا ما...

لكن «يومًا ما» كان لا يزال بعيدًا جدًّا، فالأخوية لم تُنصب قائدًا منتخبًا جديدًا، رغم أنه بالإجماع العام، وبفضل أعمالهما أصبح هو وماكيافيلي رئيسيها المؤقتَين. لكن هذا كان أمرًا مؤقتًا فحسب، غير أنه لم يُصدق على شيء في مجلس رسمي.

كانت كاترينا لا تزال تشغل عقل إتزيو.

لقد ترك كلاوديا تُشرف على تجديد ماخور الوردة المتفتحة دون أيِّ إشراف أو تدخل منه. كان لسان حاله يقول دعها تغرق أو تسبح في ثقتها الزائدة في نفسها. فلن يكون خطؤه إن غرقت. كان الماخور وصلة ربط مهمة في شبكته، بيدَ أنه أقر لنفسه بأنه لو لم يكن يثق بها حقًّا، لم يكن ليعتمد عليها بشكلٍ أقوى في المقام الأول. والآن حان وقت اختبار عملها، أيُّ شيء أنجزته.

لما عاد إلى ماخور الوردة المتفتحة، كانت مفاجأته بقدر سعادته. لقد كان تحولًا ناجحًا شأنه شأن التحولات الأخرى التي أجرها في المدينة وفي ثكنات بارتولوميو، ورغم هذا تحلى بالتواضع والواقعية الكافية لئلَّا ينسب كل الفضل إلى نفسه. وأخفى سروره بينما يتأمل الغرف الفخمة المعلق بها منسوجات جدارية باهظة والآرائك العريضة والوسائد الحريرة الناعمة والنبيذ الأبيض المُبرد بالثلج، كان ترفًا باهظ الثمن.

بدت الفتيات كالسيدات المحترمات، وليس كالعاهرات، وبدا من سلوكهنَّ أن أحدًا ما علمهن كيف يكنَّ أكثر لباقة. وبالنسبة إلى الزبائن،

كان آخر شيء يمكنه أن يستشفه هو أن العمل كان مزدهرًا، ورغم ما كان له من تحفظات حيال طبيعة مناصبهم فيما سبق، فلا شك الآن. ولما نظر على الصالون المركزي، رأى اثني عشرة كاردينالًا وعضوًا بمجلس الشيوخ، إضافة إلى أعضاء من المكتب المالي الرسولي والموظفين الآخرين في البلاط البابوي.

كانوا جميعًا يستمتعون بوقتهم ومسترخين، وكما تمنى إتزيو، لا تساورهم أيُّ شكوك. لكن الجدوى الحقيقية تكمن في قيمة المعلومات التي تقدر غانيات كلاوديا على استخلاصها من مجموعة الحثالة المرتشين هؤلاء.

لمح إتزيو أخته، التي ارتدت ملابس محتشمة، وسُرَّ لرؤيتها، تتحدث برقة بالغة (من وجهة نظره) إلى أسكانيو سفورزا نائب المستشار السابق في البلاط البابوي وهو الآن في روما مرة ثانية بعد الفضيحة القصيرة، محاولًا نيل استحسان البابا مرة أخرى بالتملق. ولما لمحت كلاوديا إتزيو، تغيرت سيماء وجهها. واعتذرت من الكاردينال وأتت باتجاهه، وارتسمت على وجهها ابتسامة فاترة.

وقالت: «مرحبًا بك في الوردة المتفتحة يا أخي».

قال ولم تفتر شفتاه عن ابتسامة: «بالتأكيد».

- بإمكانك أن ترى أنه أشهر ماخور في روما.

- الفساد هو الفساد، مهما حَسن من حُلته.

عضت شفتها، وقالت: «لقد أبلينا بلاءً حسنًا. ولا تنسَ الغرض الفعلي من وجود هذا المكان».

ردَّ قائلًا: «أجل، يبدو أن أموال الأخوية قد أُحسن استثمارها».

- هذا ليس كل شيء.

ومما فاجأ إتزيو أنه وجد ماريا هناك، تقوم ببعض الأعمال الورقية مع محاسب. وتبادلت الأم والابن التحية بحذر.

قالت كلاوديا وهي تخرج كتابًا ما: «أردت أن أُريك هذا. احتفِظ في هذا الكتاب بقائمة من المهارات التي أعلمها لفتياتي».

قال إتزيو ولم يستطع إخفاء نبرة الاستهزاء في صوته: «*فتياتكِ*؟». فقد تعاملت أخته مع الأمر كأنها متمرسة فيه.

قالت وقد ازدادت صرامة: «لمَ لا؟ انظر بنفسك».

قلَّب إتزيو في صفحات الكتاب المقترح، وقال: «أنتِ لا تُعلمينهم الكثير».

أجابته إجابة ساخرة: «شكرًا لك، يمكنني أن أبلي بلاءً أحسن؟».

قال إتزيو على مضض: «لا مشكلة».

ولما شعرت ماريا بوجود مشكلة، تركت حساباتها وجاءت إليهم، وقالت: «إتزيو، يُصعِّب آل بورجيا الأمر على فتيات كلاوديا. إنهن يتجنبن المشكلات، لكن يصعب تجنب الشكوك. هنالك العديد من الأمور التي يمكنك فعلها لمساعدتهن...».

قال إتزيو: «سأضع هذا في الحسبان. عليكِ أن تدعيني أُوليهن انتباهي». وحوَّل انتباهه إلى كلاوديا مرة أخرى. وقال: «هل تريدين شيئًا آخر؟».

قالت: «لا»، ثم أطرقت وبعدها نادته: «إتزيو؟».

- ما الأمر؟

- لا شيء.

استدار إتزيو وكان على وشك المغادرة، ثم قال: «هل وجدتِ كاترينا؟».

ردَّت بفتور: «إننا نعمل على ذلك».

قال إتزيو: «سعيد بسماع ذلك. أمر جيد. تعالَي لرؤيتي في جزيرة التيبر في اللحظة التي تعرفين فيها المكان *المحدد* الذي يحتجزونها فيه». وأمال رأسه باتجاه أصوات الابتهاج القادمة من الصالون المركزي. واستطرد: «مع وجود هؤلاء تُدرِّين منهم المال، فلن تجدي الأمر *بتلك* الصعوبة».

ثم تركهن وشأنهن.

لما خرج إلى الشارع ساوره شعور بالذنب من الطريقة التي تصرف بها. إذ بدا أنهن يقُمن بعمل رائع. لكن هل ستنجح كلاوديا في هذا؟

ففي مكنون نفسه لم يكن يأبه لهذا. وأقرَّ للمرة الثانية أن منبع غضبه الحقيقي هو قلقه حيال قدرته على حماية أحبائه. لقد كان محتاجًا إليهما. إنه يعرف هذا، لكنه كان مدركًا أن خوفه على سلامتهما قد أضعفه.

22

حدث لمُّ الشمل الذي طال انتظار إتزيو له مع ماكيافيلي أخيرًا في جزيرة التيبر بعد فترة قصيرة من اللقاء الذي وقع في الماخور. تحفَّظ إتزيو في البداية، فلم يحبذ فكرة اختفاء أيٍّ عضو من الأخوية دون أن يعرف أين ذهب، لكنه أدرك في صميم قلبه أنه لا بدَّ أن يكون ثمة استثناء لماكيافيلي. فقد كانت الأخوية رابطة تقوم على الأشخاص حرة الفكر والروح، التي تعمل معًا ليس بدافع الإكراه أو الإذعان، لكن بدافع الاهتمام والمصلحة العامَّين. فلم يكن له أيُّ حق في إخضاع أيٍّ أحد منهم.

صافح زميله القديم ماكيافيلي وعليه أمارات الجدية والعزم وتحاشى حرارة العناق، وقال: «لا بدَّ لنا أن نتحدث».

نظر إليه ماكيافيلي وقال: «بالتأكيد علينا أن نتحدث. أستنتج أنك تعلم بخصوص الترتيبات الصغيرة مع بانتاسيليا؟».

- أجل.

قال: «جيد، تلك المرأة على دراية بالتكتيكات في إصبعها الصغيرة عما يملكه زوجها في جسده الكبير، رغم أنه الأفضل في مجاله». سكت، ثم أردف: «لقد حصلت على شيء مهم جدًّا من أحد معارفي الخاصة. والآن لدينا أسماء تسعة عملاء رئيسين من فرسان الهيكل وظفهم تشيزاري لإِرهاب روما».

- أخبرني فحسب كيف لي أن أجدهم.

فكر ماكيافيلي، ثم قال: «أقترح أن نبحث عن علامات الاستياء والغضب في أي منطقة محددة من مناطق المدينة. زُر الناس هناك، ربما ستجد سكانًا يوجهونك للطريق الصحيح».

- هل حصلت على هذه المعلومات من مسؤول تابع لآل بورجيا؟

قال ماكيافيلي في حذرٍ بعد سكوت: «أجل. كيف عرفت؟».

فكر إتزيو في المقابلة التي شهدها مع الثعلب في ساحة السوق، وتساءل إن كان هذا الاتصال لم يكن الأول. فلا بدَّ أن ماكيافيلي تابع القيام بالأمر منذ ذلك الحين.

قال: «تخمين بالحظ. شكرًا لك».

قال ماكيافيلي: «انظر تنتظرك كلاوديا وبارتولوميو والثعلب في الغرفة الداخلية هنا». وتوقف ثم قال: «*كان* هذا تخمين بالحظ».

قال إتزيو: «إنها ميزة يا عزيزي نيكولو، هذا كل ما في الأمر»، وقاده إلى طريقهم.

قال ماكيافيلي لنفسه وهو يتبعه: «ميزة؟».

وقف رفقاؤه في الأخوية لما دخل الحرم الداخلي للمخبأ. وبدا كأن على وجوههم الطير.

قال إتزيو: «مساء الخير»، ودخل مباشرةً في الحديث عن العمل: «ما الذي اكتشفتموه؟».

تناول بارتولوميو دفة الحديث أولًا: «لقد تأكدنا من أن الساقط تشيزاري موجود الآن في قلعة سانت آنجيلو، رفقة البابا».

أضاف الثعلب: «وأكد جواسيسي على أن التفاحة أُعطيت بلا شك لأحدهم كي يعمل على دراستها سرًّا. وأنا أعمل على معرفته».

- ألا يمكننا التخمين؟

- التخمين أمر غير مضمون. نريد أن نعرف على وجه *التأكيد*.

أضافت كلاوديا بدورها: «لديَّ خبر عن كاترينا سفورزا. ستُنقل خلال الأسبوع القادم إلى سجن في القلعة يوم الخميس قُبيل الغسق».

خفق قلب إتزيو لا إراديًّا عند سماعه هذا، لكن كانت كلها أخبارًا جيدة.

قال ماكيافيلي: «جيد، إذن القلعة هي وجهتنا. ستتعافى روما سريعًا بمجرد رحيل تشيزاري ورودريغو».

رفع إتزيو يده قائلًا: «فقط لو تسنت الفرصة السانحة لاغتيالهم سأقتنصها».

بدا على ماكيافيلي الاهتياج: «لا تُكرر خطأك الذي حدث في القبو السري. عليك أن تقتلهما الآن».

قال بارتولوميو: «أتفق مع نيكولو، لا يجب علينا الانتظار».

ووافقهم الثعلب قائلًا: «إن بارتولوميو محق».

قالت كلاوديا: «عليهم دفع ثمن قتلهم لماريو».

هدأهم إتزيو قائلًا: «لا تقلقوا يا أصدقائي، سيموتان. أعدكما بذلك».

23

في اليوم المحدد لنقل كاترينا إلى قلعة سانت آنجيلو، انضمَّ إتزيو وماكيافيلي للحشد المتجمع أمام عربة فاخرة، كانت نوافذها مغلقة وعليها ستائر متحركة وعلى أبوابها شعار آل بورجيا. وعمل الحراس المحيطين بالعربة على إبعاد الناس، ولا غرابة في ذلك، لأن الناس لم يكن جميعهم متحمسون. وهبط أحد سائقي العربة من على مقصورته وأسرع بفتح باب العربة الأقرب إليه وأنزل الدرج، ووقف مستعدًّا لمساعدة راكبي العربة على النزول.

بعد لحظة ظهرت الشخصية الأولى ترتدي فستانًا أزرق داكنًا له صدرية بيضاء. عَرف إتزيو الشقراء الجميلة ذات الشفاه القاسية من فوره، فآخر مرة رآها فيها كانت في أثناء الاستيلاء على مونترجيوني، لكن كان وجهًا يصعب نسيانه. كانت لوكريتزيا بورجيا. نزلت على الأرض بكل شموخ، وقد زال عنها كل هذا الرونق حيث مدت يدها داخل العربة وأمسكت بشيء، أو بشخص، وجذبته بقوة.

جذبت لوكريتزيا كاترينا سفورزا من شعرها وألقتها على الأرض أمامها. كانت كاترينا في حالةٍ يرثى لها؛ مكبلة بالسلاسل وترتدي فستانًا بنيًّا رثًّا. إلا أنها حتى في انكسارها لا تزال لها حضور طاغٍ وروح عالية أكثر مما قد تتخيله آسرتُها. وتعيَّن على ماكيافيلي أن يُمسك ذراع إتزيو كي يمنعه من الحركة حيث بدأ يندفع للأمام. لقد شهد إتزيو الكثير من

أحبائه يعاملون معاملة قاسية، غير أن الوقت هذه المرة يتطلب ضبط النفس. فأيُّ محاولة إنقاذ الآن ستبوء بالفشل.

راحت لوكريتزيا تتحدث وهي تضع إحدى قدميها على ضحيتها الممددة على الأرض: «مرحبًا يا أهل روما. لتشهدوا مشهدًا يسر الناظرين. ها هي كاترينا سفورزا عاهرة فرولي! لطالما تحدثتنا لوقتٍ طويل، وها هي الآن خاضعة تحت أقدامنا».

لم يصدر عن الحشد ردٌّ فعل كبير تجاه ما قالته، وفي الصمت المخيم رفعت كاترينا رأسها وهتفت قائلة: «ها! لا أحد ينحطُّ كانحطاط لوكريتزيا بورجيا. مَن حثَّكِ على هذا؟ هل هو أخوكِ؟ أم والدكِ؟ ربما كلاهما معًا؟ وربما في الوقت نفسه، أليس كذلك؟ فقبل كل شيء، لقد ترعرعتم جميعًا في زريبة واحدة».

صرخت لوكريتزيا وهي تركلها: «اخرسي! لا أحد يتحدث بالسوء عن آل بورجيا». ومالت للأسفل، وجرَّت كاترينا على ركبتيها ولطمتها لطمة سقطت من شدتها في الوحل ثانيةً. ورفعت رأسها في إباء، وقالت: «سيلاقي أيُّ مَن يتحدانا المصير نفسه».

أومأت للحراس الذي أمسكوا كاترينا البائسة وجرُّوها ليوقفوها على قدميها واقتادوها باتجاه بوابات القلعة. ورغم هذا تمكنت كاترينا من الهتاف قائلة: «يا شعب روما الطيب، كونوا أقوياء. سيحين وقتكم، وستتحررون من قبضة هؤلاء، أقسم لكم».

وباختفاء كاترينا وعودة لوكريتزيا إلى عربتها لتتبعها، التفت ماكيافيلي إلى إتزيو، وقال: «حسنًا، لم تفقد الكونتيسة روحها المعنوية».

شعر إتزيو بالخواء والتعب، وقال: «سيعذبونها».

- لسوء الحظ أن فرولي قد سقطت. لكننا سنستعيدها، سنستعيد كاترينا كذلك. لكن علينا التركيز فنحن هنا الآن من أجل تشيزاري ورودريغو.

- إن كاترينا حليفٌ قوي، وواحدة منا بلا شك. إن ساعدناها الآن في ضعفها، سترد لنا الجميل وتساعدنا في المقابل.

- ربما، لكن اقتل، تشيزاري ورودريغو أولًا.

كان الجَمع قد بدأ يتفرق، وبغض النظر عن خفراء البوابة، تراجع حراس آل بورجيا إلى القلعة. وسرعان ما بقي ماكيافيلي وإتزيو واقفين في الظلال.

ولما تأخر الوقت، قال إتزيو: «اتركني يا نيكولو. فلديَّ عمل أقوم به».

نظر إتزيو عاليًا نحو جدران القصِّ في المبنى الدائري القديم، ضريح الإمبراطور هادريان المُشيد قبل ما يزيد على ألف عام والذي غدا في ذلك الوقت حصنًا منيعًا. كانت نوافذه القليلة عالية للغاية وأسواره شاهقة. ولاتصاله بكاتدرائية سانت بيتر عن طريق ممر حجري محصَّن، كان معقلًا بابويًّا لما يقرب من مئتي عام.

تفحَّص إتزيو الأسوار لإيمانه أن لا شيء مُحصن تمامًا. وعلى ضوء المشاعل الخافق في حواملها، ومع حلول الليل، تتبعت عيناه النتوءات الصغيرة والشقوق وعيوب السور، التي مع صغرها، ستمكنه من التسلق. وما إن خطط مساره، حتى قفز كالقط إلى أول موضع يد وموطئ قدم مثبتًا أصابع يديه وقدميه فيها ومحافظًا على ثبات أنفاسه، ثم أخذ يتسلق السور بتأنٍّ وروية في الأماكن البعيدة عن الضوء المنبعث من المشاعل.

وفي منتصف طريقه عثر على فتحة، كانت نافذة غير مزججة في إطار صخري وتحتها من الجانب الداخلي ممر للحراس. نظر إتزيو

على كلا الجانبين على طول الممر، لكنه خلا من أيٍّ أحد. وفي صمت تأرجح على السور ونظر إلى الأسفل على الجانب الآخر من الممر من فوق حاجر موجود في ساحة الإسطبل. فرأى أربعة رجال يسيرون معًا وعرف إتزيو كل واحد منهم. كان تشيزاري يعقد اجتماعًا من نوعٍ ما مع ثلاثة من كبار ملازميه: الجنرال الفرنسي أوكتافيان دي فالوا، والمصرفي الشخصي لتشيزاري وشريكه المقرب خوان دي بورجيا لانزول دي روماني، ورجل نحيل يرتدي ملابس سوداء له وجه قاسٍ ومليء بالندوب، هو ميكيليتو دي كوريلا، اليد اليمنى لتشيزاري وقاتله الأجدر بالثقة.

كان تشيزاري يقول: «دعكَ من البابا، أنتم تدينون لي وحدي بالطاعة. وروما هي العماد الذي يستند عليه عملنا بأكمله. ولا يمكنها أن تتزعزع. ما معناه أنه لا يمكنكم ذلك أيضًا».

سأل أوكتافيان: «ماذا عن الفاتيكان؟».

ردَّ تشيزاري باحتقار قائلًا: «ماذا؟ نادي الرجال العجائز المنهكين؟ تماهوا مع الكرادلة في الوقت الحالي، لكن عمَّا قريب لن نحتاج إليهم».

وبقوله هذا دلف من باب في ساحة الإسطبل، تاركًا الثلاثة الآخرين وحدهم.

قال خوان بعد سكوت طال قليلًا: «حسنًا، يبدو أنه قد ترك روما لنا لندبر شؤونها».

قال ميكيليتو بفتور: «إذن فالمدينة في أيدٍ أمينة».

استمع إتزيو لمدة طويلة، لكن لم يُقال شيء لا يعرفه بالفعل، لذا فقد واصل تسلق السور الخارجي لتحديد مكان كاترينا. فرأى ضوءًا آتيًا من نافذة أخرى، كانت النافذة مزججة هذه المرة، لكنها مفتوحة ليدخلها نسيم الليل، ولها عتبة خارجية يمكنه الاستناد عليها بعض

الشيء. ولما فعل هذا، نظر بحرص من النافذة على ممر تضيئه الشموع له جدران خشبية مستوية. كانت لوكريتزيا موجودة هناك جالسة على مقعد منجَّد وتكتب في دفتر ملاحظات، لكن بين حين وآخر ترفع نظرها كما لو أنها تتوقع شخصًا ما.

وبعد مُضي لحظات، ولج تشيزاري من باب في الطرف الأبعد من الممر وأسرع باتجاه شقيقته. قال وهو وقبلها: «لوكريتزيا».

وما إن تبادلا التحية فيما بينهما، وظل ممسكًا بيديها ناظرًا في عينيها، حتى قال: «آمل أن تحسني وفادة ضيفتنا».

كشرت لوكريتزيا وجهها وقالت: «فمها هذا... وددت لو أن أخيطه لأخرسه».

ابتسم تشيزاري، وقال: «أنا أفضله مفتوحًا».

- أوه حقًّا؟

استرسل في كلامه متجاهلًا أسلوبها اللعوب الوقح: «هل تحدثتِ مع أبينا بخصوص الأموال التي طلبها مصرفي الشخصي؟».

- البابا في الفاتيكان حاليًّا، لكنه ربما يحتاج إلى بعض الإقناع عندما يرجع. إضافة إلى مَصرفيه الشخصي. فأنت تعرف مدى حذر أجوستينو كيجي.

ضحك تشيزاري ضحكة قصيرة، وقال: «حسنًا، لا ريب أنه لم يغتني نتيجة تهوره». وأطرق، ثم قال: «لكن لا يجب أن تُمثل هذه مشكلة، أليس كذلك؟».

- لا، لكن... يُصبح الوضع مملًّا في بُعدك. فأنا وأنت لا نقضي الكثير من الوقت معًا هذه الأيام، لانشغالك بفتوحاتك *الأخرى*.

- لا تقلقي يا صغيرتي. فعما قريب حينما أُؤمِّن عرش إيطاليا، ستكونين ملكتي، وستغدوا وحدتكِ أمرًا من الماضي.

تراجعت قليلًا للوراء وقالت: «لا يمكنني الانتظار».

- أحسني التصرف في غيابي.

ترك تشيزاري شقيقته عند الباب الذي دخل منه، في حين ذهبت لوكريتزيا التي يطل الحزن من قسمات وجهها إلى الجانب الآخر.

إلى أين كان تشيزاري ذاهبًا؟ هل كان راحلًا في الحال؟ يظهر من رحيله بهذا الشكل على الأرجح. وتحرك إتزيو على وجه السرعة حول محيط الجدار حتى تمركز في مكان يُمكنه من الإطلالة على البوابة الرئيسية للقلعة.

ولم يمضِ وقت طويل، فبينما يراقب إتزيو المشهد، انفتحت البوابة على مصراعيها وسط صيحات الحراس التي تقول: «انتباه! القائد العام راحلٌ إلى أوربينو!». وبعدها بمدة قصيرة، انطلق تشيزاري على ظهر جوادٍ أدهم تصحبه حاشية صغيرة.

صاح أحد العاملين في نوبة الحراسة: «حظ سعيد يا أبانا تشيزاري!».

شاهد إتزيو عدوه اللدود ينطلق في مسيرته تحت ستار الليل. وفكر في نفسه: *كانت تلك زيارة خاطفة. ولم تتسنَّ الفرصة لقتله مطلقًا. سيُخيب هذا آمال نيكولو.*

24

حوَّل إتزيو انتباهه إلى المهمة التي هو بصددها، وهي العثور على كاترينا. ولاحظ وهو موجود عاليًا على الجانب الغربي من القلعة وجود نافذة صغيرة غائرة في السور ينبعث منها ضوء خافت. فذهب إليها، ولما وصل عندها، رأى أنه لا توجد عتبة للنافذة يقف عليها، وبدلًا من هذا كان ثمة عارضة ضيقة تبرز من فوق النافذة يمكنه أن يتعلق فيها بأمان بيد واحدة.

نظر داخل الغرفة فوجدها فارغة، رغم وجود مشعل متقد على واحد من الجدران. غير أن الحجرة بدت كأنها تخص الحراس، لذا فإن إتزيو تمنى أن يكون قد اتخذ الطريق الصحيح.

وبالتقدم للأمام على المستوى نفسه وجد نافذة أخرى مشابهة. ذهب إتزيو إليها، ونظر من خلال القضبان، التي لم يكن هناك داعٍ لوجودها. فلا يستطيع شخص نحيف لدرجة تسمح له بالهرب من هذه النافذة الهبوط لما يقرب من مئة وخمسين قدمًا نزولًا إلى الأرض ثم ينجح في المرور من الأرض المكشوفة إلى النهر، ثم إلى مكان آمن. خَفَت الضوء أكثر هنا، لكن تسنى لإتزيو في الحال رؤية أنها كانت زنزانة.

تنفس إتزيو بمشقة، ورأى كاترينا التي لا تزال مغلغلة بالقيود هناك! جلست على مقعد يستند إلى الحائط، لكن لم يستطع إتزيو رؤية ما إذا

كانت مقيدة به أم لا. كانت مطأطئةً رأسها، ولم يعرف إتزيو ما إن كانت مستيقظة أم نائمة.

أيًّا ما كان حالها، فقد رفعت رأسها عندما سمعت طَرقًا مدوِّيًا على الباب.

سمع إتزيو لوكريتزيا تصيح: «افتحوا الباب!».

همَّ أحد الحارسين الموجودين في الجانب الخارجي للباب، اللذَينِ يغشاهما النعاس لامتثال أمرها، قائلًا: «بالطبع، جلالتكِ. حالًا جلالتكِ».

وبمجرد أن دخلت لوكريتزيا إلى الزنزانة وتبعها أحد الحراس، لم تُهدر أيَّ وقت. واستشف إتزيو من المحادثة التي سمعها من قبل أن سبب غضبها كانت الغيرة. إذ تظن لوكريتزيا أن تشيزاري وكاترينا قد أضحيا عاشقَين. ولم يستطع إتزيو تصديق هذا. فقد استعصى عليه قبول فكرة أن كاترينا قد دنسها هذا الغول الفاسد.

أسرعت لوكريتزيا إلى الزنزانة وجذبتها من شعرها لتقف على قدميها، وقربت وجهها من وجه سجينتها، وقالت: «أيتها العاهرة! كيف كانت رحلتكِ من فرولي إلى روما؟ هل ركبتِ عربة تشيزاري الخاصة؟ ما الذي فعلتِه؟».

نظرت إليها كاترينا في عينيها، وقالت: «أنتِ مثيرة للشفقة يا لوكريتزيا، ومثيرة للشفقة أكثر إن ظننتِ أني قد أعيش بمثل معاييركِ».

رمتها لوكريتزيا أرضًا بغضب، وقالت: «ما الذي تحدث عنه؟ ما خططه بشأن نابولي؟» وتوقفت ثم قالت: «هل... استمتعتِ بالأمر؟».

قالت كاترينا وهي تمسح الدم عن وجهها: «لا تسعفني ذاكرتي في الواقع».

أغضبت غطرستها الفجة لوكريتزيا غضبًا جمًّا، فدفعت الحارس جانبًا، وأمسكت بقضيب حديدي يُستخدم لإحكام غلق الباب وهوت به بشدة على ظهر كاترينا. وقالت: «ربما سيُسعف *هذا* ذاكرتكِ!».

صرخت كاترينا من الألم المبرح وتراجعت لوكريتزيا للوراء يخالجها شعور بالرضا.

- جيد، هذا يضعكِ في موضعكِ الصحيح على الأقل.

رمت القضيب الحديدي على الأرض ثم خرجت من الزنزانة. تبعها الحارس وانغلق الباب من ورائها بقوة. ولاحظ إتزيو أن ثمة نافذة شبكية موجودة فيه.

أمرته لوكريتزيا من الخارج قائلة: «أغلقه، وأعطني المفتاح».

صدر صوت خشخشة وصرير حديد صدئ عند لف المفتاح، ثم جاء صوت قرقعة سلسلة عند تسليم المفتاح.

قال الرجل بصوت مرتجف: «ها هو جلالتكِ».

- جيد، الآن إن عدتُ ثانية ووجدتك نائمًا في مركزك، سأجلدك مئة جلدة. مفهوم؟

- نعم جلالتكِ.

استمع إتزيو إلى خطوات لوكريتزيا وهي تبتعد، وفكر أن الطريقة الأفضل للوصول إلى الزنزانة، هو من الأعلى.

تسلق إتزيو إلى الأعلى حتى انتهى إلى فتحة أخرى توصل إلى ممر الحراس. في هذه المرة كان الخفراء يؤدون عملهم، لكن بدا أنه كان هناك شخصان يعملان معًا في الدورية. وحسب إتزيو أنه لا بدَّ أن الأمر يستغرق منهما خمس دقائق لإكمال الجولة، لذا فقد انتظر حتى مرا، ثم تأرجح قافزًا للداخل مرة أخرى.

نزل إتزيو جاثيًا وتبع الحراس على بُعد مسافة حتى وصل إلى مدخل في جدار ينحدر منه درج يؤدي إلى الأسفل. عرف إتزيو أنه قد تسلق القلعة مقدار طابقين فوق المكان الذي توجد فيه زنزانة كاترينا، وعليه، بنزوله لقلبتي درج، خرج من الدرج ووجد نفسه في ممر مشابه للممر الذي شاهد فيه مقابلة تشيزاري ولوكريتزيا غير أنه كان مغطى بطبقة صخرية، عكس الخشبية. وتراجع للوراء باتجاه زنزانة كاترينا، فلم يجد في طريقه أحدًا لكنه مرَّ على عددٍ من الأبواب الثقيلة ذات النوافذ الشبكية التي توحي بأنها زنازين. ومع انحراف الجدار مع حد القلعة، سمع أصواتًا تتهادى من أمامه وتعرف على اللهجة البيدمونتيَّة للحارس الذي كان يتحدث مع لوكريتزيا.

قال متذمرًا: «أنا لا أنتمي لهذا المكان. أرأيت الطريقة التي حدثتني بها؟ أتمنى لو عدت إلى تورينو اللعينة».

واصل إتزيو تقدمه. وكان الحراس قبالة الباب عندما ظهرت كاترينا عند النافذة الشبكية. ولمحت إتزيو خلفهما وهو يتسلل إلى الظل.

فقالت للحارسين: «أوه يا لظهري المتعب. أيمكنكما إعطائي بعض الماء؟».

كان ثمة كوب ماء على الطاولة القريبة من الباب يجلس عليها الحارسان. فأخذه واحد منهما وقرَّبه من النافذة الشبكية.

وسألها ساخرًا: «أيُّ شيء آخر تطلبينه يا سيادة الأميرة؟».

فضحك الحارس الذي من تورينو ضحكة مكتومة.

قالت كاترينا: «بربك ليكُن قلبك رحيمًا. إذا فتحت الباب سأريكما شيئًا مشوقًا».

تحلى الحارسان بالجدية، وقال أحدهما: «لا داعي لهذا أيتها الكونتيسة، فلدينا أوامرنا. إليكِ الماء».

فتح الحارس الذي يحمل كوب الماء النافذة الشبكية ومرره من خلالها إلى كاترينا، وأغلق النافذة ثانيةً بعدها.

قال الحارس البيدمونتي: «أمر انصرافنا مسألة وقت، أليس كذلك؟».

- أجل، كان لويجي وستيفانو ليكونا هنا الآن.

تبادلا النظرات فيما بينهما.

- أتظن أن تلك الساقطة لوكريتزيا سترجع في أيِّ لحظة عما قريب؟

- لا أظن هذا.

- إذن، لمَ لا نلقي نظرة على غرفة الحراس ونرى ما يشغلهم؟

- حسنًا. لن يستغرق الأمر منا سوى بضع دقائق.

راقبهما إتزيو بينما يختفيان عند منحنى الجدار، ثم وصل عند النافذة الشبكية.

تنهدت كاترينا قائلة: «إتزيو، ما الذي تفعله هنا بحق الجحيم؟».

- كنت أزور خياطي، ما الذي تعتقدينه؟

- بحق المسيح يا إتزيو، أتظن أن لدينا متسعًا من الوقت للنكات؟

- سأحرركِ الليلة.

- إن فعلت سيطاردك تشيزاري كالكلب.

- إنه يحاول فعل هذا في الواقع، لكن بالحكم الظاهري على هؤلاء الاثنين، لا يبدو أن رجاله متعصبون إلى هذا الحد. هل تعرفين إذا كان الحراس بحوزتهم مفتاح آخر؟

- لا أظن ذلك. سلَّم الحراس مفاتيحهم للوكريتزيا. لقد زارتني.

- أعرف، لقد رأيتها.

- إذن لمَ لم تفعل شيئًا لإيقافها؟

- ببساطة، كنت خارج النافذة.

- هناك بالخارج؟ هل جُننت؟

- شيء من رشاقتي المعتادة فحسب. والآن، إن كانت لوكريتزيا تملك المفتاح الوحيد، يُستحسن أن أذهب وأحضره. أتعرفين أين هي؟

فكرت كاترينا للحظة، وقالت: «لقد سمعتها تذكر أن سكنها أعلى قمة القلعة».

- ممتاز، سأحصل على هذا المفتاح. والآن ابقي هنا إلى حين عودتي.

نظرت إليه كاترينا، وحدقت في سلاسلها ثم إلى باب الزنزانة، وقالت بابتسامة فاترة: «لمَ، أين تظنني *سأذهب*؟».

25

كان قد اعتاد على بنية الأسوار الخارجية لقلعة سانت آنجيلو في الوقت الحالي، وقد وجد أنه كلما تسلق عاليًا، سَهل العثور على موضع يد وموطئ قدم. والتصق بالسور مثل البطلينوس وعباءته ترفرف من ورائه في النسيم، ووجد أنه كان على المستوى نفسه مع أعلى حاجز أحد الأسوار، وتسلقه في هدوء.

كان النزول في الجانب الآخر من حاجز السور سهلًا، حيث نزل مقدار أربعة أقدام على ممر قرميدي ضيق تمتد منه سلالم تؤدي إلى الأسفل في مواضع مختلفة، وبدورها تؤدي إلى حديقة سطحية يتربع في منتصفها مبنى حجري من طابقٍ واحد له سقف مستوٍ. كان للمبنى نوافذ واسعة، لذا فلم يكن المبنى بمنزلة تَحصين إضافي، واشتعل ضوء العديد من الشموع بالداخل كاشفًا عن مسكنٍ فاخر ومزين بذوق رفيع.

كان الممر خاليًا، على عكس الحديقة. فعلى مقعد تحت شجرة الجُمَّيز التي تنشر أغصانها، جلست لوكريتزيا برزانة ممسكة بيد شاب وسيم عرفه إتزيو بأنه واحد من أبرز الممثلين الرومانسيين في روما، بيترو بينتندي. لن يسعد تشيزاري كثيرًا لو عرف بهذا الأمر! تسلل إتزيو بخفة متخفيًا في الظلال على طول الممر إلى الموضع الأقرب للثنائي قدر ما تجرأ، ممتنًا للقمر، الذي بزغ في هذا الوقت ولم يكن يضئ

المكان فحسب، بل كذلك شكل رقعًا من الظلال المُشوِّشة والمموِّهة. وأنصت إتزيو.

قال بيترو بانفعالٍ شديد: «أُحبك حبًّا جمًّا حتى أني أريد أن تغني به إلى السماء».

أسكتته لوكريتزيا، وقالت: «رجاءً، اهمس به لنفسك فحسب، فلو عرف تشيزاري بالأمر، مَن يعرف ما الذي قد يفعله».

- لكنك غير مرتبطة بأحد، أليس كذلك؟ وبالطبع قد سمعتُ بزوجك المتوفى، وأعبر عن حزني، لكن...

لمعت عينا لوكريتزيا اللوزيتان، وقالت: «اسكت أيها الأحمق. ألا تعرف أن تشيزاري قد قتل دوق بيشيليا، لقد شُنق زوجي».

- ماذا؟

- الأمر صحيح.

- ما الذي حدث؟

- لقد أحببت زوجي، وغار تشيزاري من هذا. كان ألفونسو رجلًا وسيمًا، وعرف تشيزاري بالتغييرات التي أحدثها الداء الإفرنجي بوجهه، رغم أن الرب وحده يعلم أنها كانت طفيفة. فجعل رجاله يتربصون بألفونسو ويضربونه. وظنَّ أن هذا سيمثل تحذيرًا له. إلا أن ألفونسو لم يكن دمية يُتلاعب بها. فقد ردَّ الضربة وجعل رجاله الشخصيين يثأرون له في أثناء تعافيه من هجوم تشيزاري. وحالف الحظ تشيزاري لهروبه من مصير سانت سيباستيان! لكنه، ذاك الرجل القاسي، جعل ميكيليتو دي كوريلا يذهب إلى غرفة نومه حيث يرقد مستشفيًا من جراحه، وشنقه هناك.

بدا على بيترو الانفعال، وقال: «مستحيل».

قالت وهي تنظر في عينَي بيترو: «لقد أحببت زوجي. والآن عليَّ التظاهر أمام تشيزاري، لأبعد شكوكه، لكنه ثعبانٌ خبيث، فهو دائمًا متيقظ، ودائمًا ما ينفث سمَّه. وحمدًا للرب أن رزقني بك كي تُسري عني. فلطالما غار تشيزاري ممن أوليهم اهتمامي، لكن لا يجب أن يمنعنا هذا. إلى جانب أنه ذهب إلى أوربينو ليواصل حملاته. فلا شيء يمنعنا».

- هل أنتِ متأكدة؟

قالت لوكريتزيا بتركيزٍ شديد: «سأحافظ على سرنا، إن فعلت أنت». وأفلتت إحدى يديها من يديه ونقلتها إلى فخذه.

تنهد بيترو، وقال: «أوه، لوكريتزيا. كم أنتِ جميلة».

تبادلا القبل في البداية برقة، ثم بحرارة. تحرك إتزيو من موقعه قليلًا وبلا قصد أوقع قرميدة، وسقط في الحديقة. فثبت مكانه بلا حراك.

ابتعدت لوكريتزيا وبيترو عن بعضهما فجأة.

وقالت: «ما هذا؟ غير مسموح لأحد بالدخول إلى حديقتي ومسكني دون معرفتي، لا أحد!».

كان بيترو قد هبَّ واقفًا بالفعل، وهو ينظر حوله خائفًا، وقال باستعجال: «يُفضل أن أذهب. عليَّ الاستعداد لتجربة الأداء بمراجعة نصِّي من أجل الصباح. عليَّ الذهاب». ووقف ليمنح لوكريتزيا قبلة أخيرة.

- وداعًا يا حُبي.

- ابقَ يا بيترو أنا متأكدة أنه لم يكن بالخطب الكبير.

- لا، فالوقت متأخر. عليَّ الذهاب.

وانسلَّ وهو مكتسٍ بالكآبة خارجًا من الحديقة واختفى من باب سور في الجانب الأبعد.

تريثت لوكريتزيا للحظة، ثم وقفت وفرقعت بأصابعها. فخرج من حِمى بعض الشجيرات الطويلة النامية في الجوار حارسها الشخصي وحياها بانحناءة.

- لقد سمعتُ الحديث بأكمله يا سيدتي، وأؤكد لك من واقع خبرتي، صحة ذلك.

زمَّت لوكريتزيا شفتيها وقالت: «جيد. أخبِر تشيزاري. فعلينا معرفة شعوره عندما تتبدل الأدوار».

- أجل يا سيدتي.

وانصرف مُحيِّيًا إياها بانحناءة مرة أخرى.

لما صارت لوكريتزيا وحدها، قطفت وردة أقحوان من باقة الأزهار المزروعة في الجوار، وراحت تقطف بتلاتها واحدة تلو الأخرى.

- يُحبني، لا يُحبني، يُحبني، لا يُحبني...

انسلَّ إتزيو من على أقرب درج واتجه نحوها. كانت قد جلست ثانيةً ورفعت نظرها باقترابه منها، ورغم أنها لم تُظهر أيَّ خوف، بل قدر بسيط من المفاجأة. حسنًا، إن كان لديها المزيد من الحراس متخفِّين في الحديقة، فلن يعبأ بهم إتزيو.

قال إتزيو وهو ينحني للتحية، رغم أن الانحناء في حالته لا تخلو من سخرية: «واصلي ما كنتِ تفعلينه رجاءً. فأنا لا أقصد مقاطعتكِ».

قالت وهي تمنحه يده ليقبلها: « حسنًا، حسنًا. إتزيو أوديتوري الفلورنسي. يا لداعي سروري لمقابلتك بطريقةٍ لائقة أخيرًا. سمعت عنك الكثير، لا سيما مؤخرًا. أعني، لا يرد مخيلتي أيُّ شخص آخر يكون مسؤولًا عن الزعزعات الصغيرة الحاصلة مؤخرًا في روما؟». أطرقت، ثم قالت: «يا للأسف تشيزاري لم يعد موجودًا هنا. كان سيستمتع بهذا».

- لست على خلاف شخصي معكِ يا لوكريتزيا. أطلقي سراح كاترينا، وسأتراجع عن هذا.

قالت بنبرةٍ جامدة بعض الشيء: «أخشى أن هذا مستحيل».

فَرد إتزيو يديه وقال: «إذن فأنتِ لم تتركي لي خيارًا». واقترب منها، لكن في حذر. إذ لها أظافر يد طويلة.

صرخت قائلة: «يا حراس!»، فتحولت في لحظة من امرأة نبيلة إلى مخلوقة الهاربي الصارخة، وحاولت خدش عينيه، لكن إتزيو أمسك معصميها في الوقت المناسب. وأخرج قطعة من حبل من جعبته الجلدية وثنى معصميها وراء ظهرها وربطهما سريعًا، قبل أن يرميها أرضًا ويضع قدمه بثبات على طيَّة من فستانها حتى لا يتسنى لها النهوض والفرار. ثم أخرج سيفه وخنجره وتهيأ لمواجهة أربعة أو خمسة حراس أتوا يهرعون من جهة مسكنها. ولحسن حظ إتزيو كانوا خفيفي السلاح وضخام البنية ولا يرتدون زرديات. وعلى الرغم من أنه غير قادر على تغيير موضعه، فقبل كل شيء لا يمكنه تحمُّل هروب لوكريتزيا، حتى مع محاولتها عض كاحله من فوق حذائه، انخفض إتزيو تحت ضربة سريعة من سيف الحارس الأول وشق خاصرة الرجل المكشوفة. فسقط حارس. توخى الحارس الثاني الحذر، لكنه كان مدركًا وجود لوكريتزيا التي راحت تدمدم في غضب وهي مطروحة على الأرض، فخطى للأمام لمهاجمة إتزيو. هجم الحارس ليضرب صدر إتزيو لكن إتزيو تفادى هجومه بالقفز للأعلى، ما جعل سلاحَي الحارسَينِ يشتبكان معًا واستخدم يده اليسرى ليُسدد طعنة بخنجره في رأس الرجل. بهذا يكون قد سقط حارسان. واندفع الرجل الأخير نحو إتزيو مؤملًا الاستفادة من اشتباك سلاحي إتزيو في القتال. نفض إتزيو ذراعه اليمنى بشدة، فأطلق السلاح الذي قتل به الحارس الثاني باتجاه العدو الجديد. كان

على الحارس الأخير أن يرفع سيفه ليتفادى الضربة، إلا أن الأوان قد فات، إذ قطع النصل الطائر عضلة عضده. جفل الحارس من الألم لكنه تقدم ثانيةً ملوحًا بسيفه نحو إتزيو. كان إتزيو قد استعاد وضعه وتحاشى الهجمة بخنجره، وحرر اليد التي يستعملها للسيف حتى يُسدد ضربة قوية في جذع الرجل. بهذا كان القتال قد انتهى وقتل الحراس وطرحوا أرضًا من حوله، وللمرة الأولى صمتت لوكريتزيا. سحب إتزيو وهو يتنفس بصعوبة أسيرته ليوقفها على قدمها. وقال: «والآن هيًّا، ولا تصرخي. إن فعلتِ، فسأضطر إلى قطع لسانكِ».

سحبها باتجاه الباب الذي غادر منه بيترو، فوجد نفسه في ممر مصطحبًا لوكريتزيا ما بين دفع تارة وجر تارة أخرى إلى أسفل البرج، باتجاه الزنازين.

بصقت لوكريتزيا وقالت: «تنقذ الأميرات من القلاع الآن؟ يا للرومانسية!».

- اخرسي.

- أظنُّ أنك تعتقد أنك تحقق أمورًا عظيمة، تتجول هنا وهناك، تسبب الفوضى وتقتل مَن تشاء؟

- قُلت، اخرسي.

- لكن هل لخطتك أيُّ ملامح؟ ما الذي تظن أنك ستحققه؟ ألا تعرف مدى قوتنا؟

تردد إتزيو عند درج يؤدي للأسفل إلى الطابق التالي، فسألها: «أيُّ طريق؟».

ضحكت ولم ترد.

هزَّها وقال: «أيُّ طريق؟».

أجابت عابسة: «إلى اليسار».

صمتت هنيهة ثم استرسلت في الكلام. وتركها إتزيو تثرثر هذه المرة. وتأكد من المكان الذي وصل إليه حينها. راحت لوكريتزيا تتلوى في قبضته، لكنه كان مركزًا على شيئين: إمساكها دون أن تفلت والحذر من أيٍّ كمائن وضعها حراس القلعة.

قالت: «أتعرف ما الذي حلَّ بفلول آل باتزي في فلورنسا بمجرد أن أخضعتَهم؟ لقد جردهم صديقك لورنزو المدعو بالعظيم من كل ممتلكاتهم ورمى بهم في السجن. كلهم! حتى مَن لم يشاركوا في المؤامرة ضده». وتحول عقل إتزيو بلا حول منه إلى الانتقام الذي أنزلته كاترينا على التمرد الذي قام ضدها في فرولي. وفاقت أفعالها ما فعله لورنزو بكثير، بالتأكيد، فقد جعلت ما قامت به أفعال لورنزو تبدو وديعة. لكن إتزيو أبعد هذه الأفكار عن رأسه.

استرسلت لوكريتزيا: «حُرم على النساء الزواج ومحيت شواهد قبور العائلة. لقد مُحوا من سجلات التاريخ. هكذا بكل بساطة».

فكر إتزيو لكنهم لم يعذبوا أو يقتلوا. وحسنًا، ربما شعرت كاترينا بأن أفعالها كانت مبررة في هذا الوقت. إلا أن وحشيتها قد كلفتها بعض الولاء التي لطالما اعتمدت عليه من قبل، وربما كان هذا سبب استيلاء تشيزاري أخيرًا على فرولي.

ورغم هذا، كانت لا تزال حليفًا مهمًّا، وهذا ما تعين على إتزيو تذكره. هذا إلى جانب، كبحه لأي مشاعر، حقيقة كانت أو متخيلة، ربما شعر بها نحوها.

قالت لوكريتزيا: «تجاهلت أنت وأصدقاؤك الحشاشون عواقب أفعالكم. ورضيتم ببدء الأشياء دون الرغبة في استكمالها حتى النهاية». وتوقفت لوكريتزيا لالتقاط أنفاسها لكن سحبها إتزيو بوحشية للأمام

دون أن يُسكتها. فتابعت: «على النقيض منك، سيكمل تشيزاري ما بدأه، وسيجلب السلام إلى إيطاليا. فهو يقتل لغاية سامية، على النقيض منك للمرة الثانية».

ردَّ إتزيو بحدة: «يمثل الجاهلون والغافلون أهدافًا سهلة».

ردَّت لوكريتزيا وقد أدركت أنها أثارت حفيظته: «قُل ما تشاء. فعلى أيِّ حال كلامي بلا جدوى هنا أيها المنافق».

كانوا قد أوشكوا على الاقتراب من الزنازين الآن. فقال إتزيو وهو يستل خنجره: «تذكري إن حاولتِ تحذير حراسكِ، لسانكِ...».

تنفست لوكريتزيا بصعوبة، لكنها التزمت الصمت. تقدم إتزيو للأمام في حذر. كان الحارسان المناوبان الجديدان جالسَين إلى الطاولة ويلعبان الورق. فرمى إتزيو لوكريتزيا أرضًا أمامه، وانقضَّ عليهما وقتلهما قبل أن تتسنى لهما الفرصة للرد. ثم استدار وانطلق وراء لوكريتزيا التي نهضت وراحت تركض عائدة من حيث أتت وهي تصرخ طالبة النجدة. ثم قفز قفزتين وأمسك بها ووضع إحدى يديه على فمها وشدها نحوه بذراعه الأخرى وجعلها تلتف دافعًا إياها باتجاه زنزانة كاترينا مرة أخرى. فأخذت تعض وتمزق اليد المرتدية للقفاز الموضوعة على فمها، ثم لما رأت أنها بلا حول ولا قوة بدا أنها استسلمت واستكانت.

وقفت كاترينا عند النافذة الشبكية التي فتحها إتزيو.

قالت كاترينا وهي تبتسم ابتسامة خبيثة: «تحياتي يا لوكريتزيا».

- تبًّا لكِ أيتها الساقطة.

قالت كاترينا: «مذهلة كالعادة. قرِّبها يا إتزيو سآخذ المفتاح».

مدت يدها إلى رقبة لوكريتزيا وأخرجت المفتاح المُعلق في حبل حريري أسود.

مررت كاترينا المفتاح لإتزيو الذي أسرع بفتح الباب. وفتح بالمفتاح نفسه القفل الذي يغلق السلاسل، فلم تكن كاترينا مقيدة إلى الحائط، وبينما كاترينا تخلص نفسها من تلك الأغلال، دفع إتزيو لوكريتزيا إلى الزنزانة.

صرخت لوكريتزيا منادية: «يا حراس! يا حراس!».

قالت كاترينا: «أوه، أخرسي». وأخذت خرقة وَسخة من على طاولة الحراس وسدت بها حلق عدوتها. ثم سحب إتزيو المزيد من الفتيل وربط به كاحلي لوكريتزيا قبل أن يغلقا باب الزنزانة ويقفلانه بالقفل بإحكام.

تبادلا إتزيو وكاترينا النظرات.

قالت بفظاظة: «بطلي».

تجاهل إتزيو هذا، وقال: «هل بإمكانك المشي؟».

حاولت كاترينا لكنها تعثرت، وقالت: «لا أظن أنه بإمكاني، لا بدَّ أن الأصفاد التي أغلُّوني بها قد أضرتني بعض الشيء».

تنهد إتزيو وحملها على ذراعيه. ولزم عليه إسقاطها كجوال إذا ما فاجأهما الحراس واحتاج إلى الوصول إلى أسلحته سريعًا.

وسألته: «أي طريق نسلك؟».

- إلى الإسطبلات أولًا، ثم نسلك أسرع طريق يخرجنا من هنا.
- لمَ تنقذني يا إتزيو؟ بجدية؟ مع الاستيلاء على فرولي، أنا بلا فائدة لك.
- لا تزال لديك عائلة.
- إنها ليست عائلتكِ.

واصل إتزيو سيره وتذكر مكان الإسطبلات من موقعهما الآن. ومن حُسن الحظ أن كاترينا بدت السجينة الوحيدة في هذا القسم، إذ لا يوجد حراس آخرين في الأنحاء. غير أنه مشى بخفة وتحرك بسرعة، لكن ليس بالسرعة التي تُوقعه في فخ. فبين الفينة والأخرى كان يتوقف وينصت. كانت خفيفة بين ذراعيه وعلى الرغم من سجنها فلا يزال شعرها تفوح منه رائحة الفانيلا والأزهار، ما جعله يتذكر أوقاتًا سعيدة قضياها معًا.

قالت كاترينا: «اسمع يا إتزيو، تلك الليلة في مونترجيوني، لما... تحممنا معًا... كان عليَّ أن أضمن ولاءك من أجل حماية فرولي. كان هذا من مصلحة أخوية الحشاشين كما كان من مصلحتي، لكن...». قطعت حديثها، وسألته: «هل تفهم يا إتزيو؟».

- إن أردتِ ولائي، ما كان عليكِ إلا أن تطلبيه.

- لقد احتجتُ إليك في صفي.

قال: «ما كفاكِ إخلاصي وسيفي في صفكِ. لقد أردتِ التأكد من إخلاص قلبي كذلك». وواصل إتزيو سيره مقلبًا جسدها بين ذراعيه. وواصل: «لكن تلك هي السياسة. ولا ريب أني أدرك هذا. فلا حاجة لكِ بالشرح».

شعر كأن قلبه قد سقط في حفرة منجم بلا قاع. كيف لا يزال شعرها يفوح بتلك الرائحة؟

سألها وقد جفَّ حلقه: «كاترينا، هل فعلوا...؟ هل تشيزاري...؟».

شعرت بما شعر به ولو بالقدر البسيط، وابتسمت، بشفتيها وليس بعينيها رغم ملاحظته لهذا، وقالت: «لم يحدث شيء. لا بدَّ أن اسمي لا يزال يحتفظ بمكانته. لم تُمسَّ مني ولو شعره».

وصلا إلى الباب الرئيسي للإسطبلات، والتي لم يقف على حراستها أحد، لكنها كانت مُحكمة الإغلاق. أنزل إتزيو كاترينا، وقال لها: «حاولي المشي قليلًا. لكي تستعيدي القوة في كاحليكِ».

نظر حوله باحثًا عن وسيلة لفتح الباب الخالي من المزاليج أو المقابض. لكن يجب أن تكون ثمة طريقة...

قالت كاترينا: «حاوِل هناك. أليست هذه رافعة من نوعٍ ما؟».

قال إتزيو: «انتظري هنا».

- كما لو أن لديَّ خيارًا آخر.

سلك طريقه إلى الرافعة ولاحظ في سيره فتحة مربعة في الأرضية بباب أفقي فوقها. واستشفَّ من الرائحة المنبعثة من الأسفل أنه كان مخزنًا للغلال. وبتدقيق النظر في الأسفل، رأى عددًا كبيرًا من الأجولة والصناديق كذلك، صناديق بدت كأنها تحوي البارود.

قالت كاترينا: «أسرع».

أمسك الرافعة بيديه وسحبها. كانت متصلبة في البداية، لكن تحت ضغط عضلاته رضخت قليلًا في البداية، ثم انفتحت عن آخرها. وانفتح الباب عن آخره في الوقت نفسه.

وكان في الإسطبل بضعة حراس استداروا لسماعهم صوت صرير الباب في مفصلاته، وهرعوا باتجاهه مستلِّين سيوفهم.

- إتزيو! النجدة!

أسرع باتجاه كاترينا وحملها متوجهًا إلى الفتحة الموجودة في الأرضية.

- ما الذي تفعله؟!

حملها إتزيو فوق الفتحة.

- هيًّا ألا تملكين الجرأة!

أسقطها بالأسفل، ولم يقوَ على منع ضحكة مكتومة قصيرة بسبب صرخة فزعها. لم تكن المسافة بعيدة وحظِيَ بمتسع من الوقت ليراها وهي تهبط بسلام على الأجولة الطرية قبل أن يركض لمواجهة الحراس بطيء الحركة بسبب الإجهاد والمباغتة. وتفوق إتزيو بمهاراته في استعمال السيف عليهم. ووجه أحدهم ضربة سطحية تجاه إتزيو، غير أنها لم تخترق لحمه بل مزقت فقط قماش صدريته الضيقة. وكان إتزيو نفسه متعبًا.

ولما انتهى الأمر، مد إتزيو يده للأسفل وأخرج كاترينا.

وشتمت قائلة وهي تنفض عن نفسها الغبار: «يا ابن الساقطة، لا تُكرر فعل هذا بي».

لاحظ إتزيو أنها بدت تمشي بشكلٍ أفضل قليلًا بالفعل.

فأسرع باختيار حصانين ثم أسرجهما وأعدهما للركوب. وساعدها على امتطاء واحد منهما، ثم قفز على سرج الآخر. كان ثمة ممر مُقوس يبدأ من جانب الإسطبلات ورأى من خلاله البوابة الرئيسية للقلعة التي نُصبت عليها حراسة، لكنها كانت مفتوحة لاقتراب الفجر، وتوقع قدوم التجار من المدينة من أجل التسليمات.

قال لها إتزيو: «انطلقي كالريح قبل أن يتسنى لأحد الفرصة لإدراك ما يحدث واعبري الجسر ثم اذهبي إلى جزيرة التيبر. ستكونين بأمان هناك. واعثري على ماكيافيلي، سيكون بانتظاري.

- لكن على كلانا الفرار معًا من هنا.

- سأتبعكِ، لكن في الوقت الحالي على البقاء والاعتناء بأمر الحراس المتبقين أو أُحدث إلهاءً أو تأخيرًا أو شيئًا من هذا القبيل.

شدت كاترينا زمام حصانها فشب الحصان على خلفيتيه، وقالت: «عُد بسلام وإلا لن أسامحك أبدًا!».

آمل إتزيو أنها تعني هذا حقًّا وهو يراقبها بينما تركل الحصان ليعدو كالريح. واندفعت متجاوزة الحراس عند البوابة الرئيسية، مفرقة إياهم. وما إن رآها نجحت في المرور، حتى رجع أدراجه بحصانه مجتازًا الإسطبل إلى مخزن الحبوب والبارود، وأخذ مشعلًا من حامله في طريقه. وألقى بها في الفتحة، ثم استدار وعدا بحصانه من الطريق الذي أتى منه، مستلًّا سيفه.

طوَّق الحراس المكان وانتظروه مشهرين مطاردهم. لم يكن إتزيو على سابق معرفة بالحصان، لكنه يعرف ما عليه فعله، فقد انطلق مباشرة باتجاه صف الحراس، وفي اللحظة الأخيرة جذب الزمام بشدة ومال للأمام على سرجه وغرز كعبيه في الحصان. في الوقت نفسه الذي اندفع فيه الحصان للأمام، حدث انفجار عنيف جدًّا بالقرب من الإسطبل. لقد كان محقًّا، كان بارودًا. اهتزت الأرض من أثر الانفجار، وانخفض الحراس لا إراديًّا للأسفل. وصُدم الحصان من هول ضجيج الانفجار، لكنه كان أشد إصرارًا على اللواذ بالفرار. طار الحصان في الهواء، مجتازًا صف الحراس بسهولة كما لو أنه يجتاز سورًا.

انطلق إتزيو باتجاه الشمس المشرقة مخلفًا وراءه الفزع والارتباك، شاعرًا بالغبطة تملؤه. لقد أنقذ كاترينا!

26

بمجرد أن تأكد إتزيو إفلاته من أيٍّ مطاردين محتملين، استدار بحصانه. وكان يعز عليه أن يخسر مثل هذا المطية الجيدة، لكنه أخذه إلى الإسطبلات حيث استأجر هو وماكيافيلي حصانيهما قبل ما يبدو أنه ردحًا طويلًا من الزمن، وسلمه للسائس المسؤول عن الإسطبل هناك. كانت الإسطبلات مرتبة ونظيفة ويزدهر عملها على ما يبدو، في منطقة بدا أنها تخلصت من نفوذ آل بورجيا ونالت استقلالها في الوقت الحالي على الأقل. ثم قفل راجعًا إلى جزيرة التيبر مترجلًا. وانتظرته عبَّارة الحشاشين السرية على ضفة النهر، وما إن حطَّ رحاله في الجزيرة نفسها، حتى أسرع باتجاه المخبأ.

بالداخل وجد كاترينا قد وصلت بسلام. كانت ترقد على سرير مؤقت بالقرب من الباب ويعتني بها طبيب. ابتسمت ما إن رأته حتى حاولت النهوض، لكن منعها الطبيب بلطف.

- إتزيو! اطمأن قلبي لرؤيتك بأمان.

أمسك بيدها وضغط عليها، وسألها: «أين ماكيافيلي؟». لكن لم تمسك بيده بدورها، ربما كانت لا تزال خائرة القوى.

- لا أعرف.

خرج الثعلب من الظلام في نهاية الغرفة، وقال: «إتزيو! سررت لرؤيتك ثانيةً!». وعانق الشاب: «لقد أتت بك الكونتيسة الحبيبة إلى هنا. وبالنسبة إلى ماكيافيلي...».

في تلك اللحظة انفتح الباب ودخل ماكيافيلي بنفسه، وبدا منهكًا.

سأله الثعلب: «أين كنت؟».

قال ماكيافيلي: «كنت أبحث عن إتزيو، لست ملزمًا بتبرير أفعالي لك». وأحزن إتزيو ملاحظته التوتر الذي لا يزال قائمًا بين صديقيه. التفت ماكيافيلي نحو إتزيو، ودون تكلف سأل: «ماذا عن تشيزاري ورودريغو؟».

- غادر تشيزاري من فوره إلى أوربينو. وأما رودريغو كان في الفاتيكان.

قال ماكيافيلي: «هذا أمرٌ غريب. كان من المفترض أن يكون رودريغو في القلعة».

قال الثعلب بنبرة فاترة: «غريب جدًّا بالطبع».

إن كان ماكيافيلي انتبه لهذه الملاحظة الساخرة، فقد تجاهلها. وقال متأملًا: «يا لها من فرصةٍ فائتة». ثم استجمع شتات نفسه، وقال لكاترينا: «لا أقصد الإساءة يا كونتيسة. تسرنا رؤيتكِ».

قالت: «لا أُعدها إساءة».

- والآن بما أن تشيزاري ذهب إلى أوربينو علينا أن نركز على إنشاء قواتنا هنا.

رفع ماكيافيلي حاجبه متعجبًا، وقال: «لكن أعتقد أنه يجب علينا تسديد ضربتنا الآن! علينا ملاحقته والقضاء عليه أينما كان».

قالت كاترينا: «سيكون هذا مستحيلًا. لقد رأيت جيشه. إنه جيش جرار. ولن تصلوا إليه أبدًا.

قال إتزيو: «أقول إننا نعمل هنا، في روما. وهنا قد بدأنا بداية جيدة. وعلينا أن نواصل استئصال نفوذ آل بورجيا، في الوقت نفسه الذي نستعيد فيه نفوذنا. وفي الحقيقة، أريد البدء توًّا».

قال ماكيافيلي: «تتحدث كما لو أنك قائدنا، لكن المنصب لم يكن محل نقاش، فضلًا عن التصديق عليه من قبل مجلسنا».

ردَّ الثعلب: «وأنا أقول إننا نحتاج إلى قائد، ونحتاج إليه في الحال. فلا يُسعفنا الوقت للمجالس ولا للتصديقات. إذ نحتاج إلى تقوية الأخوية من جديد، وفي رأيي إتزيو هو الرجل المناسب لهذه المهمة. وأحتكم إليك يا ماكيافيلي، فأنا وأنت اثنان من أكبر الحشاشين المتبقين. وأما بارتولوميو فهو ملزم بالموافقة. لنأخذ هذا القرار الآن، وأبقوه سرًّا إن أردتم، ثم يمكننا فيما بعد أن نطرحه من أجل التصويت الرسمي».

بدا أن ماكيافيلي كان على وشك قول شيءٍ ما، لكنه صرف نظره وما كان منه إلا أن هزَّ كتفيه.

قال إتزيو: «لن أخذلك يا جيلبرتو. أود منك أن تُحضر بارتولوميو وأختي كلاوديا. فثمة أمور نناقشها. تعالَ معي يا نيكولو رجاءً».

وفي طريقه للخروج، توقف إتزيو عند سرير كاترينا، وقال للطبيب: «اعتنِ بها».

***

سأله ماكيافيلي ما إن وصلا إلى مركز المدينة: «أين نحن ذاهبان؟».

- ثمة شيء أريدك أن تراه.

تقدم إتزيو الطريق إلى أقرب ساحة سوق. كانت نصف السوق مفتوحة من أجل العمل، وكان ثمة خبَّاز، وجزَّار يهشُّ الذباب عن بضاعته، وخُضَريٌّ لديه تشكيلة من المنتجات الزراعية شديدة الذبول معروضة للبيع بتخفيض. ورغم أن الوقت كان مبكرًا، فقد كانت متاجر النبيذ هي التي تبيع بأفضل حال. وكما توقع إتزيو، كانت هناك ثلة من حراس آل بورجيا يُبرحون ضربًا صاحب كشك بائس لبيع السلع الجلدية.

قال إتزيو وهما ينخرطان في الحشد الصغير من المتسوقين: «انظر».

قال ماكيافيلي: «أعرف ما يدور».

قال إتزيو: «أعرف ذلك يا نيكولو. سامحني، لكنك ترى الصورة الأكبر. أنت تفهم ما ينبغي القيام به من الناحية السياسية من أجل تدمير آل بورجيا، وأنا شخصيًّا لا أشك في ولائك في هذه الناحية». سكت، ثم قال: «لكن لا بدَّ لنا من البدء من مستوى جوهري. يستولي آل بورجيا على ما يريدونه من الناس بلا أيِّ رادع للحفاظ على سلطتهم».

شاهدا الحراس وهم يدفعون الرجل أرضًا ثم راحوا يضحكون عليه، وأخذوا ما يحلو لهم من كشكه ثم غادروا. نهض الرجل وشاهدهم بغضب العاجز، ثم راح وهو موشكٌ على البكاء يُعيد ترتيب بضاعته. أتت امرأة لتواسيه، لكنه أبعدها. ورغم هذا بقيت المرأة تحوم بالقرب منه ويطل من عينيها الاهتمام والغم.

سأله ماكيافيلي: «لمَ لم تساعده؟ تبعدهم عنه؟».

قال إتزيو: «انظر، إن مساعدة رجل واحد عمل طيب، لكنه لن يحل المشكلة. فهم سيعودون مرة أخرى عندما لا نكون هنا، وسيُكررون فعلتهم. انظر إلى جودة البضائع المعروضة هنا. الخضروات غير

طازجة واللحم مليء بالديدان والخبز بلا شك يابس. فأفضل الأشياء تذهب إلى آل بورجيا. ولماذا برأيك يتجرع الكثير من الناس الخمور؟».

- لا أعرف.

- لأنهم موجوعون وبلا أمل ومظلمون. ويريدون تناسي كل هذا. لكن يمكننا تغيير كل هذا.

- كيف؟

قال وهو يفرد ذراعيه: «بتجنيدهم لصالحنا. هؤلاء الناس، هؤلاء هم مَن سيكونون عماد مقاومتنا لآل بورجيا».

قال ماكيافيلي بحدة: «لقد أسلفنا الحديث عن هذا. يستحيل أن تكون جادًّا في هذا الأمر».

قال إتزيو: «سأبدأ بمالك هذا الكشك. فمن أجل الفوز بهذه الحرب يا نيكولو، نحتاج إلى جنود مُخلصين، بغض النظر عن الطريقة التي يقاتلون بها من أجلنا. علينا أن نزرع بذور التمرد في عقولهم». أطرق، ثم تابع بنبرة كلها إخلاص: «بتجنيد الأشخاص الذين عادتهم الدولة المتسلطة، فإننا نسلح الناس الذين جردهم آل بورجيا من سلاحهم».

أطال ماكيافيلي النظر إلى صديقه بحدة، وقال: «انطلق إذن. انطلق وجنِّد مبتدئينا الأوائل».

قال إتزيو: «أوه، أنوي ذلك. وسيتبين لك أني سأسبُكُ من مجموعة الرجال والناس ذوي العزيمة التي سأجمعها حولنا سيفًا بتارًا قادرًا على بتر الأطراف وقطع الرأس من جذع آل بورجيا، وكذلك فرسان الهيكل أنفسهم.

27

عاد إتزيو إلى مركز عمليات الحشاشين في جزيرة التيبر وحده. وكان قد أنجز قدرًا لا بأس به من العمل، إذ ضم عددًا من المواطنين الساخطين في سرية لصالح خدمة قضيته.

خلا المكان إلا من العاملين الأوفياء الذين يخدمون في المكان ويحرسونه. تمنى إتزيو أن ينعم بقليل من الهدوء حتى يفكر ويخطط، غير أنه مع اقترابه وجد لديه زائر. شخص حرص كل الحرص على سرية حضوره، وعليه انتظر الشخص حتى انصرف عموم العمال إلى شؤونهم في المبنى قبل التعريف بنفسه.

- بِست! إتزيو! من هنا!

قال إتزيو الذي أخذ حذره على الفور، رغم ظنه أنه يعرف هذا الصوت. كان ثمة شُجيرات طويلة تنمو على جانبَي الحارة المؤدية إلى مقرهم الذي لا يعرفه أحد من خارج منظمتهم. فلو أن السر قد اختُرق على أيِّ حال من الأحوال...

- تعالَ إلى هنا!

- مَن أنت؟

- إنه أنا!

خرج ليوناردو دافنشي المتأنق والمتخفي كعادته من مكان اختبائه إلى الحارة.

- ليو! يا إلهي!

كبح إتزيو رغبته الأولية الشديدة في الركض واحتضان صديقه القديم، لما تذكر مَن يكون سيد ليوناردو الجديد.

ترك هذا انطباعًا لدى ليوناردو، الذي بدا أكبر سنًّا، بالتأكيد، لكنه لم يفقد أيًّا من طاقته أو حماسه المُتَّقد. تقدم خطوة للأمام، لكنه بقي منحني الرأس. وقال: «لست متفاجئًا من عدم إظهارك قدرًا من الحماس عند رؤيتي».

- حسنًا يا ليو، لا بدَّ أن أُقر بأنك خذلتني.

فرد ليوناردو يديه، وقال: «لقد عرفت أنك قمت بعملية السطو في القلعة. فلا يمكن أن يكون أحدًا سواك. وعليه عرفت أنك على قيد الحياة».

- لا ريب أن سادتك الجدد هم مَن أخبروك بهذا؟

قال ليوناردو: «إنهم لا يخبرونني بشيء، فلست إلا مجرد عبد عندهم». ولمع من عينيه بريقٌ صغير. واستطرد: «لكن عليهم الوثوق بي».

- ما دمت تنفذ لهم ما يطلبون.

قال ليوناردو: «أظن أني ذكي كفاية لأسبقهم بخطوة». وخطى ليوناردو خطوة أخرى باتجاه إتزيو بذراعين شبه ممدودتين: «تسرني رؤيتك من جديد يا صديقي».

- لقد صممتُ لهم أسلحة جديدة، مسدسات جديدة سيصعب علينا الإتيان بمثلها.

- أعرف، لكن دعني أوضح لك...

- وكيف وجدت هذا المكان؟

- بإمكاني التوضيح...

بدا على ليوناردو الندم والتعاسة الشديدين، وبدا شديد الإخلاص لدرجةٍ رقَّ بها فؤاد إتزيو لصديقه القديم رغمًا عنه. كما خطر له أنه رغم

كل شيء، قد أتى ليوناردو ليراه وبلا شك متحملًا مخاطرة شخصية كبيرة، ولو أنه سعى للتقارب، فسيجعل هذا منه قائدًا أحمق بلا شك عندما يرمى بصداقة وشراكة مثل هذا الرجل عرض الحائط.

فتح إتزيو ذراعيه على اتساعهما وهو يهتف: «تعالَ إلى هنا!».

قال ليوناردو: «أوه، إتزيو». وهرع باتجاهه وتعانق الاثنان بحرارة.

قاد إتزيو صديقه إلى مقر الحشاشين، حيث جلسا معًا. وعلم إتزيو أن كاترينا انتقلت إلى غرفة داخلية حيث يمكنها أن تسترد عافيتها في هدوء وسلام، وقد أمر الطبيب بألا يزعجها أحد. وكان يميل إلى عصيان هذا الأمر، لكن سيحين وقت كافٍ للحديث معها فيما بعد. وقد حتَّم ظهور ليوناردو عليه تغييرًا للأولويات.

طلب إتزيو من الخدم إحضار الخمر والكعك لهما.

قال إتزيو: «أخبرني بكل شيء».

- سأوضح لك. أولًا وقبل كل شيء عليك مسامحتي. أجبرني آل بورجيا على تقديم خدماتي ولكن بالإكراه. ولو أني رفضت لكنت قد خضعت إلى عملية موت طويلة الأمد موجعة. ووصفوا لي ما قد يحل بي إن لم أساعدهم. وحتى الآن لا يمكنني التفكير في الأمر دون أن أرتجف.

- أنت في أمانٍ تام الآن.

هزَّ ليوناردو رأسه، وقال: «كلا! عليَّ العودة إليهم. فأنا ذو نفع كبير لك لو ظنوا أني ما زلت أعمل لصالحهم. وحاليًّا، بذلت ما بوسعي لابتكار أقل عدد ممكن من الاختراعات الجديدة لإرضائهم». كان إتزيو على وشك مقاطعته، إلا أن ليوناردو رفع يده بانفعال مستطردًا: «رجاءً، هذا اعتراف من نوعٍ ما، وأودُّ أن أنهيه. ثم بعدها يمكنك الحكم عليَّ بما تراه مناسبًا».

- لا أحد يحكم عليك يا ليوناردو.

أحتدُّ سلوك ليوناردو. ومال للأمام متجاهلًا المرطِّبات الموضوعة أمامه واسترسل: «أقول إني أعمل لصالحهم بالإكراه، إلا أن الأمر لا يقتصر على هذا. فأنت تعرف أني أبتعد عن مضمار السياسة، إذ أحب أن أبقى بعيدًا عن المشكلات، لكن الرجال الساعون للسلطة يسعون ورائي لأنهم يعرفون ما بوسعي تقديمه لهم».

- أعرف هذا ولا ريب.

قال ليوناردو: «أسايرهم لأحافظ على حياتي. ولمَ عليَّ البقاء على قيد الحياة؟ لأن لديَّ الكثير لأقوم به!». تنفس عميقًا وواصل: «لا أستطيع إخبارك يا إتزيو كيف أن عقلي المسكين يعجُّ بالأفكار!». وأومأ إماءة ما بين الأمل والإحباط: «هنالك الكثير لاكتشافه!».

لاذ إتزيو بالصمت، فهو يعرف هذا أيضًا.

قال ليوناردو منهيًا حديثه: «إذن الآن أنت تعرف».

- لمَ أتيت إلى هنا؟

- لأُعيد تصحيح الأمور، لزم عليَّ أن أطمئنك أن قلبي ليس معهم.

- وما الذي يريدونه منك؟

- أيًّا ما يستطيعوا الحصول عليه. وآلات الحرب على رأس كل الأشياء. فهُم يعرفون ما بإمكاني فعله.

أخرج ليوناردو حزمة من الورق التي مدَّ يده بها، وقال: «إليك بعض التصاميم التي صنعتُها لهم. انظر، هنا عربة مصفحة لها القدرة -لو صُنعت بالصورة الصحيحة- على الحركة في جميع التضاريس الوعرة، ويستطيع الرجال المختبئون داخلها إطلاق المدافع، مدافع كبيرة، في حين يحظون بحمايةٍ تامة من كل الهجمات. أُسميها دبابة».

جفل إتزيو وهو يفحص الرسومات بعينيه، وقال: «وهل هي... قيد الإنشاء؟».

بدا على ليوناردو أمارات الذكاء، وقال: «قلت 'لو أنها صُنعت بالصورة الصحيحة'. ولسوء الحظ، كما تظهر التصاميم، ليس بمقدور هذا الشيء إلا الدوران على محوره».

ابتسم إتزيو وقال: «أرى هذا».

- وانظر إلى هذا.

طالع إتزيو بإمعان رسمةً لفارس يتحكم في حصانين مسرجين جنبًا إلى جنب. ورُبطت معدات دوارة تشبه المنجل بأشرطة السرج عن طريق قضيبين طويلين أفقيين في الأمام والخلف حيث تضم عجلات كذلك، ويمكن استخدامها لتمزيق أيٍّ عدو يقترب منه الفارس. علق قائلًا: «آلةٌ شيطانية».

قال ليوناردو ويلمع من عينيه بريق أكبر: «أجل، لكن لسوء الحظ الفارس نفسه... مكشوف تمامًا».

اتسعت ابتسامة إتزيو، ثم تبددت مجددًا، وقال: «لكن ماذا عن المسدسات التي زودتهم بها؟».

هزَّ ليوناردو كتفيه، وقال: «يجب أن نرمي للكلب عظمة. لزم عليَّ أن أعطيهم شيئًا ذا منفعةٍ حقيقية أو لساورتهم الشكوك حيالي».

- لكنها مسدسات عالية الكفاءة.

- بالتأكيد هي كذلك لكنها ليست بنصف كفاءة المسدس الصغير الذي صنعته لك ذات مرة منذ عام بناءً على تصميم ورقة المخطوطة. وحقًّا يا للأسف لأني وجدتُ صعوبة في كبح جماح نفسي بخصوص هذا.

فكر إتزيو محزونًا في أسلحة ورقة المخطوطة الضائعة، لكنه سيعود إليها لاحقًا.

- ماذا يوجد أيضًا في حزمة الأوراق تلك؟

ورغم أنهما كانا بمفرديهما، خفض ليوناردو صوته، وقال: «لقد نسخت كل الخطط ليس فقط الخاصة بأكبر الآلات، لكن كذلك الخطط الخاصة بمواقعهم في المعركة». ونشر يديه ساخرًا مستطردًا: «للأسف بحيث لا تؤدي عملها بالكفاءة الكاملة».

نظر إتزيو إلى صديقه القديم في إعجاب. هذا هو الرجل الذي صمم غواصة ليستخدمها البندقيون ضد القوادس التركية. فهو إن لم يكن قد دمج عيوبًا في هذه التصاميم عن اختيار منه، فلن يكون لهم أمل في الفوز في معركتهم مع آل بورجيا على الإطلاق. وكم سعدَ بترحيبه بليوناردو بهذه الطريقة. فهذا الرجل يساوي أكثر من جيشين.

- حبًّا بالرب يا ليوناردو اشرب كأسًا من الخمر على الأقل، فأنا أعرف أني لا أقدر مطلقًا على مكافأتك مكافأة كافية على كل ما تقدمه.

لكن ليوناردو لوح مُبعدًا الكأس المقدم، وقال: «ثمة أخبار أخطر. أتعرف أن التفاحة بحوزتهم؟».

- بالطبع.

- لقد عهدوا بها إلي كي أدرسها. وأنا وأنت لدينا شيء من المعرفة بخصوص مدى قدراتها. ومعرفته رودريغو بها أقل من معرفتنا نحن، لكن له عقلٌ أذكى من تشيزاري رغم أن تشيزاري هو من يجب علينا الحرص منه.

- ما مقدار المعلومات المتعلقة بالتفاحة التي منحتهم إياها؟

قال: «أقل قدر ممكن، لكن عليَّ منحهم شيئًا ما. ولحُسن الحظ، بدا تشيزاري راضيًا، حتى الآن، بالاستعمالات المحدودة التي كَشفت

له عنها. غير أن رودريغو يعرف أن ثمة المزيد وصبره ينفد». أطرق ليوناردو ثم تابع: «لقد فكرت في طُرق لسرقتها، لكنها محفوظة تحت حراسة مُشددة ولا يسمح لي بالوصول إليها إلا تحت إشراف صارم. وتمكنت من استخدام قواها لتحديد موقعك على الرغم من هذا. فهي تتمتع بهذه القُدرة كما تعرف. أمر عجيب تمامًا».

- وأنت علَّمتهم هذه الحيلة؟

- بالطبع لا! كل ما أريده هو إرجاعها لمالكها المستحق.

- لا تخف يا ليو سنستعيدها. في الوقت الحالي، اعمل على تأخيرهم قدر المستطاع، وإن استطعت، أعلمني بمقدار ما جعلتهم يعرفونه.

- سأفعل ذلك.

سكت إتزيو، ثم قال: «ثمة شيء آخر».

- أخبرني ما هو.

- لقد خسرت كل أسلحة المخطوطة التي صممتها مسبقًا.

- أرى ذلك.

- ما عدا النصل الخفي الأصلي. أما النصل السام والنصل المُزدوج وواقي الرسغ العجيب، كلها قد ضاعت.

قال ليوناردو: «اممم». ثم ابتسم، وقال: «حسنًا، لا مشكلة في صنعها لك من جديد».

لم يكد إتزيو يصدق هذا، فقال: «حقًّا؟».

قال ليوناردو: «إن التصاميم التي سمحتَ لي بأخذها لا تزال في فلورنسا مخبأة جيدًا مع مساعديَّ القديمَين أنيولو وإنوشينتو. ولن تطالهم يد آل بورجيا. ولو استولوا على فلورنسا، أو حتى لو فعلها الفرنسيون فلدى أنيولو أوامر مشددة بإتلافها، حتى هو وإنوشينتو لن يقدرا على إعادة صنعها دون مساعدتي، ليس لأني لا أثق بهما ثقة

مطلقة. لكن أنا... أنا لا أنسى أيَّ تصميم مطلقًا. وعلى الرغم من هذا». تردد وخالجه شعورٌ بالإحراج، ثم استطرد: «لا بد أن تدفع لي مقابل المواد الأولية التي سأحتاج إليها. مقدمًا».

ذُهل إتزيو، وقال: «حقًّا؟ هم لا يعطونك أجرًا في الفاتيكان؟».

سعل ليوناردو، وقال: «القليل... القليل جدًّا. وأعتقد أنهم يظنون أن الإبقاء على حياتي هو أجر كافٍ. ولست غبيًّا بما يكفي لأظن أنه في اللحظة التي تصبح فيها خدماتي... غير ضرورية لمتطلباتهم، لن يقتلونني دونما تفكير كما يقتلون كلبًا».

قال إتزيو: «ليس الأمر هكذا تحديدًا. فهم يُفضلون موتك على عملك لصالح أيِّ شخص آخر».

قال ليوناردو: «أجل، كنت أفكر في الأمر نفسه. وليس ثمة مهرب. ليس لأني أريد الهرب. فأنا أريد أن أرى آل بورجيا ينهزمون، وسألزم هذا الحد من الاندماج في السياسة فحسب. إلا أن ميلانو الحبيبة في قبضة الفرنسيين». وراح يفكر ويقول: «ربما... فيما بعد، عندما ينتهي كل هذا... قد أُجرب حظي في فرنسا. يقولون إنها بلدٌ متحضر...».

كان قد حان الوقت لإعادته إلى أرض الواقع. ذهب إتزيو إلى صندوق مطوق بالحديد وأخرج جعبة جلدية ممتلئة بالدوكات. وأعطاها لليوناردو.

قال بنبرةٍ مفعمة بالنشاط: «دفعة على الحساب من أجل أسلحة المخطوطة. متى بإمكانك تجهيزها؟».

فكر ليوناردو، ثم قال: «لن يكون الأمر بسهولة المرة السابقة. عليَّ العمل وحدي بسرية، فأنا لا أثق تمام الثقة في كل مساعديَّ العاملين معي هنا». أطرق، وبعدها قال: «دعني أتواصل معك ثانيةً. أعدك أن يكون في أقرب وقت ممكن». أخذ يقدر وزن الجعبة الثقيلة بيده. «ومَن يعلم فمع هذا القدر من المال قد أقدر حتى على إضافة أسلحة أُخرى

جديدة، ستكون من اختراعاتي هذه المرة بلا ريب، لكنها ستكون مُجدية. أظن أنك ستكتشف هذا».

قال إتزيو: «أيًّا ما تفعل من أجلنا سيُكسبك امتناني وحمايتي الدائمين، أينما كنت». وأوعز لذاته بملاحظة عقلية بأن يكلف مجموعة من المجندين الجدد، بمجرد أن يُنهوا تدريبهم، بأن يراقبوا ليوناردو بعنايةٍ ويرجعون له بالتقارير: «والآن، كيف يمكننا البقاء على تواصل؟».

قال ليوناردو: «لقد فكرت في هذا». وأخرج قطعة من الطباشير ورسم على الطاولة التي بينهما يد رَجلٍ يمنى تشير إلى الأعلى.

قال إتزيو: «إنها جميلة».

- إنه مجرد رسم لجزء من لوحة كنت أفكر في رسمها للقديس يوحنا المعمدان. وإن استطعت تنفيذها، فاذهب واجلس إلى حيث تشير.

امتثل إتزيو ما قاله.

قال ليوناردو: «هذا كل شيء. أخبِر رجالك بأن يكونوا متيقظين. وإن رأوا تلك الرسمة، والتي ستكون مجرد رسمة على جدار بالنسبة إلى أي أحد آخر، قل لهم بأن يُعلموك بهذا، واتبع الاتجاه الذي تشير إليه. سيكون هذا مكان التقائنا».

قال إتزيو: «رائع».

- لا تقلق، سأحرص على إنذارك مقدمًا. حال لو كنت تفكر في الانطلاق في مهمة ما أو أيِّ شيء آخر.

- شكرًا لك.

وقف ليوناردو، وقال: «عليَّ الذهاب. وإلا فسيفتقدونني. لكن أولًا...».

- أولًا ماذا؟

ابتسم ليوناردو وهزَّ جعبة المال، وقال: «أولًا سأتسوق».

28

غادر إتزيو المخبأ بعد ليوناردو بفترةٍ قصيرة ليُتابع عمله في التجنيد، وكذلك لينشغل بعمل شيءٍ ما. كان متلهفًا لاستعادة أسلحة المخطوطة البديلة بين يديه مرة أخرى.

لما عاد في وقتٍ لاحق من هذا اليوم لحضور اجتماع محدد مسبقًا، وجد أن ماكيافيلي قد سبقه بالحضور. وكانت كاترينا برفقته جالسة في مقعد وساقيها مغطاتان ببطانية من الفرو. وكالعادة لم يلتزم ماكيافيلي بالرسميات.

سأل: «أين كنت؟».

لم تروق النبرة التي تحدث بها لإتزيو، فردَّ بنبرة فاترة: «لكلٍّ منا أسراره. وهل لي أن أسأل ما الذي كنت تفعله؟».

ابتسم ماكيافيلي، وقال: «كنت أعمل على تحسين نظام الحمام الزاجل. وبإمكاننا الآن استخدامه من أجل إرسال الأوامر للمجندين الجُدد المنتشرين في جنبات المدينة».

- عظيم. شكرًا لك يا نيكولو.

تبادلا النظرات فيما بينهما. كان ماكيافيلي أصغر من إتزيو بنحو عشر سنوات، إلا أنه لا شكَّ في الاستقلالية والطموح الكامنين وراء هاتين العينين المحتجبتين. هل هو مستاءٌ من قيادة إتزيو للأخوية؟ هل كان يأمل أن يقع الاختيار عليه؟ استبعد إتزيو هذه الفكرة، فالرجل

بلا شك أكثر من مجرد مُنظِّر ودبلوماسي وسياسي محنَّك. ولا شكَّ في نفعه، أو ولائه، للأخوية. لو أن بمقدور إتزيو إقناع الثعلب بهذا.

وعلى ذكره، دخل الثعلب المخبأ بصحبة كلاوديا.

سأله إتزيو بعدما تبادلا التحية: «ما الأخبار؟».

- يُرسل بارتولوميو اعتذاره. يبدو أن الجنرال أوكتافيان حاول مهاجمة الثكنات مرة أخرى.

- أعرف هذا.

- إنهم يضاعفون هجماتهم، لكننا صامدون.

قال إتزيو: «جيد». واستدار باتجاه أخته بفتور، وقال وهو يُميل رأسه: «كلاوديا».

ردَّت ببرود مماثل: «أخي».

قال إتزيو: «أرجو من الجميع الجلوس».

وما إن جلس الجميع واستقروا، حتى تابع: «لديَّ خطة مجهزة لأجل آل بورجيا».

علق ماكيافيلي من فوره: «أقترح إما أن نستهدف إمداداتهم أو نلاحق أتباع تشيزاري».

قال إتزيو بفتور: «أشكرك يا نيكولو. خطتي الشخصية هي بالهجوم على كليهما. فلو تمكنا من قطع موارد تشيزاري المالية، فسيخسر جيشه وسيعود دون رجاله. من أين له هذا المال؟».

قال الثعلب: «نعلم أنه يعتمد على رودريغو في معظم أمواله، والمصرفي الشخصي لرودريغو هو أجوستينو كيجي. لكن لتشيزاري مصرفيه الشخصي كذلك، والذي لم تؤَكد هويته بعد، رغم أنه تساورنا بعض الشكوك».

قرر إتزيو في الوقت الحالي كتمان أفكاره في هذا الجانب. سيكون من الأفضل أن يؤكدها رجال الثعلب، إن أمكن.

- أعرف أحدهم، زبون في ماخور الوردة المتفتحة، مدين لهذا المصرفي بالمال. يشكو عضو مجلس الشيوخ إجيديو تروكي من معدلات الفائدة طوال الوقت.

قال إتزيو: «جيد. إذن علينا تتبُّع هذا الأمر».

قال ماكيافيلي: «ثمة أمر آخر. وردتنا أخبار بأنهم يخططون لوضع القوات الفرنسية على الطريق المؤدية إلى قلعة سانت آنجيلو. لا بدَّ أن هجومك قد أربكهم حقًّا. وعلى ما يبدو تشيزاري يخطط للعودة إلى روما. في الحال. لا أعلم تمامًا لماذا بهذه السرعة، لكننا سنعرف هذا. وعلى أيِّ حال عند عودته سيكثف الحماية على نفسه لدرجةٍ تعوقك عن الوصول إليه. وأخبرتنا جواسيسنا أنه يعتزم إبقاء أمر عودته سرًّا، على الأقل في الوقت الحالي».

قال الثعلب: «إنه يُدبر أشياء في السر».

قال ماكيافيلي: «رائع». وتبادلا الرجلان نظرة لم توحِ بالود.

فكر إتزيو في هذا وقال: «يبدو أن أفضل مسار لعملنا هو محاصرة جنرالهم الفرنسي، أوكتافيان، ذاك وقتله. وما إن يُزاح من طريقنا، فسيضع بارتولوميو الفرنسيون في موقف دفاعي، وسيتركون مهمة الحراسة في القلعة».

تحدثت كاترينا للمرة الأولى: «وحتى مع التخلص من هذه القوات يا إتزيو، سيستمر الحرس البابوي في حماية الجسر والبوابة الرئيسية».

قال الثعلب: «آه، لكن ثمة مدخل جانبي. لديَّ ألعوبة لوكريتزيا الجديدة الممثل بيترو بينتندي مفتاح».

قال إتزيو: «أهو كذلك حقًّا؟ لقد رأيته معها في القلعة».

قطع له الثعلب وعدًا: «سأجعل رجالي يعرفون مكانه. لن يكون الأمر صعبًا».

ابتسمت كاترينا وقالت: «تبدو فكرة جيدة. أودُّ المساعدة. علينا إخافته وأخذ المفتاح منه، وسيتوقف عن زيارة لوكريتزيا. لنفعل أيَّ شيء للتنغيص على هذه الساقطة».

قال ماكيافيلي: «تمهلي أيتها الكونتيسة. سنتدبر أمورنا دون مساعدتكِ».

نظرت إليه كاترينا في ذهول، وقالت: «لمَ؟».

قال: «لأننا سنضطر إلى إخراجكِ من المدينة، ربما إلى فلورنسا، حتى نتمكن من استرداد فرولي من أجلكِ. وأولادكِ هناك بالفعل في أمان». ونظر حوله، ثم قال: «إنقاذ إتزيو لكِ لم يكن بلا عواقب. ينتشر في كافة أنحاء المدينة منادون يزعمون وجود مكافأة كبيرة للقبض على الكونتيسة، سواء حية أو ميتة. ولا يمكن لأي رشوة أن تُسكتهم».

ساد الصمت المكان، ثم نهضت كاترينا وتركت البطانية تسقط على الأرضية. وقالت: «إذن يبدو أني قد أصبحت ضيفة ثقيلة. اعذروني».

قال إتزيو والقلق بادٍ عليه: «ما الذي تقولينه؟».

- لم أقل سوى أني في خطرٍ هنا...

- سوف نحميكِ!

نظرت إلى ماكيافيلي قائلة: «وأهم من هذا هو أني عبء عليكم. أليس كذلك يا نيكولو؟».

لم يحر ماكيافيلي جوابًا.

فقالت كاترينا: «لقد تلقيتُ إجابتي. سأُعد التجهيزات على الفور».

29

سألها إتزيو: «هل أنتِ متأكدة من قدرتكِ على ركوب الحصان؟».

- لقد ركبت من القلعة عندما أنقذتني، أليس كذلك؟

- أجل، لكن لم يوجد خيار آخر.

- وهل يوجد خيار الآن؟

لاذ إتزيو بالصمت. كان ذلك في الصباح التالي وراقب إتزيو كاترينا ومرافقتيها وهنَّ يحزمن متاعهن والمؤن التي زودتهم بها كلاوديا من أجل رحلتها. ستغادر قُبيل فجر اليوم التالي. وسيرافقها حاشية صغيرة من رجال إتزيو يركبون معها لبعض من الطريق، ليطمئنوا على خروجها بأمان من روما. وقد عرض إتزيو الانضمام لهم، لكنها أبت، إذ قالت: «لا أحب الوداع. وكلما طال أمده، كان أسوأ».

راقبها إتزيو وهي منهمكة في حزم أمتعتها، وراح يفكر في الأوقات التي قضياها معًا، منذ أمدٍ طويل في فورلي، ثم فيما تخيله، والشوق يغالبه، أنه لقاء في مونترجيوني. وبدا له أن أخوية الحشاشين قد استولت على حياته، وجعلته وحيدًا.

قال: «أتمنى لو تبقين».

- ليس بمقدوري يا إتزيو.

- اصرفي مرافقاتكِ.

- عليَّ بالإسراع.

- اصرفيهن، لن يستغرق هذا وقتًا طويلًا.

فعلت ذلك، لكن رأى إتزيو ترددها، لدرجة أن بعدها قالت: «احرصن على العودة في غضون خمس دقائق حسب الساعة المائية».

وبمجرد أن أصبحا وحدهما، لم يعرف من أين يبدأ.

قالت بنبرة أنعم: «حسنًا؟». واستطاع رؤية الاضطراب في عينيها، لكن لم يقدر على تحديد السبب.

قال متلعثمًا: «أنا... أنا أنقذتكِ».

- أجل، وأنا ممتنة لذلك. لكن ألم تخبر الآخرين أنك فعلت هذا لمجرد أني ما زلت حليفًا مفيدًا، حتى مع ضياع فرولي؟

- سنستعيد فرولي.

- وحينها سيتعين عليَّ الذهاب إلى هناك ثانيةً.

لاذ إتزيو بالصمت ثانية. وخوى قلبه من أي شعور.

اقتربت منه ووضعت يديها على كتفيه، وقالت: «اسمع يا إتزيو أنا عديمة الفائدة لأي أحد من غير فرولي. وإن غادرت الآن، فمن أجل بحثي عن الأمان ولأكون مع أولادي. ألا تريد ذلك لي؟».

- بالطبع.

- حسنًا إذن...

- أنا لم أنقذكِ لأنك مفيدة لقضيتنا.

كانت هي مَن لاذت بالصمت.

- لكن من أجل...

- لا تقلها يا إتزيو.

- لمَ لا؟

- لأني لا يمكنني أن أمنحك الرد نفسه.

لم يذبحه سيف بأعمق ما ذبحته هذه الكلمات: «لقد استغلَّيتِني إذن؟».

- يبدو هذا أشد قسوة.

- ما الكلمات الأخرى التي تريدين مني استخدامها؟

- حاولتُ التوضيح مسبقًا.

- أنتِ امرأة قاسية القلب.

- امرأة لديَّ عمل أقوم به، وواجب أؤديه.

- إذن فأيًّا ما يخدم غرضكِ تسايريه.

لاذت بالصمت ثانيةً، ثم قالت: «لقد حاولت إيضاح هذا الأمر لك مسبقًا. لا بدَّ أن تتقبل الأمر». وانزلت يديها عن كتفيه. واستطاع أن يرى أن عقلها قد عاد إلى رحلتها وأنها كانت تنظر إلى الأشياء التي لا تزال تحتاج إلى حزمها.

فكر بلا مبالاة: *لتذهب الأخوية إلى الجحيم! أعرف ما أريده! لمَ لا أعيش لنفسي* كتغيير؟

فقال: «أنا آتٍ معكِ».

التفتت إليه ثانيةً واكتست عيناها بنظرةٍ جدية، وقالت: «اسمع يا إتزيو. ربما تتخذ خيارًا الآن، لكنك تتخذه متأخرًا للغاية. وربما أنا قد فعلت الشيء نفسه. غير أنك قائد الأخوية الآن. فلا تترك العمل الذي بدأته، العمل العظيم لإعادة البناء بعد الدمار في مونترجيوني. ومن غيرك ستنهار الأمور مجددًا، ثم منَ سيكون هناك لنجدتنا؟».

- لكنكِ لم ترغبي فيَّ أبدًا.

نظر إليها، وكانت لا تزال موجودة في الغرفة معه، لكن روحها قد غادرت منذ زمن طويل. كم مضى من الوقت منذ أن تركته روحها، لم يكن يعرف، ربما لم تكن موجودة بالأساس. ربما كانت أمنية فحسب، أو حتى رسمٌ من مخيلته. شعر في تلك اللحظة أنه كان ينظر إلى جثة حبه، إلا أنه أبى تصديق موته. لكنه شأنه شأن أيِّ موت آخر، رأى أنه لا خيار له سوى التسليم بالواقع.

طُرق الباب.

فقالت كاترينا: «ادخل»، وعادت مرافقتاها.

فتركهنَّ إتزيو من أجل حزم الأغراض.

***

في صباح اليوم التالي، أصرَّ إتزيو على كبح رغبته في رؤية كاترينا وهي تغادر، إلا أنه لم يستطع. كان الجوُّ باردًا، وذهب إلى الساحة المتفق عليها الموجودة في منطقةٍ آمنة في المدينة، كنَّ قد امتطين الخيول، وكانت الخيول مضطربة. ربما الآن، في اللحظة الأخيرة، سيلين قلبها. إلا أن عينيها، اللتين رغم أنهما اكتسيتا بنظرة حنونة، كانتا شاردتين. وظن أنه يقوى على احتمال الأمور لولا نظرة منها بعين العطف. كان عطفًا مهينًا تقريبًا.

وكل ما استطاع قوله هو: «حظ سعيد يا كونتيسة، و... وداعًا».

- لنأمل ألا يكون هذا «وداعًا».

- أوه، أظنه كذلك.

عاودت النظر إليه، وقالت: «حسنًا إذن حظٌ سعيدٌ لك أيضًا يا أميري، والنصر للحشاشين!».

أدارت حصانها، وانطلقت في مقدمة حاشية الحراسة دون أن تنبس ببنت شفة أو تحين منها التفاتة إلى الخلف حتى، متجهة نحو الشمال خارجة من المدينة ومن حياته. راقبهم إتزيو إلى أن صاروا مجرد نقطة صغيرة في الأفق، رجل وحيد في منتصف عمره، مُنح فرصة أخيرة في الحب، لكنه أضاعها.

تمتم إتزيو بفتور بينه وبين نفسه وهو يستدير ويقفل عائدًا إلى المدينة التي كانت لا تزال تغطُّ في النوم: «النصر للحشاشين».

30

مع اقتراب عودة تشيزاري، نحى إتزيو حزنه الشخصي جانبًا وواصل العمل الذي قدَّره له القدر. وكانت أول خطوة يتخذها في محاولته لقطع الدعم المادي عن تشيزاري هي التخلص من المصرفي الشخصي لتشيزاري. وكانت الانطلاقة الأولى التي سيتأتى بها ذلك هو ماخور الوردة المتفتحة.

قالت كلاوديا على مضض: «ما الذي تريد؟».

- لقد تحدثتِ عن أحد أعضاء مجلس الشيوخ في الاجتماع.

- أجل، فعلت ذلك، لمَ؟

- لقد قلتِ إنه مدين بالمال لمصرفي تشيزاري. هل هو هنا؟

هزَّت كتفيها، وقالت: «ستجده على الأرجح عند منطقة هضبة الكابيتولين. ولا أظنك تحتاج مساعدتي في هذا؟».

- ما صفته؟

- أوه، لأري، إنسان عادي؟

- لا تلعبين معي الألاعيب يا أختي.

ألانت كلاوديا جانبها قليلًا، وقالت: «ربما يكون في الستين من عمره نحيف البنية تبدو على ملامحه أثار القلق حليق الوجه أشيب الشعر له طولك نفسه أو أقل قليلًا. اسمه إجيديو تروكي. وهو من النوع العنيد يا

إتزيو ومتشائم ومتشبث بآرائه. وستواجه صعوبة في محاولتك للتقرب منه».

نظر إليها بحدة، وقال: «شكرًا لكِ. والآن أنوي تعقُّب هذا المصرفي وقتله. لديَّ فكرة ذكية عن هويته، لكني أريد أن أعرف المكان الذي يسكن فيه. ويمكن لعضو مجلس الشيوخ هذا أن يقودني إليه».

- يشدد عضو مجلس الشيوخ الحماية على نفسه، وستفعل الشيء نفسه لو كنت في منصبه.

- ألا تظنين أني أفعل كذلك؟

- كما لو أني أهتم.

- اسمعي يا كلاوديا، إني أتعامل معكِ بصرامة، هذا لأني قلق عليكِ.

- اعفني من هذا.

- أنتِ تبلين بلاءً حسنًا...

- أشكرك يا سيدي الودود...

- لكن أريد منكِ ترتيب مهمة كبيرة لي. فبمجرد أن أتخلص من هذا الرجل، أريد من فتياتكِ أن ينقلن ماله إلى مكان آمن.

- فقط دعني أعرف عندما، أو أيجدر بي بقول «إذا»، نجحت في ذلك.

- فقط كوني على أهبة الاستعداد.

انطلق إتزيو مكدرًا ميممًا نحو هضبة الكابيتولين، المركز الإداري لروما، فرأى مشهدًا حافلًا. وأخذ العديد من أعضاء مجلس الشيوخ يروحون ويجيئون من أجل أعمالهم في الساحة الفسيحة التي تراصَّت حولها المباني الحكومية، وكان يصحبهم الأمناء والمساعدين، حاملين أوراقهم في مجلدات جلدية ويهرعون خلف أسيادهم وهم ينتقلون

من مبنى إلى آخر، وجميعهم يحاولون أن يظهروا بمظهر المنشغلين والمهمين بأقصى قدر ممكن. وانخرط إتزيو بقدر ما استطاع في الحشد، متيقظًا للرجل الذي يطابق الوصف الذي أعطته له كلاوديا. ومع تحركه بين الحشد أرهف سمعه لأي شيءٍ يدلُّ على فريسته. ولم تظهر بالتأكيد أي علامة على وجود إجيديو بين أعضاء مجلس الشيوخ في الوقت الحالي، رغم أنه بدا موضوعًا لحديث شيق بين رفاقه.

قال أحدهم: «طلب إجيديو المال مرة أخرى».

- ومتى لم يفعل؟ لأي غرضٍ هذه المرة؟

- أوه، مقترح من نوعٍ ما حتى يقلل عدد الإعدامات العلنية.

- أمر سخيف!

انتقل إتزيو إلى المجموعة الأخرى من أعضاء مجلس الشيوخ، ومن هناك جمَّع مزيدًا من المعلومات. ولم يحدد بصورة حاسمة، بناءً على ما سمعه، ما إذا كان إجيديو مُصلحًا ليبراليًّا متشددًا (وبالتالي هو أحمق) أم محتالًا أخرق.

كان عضو مجلس الشيوخ القائد للمجموعة التالية يقول: «يقدم إجيديو التماسًا لإنهاء تعذيب الشهود في المحاكم الجنائية».

ردَّ الرجل ذو المظهر المتعب الذي تحدث إليه: «هذا غير وارد. إنها مجرد حُجة لا غير، هو يريد المال لسداد ديونه فحسب».

- ويريد كذلك التخلص من تراخيص الإعفاء.

- عذرًا! كأن هذا سيحدث. ينبغي بالتأكيد السماح لكل مواطن يشعر بظلم قوانيننا دفع المال مقابل إعفاءه من تلك القوانين. إنه واجبنا. فقبل كل شيءٍ قداسة البابا هو مَن فرض تراخيص الإعفاء، وهو يسير على خطى المسيح نفسه، ’طوبى للرحماء‘!».

فكر إتزيو: *احتيال آخر من احتيالات آل بورجيا لجمع المال.* في حين علق عضو مجلس الشيوخ الآخر قائلًا: «لمَ ينبغي لنا إعطاء أيٍّ أموال لإجيديو؟ الجميع يعرف الذي سيفعله بهذه الأموال».

ضحك الرجلان وانصرفا لشؤونهما.

ثم جذب انتباه إتزيو مجموعة صغيرة من حراس آل بورجيا الذين يحملون شعار تشيزاري الشخصي، أربع مربعات بها ثورين أحمرين وزنابق، مُحاك في صدرياتهم. وبما أن وجودهم دائمًا ما يثير المشكلات، فقد مشى نحوهم ورأى لما اقترب منهم أنهم كانوا يلتفُّون حول أحد أعضاء مجلس الشيوخ. كان الآخرون يمضون إلى حال سبيلهم كما لو أن شيئًا غير معهود يحدث، لكن رأى إتزيو أنهم قد خلَّوا مسافة كافية بينهم وبين الحراس.

طابق عضو مجلس الشيوخ المنحوس وصف كلاوديا بامتياز.

راح رقيب الحراس يقول: «كفاكم جدالًا». وأضاف عَرِيفه: «حان موعد الدفع، فالدَّين لا بدَّ من سداده».

خلع إجيديو عن نفسه أيَّ ثوبٍ للكرامة، وراح يتوسل: «التمسوا العذر لرجل عجوز». وارتعدت أوصاله وردد: «أتوسل إليكم».

زمجر الرقيب وهو يومئ لاثنين من رجاله اللذَينِ أمسكا بإجيديو وطرحاه أرضًا وقال: «لا. لقد أرسلنا المصرفي لتحصيل الأموال، وتعلم ما الذي يعنيه هذا».

- انظر، أمهِلني حتى الغد، هذا المساء! سأجهز الأموال حينها.

ردَّ الرقيب وهو يركل عضو مجلس الشيوخ في بطنه: «لا يكفي مطلقًا». وتراجع للوراء وأخذ العريف والحارسان الآخران يوسعان الرجل المطروح أرضًا ضربًا.

قال إتزيو وهو يتقدم نحوهم: «هذا لن يجعلك تأخذ مالك».

- مَن أنت؟ صديقه؟

- كنت أمرُّ من هنا واعتراني القلق لما يحدث.

- حسنًا، يمكنك أن تأخذ قلقك وتهتم بشؤونك اللعينة!

وكما تمنى إتزيو، اقترب الرقيب منه، وبمهارةٍ مُتقنة أطلق إتزيو النصل الخفي، ورفع ذراعه ومرر النصل بسرعة على عنق الحارس المكشوف، تمامًا فوق العنقية التي ارتداها. شاهد الحراس الآخرون، جامدين من الذهول قائدهم وهو يخرُّ على ركبتيه ويديه تحاولان عبثًا الوصول إلى الجرح لوقف نافورة الدم. وقبل أن يتمكنا من القيام برد فعل، باغتهم إتزيو، وما كانت إلا لحظات قليلة ولحق الثلاثة برقيبهم في الدار الآخرة، كلهم مقطوعي الأعناق. ولم يسمح وقت مهمة إتزيو أن يستخدم سيفه في القتال، وحده القتل السريع والفتاك مسموحًا به.

وخلال اشتباك إتزيو، خلت الساحة من الناس كما لو كان بمفعول السحر. أنهض إتزيو عضو مجلس الشيوخ. ولطخ الدم ملابس الرجل، وبدا، بل بالتأكيد كان، في حالة صدمة ممتزجة بالارتياح.

قال له إتزيو: «يُفضل لنا الخروج من هنا».

ردَّ إجيديو: «أعرف مكانًا ما، اتبعني». وانطلق بسرعة كبيرة باتجاه زقاق بين مبنيين حكوميين كبيرين. وهرعا بالسير أسفل الزقاق، ثم انعطفا يسارًا، ثم نزلا بعض الدَّرج إلى قبو له باب. فتحه عضو مجلس الشيوخ، وأشار لإتزيو بالدخول إلى مسكنٍ صغير ومظلم، لكنه يبدو مريحًا.

قال إجيديو: «إنه مخبئي. إنه مفيد لا سيما إن كان لديك العديد من الدائنين كحالتي».

- لكن ثمة دائن منهم كبير.

قال: «كان خطئي أني جمعت كل ديوني مع مصرفي واحد. فلم أكن على دراية تامة بمعارفه الرفيعة في ذلك الوقت. وجب على أن أقتصر على كيجي. على الأقل يتسم بالأمانة، قدر ما يتصف بها المصرفي!». وجم إجيديو، ثم قال: «لكن مَن أنت؟ فاعل خير في روما؟ ظننت أنهم قلة قليلة».

أغفل إتزيو هذا الكلام، وسأله: «هل أنت عضو مجلس الشيوخ إجيديو تروكي؟».

جفل إجيديو، وقال: «لا تقل لي أنني مدين لك بالمال كذلك؟!».

- لا، لكن يمكنك مساعدتي. فأنا أبحث عن مصرفي تشيزاري الشخصي.

تبسم عضو مجلس الشيوخ شبه ابتسامة، وقال: «مصرفي تشيزاري بورجيا الشخصي؟ ها! ومَن أنت؟».

- لنقل فحسب أني صديق للعائلة.

- لتشيزاري العديد من الأصدقاء هذه الأيام. وللأسف، أنا لست واحدًا منهم. لذا إن سمحت لي، لديَّ بعض الأغراض لأحزمها.

- يمكنني الدفع.

زال عن إجيديو الشعور بالارتباك، وقال: «أوه! يمكنك الدفع؟ يا لها من أعجوبة! يدفع عني الحراس وكذلك يُقدم لي المال! قل لي، أين كنت طوال حياتي؟».

- حسنًا، لقد نزلت من السماء. أنت تساعدني وأنا سأساعدك. الأمر بهذه البساطة.

فكر إجيديو في هذا، وقال: «حسنًا، سنذهب إلى مسكن أخي. فلا يوجد خلاف قائم بينه وبينهم، إذ لا يمكننا البقاء هنا، المكان كئيب للغاية. وقريب جدًّا من أعدائي، أو هل أجرؤ على قول أعدائنا؟».

- لنذهب إذن.

- لكن سيتعين عليك حمايتي. سيسعى المزيد من حراس تشيزاري ورائي، ولن يرأفوا بنا، إن كنت تفهم قصدي، لا سيما بعد ذاك الاستعراض الذي قمت به في الساحة.

- هيَّا.

بحذر، قاد إجيديو السير، وحَرِص على تفقُّد أمان مسارهما قبل أن ينطلقا من طريق متشعب عبر الأزقة الخلفية والشوارع القذرة، مرورًا بساحة صغيرة، وبمحاذاة أطراف الأسواق. وقابلوا أزواجًا من الحراس مرتين، وتعين على إتزيو قتالهم مرتين، ولكن هذه المرة باستخدام سيفه ليكون أكثر فتكًا. وبدا أن المدينة كانت في حالة تأهب قصوى بحثًا عن الرجلين، ومَثل الرجلان في فرارهما معًا غنيمة ثمينة لأتباع آل بورجيا. لم يكن الوقت في صالح إتزيو، لذا بظهور زوجَي الحراس التاليَين قادمين من الطرف الأبعد من ساحةٍ صغيرة، ما كان عليهما إلا أن يفروا منهما، واضطر إتزيو، لكونه غير قادر على الصعود على الأسطح لوجود عضو مجلس الشيوخ برفقته، إلى الاعتماد على معرفة إجيديو الواسعة الظاهرة بشوارع روما الخلفية. ووصلا في نهاية المطاف إلى الجانب الخلفي من قصر أنيق جديد وفاخر يحيطه فناء مُسوَّر، يقع على بعد عدة مبانٍ شرقَي كنيسة سانت بيتر. ودخل هو وإجيديو إلى فناء من بوابة صغيرة مطوَّقة بالحديد موجودة في أحد الجدران، وأخرج مفتاحها.

وما إن دلفا إلى الداخل، حتى التقط أنفاسهما بارتياح.

قال إتزيو: «يرغب أحدهم بشدة في قتلك».

- ليس بعد، فهم يريدونني أن أدفع لهم أولًا.

- لماذا حين تدفع لهم مالهم؟ من ظاهر الأمر أنك مجرد بقرة حلوب بالنسبة إليهم.

- الأمر ليس بهذه البساطة، فحقيقة الأمر أني كنت مغفلًا. فلا تجمعني صداقة بآل بورجيا، حتى لو كنت اقترضت منهم المال، مؤخرًا صادفتني بعض المعلومات التي منحتني الفرصة كي أحتال عليهم، ولو حتى قليلًا.

- وما كان هذا الأمر؟

- منذ بضعة أشهر أخبرني أخي فرانشيسكو، الذي يعمل حاجبًا لدى تشيزاري، أعرف، أعرف، لا تدفعني للكلام عن هذا، بقدرٍ لا بأس به عن خطط تشيزاري من أجل منطقة رومانيا. فقد خطط لإنشاء مملكة مُصغرة هناك، ومنها يعتزم غزو بقية البلاد وإخضاعها. وبما أن منطقة رومانيا تقع على مشارف أراضي البندقية، فقد استاءت البندقية من غارات تشيزاري هناك.

- إذن ما الذي فعلته؟

نشر إجيديو يديه، وقال: «لقد كتبت إلى سفير البندقية، وأعطيته كل المعلومات التي تحصلت عليها من فرانشيسكو، ساعيًا لتحذيره. غير أنه لا بدَّ أن إحدى رسائلي قد اعتُرِضت».

- ألن يؤثر هذا على أخيك؟

- لقد نجح في إبعاد نفسه عن الشبهات حتى الآن.

- لكن ما الذي دفعك لفعل هذا الشيء؟

- كان عليَّ فعل شيء حيال الأمر. ومجلس الشيوخ قليل الحيلة هذه الأيام حقًّا، إلا من وضع ختمه على كل المراسيم الصادرة عن آل بورجيا. فوجوده مرهون بهذا. والحال كما هو عليه، فلا توجد

استقلالية. أتعرف كيف يكون الوضع حينما لا يجد المرء أيَّ هراء يقوم به؟ (هز إجيديو رأسه) يتبدل حال المرء. وأنا أُقرُّ أني حتى لجأت للقمار والشرب...

- والعهر.

نظر إليه عضو مجلس الشيوخ، وقال: «أوه، أنت بارع. أنت بارع للغاية. ما الذي كشف لك عن هذا؟ رائحة العطر على كمِّي؟».

تبسم إتزيو، وقال: «شيء من هذا القبيل».

- اممم. حسنًا على أي حال، كما كنت أقول، اعتاد أعضاء مجلس الشيوخ على فعل ما ينبغي لأعضاء مجلس الشيوخ فعله، مثل تقديم الالتماسات بخصوص المشكلات الفعلية، مثل، أوه، لا أعرف من أين أبدأ، الوحشية غير القانونية واللقطاء وجرائم الشوارع ومعدلات الإقراض وإحكام السيطرة على كيجي والمصرفيين الآخرين بعض الشيء. والآن التشريع الوحيد المسموح لنا بسَنِّه بشكلٍ مستقل يتعلق بأمور مثل العرض المناسب لأكمام فساتين النساء.

- ولكن هذا لا ينطبق عليك. فأنت تحاول جمع المال بأسباب وهمية كي تسدد ديون القمار.

- ليست أسبابًا وهمية يا بني. فبمجرد أن نحظى بحكومةٍ مناسبة ثانيةً، وأن تتزن أوضاعي المالية، أنوي ملاحقتهم بكل جدية.

- ومتى تظن أن هذا سيحدث؟

- لا بدَّ لنا من التحلي بالصبر. فالطغيان لا يقوى أحد على احتماله، لكنه لا يدوم. فهو هشٌّ للغاية.

- أتمنى لو أن عندي المقدرة على تصديق هذا.

قال: «لا ريب أن على المرء الوقوف في وجه الطغيان، وليحدث ما يحدث. وعلى ما يبدو أن عليك فعل هذا». وأطرق قليلًا ثم أردف: «أنا على الأرجح أكبر منك، بكم؟ عشر أو خمسة عشر سنة. وعليَّ استغلال وقتي بأفضل طريقة ممكنة. أو لم تنظر أبدًا إلى أحد القبور وفكرت: أن أفضل إنجاز سأحققه هو الموت؟».

لم ينبس إتزيو ببنت شفة.

استرسل إجيديو في الكلام: «لا، أظن أنك لم تفعل». ثم حول دفة الحديث إلى ذاته، وقال: «تلك الرسائل اللعينة! لم يكن ينبغي لي إرسالها أبدًا إلى السفير. والآن سيقتلني تشيزاري ما إن تتسنى له الفرصة، بسبب الدين أو غيره، إلا أن يقرر أن يصب جام غضبه على شخصٍ آخر بفعل معجزةٍ ما. فهو متقلب المزاج للغاية».

- شخصٌ آخر؟ مثل أخيك؟

- لم أكن لأسامح نفسي أبدًا.

- ولمَ لا؟ أنت سياسي.

- لسنا جميعًا بُغضاء.

- أين أخوك؟

- لا أعرف. وهو ليس هنا حمدًا للرب. فلم نتحدث منذ أن عرف بأمر الرسائل، وأنا عبء كافٍ عليه. وإن رآك...

قال إتزيو: «هل يمكننا الحديث عن العمل الآن؟».

- بالطبع. ردُّ الجميل وأشياء من هذا القبيل... والآن، هلا كررت عليَّ ما كنت تريده؟

- أريد أن أعرف مكان المصرفي الشخصي لتشيزاري. ومكان عمله وعيشه.

اعترت إجيديو حالة مفاجئة من النشاط، وقال: «أحتاج إلى أن أصل المكان ومعي الأموال». وتوقف وفرد يديه مستطردًا: «المشكلة أني لا أملكه».

- لقد أخبرتك أني سأوفره لك. فقط أخبرني بالمبلغ، والمكان الذي ستلتقي فيه هذا المصرفي.

- لن أعرف قط إلا بوصولي هناك. فأنا أذهب عادة إلى واحد من ثلاثة أماكن محددة مسبقًا. ويقابلني مساعدوه ويأخذوني إليه. وأنا مدين له بعشرة آلاف دوك.

- لا مشكلة في هذا.

قال إجيديو وعلى وجهه شبه ابتسامة: «حقًّا؟ عليك التوقف عن الحديث على هذا النحو، فأنت تعطيني أملًا».

- الزم هذا المكان، وسأعود لك بالمال عند الغروب.

***

في المساء الباكر، عاد إتزيو إلى إجيديو مما زاد استغرابه. ووضع حقيبتين جلديتين ثقيلتين بين يدي عضو مجلس النواب.

- لقد عُدتَ! لقد عُدتَ بالفعل!

- لقد انتظرت عودتي.

- أنا رجل لا حول لي ولا قوة. ولم أصدق أنك ستفعل هذا... بكل بساطة.

- ثمة شرط بيننا.

- أعرفه.

قال إتزيو: «اسمع، إن نجوت، وآمل أن تنجو، أريدك أن تراقب ما يجري من أحداث سياسية في المدينة. وأريدك أن تُبلغ بأي شيء تعرفه...». تردد إتزيو، ثم قال: «إلى السيدة كلاوديا في الماخور المسمى

الوردة المتفتحة. لا سيما أي شيء تعرفه عن آل بورجيا». وابتسم إتزيو بينه وبين نفسه واستطرد: «هل تعرف المكان؟».

سعل إجيديو، وقال: «أنا... أنا أعرف صديقًا يتردد على المكان».

- أمر جيد.

- ما الذي ستفعله بهذه المعلومات؟ هل ستتخلص من آل بورجيا؟

ابتسم إتزيو، وقال: «أنا بكل بساطة... أُجندك».

نظر عضو مجلس الشيوخ إلى حقيبتي المال، وقال: «أكره أن أعطيهم هذا المال». وغرق في بحر من الصمت، ثم استطرد: «لقد حمى أخي ظهري لأننا عائلة. أكره هذا اللعين، لكنه لا يزال أخي».

- إنه يعمل لصالح تشيزاري.

استجمع إجيديو شتات نفسه. وقال: «حسنًا. لقد أرسلوا إليَّ رسالة بمكان الاجتماع حينما غادرت. وتوقيته مثالي، إذ نفد صبرهم ويريدون الحصول على المال، لذا فإن الاجتماع الليلة. وشق عليَّ، كما تعلم، لما أخبرتهم أني سأحرص على تجهيز أموالهم». وأطرق ثانية، ثم تابع: «علينا الذهاب في أقرب وقت. ما الذي ستفعله؟ هل ستتبعني؟».

- لن تسير الأمور على خير إن لم تكن وحدك.

أومأ إجيديو، وقال: «جيد. لا نملك إلا وقتًا نحتسي فيه كأسًا من النبيذ قبل أن ننطلق. هل ستشرب معي؟».

- لا.

- حسنًا، أنا أحتاج إلى كأس بلا شك.

31

تبع إتزيو عضو مجلس الشيوخ عبر متاهة من الشوارع، ورغم أن تلك الشوارع تؤدي إلى التيبر، بيد أنه كان على معرفة كبيرة بها. ومرا في سيرهما بمعالم أثرية وساحات ونوافير عرفها جميعًا بالإضافة إلى أعمال إنشائية، إذ ينفق آل بورجيا ببذخ مبالغ فيه على الساحات والمسارح والمعارض في سعيهم لتعظيم ذاتهم. في نهاية المطاف، توقف إجيديو في ساحةٍ جذابة شكلتها مجموعة من المنازل الخاصة الكبيرة على جانبين وصف من المحال الباهظة على جانب ثالث. أما الجانب الرابع، فقد ضمَّ متنزهًا صغيرًا منمقًا ينحدر باتجاه النهر. كانت هذه وجهة إجيديو، واختار مقعدًا حجريًّا جلس عليه في الظلام الذي يُرخي سدوله، وهو يتلفت يمنة ويسرة، لكن بدا أنه مستجمع لرباطة جأشه. أُعجب إتزيو برزانته، إضافةً إلى كونها تليق بوضعهما. فأي لمحة اهتياج قد تُنذر أتباع المصرفي بوجود شيء غريب.

اختار إتزيو موضعًا قُرب شجرة الأرز وانتظر. لكن لم يطل انتظاره. فبعد لحظات من وصول إجيديو أتى إليه رجل طويل مرتديًا زيًّا لم يتعرف عليه. وكان على كتفه شارة: على نصفها ثور أحمر في حقل ذهبي، في حين النصف الآخر عليه خطوط عريضة أفقية سوداء وذهبية. لكن إتزيو لم يتعرف على هذا أيضًا.

قال القادم الجديد: «مساء الخير يا إجيديو. يبدو أنك جاهز للموت كالنبلاء».

ردَّ إجيديو: «هذا جفاء منك أيها القائد. لأن بحوزتي المال».

رفع الرجل حاجبه متعجبًا، وقال: «حقًّا؟ حسنًا، هذا هو المهم. سيسعد المصرفي كثيرًا. لقد أتيت وحدك، أليس كذلك؟».

- هل ترى أيَّ أحد آخر هنا؟

- اتبعني فحسب أيها العجوز اللئيم.

ومشيا عائدين ناحية الشرق، وعبرا التيبر. تبعهما إتزيو على مسافة منهما، لكنه بقي في مرمى السمع.

سأل إجيديو وهما يمشيان: «هل من أخبار عن أخي أيها القائد؟».

- كل ما يمكنني إخباره إياه هو أن الدوق تشيزاري يرغب بشدة في استجوابه. حالما يرجع من منطقة رومانيا، وهذا كل ما في الأمر.

- أتمنى لو أن يكون وضعه بخير.

- إن لم يكن لديه ما يخفيه، فلا شيء يخشاه.

واصلا مسيرهما في صمت، وعند كنيسة سانتا ماريا سوبرا مينيرفا انعطفا شمالًا باتجاه معبد البانثيون.

سأل إجيديو: «ما الذي سيحدث لأموالي؟». أدرك إتزيو أنه كان يستنطق القائد من أجل مصلحة إتزيو. إنه رجل ذكي.

قال القائد ضاحكًا: «*مالك*؟ آمل أن تكون كل الفوائد موجودة هنا».

- إنها كذلك.

- يُستحسن أن تكون كذلك.

- ماذا إذن؟

- يحب المصرفي أن يغدق على أصدقائه. فهو يحسن معاملتهم، ولديه القدرة المالية لفعل ذلك.

- ويحسن معاملتك، أليس كذلك؟

- أحب أن أعتقد هذا.

علق إجيديو قائلًا بسخرية لاذعة لدرجة أن القائد فهمها: «يا لسخائه».

فسأله بنبرةٍ تهديدية وهو يبطئ من خطواته: «ما الذي قلته؟».

- أوه... لا شيء.

- هيَّا، لقد وصلنا.

برزت الكتلة الضخمة لمبنى البانثيون من العتمة في ساحته المكتظة. وعلاها رواق الأعمدة الكورنثيَّة الطويلة للمبنى ذي الألف وخمسمئة عام، الذي أُنشئ معبدًا لجميع آلهة الرومان، لكنه خُصص منذ أمد بعيد ليكون كنيسة. وتحت ظلاله، انتظر ثلاثة رجال، ومن بينهما رجلان يرتديان الملابس نفسها التي يرتديها القائد، في حين ارتدى الثالث ملابس مدنية، كان رجلًا غليظًا وطويلًا ومنهكًا، لم تلِق به الملابس الراقية التي كان يرتديها. حيوا القائد، وأومأ الرجل ذو الملابس المدنية إلى إجيديو.

قال إجيديو بصوت عالٍ كي يُسمع إتزيو: « لويجي! لويجي تورشيلِّي! تسرني رؤيتك ثانية. أرى أنك لا تزال وكيل المصرفي. ظننت أنك رُقيت الآن. وظيفة مكتبية وأشياء من هذا القبيل».

قال الرجل المنهك: «اخرس».

قال القائد: «المال بحوزته».

لمعت عينا تورشيلِّي، وقال: «حسنًا، حسنًا! سيُسعد هذا سيدي ويحسن مزاجه. وهو يقيم حفلة مميزة جدًّا الليلة، لذا سأوصل إليه مالك بنفسي في قصره. عليَّ بالإسراع، فالوقت كالسيف، لذا أعطني إياها».

بدا على إجيديو كراهيته لامتثال ما قاله، غير أن الحارسين التابعين وجَّها مطرديهما إليه فسلم الحقيبتين. وقال: «أووف! إنهما ثقيلتان، يسرني التخلص منهما».

ردَّ الوكيل في حدة ثانية وقال: «اخرس». ثم قال لحارسيه: «أبقياه هنا حتى أرجع».

وبهذا، اختفى داخل الكنيسة الغائرة المهجورة، مغلقًا أبوابها العتيدة بإحكام من خلفه.

أراد إتزيو أن يتبعه، لكن لم تكن هناك طريقة للدخول من تلك الأبواب، وعلى أي حال، سيتعين عليه أولًا أن يمر من الحراس دون أن يكتشفوه. وربما خمن إجيديو هذا، لأنه بدأ دردشة ممازحة مع الرجلين المرتدين للزي، كان يثير حنقهما، لكنه يشتت انتباههما في الوقت نفسه.

فقال ساخطًا: «لمَ لا تطلقان سراحي؟ لقد دفعت مالي».

ردَّ القائد قائلًا: «ماذا لو دفعت مبلغًا أقل من المطلوب؟ لا بدَّ من عد المال أولًا. يجب أن تعلم هذا».

- ماذا؟ عشرة آلاف دوك؟ سيستغرق عدُّها الليل كله!

- لا بدَّ من القيام بهذا.

- إن تأخر لويجي، فسيقع في المتاعب. بوسعي تخيل أيُّ شخصية يكون عليها المصرفي!

- *اخرس*.

- لا شك أنكم تتمتعون بحصيلة لغوية محدودة جدًّا. انظر، فكر في تورشيلِّي العجوز المسكين، إن لم يخرج بالأموال في أقرب وقت، فلن يسمح له المصرفي على الأرجح بالمشاركة في الاحتفال. *هل* يسمح لخدامه بالمشاركة في الاحتفال؟

ضرب القائد عضو مجلس الشيوخ على رأسه في نفاد صبر، فلاذ إجيديو بالصمت، ومع ذلك كان يبتسم. فقد رأى إتزيو ينسلُّ متخطيًا إياهما وبدأ يتسلَّق واجهة المبنى باتجاه القبة التي خلفه.

وما إن وصل إتزيو إلى سطح المبنى الدائري، الذي أخفته الواجهة الكلاسيكية جزئيًّا، حتى سلك طريقه باتجاه الفتحة الدائرية، كوة القبة، التي يعرف أنها في مركزه. سيمثل هذا اختبارًا لجميع مهاراته في التسلق، لكن ما إن يدلف إلى الداخل، فسوف يجد الوكيل، ويضع المرحلة التالية من الخطة والتي كانت تتشكل سريعًا في عقله، وتدخل حيز التنفيذ. كان الوكيل بحجم إتزيو نفسه، رغم أنه ليس قوي البنية مثله، وستعمل عباءاته المرفرفة على إخفاء بنية إتزيو الجسدية، إن سارت الأمور على ما يرام.

كان الجزء الأصعب هو النزول بجسده من الفتحة الموجودة في قمة القبة، ثم إيجاد سبيلٍ ما للهبوط من هناك. لقد زار الكنيسة من قبل، ويعرف أن المباخر المعلقة بعيدًا في الأسفل معلقة بسلاسل في السقف. فإن استطاع الوصول إلى واحدة منها... إن كانت ستتحمل وزنه...

حسنًا، لم يكن ثمة سبيل آخر. يعرف إتزيو حق المعرفة أنه لا يستطيع التسلق ولو حتى مثل ذبابة للطرف المقابل من الانحناء الداخلي للقبة، رغم وجود مربعات زخرفية بها، تبعد قدر مئة وأربعين قدمًا عن الأرضية الرمادية المُبلطة الباردة.

تعلق إتزيو على حافة كوة القبة وأمعن النظر في الظلام الدامس بالأسفل. وأظهرت نقطة صغيرة من الضوء بعيدًا بالأسفل مكان الوكيل، فقد جلس على مقعد بمحاذاة حافة الجدار. وكان المال إلى جانبه، وراح يعده على ضوء الشمعة. بعدها بحث إتزيو عن السلاسل التي تحمل المباخر. فلم تكن أيٌّ منها في متناول يده، لكن إن قدر فقط على أن...

غيَّر إتزيو مكانه وأنزل ساقيه عن حافة الفتحة الدائرية، ممسكًا بها بكلتا يديه. كانت مخاطرة كبيرة، لكن بدت السلاسل متينة وعتيقة، وأثقل مما توقع. فنظر إتزيو إلى مثبتاتها في السقف، واستشفَّ مما رآه أنها كانت مثبتة بإحكام في الحجر الصلب.

ولم يكن ثمة بُد، دفع إتزيو جسده بيديه بشدة ورمى بنفسه للأمام في الفراغ.

وبدا للحظة أنه معلق في الهواء، كما لو أن الهواء يمسكه، كما يفعل الماء مع السباح، إلا أنه حينها بدأ يسقط.

وراح يخبط بذراعيه للأمام، وحرك جسده نحو أقرب سلسلة، ثم أمسك بها. راحت وصلات السلسلة تنزلق تحت قفازيه وانزلق لعدة أقدام قبل أن يُحكم قبضته على السلسلة، ثم وجد نفسه يتأرجح في الظلام. أصغى إتزيو بمسامعه، فلم يسمع أيَّ صوت، كان الظلام حالكًا ما يمنع رؤية العميل للسلسلة وهي تتأرجح من حيث يجلس بعيدًا في الأسفل.

نظر إتزيو باتجاه الضوء، كان لا يزال مشتعلًا بثبات ولم تصدر أي نداءات إنذار.

نزل إتزيو بثبات حتى اقترب من الأرضية قدر عشرين قدمًا. وكان قريبًا جدًّا من الوكيل، واستطاع رؤية صورة ظله المائلة فوق حقيبتي الأموال ولمعان العملات الذهبية تحت ضوء الشموع. وسمع إتزيو صوت همهمات الرجل وصوت نقر معداد الأباكوس الهادئ الإيقاعي.

وفجأة، أتى صوت تمزق مخيف من الأعلى. فلم يعد مثبت السلسلة بالسقف يتحمل ضغط وزن إتزيو الزائد أكثر من ذلك، وانخلع عن السقف. ترك إتزيو السلسلة وهي تنخلع في يديه ورمى بجسده للأمام باتجاه الشمعة. وفي أثناء سقوطه في الهواء سمع الوكيل يقول في فزع: «مَن هناك؟»، وصوت صرير طويل كاد لا ينتهي في أثناء سقوط سلسلة بطول مئة وأربعين قدمًا تتلوى على الأرض. وحمدًا للرب أن أبواب الكنيسة كانت مغلقة، فسُمكها يكتم أيَّ صوت صادر من الداخل.

سقط إتزيو فوق الوكيل بكل ثقله، كاتمًا نَفَسه، وطُرح الرجلان على الأرض، وتمدد الوكيل منبسط الساقين والذراعين تحت إتزيو.

تملص العميل محررًا نفسه، لكن إتزيو أمسكه من ذراعه.

قال الوكيل والرعب يدب في نفسه: «مَن أنت؟ ليحمِني المسيح!».

قال إتزيو وهو يطلق النصل الخفي: «أنا آسف يا صديقي».

تمتم الوكيل قائلًا: «ماذا؟ لا! لا! انظر خذ الأموال! إنها لك! إنها *لك*!».

عدَّل إتزيو قبضته، وقرَّب الرجل منه.

- ابتعد عني!

قال إتزيو: «ارقد بسلام».

***

خلع إتزيو سريعًا أثواب الوكيل الخارجية وارتداها فوق ملابسه، ووضع وشاحًا أسفل وجهه، وخفض قبعة الوكيل على رأسه. كان الثوب ضيقًا بعض الشيء، لكن عدم تناسب المقاس لم يكن شيئًا ملحوظًا. ثم أكمل نقل الأموال من الحقيبتين إلى الصندوق المعدني الذي أحضره الوكيل لهذا الغرض، والذي كان فيه معظم المال معبأً ومرتبًا. وأضاف إليه دفتر الحسابات وترك معداد الأباكوس والحقيبتين الجلديتين،

وتأبط الصندوق واتجه نحو الباب. وكان قد سمع الكثير من أسلوب الوكيل في الحديث حتى يحاكيه محاكاة مقبولة، كما كان يأمل. وعلى أيِّ حال، تعيَّن عليه المجازفة.

وباقترابه من الباب، انفتح ونادى القائد من خلاله، قائلًا: «هل كل شيءٍ على ما يرام بالداخل؟».

- انتهيتُ لتوِّي.

- جيد، أسرِع يا لويجي، وإلا فسنتأخر.

خرج إتزيو إلى الرواق المُعمد.

- العدد كامل؟

أومأ إتزيو.

قال القائد: «حسنًا». ثم التفت إلى الرجلين الممسكين بإجيديو، وأمرهم بسرعة واقتضاب: «اقتلاه».

قال إتزيو: «انتظرا!».

- ماذا؟

- لا تقتلاه.

بدت معالم الدهشة على القائد، وقال: «لكن هذا... هذا إجراء متبع، أليس كذلك يا لويجي؟ إضافة إلى ذلك، هل نسيت ما *فعله* هذا الرجل؟».

- لديَّ أوامري من المصرفي نفسه، فحواها أن هذا الرجل لا بدَّ من العفو عنه.

- هل لي أن أسأل عن السبب؟

- هل تشكك في أوامر المصرفي؟

هزَّ القائد كتفيه وأومأ للحراس، الذين تركوا عضو مجلس الشيوخ.

قال لإجيديو الذي كان له من الفطنة ما منعه من النظر إلى إتزيو قبل أن يُسرع بالمغادرة دون أن ينبس بكلمة أخرى: «أنت محظوظ».

استدار القائد إلى إتزيو وقال: «حسنًا يا لويجي. تقدمنا في الطريق».

تردد إتزيو واحتار لأنه لم تكن لديه فكرة عن المكان الذي يجب أن يتجه له. رفع الصندوق، وقال: «هذا ثقيل للغاية. اجعل الحارسين يحملانه بعضهما مع بعض».

- بالتأكيد.

مرر لهما الصندوق، لكنه لم يبرح مكانه.

وانتظر الحارسان.

قال القائد بعد بضع لحظات: «سيدي لويجي، مع احترامي يجب أن نوصل هذا الصندوق إلى المصرفي في الموعد. وبالطبع أنا لا أشكك في سلطتك... لكن ألا يجب علينا الإسراع؟».

ما الفائدة المرجوة من كسب الوقت؟ علم إتزيو أن عليه الاعتماد على حدسه. ومن المرجح أن المصرفي يقطن في مكانٍ ما في محيط إما قلعة سانت آنجيلو أو الفاتيكان. لكن في أيٍّ منهما يعيش؟ اختار إتزيو التوجه نحو قلعة سانت آنجيلو، وبدأ بالتحرك باتجاه الغرب. نظر حارسا الحماية الخاصان به، أحدهما إلى الآخر لكنهما تبعاه. رغم ذلك، شعر إتزيو بعدم ارتياحهما، وبالطبع، بعدما قطعا مسافة قصيرة، سمع الحارسين يهمسان: «هل هذا اختبار من نوعٍ ما؟».

- لست متأكدًا.

- ربما لا يزال الوقت مبكر جدًّا؟

- ربما نسلك طريقًا غير مباشر عن عمد، لسببٍ ما.

وفي نهاية المطاف، نقر القائد بإصبعه على كتف إتزيو، وقال: «لويجي، هل أنت بخير؟».

- بالطبع أنا كذلك.

- إذن، مع احترامي ثانيةً، لما تذهب بنا باتجاه نهر التيبر؟

- أسباب أمنية.

- أوه، لا أستغرب هذا. ففي العادة نذهب هناك مباشرة.

قال إتزيو وهو يأمل ذلك حقًّا: «هذه شحنة مهمة على وجه الخصوص». لكن لم يندهش القائد.

وفي أثناء وقوفهما للحديث، تمتم أحد الحراس للآخر، وقال: «مجموعة من الحثالة في رأيي. ذاك التلكؤ يجعلني أتمنى لو أنني ما زلت حدادًا».

تمتم الآخر: «أنا أتضور جوعًا. أريد العودة للمنزل. تبًّا لمهنة الحراسة. إنها على بُعد بنايتين فحسب إلى الشمال من هنا».

وبسماع هذا تنفس إتزيو الصعداء فقد خطر في ذهنه موقع قصر المصرفي الآخر أجوستينو كيجي الذي يتولى شؤون البابا. كان موقعه باتجاه الشمال الشرقي قليلًا من المكان الذي هما موجودان فيه الآن. إذ منطقي أن يكون مكان مصرفي تشيزاري قريبًا، بالتحديد في الحيِّ المالي. يا لحماقته! فلم ترد له مثل هذه الفكرة من قبل، لكنه عاش يومًا حافلًا آخر.

قال إتزيو بنبرة صارمة: «لقد غيَّرنا مسارنا بالدرجة الكافية. سنسلك طريقًا مباشرًا من هنا».

وانطلق باتجاه قصر كيجي، وارتاح لإحساس الانفراج الذي أبداه رفاقه. وبعد فترة، قرر القائد أن يتقدمهم. ومشوا بوتيرةٍ سريعة

وسرعان ما وصلوا إلى حيٍّ شوارعه نظيفة واسعة. كان المبنى الكبير الرخامي المضيء الذي توجهوا نحوه يحرسه عدة حراس مختلفين عند أسفل درج المدخل وأمام الباب الأمامي المزدوج الفخم في قمة الدرج.

وعلى ما يبدو كانت مجموعة إتزيو يُنتظر مجيئها.

قال رئيس الحراس الجدد الذي بدا أنه أعلى رتبة من القائد: «وصلتم أخيرًا». والتفت نحو إتزيو وأضاف: «سلِّم رجالي الصندوق يا لويجي. سأحرص على وصوله إلى المصرفي. ويُفضل أن تدخل كذلك. هناك مَن يريد الحديث إليك هنا». ثم نظر حوله، وقال: «أين عضو مجلس الشيوخ تروكي؟».

أسرع إتزيو بالرد قبل أن يرد أحد آخر: «تم التعامل معه حسب الأوامر».

ردَّ قائد الحُراس بخشونة: «جيد».

تبع إتزيو الصندوق والذي وصل إلى أيدي الحراس الجدد في أعلى الدرج. وحاول القائد من خلفه أن يتبعه.

قال رئيس الحراس: «لا يُسمح لكم».

- ألا يمكننا الدخول؟

- ليس الليلة. أنت ورجالك ستنضمون للدورية هنا. ولك أن ترسل في إحضار مفرَزة أخرى. فنحن في حالة تأهب تامة. وتلك أوامر السيد تشيزاري.

تمتم أحد حراس إتزيو لرفيقه: «ابن العاهرة».

أصغى إتزيو بمسامعه، وفكر: *تشيزاري؟* موجود *هنا؟* تسارعت الأفكار في عقله وهو يدلف من الأبواب المفتوحة إلى الردهة التي تنيرها الأضواء، والتي لحسن الحظ كانت مزدحمة بالناس.

كان القائد ورئيس الحراس مستمرَّين في جدالهما حول مهمة الدورية الإضافية لما أتت إليهم مُفرَزة من شرطة البابا الخاصة بالمدينة على عجل. كانا متهدجَي الأنفاس ويبدو القلق على وجهيهما.

قال رئيس الحراس للقائد الأعلى: «ما الأمر أيها الرقيب؟».

- عذرًا أيها الكولونيل، كنا لتونا في مناوبة عملنا بالقرب من معبد البانثيون، وكانت الأبواب مفتوحة...

- ثم؟

- لذا تحققنا من الأمر، أرسلت بعضًا من رجالي إلى الداخل...

- أسرع بقول الأمر يا رجل.

- لقد وجدنا السيد تورشيلِّي يا سيدي. مقتولًا.

قال رئيس الحراس وهو يستدير لينظر على الباب الأمامي الذي مر من خلاله إتزيو للتو، وقال: «لويجي؟ هراء. فقد وصل إلى هنا منذ عدة دقائق ومعه المال. لا بدَّ أن هنالك خطأ ما».

32

بعدما تخلص إتزيو بسرعة وسرية من ملابس لويجي الخارجية وخبأها خلف عمود، سلك طريقه بين جَمع الضيوف أصحاب الملابس الفخمة، وكان معظمهم يرتدي أقنعة، وأخذ يراقب عن كثب الحراس الحاملين لصندوق المال. ودنا منهم لما اقتربوا من مساعدٍ يرتدي ملابس أنيقة وسلما إليه الصندوق.

قال أحد الحراس: «سلِّمه للمصرفي».

أومأ المساعد ومضى حاملًا الصندوق بسهولة، واستدار سالكًا طريقه إلى آخر القاعة. كاد إتزيو أن يلحق به لما انضمت إليه ثلاث فتيات وقفن عن قرب شديد منه. كانت ملابسهن فاخرة شأنها شأن الضيوف الآخرين، لكن فتحة صدورهن مكشوفة. وبواقع صدمة ممزوجة بالدهشة والسرور، عرف إتزيو أنهن غانيات من الوردة المتفتحة. وعلى ما يبدو أنه استهان بقدرات أخته. ولا عجب من غيظها منه.

قالت إحدى الفتيات: «سنتولى الأمر من هنا».

قالت الثانية: «لن يكون من مصلحتك الاقتراب أكثر. لكن احرص على أن نكون في مرمى بصرك».

ومضين سريعًا خلف المساعد، وما لبسن أن لحقن به، وفي تلك اللحظة شغلته إحداهن بالحديث.

فقالت: «مرحبًا».

ردَّ الرجل في حذر قائلًا: «مرحبًا». وكان مملًّا أن يكون المرء في حفل كهذا هذا ويتعين عليه الالتزام بواجب العمل.

- أتمانع لو مشيت معك؟ كل هؤلاء الأشخاص! إنه لمن الصعب أن تمر بينهم بسرعة.

- بالطبع. أقصد لا أمانع إن أردتِ صُحبتي.

- لم آتِ إلى هنا من قبل.

- من أين أتيتِ؟

هزَّت كتفيها وقالت بطريقة درامية: «من التراستيفيري. على المرء اجتياز بعض المباني المهدمة القديمة للوصول إلى هنا. إنها تخيفني».

- أنتِ بأمان هنا.

- تقصد معك؟

تبسم المساعد وقال: «بإمكاني حمايتكِ إن لزم الأمر».

قالت: «أظن أن بإمكانك». ونظرت إلى الصندوق، وأردفت: «يا له من صندوق جميل تحمله».

- إنه ليس لي.

- أوه، لكنك تحمله بين ذراعيك القويتين. يا لقوة عضلاتك.

- أتريدين لمسها؟

- أوه يا إلهي! لكن ما الذي سأقوله للقسيس في الاعتراف؟

وفي هذه اللحظة كانا قد وصلا إلى باب مطوَّق بالحديد يقف على كل جانب منه حارس. راقب إتزيو المشهد حيث طرق أحدهما الباب. وبعد لحظة، انفتح الباب وظهر في المدخل شخص يرتدي عباءة كاردينال حمراء، ومعه مساعد يرتدي ملابس مماثلة للأول.

قال المساعد الأول وهو يمد يده بالصندوق إلى المساعد الثاني: «هذا هو المال الذي كنت تنتظره سموُّك».

التقط إتزيو أنفاسه فقد تأكدت ظنونه. فلم يكن المصرفي إلا خوان بورجيا الأكبر رئيس أساقفة مونريالي والكاردينال الكاهن لسانتا سوزانا. الرجل نفسه الذي رآه بصحبة تشيزاري في مونترجيوني وفي الإسطبل في قلعة سانت آنجيلو!

قال المصرفي الذي لمعت عيناه السوداوان في وجهه الشاحب: «جيد». وراح يرمق الفتاة الواقفة قرب المساعد الأول بنظرات متفحصة. وقال: «أظن أني سآخذها كذلك».

وجذبها من ذراعها وقربها إليه، ونظر بفتور إلى المساعد الأول، وقال: «أما أنت، فانصرف».

قالت الفتاة وهي تدخل إلى حضن المصرفي وبينما يحاول المساعد كبح الانطباع الذي ارتسم على وجهه: «مع بالغ سروري!». اختفى المساعد الثاني في غرفة خلف الباب، وأغلقه من ورائه، بينما يقود المصرفي الفتاة إلى الحفل مرة ثانية.

شاهدهما المساعد الأول، وزفر تنهيدة استسلام. وشرع في المغادرة، لكنه توقف، وهو يتحسس ملابسه، ثم تمتم: «جعبة نقودي! ماذا حدث لها؟». ثم نظر باتجاه المصرفي الذي انصرف مع الفتاة. وكان يحيط بهم الضيوف الضاحكون الذين يتحرك من بينهم الخدم برشاقة حاملين صواني فضية محملة بالطعام والشراب. فقال لنفسه: «أوه تبًّا!». وشق طريقه عائدًا باتجاه الأبواب الأمامية والتي ما إن مرَّ منها، حتى انغلقت من ورائه. وبدا أن كافة الضيوف قد وصلوا. شاهده إتزيو وهو يذهب وفكر في نفسه: *لو استمروا في معاملة الناس بهذه الطريقة، سيتيسر لي حشد كل المجندين الجدد الذين أحتاج إليهم.*

استدار إتزيو وتابع طريقه إلى موقع قريب من المصرفي وعندئذٍ ظهر منادٍ في أعلى شرفة ونافخ البوق الذي نفخ نفخة قصيرة لإسكات الحضور من أجل سماع المنادي. وتكلم المنادي معلنًا: «أصحاب

السمو، السيدات والسادة. إن سيدنا المبجل وضيفنا المكرم، دوق فالانس ومنطقة رومانيا والقائد العام للقوات البابوية المسلحة، وأمير أندريا وفينافرو، وكونت ديويس وسيد بيومبينو وكاميرينو وأوربينو، إن صاحب السموِّ السيد تشيزاري بورجيا على وشك تشريفنا بإلقاء خطبة في الغرفة الداخلية الكبرى».

قال المصرفي للغانية من ماخور الوردة المتفتحة: «هيًّا يا عزيزتي عليك أن تجلسي بالقرب مني». انضم إتزيو إلى جمع الناس الممتثلين للأمر الذين يتحركون عبر الأبواب المزدوجة، وتبعهم. ولاحظ أن الفتاتين الأخريين لم تكونا بعديتين، بل تجاهلاتاه عن قصد. وتساءل كم عدد الحلفاء الذين استطاعت شقيقته إدخالهم إلى هذا الحشد. فإن نجحت في كل ما طلب منها فعله، فسيتعين عليه أن يفعل أكثر من مجرد الاعتذار، بيدَ أنه في الوقت ذاته اعتراه شعور بالفخر والطمأنينة.

جلس إتزيو على مقعد في الممر بالقرب من قلب الحشد. واصطفَّ الحرس البابوي على أطراف الغرفة، بينما وقف صف آخر أمام المنصة التي نُصبت في طرفٍ منها. وما إن استقر الجميع، وكانت النساء يلوحن بالمراوح بسبب حرارة الغرفة، حتى اعتلت المنصة شخصية مشهورة ترتدي ملابس سوداء. لاحظ إتزيو أن أباه كان برفقته، رغم أن رودريغو جلس على مقعد خلفه. وما أراح قلبه أن لوكريتزيا كانت غائبة عن الأنظار، رغم أنها لا بدَّ أن تكون قد أطلق سراحها في الوقت الحالي.

قال تشيزاري وعلى وجهه ترتسم ابتسامة بسيطة: «مرحبًا يا أصدقائي. أعرف أن بانتظارنا جميعًا ليلة طويلة». توقف عن الكلام بسبب الضحكات المتعالية والتصفيق المتفرق. وأردف: «لكنني لن أطيل عليكم. يا أصدقائي، يشرفني أن كاردينال سانتا سوزانا قد تكبد كل هذا العناء لمعاونتي على الاحتفال بانتصاراتي الأخيرة».

تعالت أصوات التصفيق.

- وما الطريقة الأفضل التي يمكنني الاحتفال بها إلا بالانضمام إلى أخوية الإنسان؟ وسنجتمع عما قريب هنا ثانية من أجل حفل أكبر من هذا، لأن حينها سنحتفل بإيطاليا الموحدة. وحينها يا أصدقائي ستستمر الأفراح والليالي الملاح لا لليلة واحدة ولا اثنتين ولا حتى خمس أو ست أو سبع، بل سنحتفل لأربعين يومًا وليلة.

رأى إتزيو البابا وقد تجمد عند قول تشيزاري لهذا الكلام، غير أن رودريغو لم ينبس ببنت شفة، فلم يقاطعه. كانت الخطبة قصيرة كما وعد تشيزاري، وكانت عبارة عن قائمة بالدول المدنية الجديدة التي أصبحت تحت سيطرته، وتلخيص مبهم لخططه للفتوحات المستقبلية. ولما انتهت الخطبة ما بين التصفيق الحار وهتافات التأييد العالية، استدار تشيزاري للانصراف، إلا أن رودريغو سدَّ طريقه، والذي بدا واضحًا أنه كان يجاهد من أجل كبح جام غضبه. شقَّ إتزيو طريقه للأمام لسماع الحديث المقتضب الذي بدأ يدور بين الأب وابنه بصوت خافت. وأما مرتادو الحفل الآخرون، فقد بدأوا في العودة إلى القاعة الرئيسية، إذ كانت عقولهم مشغولة بالفعل بملذات الحفل التي بانتظارهم.

راح رودريغو يقول بصوتٍ مليء بالغيظ: «لم نتفق على غزو كل إيطاليا».

- لكن يا أبي العزيز، إن قال قائدك العام الذكي إن بإمكاننا القيام بذلك، فلمَ لا تفرح وتتدع الأمر يحدث؟

- أنت تخاطر بإفساد كل شيء! أنت تخاطر بزعزعة توازن القوى الدقيق الذي لطالما عملنا على الحفاظ عليه.

زمَّ تشيزاري شفتيه، وقال: «أقدِّر كل ما فعلته من أجلي بلا شك يا والدي العزيز، لكن لا تنسَ أن الجيش تحت سيطرتي الآن، وهذا يعني أني أنا مَن يتخذ القرارات». ثم سكت حتى يستوعب أبوه مغزى كلامه: «لا تُبدِ العبوس الشديد، استمتع!».

وبذلك غادر تشيزاري المنصة ودلف من بابٍ مسجى بالستائر في أحد الجوانب. راقبه رودريغو وهو يغادر للحظة، ثم راح يتمتم بينه وبين نفسه، ثم تبعه.

فكر إتزيو: *تبختر كما تشاء يا تشيزاري في الوقت الحالي. فسأوقع بك. أما في هذه الأثناء، فعلى مصرفيِّك الشخصي دفع ثمن تورطه معك.*

وتصرف إتزيو شأنه شأن أي ضيفٍ آخر في الحفل، ومشى متبخترًا في الاتجاه نفسه الذي مشى منه الآخرون. وخلال الخطبة، تبدلت القاعة الرئيسية لحال آخر، وُضعت الأسرَّة والأرائك في أرجائها تحت مظلات ثقيلة وفرشت الأرضية بالوسائد الدمشقية والسجاد الفارسي السميك. وواصل الخدم مرورهم بين الضيوف يقدمون الخمر، إلا أن الضيوف انصرف اهتمامهم أحدهم إلى الآخر. وكان الرجال والنساء في كل أرجاء الغرفة يخففون من ملابسهم. وفاحت رائحة العرق بفعل الحرارة.

رمق العديد من النساء وعدد ليس بالقليل من الرجال -الذين لم ينغمس بعضهم في المرح والألاعيب بعد- إتزيو بنظرة مغوية، لكن أولى القليل منهم إتزيو اهتمامه لما توجَّه، مستخدمًا أعمدة الغرفة ستارًا له، نحو المصرفي الذي خلع في تلك اللحظة قبعة البريتا المربعة ورداء الفيرايولو الفخم وثوبه الكهنوتي ليكشف عن جسم نحيل يرتدي قميصًا قطنيًّا أبيض وسروالًا طويلًا ضيقًا. كان هو والفتاة في وضع ما بين الجلوس والاستلقاء على أريكة مظللة وموضوعة في ركن بعيد مخفية إلى حدٍّ ما عن أنظار بقية الضيوف. اقترب إتزيو.

كان المصرفي يقول ويداه المجعدتان تعبثان بطريقة خرقاء بأطراف فستانها: «هل تحظين بليلة ممتعة يا عزيزتي؟».

- أجل يا صاحب السمو، أنا كذلك بالفعل. ثمة الكثير لأتطلع إليه.

قال: «أوه، جيد. لن أبخل بأيِّ مال كما تعلمين». وسال اللعاب من شفتيه على عنقها.

ردَّت وعيناها تلتقيان عينَي إتزيو من فوق كتف المصرفي، محذرة إياه ليبقى بعيدًا في الوقت الحالي: «يمكنني التأكيد على ذلك».

- أجل يا عزيزتي، الأشياء الأجمل في العالم تجعل السلطة مجزية للغاية. فإذا رأيت تفاحة تنمو على شجرة، سأقطفها بكل بساطة. ولا يمكن لأحد منعي.

قالت الفتاة: «حسنًا. إنها تعتمد بعض الشيء إلى مَن ترجع ملكية تلك الشجرة».

قهقه المصرفي، وقال: «لا يبدو أنك تفهمين: *كل* الأشجار ملكي».

- لكن ليست شجرتي يا عزيزي.

تراجع المصرفي قليلًا للخلف، ولما تحدث ثانية، تسللت نبرة شديدة الفتور إلى صوته، وقال: «بالعكس يا حلوتي، لقد رأيتكِ تسرقين جعبة مال مساعدي. وأظن أني استحققت جولة مجانية من أجل توبتكِ. وفي الواقع سأحظى بجولةٍ مجانية ستدوم الليل بطوله».

«مجانية؟». تمنى إتزيو لو أن الفتاة لا تتمادى في تجربة حظها. وجال بنظره في الغرفة. كان عدد من الحراس يقفون حول محيطها على مسافات متباعدة تقدر بخمسة عشر قدمًا، لكن لا يوجد أحد منهم يقف بالقرب. بدا المصرفي واثقًا من نفسه. وربما واثقًا أكثر من اللازم.

ردَّ المصرفي وفي نبرته شيء من التهديد. ثم خطرت له فكرة جديدة، فقال: «هل لديكِ أخت على أيٍّ حال؟».

- لا، لكن لديَّ ابنة.

فكر المصرفي في هذا، وقال: «ثلاثمئة دوك؟».

- سبع.

- أنت تساومين مساومة شديدة، لكن... تمت الصفقة. من دواعي سروري العمل معكِ.

33

مع انقضاء الأمسية، استمع إتزيو للأصوات الماجنة من حوله، «كرر الأمر!»، «لا، لا يمكنك فعل هذا. لن أسمح به!»، كل أصوات الألم والمتعة، كان الألم حقيقيًّا والمتعة مصطنعة.

ولسوء الحظ لم تخبُ طاقة المصرفي، واستمر في العبث مع الفتاة. واستمرت هي في التوسل إلى إتزيو بعينيها حتى يثبت مكانه، وبدت كأنها تقول له: «يمكنني التعامل مع هذا».

ونظر في جنبات الغرفة ثانية، فوجد أن بعض الخدم ومعظم الحراس قد أقنعهم الضيوف بالانضمام إليهم في المرح.

وما لبث أن...

كان المصرفي يقول: «تعالي إلى هنا يا عزيزتي». ودفع الفتاة ليسقطها على الأريكة، ثم أطبق يديه حول رقبتها وراح يخنقها. عانت الفتاة من الاختناق ثم غابت عن الوعي.

وراح يقول لاهثًا وعروق عنقه تنتفخ: «أجل! هذا جميل!». واشتد إطباق أصابعه على عنق الفتاة. وقال: «يجب أن يزيد هذا من متعتك. فهو بالطبع يزيد متعتي».

لم يُودِ المصرفي بحياة الفتاة، إذ رأى إتزيو صعود صدرها وهبوطه.

وحاول المصرفي الوقوف على قدميه، تاركًا إياها منحنية نصفًا على الأريكة ونصفًا في الهواء. ثم أصدر أمرًا لخادمين كانا لا يزالان في الخدمة على مقربة منهما: «تخلصا منها».

وبينما يمضي المصرفي لحفل العربدة الرئيسي، راقبه إتزيو والخادمان وهو ينصرف. وما إن غدا على بُعد مسافة آمنة منهم وانشغل بأمور أخرى، حتى رفع الخدم الفتاة برفق على الأريكة، ووضعا إبريقًا زجاجيًّا مليئًا بالمياه بالقرب منها وغطياها ببطانية من الفرو. ولاحظ أحدهما إتزيو. وضع إتزيو إصبعًا على شفتيه فابتسم الرجل وأومأ. على الأقل كان هناك خير في بؤرة الجحيم اللعينة هذه.

ظل إتزيو يراقب المصرفي وهو يرفع سرواله الطويل الضيق وينتقل من مجموعة إلى أخرى، متمتمًا بتقديره مثل خبير في معرض فني.

وكان يردد من حين لآخر: «أوه، جميل جدًّا». ويقف ليشاهد ثم وصل إلى الباب المطوق بالحديد الذي أتى منه، وطرقه. فتح الباب من الداخل مساعد ثانٍ، كان على الأغلب يقضي كل هذا الوقت في مراجعة الحسابات الجديدة.

لم يمنحهما إتزيو فرصة لإغلاق الباب من خلفهما، وقفز للأمام ودفع كلا الرجلين للداخل. أغلق إتزيو الباب وواجههما. تلعثم المساعد الذي كان رجلًا صغيرًا يرتدي ملابس عمله الرسمية وخرَّ على ركبتيه، وانتشرت بقعة داكنة بين ساقيه قبل أن يغمى عليه. نهض المصرفي. وقال: «أنت! حشاش! لكن لن يدوم هذا». وتسللت يده إلى حبل الجرس، لكن إتزيو كان أسرع منه. فانبثق النصل الخفي وقطع أصابع يد المصرفي التي مدها. أرجع المصرفي يده المشوَّهة التي تتناثر منها ثلاث أصابع على السجادة. وصرخ: «تراجع! اقتلني ولن يُجدي هذا نفعًا. سيقضي عليك تشيزاري. لكن...».

- ماذا؟

ارتسمت علامات الخبث والمكر على وجه الرجل قائلًا: «إن تركتني...».

تبسم إتزيو، ففهم المصرفي وأخذ يعتني بيده المقطوعة. قال ودموع الألم والغضب تلمع في عينيه: «حسنًا، على الأقل لقد عشت

حياتي. ولست نادمًا على الأشياء التي عشتها وشعرت بها وتذوقتها. لست نادمًا على لحظة واحدة من حياتي».

- لقد أغرتك التفاهات التي تمنحها السلطة. والرجل صاحب القوة الحقيقية سيترفع عن مثل هذه الأمور.
- أنا أعطي الناس ما يحتاجون إليه.
- أنت تخدع نفسك.
- خلِّ سبيلي.
- لقد آن أوان تسديد دينك يا صاحب السمو. المتعة غير المستحقة لا تُهلك إلا صاحبها.

خرَّ المصرفي على ركبتيه، متمتمًا بصلوات لا يتذكرها كاملة.

رفع إتزيو النصل الخفي. وقال: «ارقد بسلام».

***

ترك إتزيو الباب مفتوحًا عند مغادرته، وانقضت حفلة العربدة تفوح منها رائحة كريهة. أخذ واحد أو اثنان من الضيوف يتقيؤون بينما يمسكهما الخدم، في حين حمل خادمان آخران جثة، إذ بدا أن كل هذا لم يتحمله قلب أحدهم. فلم يبقَ أحد في الحراسة.

قال صوتٌ ما بجانبه: «نحن جاهزون». فاستدار ليرى كلاوديا. وفي جنبات الغرفة حررت عشرات الفتيات أنفسهن ونهضن. من بينهن، كانت هناك فتاة ارتدت ملابسها مجددًا ويبدو عليها الاضطراب، لكنها عدا ذلك بحالة جيدة، كانت الفتاة التي أساء المصرفي معاملتها. وكان الخادمان اللذان ساعداها يقفان إلى جانبها. ما يعني وجود المزيد من المجندين.

قالت كلاوديا: «اخرج من هنا. سنستعيد المال بالفوائد».

- هل يمكنكِ...؟
- لهذه المرة... فقط، ثق بي يا إتزيو.

34

ورغم أن عقل إتزيو ساورته المخاوف من ترك الأمور في يد شقيقته، فإنه اعترف في قرارة نفسه أنه بالأساس مَن طلب منها القيام بهذه المهمة من أجله. إن الكثير من الأشياء تعتمد على ما ستقوم به، لكنه يُستحسن أن يفعل مثلما قالت ويضع ثقته بها.

كان الجوُّ باردًا في الساعات الأولى من اليوم الجديد. وضع إتزيو قلنسوته وهو يتسلل مارًّا من الحراس الناعسين المتمركزين خارج قصر المصرفي. وتوهجت المشاعل ببطء وبدا المنزل نفسه قديمًا كئيبًا ومتعبًا، مع انطفاء إضاءته الباهرة من الداخل. وعبثت به فكرة ملاحقة رودريغو الذي لم يره منذ مغادرته غاضبًا من على المنصة بعد خطبة تشيزاري، وعلى ما يبدو فإن تشيزاري اختار عدم البقاء في الحفل، لكنه تخلى عن هذه الفكرة. فلم يكن ليقتحم الفاتيكان منفردًا، كما أنه كان متعبًا.

رجع إتزيو إلى جزيرة التيبر لينظف نفسه ويجدد طاقته، لكنه لم يُطِل في القيام بهذا. فقد أراد أن يعرف في أقرب وقت ممكن كيف سارت الأمور مع كلاوديا، حينها فحسب يمكنه أن يرتاح بحق.

سطعت الشمس في الأفق، وتحوَّلت أسطح منازل روما إلى اللون الذهبي بينما كان يقفز فوقها باتجاه ماخور الوردة المتفتحة. ومن موقعه المرتفع رأى عددًا من دوريات آل بورجيا تجوب أرجاء المدينة في

حالة من الاستنفار والحماس الشديدين، بيدَ أن الماخور كان مخفيًّا عن الأنظار، وكان موقعه سرًّا يحافظ عليه عملاؤه، فلا شك أنهم لا يريدون أن يخضعوا لمُساءلة تشيزاري إن علم بالأمر، فلم يستغرب إتزيو أنه لم يجد أيَّ أحد يرتدي زيَّ آل بورجيا في محيطه. ونزل إلى شارع ليس ببعيد ومشى محاولًا عدم الإسراع في طريقه إلى الماخور.

اعتراه شعور بالتوتر عند اقترابه منه رغم ذلك. بالخارج كانت هنالك دلائل على وقوع قتال وتلطخ الرصيف بالدماء. فاستل سيفه ودخل من الباب الذي وجده مواربًا وقلبه يخفق بشدة.

كان الأثاث في حجرة الاستقبال مقلوبًا والمكان تعمه فوضى عارمة. وتبعثرت المزهريات المكسورة على الأرضية ومالت الصور المعلقة على الجدران، التي حوت رسومًا توضيحية رائعة لمشاهد مثيرة من كتاب بوكاشيو. لكن هذا لم يكن كل شيء. استلقت جثث ثلاثة من حراس آل بورجيا في المدخل وتناثرت الدماء في كل مكان. وبينما يتقدم إلى الداخل، أتت إحدى الفتيات لتحيته، كانت الفتاة نفسها التي عانت على يد المصرفي. وغطى الدم فستانها ويديها، إلا أن عينَيها كانتا تلمعان.

- أوه، إتزيو، حمدًا للرب على مجيئك.

قال وأفكاره تتسارع وتنشغل بأمه وأخته: «ما الذي حدث؟».

- لقد هربنا وكان كل شيء على ما يرام، لكن لا بدَّ أن حراس آل بورجيا قد تبِعونا طوال الطريق إلى هنا...

- ما الذي حدث؟

- لقد حاولوا احتجازنا بالداخل كي ينصبوا لنا كمينًا.

- أين كلاوديا وماريا؟

شرعت الفتاة في البكاء الآن، وقالت: «اتبعني».

تقدمته الفتاة باتجاه الساحة الداخلية لماخور الوردة المتفتحة. وتبعها إتزيو ولا يزال الارتياب يتملكه، لكنه لاحظ أن الفتاة غير مسلحة، ورغم ارتباكها، أرشدته إلى الطريق دون خوف. أيُّ نوع من المذبحة حدث...؟ هل قتل الحراس الجميع عداها آخذين المال معهم؟ كيف فرت؟

دفعت الفتاة الباب المؤدي إلى الساحة، حيث وقعت عيناه على منظر مبهج، رغم أنه لم يكن المشهد الذي توقعه.

كان جنود آل بورجيا الذين لاقوا حتفهم مطروحين أرضًا في كل مكان، ومن لم يمت منهم، كان بين مصابٍ إصابة بالغة ومحتضرٍ. ووسط الفتيات، قُرب النافورة، وقفت كلاوديا وفستانها غارق في الدماء، معها خنجر دائري في يد وخنجر صغير في الأخرى. ووقفت معظم الفتيات اللائي رآهن في قصر المصرفي على مقربة منها، وكنَّ مسلحات مثلها. في أحد الجوانب وقفت ماريا يحميها ثلاث من الفتيات، وخلف ماريا لم يكن صندوق واحد معدني مرصوصًا إلى الحائط، بل كانت سبعة صناديق من النوع نفسه الذي أوصله إتزيو إلى المصرفي.

كانت كلاوديا لا تزال متأهبة، شأنها شأن النساء الأخريات، إذ كن يتوقعن موجة أخرى من الهجمات.

قالت: «إتزيو!».

أجابها: «أجل»، رغم أنه كان ينظر إلى حجم الدمار.

- كيف أتيت إلى هنا؟

- من فوق أسطح المباني، من جزيرة التيبر.

- هل رأيت المزيد منهم؟

- الكثير، لكنهم كانوا يدورون حول أنفسهم في حلقات مفرغة. ولم يقترب أحد منهم من هنا.

هدأ بال شقيقته بعض الشيء، وقالت: «جيد، إذن علينا تنظيف الشارع الخارجي وإغلاق الباب. ثم نجد حلًّا لهذه الفوضى».

- هل فقدتم... أيَّ أحد؟

- اثنتين، لوتشيا وآنييلا. وضعناهما في فراشيهما، لقد قاتلتا بشجاعة.

لم ترتجف حتى.

سأل إتزيو مترددًا: «هل أنتِ بخير؟».

أجابت في هدوء: «بأفضل حال. سنحتاج إلى المساعدة للتخلص من هذه الجثث. هل يمكنك استدعاء بعض من مجنديك للمساعدة؟ لقد تركنا أصدقاءنا الجدد، وهم الخدم، خلفنا في القصر، حتى يمكنهم تضليل أيِّ أحد يسأل عنا».

- هل هرب أيُّ فرد من هذه الدورية؟

بدا العبوس على وجه كلاوديا، ولم تخفض أيًّا من سلاحيها بعد، وقالت: «لا أحد. فلن تصل أيُّ أخبار إلى تشيزاري».

اعترى الصمت إتزيو للحظة، فلم تُسمع سوى رشرشة ماء النافورة وزقزقة طيور الصباح.

- منذ متى بدأ الأمر؟

قالت بشبه ابتسامة: «لقد فاتك الحفل للتو».

بادلها الابتسام، وقال: «لا حاجة لي، فأختي تعرف كيف تستخدم السكين».

- وأنا مستعدة للقيام بهذا ثانيةً.

- تتحدثين مثل آل أوديتوري. سامحيني.

- لقد احتجت إلى اختباري.

- أردتُ حمايتكِ.

- كما ترى، يمكنني الاعتناء بنفسي.

- أرى ذلك بالفعل.

أسقطت كلاوديا أسلحتها وأشارت باتجاه صناديق الكنوز، وقالت: «هل هذه فائدة كافية بالنسبة إليك؟».

- أرى أنك قد تتفوقين عليَّ كليةً وأنا شديد الإعجاب بهذا.

- جيد.

ثم فعلا ما كان يرغبان في فعله منذ الدقائق الخمس الماضية، وارتميا بعضهما في حضن بعض.

قالت ماريا وهي تنضم إليهما: «رائع. يطيب لي رؤيتكما تعودان لرشدكما أخيرًا!».

35

- إتزيو!

لم يتوقع إتزيو أن يسمع الصوت المألوف مجددًا بهذه السرعة. ولم يتوقع جانبه التشاؤمي أن يسمعه مطلقًا. غير أنه سُر لحصوله على الرسالة القصيرة المتروكة له في جزيرة التيبر تدعوه إلى هذا اللقاء، وكان سيحضره في طريقه إلى نُزل الثعلب النائم، مقر جمعية اللصوص التي يترأسها الثعلب في روما.

نظر فيما حوله، فلم يجد أحدًا. كانت الشوارع خالية، حتى من الأشخاص المرتدين لأزياء آل بورجيا، إذ إنه كان بالفعل في منطقة استعادها رجال الثعلب.

- ليوناردو؟

أتى الصوت من مدخل مُعتم قائلًا: «أنا هنا!».

مشى إتزيو للطرف المقابل وجذبه ليوناردو إلى الظلال.

- هل هناك مَن يتبعك؟

- لا.

- حمدًا للرب. لقد بذلتُ جهدًا كبيرًا.

- أكنت...؟

- لا يا صديقي، السيد سالاي يحمي ظهري. وإني لأءتمنه على حياتي.

- أهو صديقك؟

- إننا مقربان للغاية.

- احذر يا ليو، يلين قلبك عندما يتعلق الأمر بالرفاق، وهذه نقطة ضعف.

- قد يلين قلبي، لكني لست بأحمق. والآن هيَّا.

جذب ليوناردو إتزيو خارج المدخل بعدما تفحص طرفَي الشارع بعينيه. على بُعد عدة ياردات إلى اليمين، دلف إلى زقاقٍ يمر من بين مبانٍ بلا نوافذ وحوائط بلا معالم لمسافة فيرلونج تقريبًا، في تلك النقطة أصبح الزقاق جزءًا من ثلاثة أزقة أخرى. سلك ليوناردو الزقاق الذي على اليسار، وبعد عدة ياردات أخرى وصلا إلى باب منخفض ضيق مطلي بالأخضر الداكن. فتح الباب، ثم شقَّ كلا الرجلين طريقهما بصعوبة من المدخل، لكن ما إن دلفا إلى الداخل، حتى وجد إتزيو نفسه في قاعة مُقَبَّبة كبيرة. غمر الضوء الطبيعي المكان من نافذة موجودة بالأعلى في الجدران، كانت الغرفة مليئة بطاولات ذات حوامل مزدحمة وينتشر عليها كل أنواع الأغراض: حوامل اللوحات وهياكل عظمية لحيوانات وكتب مغبرة وخرائط نادرة قيِّمة، شأن كل الخرائط -كانت مجموعة الخرائط الخاصة بأخوية الحشاشين في مونترجيوني لا تقدر بثمن، غير أن آل بورجيا بجهلهم قد دمروا غرفة الخرائط برشق المدافع- وأقلامًا رصاصية وأقلامًا وفرشًا وطلاءً وأكوامًا من الأوراق والرسومات المثبتة على الحائط...

اختصارًا، كانت الفوضى المعهودة العادية والمريحة نوعًا ما التي تتسم بها معارض ليوناردو أينما قابلها إتزيو.

قال ليوناردو بفخر: «هذا مكاني الخاص. وهو بعيد قدر الإمكان عن ورشتي الرسمية بالقرب من قلعة سانت آنجيلو. ولا أحد يأتي إلى هنا عداي، وسالاي بالطبع».

- ألا يراقبونك؟

- قاموا بذلك لبعض الوقت، لكني أُجيد التملق عندما أحتاج إليه وقد انطلى عليهم الأمر تمامًا. واستأجرت هذا المكان من كاردينال كنيسة سان بيترو في فانكولي. وهو يعرف كيف يُخفي الأسرار ولا تجمعه صداقة بآل بورجيا.

- هل من ضرر في الاحتياط لمستقبلك؟

- صديقي إتزيو، لا شيء، لا شيء أبدًا يفوتك! والآن لنعُد للعمل، لا أعلم إن كان ثمة شيء يمكنني تقديمه لك، لا بدَّ أن ثمة زجاجة من الخمر في مكانٍ ما.

- دع عنك هذا، لا عليك. فقط أخبرني لمَ أرسلت في طلبي؟

مشى ليوناردو إلى واحدة من الطاولات ذات الحوامل في الجانب الأيمن من القاعة وراح يبحث تحتها، ثم أخرج حافظةً طويلة خشبية مطوقة بالجلد ووضعها على سطح الطاولة.

قال وهو يفتحها بحركة مليئة بالنشاط: «ها نحن أولاء».

كانت الحافظة مبطنة بالمخمل الأرجواني، وقال ليوناردو موضحًا: «فكرة سالاي باركه الرب». حوت الحافظة نسخًا مثالية من أسلحة المخطوطة التي فقدها إتزيو، كان فيها واقي الرسغ لحماية ساعده الأيسر والمسدس الخفي والخنجر المزدوج النصل والنصل السام.

استرسل ليوناردو: «كان واقي الرسغ هو المشكلة الكبرى، إذ شق عليَّ أن أحصل على شبيه لهذا المعدن الاستثنائي. وبناءً على ما أخبرتني به

بخصوص الحادثة التي ضاعت فيها الأسلحة الأصلية، ربما يكون قد بقي على حاله. إن استطعت الحصول عليه...».

قال إتزيو: «وإن بقي على حاله فسيكون مدفونًا تحت أطنان من الحطام. وربما يكون كذلك في قاع البحر». وارتدى واقي الرسغ، وبدا أثقل قليلًا عن القديم، لكن بدا أنه سيفي جدًّا بالغرض. وتابع: «أنا عاجزٌ عن شكرك».

ردَّ ليوناردو: «هذا سهل جدًّا. اشكرني بالمال! لكن هذا ليس كل شيء». وأدخل يده تحت الطاولة مجددًا وأخرج حافظةً أخرى، أكبر من الأولى. وقال: «هذه جديدة، وقد تكون مفيدة من حينٍ لآخر».

فتح الغطاء ليكشف عن قوس سهام خفيف الوزن معه مجموعة سهام ومجموعة إبر سامة وقفاز جلدي مدرع بالزرد.

قال ليوناردو: «إن الإبر سامة، فلا تلمس أسنتها بيديك العاريتين. وإن استطعت استردادها من، عفوًا، هدفك، ستجد أنها قابلة للاستخدام مجددًا لاثنتي عشرة مرة».

- والقفاز؟

تبسم ليوناردو: «أنا أشدُّ فخرًا بهذا. سيساعدك هذا على التسلق على أيِّ سطح بسهولة. وهو سيفيدك جدًّا لو تحولت إلى وزغ». وأطرق مضطربًا، ثم استطرد: «لم نجربه في الواقع على الزجاج، لكن أشك أنك ستقابل سطحًا بهذه النعومة». أحجم عن الكلام ثانيةً، ثم قال: «القوس هو قوس عادي، لكنه بسيط وخفيف. وما يميزه هو أنه فعَّال شأنه شأن تلك الأشياء الثقيلة والتي تحل محلها مسدساتي ذات القفل الدولابي، سامحني، وبالطبع الميزة التي تختص به عن المسدس هي أنه لا يُصدر صوتًا تقريبًا».

- لا يمكنني حمل تلك الأشياء معي الآن.

هزَّ ليوناردو كتفيه، وقال: «لا بأس. سوف نوصلها إليك. إلى جزيرة التيبر؟».

فكر إتزيو: «لا. ثمة ماخور يسمى الوردة المتفتحة. إنه موجود في حيٍّ مونتيم إت بيبيراتيس، قرب الساحة القديمة ذات العمود».

- سنجدها.

قال إتزيو: «اتركها مع أختي كلاوديا. هل تسمح لي؟»، وأخذ إتزيو ورقة وخطَّ فيها بعض الأشياء، ثم قال: «أعطِها هذه. لقد رسمت موقع الماخور، إذ يصعب العثور عليه. سأعطيك المال في أقرب وقتٍ ممكن».

- خمسة آلاف دوك.

- كم؟

- هذه الأشياء ليست رخيصة...

زمَّ إتزيو شفتيه، وقال: «حسنًا». وأخذ الرسالة مرة أخرى وكتب فيها سطرًا إضافيًّا. وأردف: «لقد وجدنا مؤخرًا بعض... الأموال الجديدة وغير المتوقعة. ستدفع لك شقيقتي. واسمع يا ليو، عليَّ الوثوق بك. لا تتفوه بأي كلمة لأي أحدٍ آخر».

- ولا حتى سالاي؟

- سالاي إن اضطررت إلى ذلك، لكن إن اكتشف آل بورجيا مكان الماخور، فسأقتل سالاي وأقتلك يا صديقي.

تبسم ليوناردو، وقال: «أعلم أن تلك أوقات عصيبة يا عزيزي، لكن متى، متى خذلتك من قبل؟».

***

ودَّع إتزيو صديقه بشعور من الرضا، وأكمل طريقه إلى نُزل الثعلب النائم. كان قد تأخر، إلا أن الاجتماع مع ليوناردو استحق ذلك.

مشى إتزيو في الساحة، سعيدًا لرؤية عمل النزل يواصل ازدهاره، وكان على وشك التعريف بنفسه للصوص الواقفين في الحراسة على كلا جانبَي الباب المكتوب عليه *المكتب* عندما خرج الثعلب على ما يبدو من مكانٍ مجهول، لطالما برع في هذا.

- صباح الخير يا إتزيو!

- مرحبًا يا جيلبرتو!

- لقد سرني مجيئك. ما الذي تريده؟

- لنجلس في مكانٍ ما هادئ.

- في المكتب؟

- لنجلس هنا. فما سأقوله لا ينبغي أن يسمعه أحد غيرك.

- جيد، لأني كذلك لديَّ شيء أقوله لك وينبغي أن يبقى بيننا، في الوقت الحالي.

جلسا إلى طاولة في حانة خالية تقريبًا داخل النزل، بعيدًا عن المقامرين وشاربي الخمر.

قال إتزيو: «حان الأوان لزيارة حبيب لوكريتزيا، بيترو».

- جيد، لديَّ رجال يبحثون عنه في الخارج.

- جيد جدًّا، لكن الممثل الذي يعمل لا ينبغي أن يكون العثور عليه صعبًا لهذه الدرجة، وهذا الممثل مشهور.

هزَّ الثعلب رأسه، وقال: «إنه مشهور بما يكفي ليكون لديه حراسه الشخصيون. ونظن أنه قد اختبأ لأنه خائف من تشيزاري».

- هذا منطقي. حسنًا، ابذل كل ما في وسعك. ما الذي يدور في خاطرك؟

بدا الثعلب محبطًا مترددًا للحظة، ثم قال: «إنه موضوعٌ حساس... يا إتزيو، إن جاز لي أن...».

- ما الأمر؟

- لقد حذَّر أحدهم رودريغو بالابتعاد عن قلعة سانت آنجيلو.

- وتعتقد أن أحدهم هذا... ماكيافيلي؟

صمت الثعلب.

وألحَّ عليه بالسؤال: «هل تملك دليلًا؟».

- لا، لكن...

- أعلم أن ماكيافيلي يضايقك، لكن اسمع يا جيلبرتو، علينا ألا ندع الشكوك تُفرق بيننا.

في تلك اللحظة انفتح الباب بعنف وقاطع حديثهما وصول لصٍّ مجروح دخل مترنحًا إلى الغرفة، وهتف: «أخبار سيئة! يعرف آل بورجيا أماكن جواسيسنا!».

صاح الثعلب واقفًا: «مَن أخبرهم؟».

- كان السيد ماكيافيلي يسأل عن بحثنا عن الممثل بيترو في وقتٍ مبكر من اليوم.

قبض الثعلب يده بقوة، وقال في هدوء: «إتزيو؟».

قال اللص: «لقد أمسكوا بأربعة من رجالنا واحتجزوهم. لقد كنتُ محظوظًا بفراري».

- أين هم؟

- ليسوا ببعيد عن هنا، بالقرب من كنيسة سانتا ماريا ديلورتو.

هتف الثعلب لإتزيو: «أسرع!».

في غضون دقائق، أعد رجال الثعلب حصانين وانطلق الحشاشَان من إسطبلات الثعلب النائم بسرعة فائقة.

قال إتزيو بإصرار بينما ينطلقان: «ما زلت لا أصدق أن ماكيافيلي قد تحول إلى خائن».

ردَّ الثعلب بحدة: «لقد سكن لفترةٍ حتى يبدد شكوكنا. لكن انظر إلى الحقائق، في البداية الهجوم على مونترجيوني، ثم الأمر الذي حدث في قلعة سانت آنجيلو، وهذا الذي حدث الآن. إنه المُدبر لكل هذا».

- انطلِق فحسب! انطلِق بأقصى سرعتك! ربما لا يزال بوسعنا إنقاذهم.

وانطلقا بحصانهما بسرعةٍ جنونية عشوائية عبر الشوارع الضيقة، كابحين فرسيهما أحيانًا ومندفعين أحيانًا أخرى في حرصهما على تجنب إصابة الناس وتحطيم أكشاك الأسواق في طرقهما. وتفرق أمامهما الناس والدجاج على حدٍّ سواء، لكن عندما حاول حراس آل بورجيا أن يحجبوا طريقهما مُشهرين المطارد، داسوهم بلا شعور بالذنب.

ووصلا إلى المكان الذي أشار إليه اللص المجروح في غضون سبع دقائق، ورأيا الملابس الرسمية لحراس آل بورجيا وهما يستعدان لنقل اللصوص الأربعة المقبوض عليهم في عربة مُغطاة، بينما يضربونهم برمانات سيوفهم ويوبخونهم. وفي لمحة عين، انقضَّ عليهم إتزيو والثعلب مثل آلهة الانتقام فيوريز.

وأدارا حصانيهما وهما مستلَّين سيفيهما بمهارة بين الحراس، وعزلاهم عن أسراهم وفرقاهم في الساحة الموجودة أمام الكنيسة. أحكم الثعلب قبضته على سيفه بيمناه، وترك زمام الحصان من يسراه وتشبث في الحصان بفخذيه، وأدار الحصان باتجاه العربة، ثم اقتنص سوط السائق وضرب بقوة على جانبَي الأحصنة المعلقة في مجرِّ العربة. فشبَّت

الأحصنة وصهلت، ثم أطلقت سيقانها للريح في الوقت الذي يحاول سائق العربة بشدة أن يُحكم سيطرته عليها بلا جدوى. رمى الثعلب بالسوط جانبًا وكاد يسقط، فأمسك بزمام خيله مجددًا وأدار حصانه ليلحق بإتزيو، الذي حاوطه خمسة حراس كانوا يسددون الطعنات لحصانه في الصدر والجوانب بمطاردهم. ضربهم الثعلب بسيفه، مانحًا إتزيو وقتًا كافيًا ليتحرر من فخهم ويبقر بطن أقرب حارس إليه. ودار بحصانه مجددًا في دائرة ضيقة، ولوح بسيفه ثانية ففصل بدقة رأس حارس آخر عن جسده، في حين كانت البقية بين جريح وفارٍّ.

هتف الثعلب لرجاله: «اهربوا يا خنازير! ارجعوا إلى المقر! الآن! سنلحق بكم هناك!».

تجمع اللصوص الأربعة وانطلقوا سريعًا عبر الشارع الرئيسي من الساحة، متسللين بسرعة من بين الحشد الذي تجمع لمشاهدة القتال. ولحق بهم إتزيو والثعلب، وقادوهم للطريق حرصًا على وصولهم جميعًا بأمان.

وشقوا طريقهم باتجاه نزل الثعلب النائم عبر مدخل جانبي سري وسرعان ما تجمعوا في الحانة، التي عُلق على أبوابها الآن لافتة «مغلق». وطلب الثعلب الخمر لرجاله، لكن لم ينتظر وصوله قبل أن يبدأ استجواباته لهم.

- ما الذي توصلتم إليه؟

- حِيكت خطة يا رئيسي لقتل الممثل هذا المساء. سيبعث تشيزاري «جزاره» لينفذ الأمر.

سأل إتزيو: «ومَن يكون هذا الشخص؟».

ردَّ الثعلب قائلًا: «لقد رأيته. ميكيليتو دي كوريلا. لا يمكن لأحد نسيان مثل هذا الوجه».

بالطبع، تذكرت عين إتزيو الداخلية الرجل الذي شُوهد عن يمين تشيزاري في مونترجيوني، ومرة أخرى في الإسطبلات في قلعة سانت آنجيلو. كان له وجه قاسٍ ومشوه بدا أكبر بكثير مما عليه عمر صاحبه، وبه ندوب بشعة قُرب فمه منحته مظهرًا ترتسم فيه ابتسامة دائمة ساخرة على وجهه. ميكيليتو دي كوريلا. في الأصل كان ميغيل دي كوريلا. كوريلا، هل منطقة نَبْرة التي تنتج مثل هذا النبيذ الطيب، تنتج حقًّا مثل هذا المُعذِّب والقاتل؟

قال الثعلب: «إن بإمكانه قتل الشخص بمئة وخمسين طريقة مختلفة، لكن طريقته المفضلة هي الخنق». أطرق الثعلب ثم قال: «إنه بلا ريب أكثر القتلة براعة في روما. فلا أحد يفلت من يديه».

قال إتزيو: «لنأمل أن تكون الليلة هي المرة الأولى».

سأل الثعلب اللصوص: «أين ستكون هذه الأمسية؟ أتعرفون؟».

- يؤدي بيترو دورًا في مسرحيةٍ دينية هذه الأمسية. وهو يتدرب في موقع سري.

- لا بدَّ أنه مرعوب، ثم؟

قال أحد اللصوص وضحك من الفكرة: «إنه يؤدي دور المسيح». فحدق فيه الثعلب في غضب، وتابع الرجل الذي كان يتحدث كلامه: «من المفترض أن يُعلق على الصليب. سيهجم عليه ميكيليتو برمح ويطعن جنبه، لكنه لن يكون مشهدًا تمثيليًّا».

- أتعرف أين بيترو؟

هزَّ اللص رأسه، وقال: «لا يمكنني إخبارك بهذا. لم ننجح في معرفة هذا الأمر. لكننا على علم بأن ميكيليتو سينتظر في حمامات الإمبراطور تراجان القديمة».

- حمامات تراجان؟

- أجل، نعتقد أن الخطة هي أن ميكيليتو ينوي أن يتنكر رجاله في ملابس تنكرية، ويجعلون القتل يبدو حادثًا عرضيًّا.

- لكن أين موقع العرض؟

- لا نعرف، لكن لا يمكن أن يَبعد عن المكان الذي سينتظر فيه ميكيليتو رجاله ليتجمعوا.

قرر إتزيو قائلًا: «سأذهب إلى هناك وأراقبه. سيقودني إلى مكان لوكريتزيا».

سأل الثعلب رجاله: «هل من شيءٍ آخر؟».

هزوا رؤوسهم، وحينها أتى مقدم الطعام، محضرًا صينية تحتوي على الخمر والخبز والسلامي والذي أقبل عليه اللصوص بامتنان. سحب الثعلب إتزيو إلى أحد الجوانب.

وقال وهو يرفع يده: «أنا آسف يا إتزيو لكني مقتنع بأن ماكيافيلي قد خاننا. وأيًّا ما تقُل فلن يُقنعني بعكس ذلك. وأعرف أن كلينا يتمنى نكران ذلك، لكن الحقيقة واضحة الآن. وفي رأيي، علينا... القيام بما يتطلبه الأمر». أحجم عن الكلام، ثم أضاف: «وإن لم تفعل، فسأفعل أنا».

- أتفهَّم هذا.

- وثمة شيءٍ آخر يا إتزيو. يعلم الرب أني مخلص، لكني كذلك أفكر في رفاهية رجالي. فإلى أن ينقضي هذا الأمر، فلن أُعرض رجالي لخطر غير ضروري بعد الآن.

- لك أولوياتك يا جيلبرتو، ولي أولوياتي كذلك.

غادر إتزيو ليُعد نفسه لعمل هذا المساء. واستعار حصانًا من الثعلب وشقَّ طريقه مباشرة إلى ماخور الوردة المتفتحة، حيث استقبلته كلاوديا قائلةً: «لديك طرد».

- حقًّا؟

- رجلان كلاهما أنيق. أحدهما صغير للغاية وله مظهر خدَّاع، والآخر شديد الوسامة. والآخر بدا بعمر الخمسين، أكبر منك ببضع سنوات على أيٍّ حال. وقد تذكرته بالطبع، صديقك القديم ليوناردو، لكنه تحلى بالرسمية الشديدة. وأعطاني هذه الرسالة ودفعتُ له.

- تمَّ هذا بسرعة.

تبسمت كلاوديا، وقالت: «قال إنه يعتقد أنك تُقدر التسليم السريع».

بادلها إتزيو الابتسام. سينفع في مواجهة أشرار الليلة، مسلحًا ببعض من أصدقائه القدامى، أسلحة المخطوطة، وتخيل أن رجال ميكيليتو سيكونون متدربين على مستوًى عالٍ جدًّا. لكنه سيحتاج إلى دعمٍ احتياطي كذلك، وعَرف من سلوك الثعلب أنه لا يمكنه الاعتماد على استعارة مجموعة من اللصوص.

وتحولت أفكاره إلى مليشياته الخاصة من المجندين الجدد. فقد حان الوقت لاختبار مهاراتهم.



36

وعلى غير علم من إتزيو، كان لدى السيد كوريلا عمل آخر صغير يؤديه لسيده قبل الحدث الرئيسي للأمسية. ولكن كان الوقت لا يزال مبكرًا.

وقف في صمت عند مرسى مهجور بالقرب من نهر التيبر. ورست بعض البوارج وسفينتان في المرسى، وأخذت تتحرك بخفة مع جريان النهر. تمايلت أشرعة السفينتين البالية الملفوفة قليلًا بفعل الرياح. وكانت مجموعة من الحراس ترتدي شارة تشيزاري آتية نحوهما، ومعه رجل مُغمى العينين يحملونه تارة ويجرونه تارة أخرى. وتقدمهم تشيزاري بنفسه.

تبيَّن لإتزيو أن الرجل بلا استغراب هو فرانشيسكو تروكي.

أخذ فرانشيسكو يتوسل قائلًا: «رجاءً، لم أُخطئ في شيء».

قال تشيزاري: «صديقي العزيز فرانشيسكو، الحقائق واضحة، لقد أخبرت أخاك عن خططي بخصوص منطقة رومانيا، وأجرى اتصالات مع سفير البندقية».

- لقد كان عن طريق الصدفة، وأنا ما زلت خادمك وحليفك.

- هل تطالبني أن أغضَّ الطرف عن الأفعال، وأنظر فحسب إلى الصداقة.

- أنا... أطلب لا أطالب.

- عزيزي فرانشيسكو، من أجل أن أوحد إيطاليا لا بدَّ لي من أن أُحكم سيطرتي على كل مؤسسة. أتعرف أي منظمة عُليا نخدمها، جماعة فرسان الهيكل التي أترأسها الآن.

- ظننت أن والدك...

تابع تشيزاري بحزم: «وإن لم تسقط الكنيسة بالتوازي مع هذا، فسوف أقضي عليها تمامًا».

- لكنك تعلم أني أعمل لصالحك أنت وليس لصالح البابا.

- أوه، هل أفعل أنا هذا يا تروكي؟ هناك طريقة واحدة أتأكد بها يقينًا من هذا الآن.

- بالتأكيد أنت لا تعتزم قتلي،فأنا صديقك المخلص؟

ابتسم تشيزاري، وقال: «بالطبع لا».

وفرقع بأصابعه. فظهر ميكيليتو من وراء ظهر فرانشيسكو في صمت.

قال تروكي بصوت يفيض بالارتياح: «أنت... أنت تُطلق سراحي؟ أشكرك من خالص قلبي. لن تندم أبدًا على هذا...».

إلا أن كلماته قُوطِعت حيث مال ميكيليتو للأمام بحبلٍ رفيع ملفوف بين يديه ولفه حول عنقه. شاهده إتزيو للحظة، لكن حتى من قبل أن تفيض كامل روح فرانشيسكو، التفت لقائد الحرس، وقال: «هل جهزت الأزياء التنكرية للمسرحية؟».

- أجل سيدي!

- إذن أعطِ ميكيليتو إياها عندما ينتهي.

- أجل سيدي!

- لوكريتزيا لي وحدي، وحدي فقط. لم أكن أظن أنها بهذا القدر من الأهمية عندي، لكن عندما تلقيتُ هذه الرسالة في أوربينو من أحد

رجالها الشخصيين أن هذا الممثل الحقير المثير للاشمئزاز كان يعبث معها ويفتتن بها، عدت من فوري. هل يمكنك أن تفهم حبًّا مثل هذا أيها القائد؟

- أجل يا سيدي!

- أنت أحمق، هل انتهيت يا ميكيليتو؟

- الرجل مات يا سيدي.

- إذن أثقل جسده بالحجارة وارمه في نهر التيبر.

- سمعًا وطاعة يا تشيزاري.

أعطى القائد رجاله الأوامر، وذهب أربعة منهم لإحضار سلَّتين كبيرتين من الخوص حملوهما فيما بينهم.

- ها هي الأزياء التنكرية من أجل رجالك. تأكد تمام التأكد من إتمام العمل على أكمل وجه.

- بالتأكيد يا سيدي.

مشى تشيزاري متبخترًا، تاركًا وراءه، مرؤوسه للقيام بترتيباته. وبإشارة منه لأتباعه، تقدم ميكيليتو الطريق باتجاه حمامات تراجان.

***

كان إتزيو وعصبته من المجندين في الحمامات بالفعل، مختبئين في حِمى رواق معمد مهدم. ولاحظ أن عددًا من الرجال المتشحين بالسواد قد تجمعوا بالفعل، وشاهدهم عن كثب حتى ظهر ميكيليتو. وضع الرجال سلَّتَي الملابس التنكرية وأشار لهم ميكيليتو بالمغادرة. كانت الظلال عميقة، وأشار إتزيو إلى الرجال بالاستعداد. وثبت واقي الرسغ على ساعده الأيسر والنصل السام على ساعده الأيمن.

شَكل رجال ميكيليتو صفًّا، وأتى كل رجل إلى قائده ليسلِّمه زيًّا تنكريًّا، كانت أزياءً رسمية على طراز الملابس التي كان يرتديها جنود الفيالق الرومانية في زمن المسيح. لاحظة إتزيو أن ميكيليتو نفسه يرتدي زِيَّ ضابط روماني قائد مئة.

وحينما ابتعد كل رجل ليرتدي زيَّه، وقف إتزيو على أهبة الاستعداد. وفي صمت أطلق النصل السام المخفي الذي أعاد ليوناردو صناعته له. فسقط المجرمون غير المتوجسين دون أن يصدروا همسة واحدة، ثم ارتدى مجندوه الملابس المسرحية وسحبوا جثث أتباع ميكيليتو بعيدًا عن الأعين.

ولانشغاله في عمله، لم يدرك ميكيليتو أن الرجال الذين أملى عليهم الأوامر الآن لم يكونوا رجاله، لأن الجميع ارتدوا الأزياء التنكرية. تقدمهم وكان إتزيو خلفه بمسافة قريبة باتجاه مدرج الكولوسيوم.

نُصب مسرح في أطلال المسرح الروماني القديم، حيث إنه منذ عهد الإمبراطور تيتوس، قاتل الجلادون كل واحدٍ منهم الآخر حتى الموت وقتل الجلادون عشرات المئات من الحيوانات الوحشية، ورُمي المسيحيون للأسود. كان مكانًا كئيبًا، بيدَ أن تلك الكآبة بددتها مئات المشاعل الوامضة التي أضاءت المسرح، في حين أن الجمهور اصطفَّ على المقاعد في المدرج الخشبي المسقوف، حيث انصرف اهتمامهم بمشاهدة مسرحية عن آلام المسيح.

قال ميكيليتو للحاجب وأخرج له تصريحًا: «أريد بيترو بينتندي».

ردَّ الحاجب قائلًا: «إنه يمثل على المسرح يا سيدي. ولكن سيأخذ أحد رجالي إلى مكان بإمكانك انتظاره فيه».

التفت ميكيليتو إلى ’رفاقه‘، وقال لهم: «لا تنسوا، سأرتدي تلك العباءة ذات النجمة البيضاء على كتفها. احموا ظهري وانتظروا إشارتي، التي ستكون أمر بيلاطس البنطي للضابط قائد المئة ليضرب».

فكر إتزيو وهو يسير في نهاية المجموعة وهم يتبعون قائدهم إلى مدرج الكولوسيوم: *عليَّ الوصول إلى بيترو قبل أن يصل إليه.*

على المسرح، نُصبت ثلاثة صلبان. وشاهد إتزيو مجنديه ينتظمون حسب أوامر ميكيليتو، وميكيليتو نفسه اتخذ لنفسه موضعًا في أجنحة الكواليس.

كانت المسرحية تصل إلى الذروة:

صرخ بيترو من على الصليب: «إلهي يا إلهي، لمَ تركتني؟».

قال أحد الممثلين المؤدين دور أحد الفريسيين: «اسمعوا إنه ينادي إيليا ليُخلصه!».

وغمس واحدٌ ممن يرتدون زيَّ جندي روماني إسفنجة في الخل ووضعها على سنِّ رمحه، وقال: «انتظروا ولتروا إذا ما تجرأ إيليا على المجيء أم لا».

هتف بيترو: «عطشي شديد، عطشي شديد».

رفع الجندي الإسفنجة إلى شفتَي بيترو.

وقال واحدٌ آخر من الفرسيين: «أجل، لن تشرب بعد الآن».

رفع بيترو رأسه وقال: «يا إلهي العظيم في جلالته لن أوقف إرادتك. أيُّها الرَّبُّ، في يديك أستودع روحي، فتقبلها». وتنهَّد بيترو تنهيدة شديدة. وقال: «تمَّ كلُّ شيء!».

وسقط رأسه، وأسلم المسيح الروح.

وعند إشارته دخل ميكيليتو إلى المسرح، ومن تحت عباءته السوداء المنسدلة وراء ظهره يلمع زي ضابط قائد المئة. وتساءل إتزيو وهو يشاهده عن مصير الممثل الأصلي الذي يلعب دور قائد المئة، لكنه تخيل أن مصيره كان شبيهًا بمعظم ضحايا ميكيليتو.

وتلا ميكيليتو في جرأة: «أيها السادة أقول لكم. حقًّا كان هذا الإنسان ابن الله. أعرف أنه كذلك بالتأكيد. أعرف من طريقة صراخه أنه قد حقق النبوءة، وأن الربوبية قد أُوحيت إليه!».

قال الممثل الذي يلعب دور قيافا: «ولأن الرب منحني السرعة، فإن حماقتك كبيرة بلا شك. أنت لا تفهم! عندما ترى قلبه ينزف، سنرى حينها ما الذي تقوله. أمسك الحربة يا لونجينوس بيديك».

ناول قيافا رمحًا خشبيًّا للممثل القائم بدور الجندي الروماني لونجينوس، رجل ضخم الجثة له شعر منسدل، فكر إتزيو: *يبدو أنه مفضل لدى الجمهور وبلا ريب خصمٌ شديد لبيترو.*

وأضاف أحد الفارسيين مؤكدًا: «خذ هذه الحربة واحذر. عليك طعن جانب يسوع الناصري حتى نتأكد من أنه قد فاضت روحه حقًّا».

قال لونجينوس: «سأفعل ما تأمرني به، لكن على رؤوسكم يكون الوبال. فأيًّا ما تكُن العواقب، فأنا أغسل يديَّ منها».

ثم قدَّما عرضًا تمثيليًّا لطعن جانب يسوع بحربةٍ مزيفة، ولما انسكب الدم والماء من كيس مخبأ في مئزر بيترو، بدأ لونجينوس خطبته. ورأى إتزيو لمعة في عينَي «يسوع الميت» الصغيرتين لما رأى بيترو الممثل الآخر وشعر بالحقد.

«يا ملك السماء الأعلى، أراك هنا. دع الماء ينسكب في يديَّ وعلى حربتي واغسل عينَيَّ بها كذلك حتى يمكنني رؤيتك بوضوح». ثم سكت سكتة درامية وأردف: «آه، فالأسى والحزن هما أنا! ما تلك الفعلة التي

اقترفتها؟ أظن أني قتلت رجلًا، حقًّا، لكني أي نوع من الرجال لا أعرف. أيها الرب الإله الذي في السماء، ألتمس رحمتك، فقد كان جسدي الذي أرشد يديَّ، وليست روحي». وسكت سكتة أخرى بسبب موجة التصفيق، وواصل بمشقة قائلًا: «يا يسوع الرب لقد سمعت عنك الكثير، فإنك قد شفيت برحمتك المرضى والعميان. وليُسبح باسمك! لأنك شفيتني اليوم من عماي، عمى روحي. ولذلك يا ربي، سأتبعك. وفي ثلاثة أيام ستقوم ثانيةً وتحكمنا وتحكم علينا جميعًا».

ثم تحدث الممثل الذي كان يؤدي دور يوسف الرامي، القائد اليهودي الثري الذي تبرع بقبره الذي بناه لنفسه من أجل أن يسكن فيه جسد المسيح: «آه، إلهي الرب أيَّ قلب تملك لتسمح لهم بقتل هذا الرجل الذي أراه ميتًا هنا ومعلقًا على الصليب، رجل لم يقترف خطأً قط؟ لأنه هو ابن الله. ولذلك، سيدفن جسده في القبر الذي بنيته لنفسي، لأنه ملك النعيم».

أضاف نيقوديموس، رفيق يوسف في السنهدرين، ويشاركه التعاطف: «سيد يوسف، أقول بكل تأكيد إن هذا ابن الله القدير. دعنا نطلب جسده من بيلاطس البنطي. وندفنه دفن النبلاء. وسأساعدك على إنزاله بكل قلبي».

التفت يوسف إلى الممثل المؤدي لدور بيلاطس، وتحدث ثانيةً: «سيدي بيلاطس، أطلب منك طلبًا خاصًّا تمنحه لي بملء إرادتك. هذا النبي قد مات اليوم، فاسمح لي بأخذ جسده».

وبينما وقف ميكيليتو بالقرب من الصليب المركزي، تسلل إتزيو للكواليس. وبحث في سلة الأزياء ووجد رداءً لحاخام، وارتداه سريعًا. وعاد إلى المسرح من الجهة اليسرى للكواليس، وتمكَّن من التسلل خلف ميكيليتو دون أن يلاحظ أيُّ أحد أو أن يتوقف العرض للحظة.

«يا يوسف لو أن يسوع الناصري قد مات حقًّا، كما سيؤكد قائد المئة، فلن أمنعك من أخذه». والتفت بيلاطس إلى ميكيليتو، وقال: «يا قائد المئة! هل مات يسوع؟».

قال ميكيليتو بنبرةٍ فاترة: «أجل يا سيدي»، ولاحظ إتزيو أنه يسحب خنجرًا صغيرًا من تحت عباءته. وكان إتزيو قد بدَّل النصل السام لأنه قد فرغ من السم، بالنصل الخفي الموثوق، وطعن به جانب ميكيليتو، ورفعه عاليًا وجره خارج المسرح في الاتجاه الذي أتى منه. وما إن أصبحوا في الكواليس، حتى وضع الرجل أرضًا.

نظر ميكيليتو نظرة ثابتة لامعة، وقال: «هاه! لا يمكنك إنقاذ بيترو. فالخل الذي كان في الإسفنجة مسمم. فكما وعدت تشيزاري، فإني أتأكد تمام التأكد من إتمام عملي». وجاهد لالتقاط أنفاسه: «يُفضل لك إنهاء حياتي».

- لم آتِ إلى هنا كي أقتلك، لقد ساعدت سيدك في علو شأنه، وستسقط معه. أنت لا تحتاج إليَّ، فدمارك سيكون على يديك. إن عشت، حسنًا، فالكلب يعود دائمًا إلى سيده، وستقودني إلى فريستي الحقيقيَّة.

لم يسمح الوقت لإتزيو بالخوض في مثل هذا الكلام، فعليه إنقاذ بيترو.

ولما أسرع بالعودة إلى المسرح، رأى مشهدًا فوضويًّا. كان بيترو يتلوى على الصليب ويتقيأ وتحول لونه إلى لون اللوز المقشور. واعترت الجمهور حالة من الهياج.

هتف لونجينوس بينما تفرق الممثلون الآخرون: «ما الذي يحدث؟ ما الذي يجري؟».

صرخ إتزيو إلى مجنديه: «أنزلوه!». صوب بعضهم خناجرهم بدقة ليقطعوا الحبال التي تربط بيترو بالصليب، في حين وقف الآخرون ليمسكوا به. ولا يزال المزيد يقاتلون حراس آل بورجيا الذين ظهروا فجأة واقتحموا المسرح.

تمتم بيترو وهو يسقط بين أيدي المجندين: «لم يكن هذا ضمن النص!».

سأل لونجينوس مؤملًا، فنقصان المنافسين واحدًا هو دائمًا خبرٌ سار لا سيما في مهنة صعبة: «هل سيموت؟».

هتف إتزيو: «أوقِفوا الحراس!»، وقاد المجندين خارج المسرح وحمل بيترو بين ذراعيه مارًّا ببركة ضحلة من المياه في منتصف الكولوسيوم، ما أزعج العشرات من الحمامات التي تشرب منها، فطارت مبتعدة مذعورة. وغمر آخر بريق لشمس الغروب إتزيو وبيترو بضوء أحمر باهت.

لقد أحسن إتزيو تدريب مجنديه، فمَن كانوا في المؤخرة نجحوا في التصدي لحراس آل بورجيا الملاحقين لهم بينما سلك البقية طريقهم خارجين من الكولوسيوم إلى شبكة الشوارع في الشمال. قاد إتزيو الطريق إلى بيت طبيب من معارفه. ودقَّ على الباب، ولما مُنح إذنًا مترددًا بالدخول، أرقد بيترو على طاولة مغطاة بفرش من القش في غرفة استشارة الطبيب، والتي تدلى من عوارضها عدد كبير من الأعشاب المجففة في عناقيد منظمة، ما جعل الغرفة تفوح برائحة نفاذة. وعلى الأرفف طفت أشياء ومخلوقات وأجزاء من مخلوقات غير قابلة للتعريف أو الذكر في زجاجات تحتوي على سائل عكِر.

أمر إتزيو رجاله بالبقاء بالخارج من أجل الحراسة. وتساءل عما قد يظنه أيُّ مارٍّ إن رأى مجموعة من الجنود الرومان. فعلى الأرجح

سيظنون أنهم قد رأوا أشباحًا وسيفرُّون مبتعدين من الخوف. فهو نفسه قد مزَّق زيَّه الفريسي عند أول فرصة.

تمتم بيترو: «مَن أنت؟». واعترى إتزيو القلق لرؤيته شفتَي الممثل وقد تحولتا للون الأزرق.

قال إتزيو: «مُخلِّصك». ثم قال للطبيب: «لقد تسمم أيها الطبيب برونليسكي».

تفحص برونليسكي الممثل سريعًا، وسلَّط ضوءًا على عينيه. وقال: «يبدو من الشحوب أنهم قد استخدموا سُم الكانتريلا. إنه السمُّ المفضل لدى أسيادنا الأعزاء، آل بورجيا». ثم توجه لبيترو بالحديث، وقال: «استلقِ بلا حراك».

قال بيترو: «أشعر بالنعاس».

قال برونليسكي بينما يسأل إتزيو: « استلقِ بلا حراك! هل تقيأ؟».

- أجل.

قال الطبيب: «جيد». وانشغل في خلط السوائل من زجاجات مختلفة الألوان بسهولة متقنة وصبَّ الخليط في قنينة. وناول بيترو إياها وهو يرفع رأسه للأعلى.

- اشرب هذا.

قال إتزيو بإلحاح: «أسرِع».

- أمهِله لحظة فحسب.

راقبه إتزيو في قلق، وبعد ما بدا دهرًا من الزمن، جلس الممثل.

وقال: «أظن أني أشعر بتحسن بسيط».

قال إتزيو بارتياح: «رائع!».

قال الطبيب: «ليس بالتحسن الكبير في الواقع، لا يمكن أن يكون قد تناول الكثير من السم، وتكفيرًا عن ذنوبي فلديَّ خبرة ليست بالقليلة مع ضحايا الكانتريلا مكَّنتني من تطوير ترياق فعال نوعًا ما». وقال متابعًا حديثه بنبرة حكيمة: «والآن سأضع بعضًا من العلق سيشفيه شفاءً تامًّا. يمكنك الارتياح هنا يا فتى وعما قريب ستتحسن صحتك». وانشغل الطبيب ثانيةً وأخرج جرَّة زجاجية مليئة بكائنات سوداء تتلوى. فغرف منها غرفة.

قال بيترو لإتزيو: «لا يسعني شكرك بالقدر الكافي. أنا...».

قال إتزيو بنبرةٍ حادة: «*يسعك* شكري بالقدر الكافي. مفتاح البوابة الصغيرة الذي تستخدمه من أجل لقاءات الغرام في قلعة سانت آنجيلو مع لوكريتزيا. أعطني إياه الآن!».

بدت معالم التوجس تظهر على وجه بيترو، وقال: «ما الذي تتحدث عنه؟ أنا مجرد ممثل بائس ضحية الظروف... أنا...».

- اسمع يا بيترو، إن تشيزاري قد علم بأمرك أنت ولوكريتزيا.

وحلَّ الخوف محل التوجس الآن، وقال: «أوه يا إلهي!».

- لكن يمكنني مساعدتك. إن أعطيتني المفتاح.

ودون أن ينبس ببنت شفة، مدَّ بيترو يده في مئزره وأعطاه إياه. وقال: «دائمًا ما أُبقيه بحوزتي».

قال إتزيو وهو يضع المفتاح في جيبه: «تصرُّف حكيم». واطمأنَّ إتزيو لحصوله على المفتاح لأنه سيضمن له الدخول إلى القلعة متى ما احتاج إلى ذلك.

- سيجلب رجالي لك ملابسك، ويوصلونك إلى مكانٍ آمن. وسأُعين بعضًا منهم لحراستك. ما عليك إلا الاختفاء عن الأنظار لفترة.

صرخ الممثل: «لكن... جمهوري!».

قال إتزيو متبسمًا: «سيكون عليهم الاكتفاء بلونجينوس إلى أن تقدر على المخاطرة بالظهور مرة أخرى. ليس عليَّ أن أقلق، فهو لا يرقى إلى مستواك».

- أوه، أتظن ذلك حقًّا؟

- بلا شك.

قال بيترو لما بدأت الحلقة الأولى في العلاج: «آه!».

في لمحة عين، اختفى إتزيو بالخارج، حيث منح الأوامر اللازمة لرجاله. فقال: «اخلعوا هذه الملابس التنكرية في أقرب وقتٍ ممكن. لا تبعد حمامات تراجان عن هنا كثيرًا، ونأمل أن ملابس الشارع خاصتكم لا تزال حيث تركتموها».

وغادر بمفرده إلا أنه لم يقطع شوطًا طويلًا حتى لاحظ أحدهم يتسلل من خلفه في الظلام. وما إن أحسَّ الرجل بوقوع عينَي إتزيو عليه حتى انطلق هاربًا. لكن ليس قبل أن يدرك إتزيو أنه باغانينو، اللص الذي أصر على البقاء عند نهب مونترجيوني.

هتف إتزيو وهو يلاحقه: «مهلًا! لحظة واحدة!».

بلا شك لم تخفَ هذه الشوارع على اللص. فقد استطاع بمهارة بالغة التملص والهرب حتى إن إتزيو لم يستطع الوصول إليه عند ملاحقته، وتعين عليه القفز أكثر من مرة إلى الأسطح للبحث في الشوارع بالأسفل ليُحدد موقع الرجل مرة ثانية. ووجد أن قفاز ليوناردو السحري كان نافعًا على نحو مثير للدهشة في مثل هذه الأوقات.

في نهاية المطاف استطاع أن يسبق فريسته ويقطع عليه طريق الهروب. أمسك اللص بخنجره، وكان من نوع خنجر الأصابع الخمسة

مخيف الشكل، لكن سرعان ما سحبه إتزيو بقوة من يده فسقط على الرصيف دون أن يسبب أي أذى.

سأل إتزيو وهو يشير إلى الرجل: «لمَ جريت؟». ثم لاحظ رسالة تبرز من جعبة الحزام الجلدي للرجل. كان الختم واضحًا وضوح الشمس: ختم البابا ألكسندر السادس، رودريغو، الإسباني!

تنهد إتزيو تنهيدةً طويلة لانكشاف سلسلة من الشكوك. فمنذ وقت طويل كان باغانينو يعمل لصالح جمعية اللصوص التي يترأسها أنتونيو دي ماغيانس في البندقية. فلا بدَّ أن آل بورجيا أغروه بالمال الكافي حتى يُغير ولاءه، ثم تغلغل إلى داخل جماعة الثعلب هنا، لقد دسَّ آل بورجيا جاسوسًا في قلب منظمة الحشاشين طوال الوقت.

ذاك هو الخائن، وليس ماكيافيلي أبدًا!

ولما تشتت انتباه إتزيو، تملَّص اللص منه، وفي لحظةٍ خاطفة، اقتنص السلاح الملقى أرضًا. والتقت عيناه البائستان بعينَي إتزيو. وصرخ: «عاش آل بورجيا!»، ثم غرز خنجر الأصابع الخمسة بشدة في صدره.

نظر إتزيو على الرجل الطريح وهو يتلوى في سكرات الموت. حسنًا، هذا الموت أفضل من الموت البطيء على يد أسياده، فإتزيو يعرف العاقبة التي حددها آل بورجيا للفشل. ووضع الرسالة في صدريته ثم غادر. وفكر إتزيو في نفسه: *تبًّا! لقد كنت محقًّا. والآن عليَّ إيقاف الثعلب قبل أن يصل إلى ماكيافيلي.*

37

بينما يمشي إتزيو في المدينة، اقتربت منه سارجينيا، إحدى الفتيات من ماخور الوردة المتفتحة. وقالت: «يجب أن تأتي سريعًا. أمك تريد رؤيتك على وجه السرعة».

كبح إتزيو زمام نفسه. فلا بدَّ أنه لا يوجد متسع من الوقت، وقال: «أسرعي».

لما وصل إلى الماخور، وجد ماريا في انتظاره، وعلامات القلق على وجهها. وقالت: «إتزيو، شكرًا لمجيئك لرؤيتي».

- يجب عليَّ الإسراع يا أمي.
- ثمة مشكلة.
- أخبريني ما هي.
- المالكة السابقة لهذا المكان...
- السيدة سولاري؟

قالت ماريا وهي تستجمع شتاتها: «أجل، اتضح أنها غشاشة وكذابة. لقد اكتشفنا أنها كانت خائنة، ولها علاقات وثيقة بالفاتيكان. الأسوأ من ذلك، أن العديد ممن لا يزلن يعملن هنا ربما يكنَّ...».

- لا تقلقي يا أمي. سوف أستأصل جذورهم. سأرسل مجنديَّ الأكثر ثقة لاستجواب الفتيات. وتحت إشراف كلاوديا، سنصل جميعًا إلى الحقيقة.

- أشكرك يا إتزيو.

قال إتزيو وأطل من وجهه انطباع قاسٍ: «لن نُبقي إلا على الفتيات المخلصات في المكان. وأما البقية...».

- لديَّ أخبار أخرى.

- ما هي؟

- وردتنا أخبار بوصول سفراء من الملك فرديناند ملك إسبانيا ومن الإمبراطور الروماني المقدس ماكسيميليان إلى روما. ويبدو أنهم يريدون التحالف مع تشيزاري.

- هل أنتِ متأكدة يا أمي؟ ما حاجتهم إليه؟

- لا أعلم يا بني.

زمَّ إتزيو شفتيه، وقال: «علينا تأمين أنفسنا بدلًا من الندم. اطلبي من كلاوديا التحقيق في الأمر من أجلي. وأنا أمنحها تفويضًا كاملًا لمنح الأوامر للمجندين الذين سأرسلهم إليها».

- هل تستأمنها في هذا الشأن؟

- يا أمي بعد ما حدث مع المصرفي، أستأمن كلتيكما على حياتي. وإني لأشعر بالخزي من عدم قيامي بهذا من قبل، لكن كان السبب من وراء هذا هو خوفي على سلامتكما...

رفعت ماريا يدها، وقالت: «لا تحتاج إلى التوضيح. ولا يوجد ما تطلب الصفح عنه. لقد عادت أواصر علاقتنا من جديد. وهذا ما يهم».

- شكرًا لكِ. غدت أيام تشيزاري معدودة. وحتى إن كسب السفراء دعمه، فسيتضح لهم عمًّا قريب أنه لا جدوى منه.

- أتمنى أن تكون ثقتك من هذا الأمر مبنية على أساس مضمون.

- صدقيني يا أمي إنها كذلك. أو ستكون كذلك، إن استطعت إنقاذ ماكيافيلي من شكوك الثعلب التي ليست في محلها.

38

استعار إتزيو حصانًا من الإسطبلات التي حررها، وركب بأقصى سرعته ميمِّمًا نحو نزل الثعلب النائم. كان مهمًّا أن يصل هناك قبل أن يصاب ماكيافيلي بأيِّ أذى. فلو خسره، سيكون قد خسر ألمع عقل في الأخوية.

واعتراه قلق من انغلاق النزل لأن الوقت لم يكن متأخرًا. كان بحوزته مفتاحه الخاص فدخل من البوابة الصغيرة.

وعرف من المشهد الذي وقعت عليه عيناه أنه وصل في الوقت المناسب تمامًا. إذ كان جميع أعضاء جمعية اللصوص حاضرين. ووقف الثعلب ومساعدوه الرئيسيون معًا وانشغلوا بمناقشة شيءٍ بدا أنه ذو أهمية كبيرة، واتضح أنهم قد توصلوا إلى حكم بشأنه، حيث كان الثعلب الذي ارتسمت على وجهه أمارات العدوانية يقترب من ماكيافيلي، والذي من ناحيته بدا غير مكترث وعلى ما يبدو لا فكرة لديه عمَّا يجري.

هتف إتزيو: «توقف!»، واندفع إلى المكان وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بعد رحلته الطويلة.

فتحولت كل الأعين باتجاهه، في حين تصلَّب الثعلب في مكانه.

أصدر إتزيو أمره: «توقف يا جيلبرتو! لقد عرفت الخائن الحقيقي».

قال الثعلب وهو مصدوم ومن خلفه تتعالى تمتمات رجاله المتحمسين: «ماذا؟».

- إنه، أو كان، أحد رجالك، باغانينو! لقد كان حاضرًا عند الهجوم على مونترجيوني، والآن رأيت ما اقترفه وتسبب في واحدةٍ من مصائبنا الأخيرة.

- هل أنت متأكد من هذا؟

- لقد اعترف بجرمه بنفسه.

قطب الثعلب جبينه، وأغمد خنجره، وقال بنبرة غاضبة: «أين هو الآن؟».

- حيث لا يمكن لأحد المساس به بعد الآن.

- ميت؟

قال إتزيو: «بيديه هو شخصيًّا. وحمل هذه الرسالة». ورفع إتزيو ورق البرشمان المختوم ومرر الرسالة إلى الثعلب. وأتى ماكيافيلي في حين يفض قائد اللصوص الختم ويفتح الورقة.

قال الثعلب وهو يطالع المكتوب: «يا إلهي!».

قال ماكيافيلي: «دعني أرى».

قال الثعلب والإحباط يتملكه: «بالطبع».

كان ماكيافيلي يطالع الرسالة، وراح يقول: «إنها من رودريغو إلى تشيزاري. تفاصيل تخصُّ خططنا المتعلقة بالجنرال الفرنسي أوكتافيان، من بين أمور أخرى».

- واحد من رجالي!

قال ماكيافيلي لإتزيو: «هذه بشرى سارة. يمكننا استبدال هذه الرسالة بأخرى تحتوي على معلومات خاطئة، لتضليلهم...».

ردَّ إتزيو بنبرةٍ فاترة: «بشرى سارة بالطبع. تعين عليك الإصغاء لي يا جيلبرتو».

قال الثعلب بنبرة متواضعة: «أنا مدينٌ لك ثانيةً يا إتزيو».

وفترت شفتا إتزيو كذلك عن ابتسامة: «أيُّ دَين يكون بين الأصدقاء الذين يثقون، بل يجب عليهم أن يثقوا، أحدهم في الآخر؟».

وقبل أن يُحير الثعلب جوابًا، علَّق ماكيافيلي: «وتهانينا بالمناسبة. علمت أنك أعدت إحياء المسيح قبل ثلاثة أيام من موعده».

ضحك إتزيو، وفكر في إنقاذه لبيترو. كيف يمكن لماكيافيلي معرفة الأمور بهذه *السرعة*؟!

نظر الثعلب فيما حوله على الرجال والنساء من الجمعية المتجمعين حولهم. وقال: «حسنًا، ما الذي تنظرون إليه؟ إننا نخسر عملنا هنا».

***

في وقتٍ لاحق، بعدما غادر ماكيافيلي للتعامل مع أمر الرسالة المُعتَرضة، جذب الثعلب إتزيو جانبًا، وقال له: «يُسعدني أنك هنا، ليس فقط لأنك منعتني من ارتكاب حماقة تامة».

قال إتزيو برفق: «علاوة على هذا، أتعرف ما كنت سأفعله بك إن قتلت نيكولو؟».

تأوه الثعلب، وقال: «إتزيو...».

ربت إتزيو على ظهره، وقال: «لكن كل شيء على ما يرام، ولا مزيد من الشجارات، فلا طاقة لنا بها داخل الأخوية. والآن ما الأمر الذي أردت إخباري به؟ هل لك حاجة إلى مساعدتي؟».

- أنا كذلك بالفعل. الجمعية قوية، لكن العديد من رجالي صغار سنٍّ ولم يُختبروا بعد. انظر إلى الفتى الذي سرق محفظتك. انظر إلى كلاوديو الصغير...
- وغرضك هو؟

- لقد كنت آتيًا على ذكر هذا. عامة، اللصوص في روما من الشبان والشابات، الماهرين في صنعتهم بالطبع، لكنهم عُرضة للتنافس. تنافس مدمر.

- هل تتحدث عن عصابة أخرى؟

- أجل. واحدة بعينها، والتي قد تُشكل خطرًا. أحتاج إلى التعزيزات للتعامل معهم.

- رجالي؟

لاذ الثعلب بالصمت، وقال: «أعرف أني رفضت مساعدتك عندما وصلت شكوكي في نيكولو ذروتها، لكن الآن...».

- مَن هم؟

- إنهم يطلقون على أنفسهم، لقب المئة عين. إنهم أناس تابعون لتشيزاري بورجيا ويتسببون لنا بالكثير من المشكلات.

- أين مقرهم؟

- لقد عرفه جواسيسي.

- أين؟

- انتظر لحظة. إنهم غاضبون ويتوقون للقتال.

- إذن علينا مفاجأتهم.

- حسنًا!

- لكن يجب أن نكون مستعدين للانتقام.

قال الثعلب الذي عادت إليه روحه القديمة وراح يفرك يديه في ترقب: «سنسدد الضربة الأولى، ثم لن تتسنى لهم الفرصة من أجل الانتقام. إن أول شيء ينبغي القيام به، هو التخلص من قادتهم. فهم وحدهم من

لهم صلة بآل بورجيا. إن تخلصنا منهم، نكون قد قطعنا رأس عصابة المئة عين».

- وأنت حقًّا تريد مساعدتي في ذلك؟

- لقد كسرت شوكة المستذئبين.

- دون مساعدتك.

- أعرف.

- إن الرجل الذي ساعدني على كسر شوكة المستذئبين كان...

- أعرف!

- اسمع يا جيلبرتو. سوف نجمع قواتنا ونقوم بهذا معًا، لا تقلق من هذه الناحية. ثم، أعتقد، أن جمعيتك ستكون هي العصابة المسيطِرة في روما.

وافق الثعلب على مضض: «هذا صحيح».

قال إتزيو في تأنٍّ: «إن ساعدتك في هذا، فثمة شرط».

- وما هو؟

- ألا تُقدم ثانيةً على تهديد وحدة أخويتنا. لأن هذا ما كنت بصدد القيام به.

طأطأ الثعلب رأسه، وقال في تواضع: «لقد وعيتُ الدرس».

- سواء نجحنا في هذه المهمة الخاصة بك أم فشلنا.

اتفق الثعلب: «سواء نجحنا أو فشلنا، لكننا لن نفعل».

- لن نفعل ماذا؟

ابتسم الثعلب لصاحبه ابتسامة ماكرة، وقال: «نفشل».

39

بعدما أمر إتزيو مجموعةً من مليشيات المجندين المتزايدين بمساعدة الثعلب في جهوده لدحر عصابة المئة عين، سلك إتزيو طريقه إلى مسكنه. وأعاد ملء القنينة الداخلية للنصل السام بالسُّم الذي حضَّره ليوناردو خصوصًا، وتفحَّص المسدس الخفي والنصل المزدوج والقوس الجديد والإبر السامة.

قاطع عمله وصول رسول من بارتولوميو يطلب منه الحضور إلى ثكنات الجنود المرتزقة بأسرع وقتٍ ممكن. ولما استشعر إتزيو وجود مشكلة، وساوره القلق، أمل إتزيو أن يكون بارتولوميو وجنوده المرتزقة قد ظفروا بالفرنسيين، فعبأ إتزيو أسلحة المخطوطات التي ظن أنه قد يحتاج إليها في جعبة السرج وذهب إلى الإسطبلات، حيث استأجر حصانه المفضل وانطلق في طريقه. كان الجوُّ جميلًا في النهار، والطريق جافًّا إلى حدٍّ ما، حيث لم ينزل المطر منذ أسبوع. ووجد هواء الريف مغبرًّا بعض الشيء في أثناء سيره، وحرص على اختيار طريق غير معروف إلى حدٍّ ما كي لا يكون مراقبًا من قوات آل بورجيا، وسلك الطريق المختصر غير المألوف عبر الغابات والحقول، حيث رفعت الأبقار التي تأكل العشب رؤوسها في تكاسُل لتطالعه وهو يمر بها.

وصل إتزيو إلى الثكنات بحلول الظهيرة، وبدا كل شيءٍ هادئًا. ولاحظ أنه منذ التجديدات، قد لحق بحواجز السور وأسوار الثكنات

بعض الأضرار الطفيفة جراء رشق المدافع الفرنسية، إلا أن تلك الأضرار لم تكن جسيمة، وانشغل مجموعة من الرجال على السقالات أو متدلين من السلال من فوق الشرفات الدفاعية بإصلاح الحفر والتصدعات التي أحدثها رشق المدافع الفرنسية.

نزل إتزيو عن الحصان وأعطى اللجام إلى السائس، الذي أسرع بالمجيء نحوه، وراح يمسح بلطف بقع الزبد الصغيرة عن فم الحصان، والذي لم يقسُ عليه في الطريق. وربَّت على أنفه قبل أن يقطع طريقه دون سابق إعلان منه باتجاه مقر بارتولوميو.

انشغل عقل إتزيو بالخطوة التالية، بما أن المصرفي الشخصي لتشيزاري قد تُخلص منه، وفكر في نوعية ردِّ الفعل المضاد الذي ربما يتخذه عدوه للحرص على استمرار تدفق المال، لذا فقد تفاجأ بوجود سنِّ بيانكا، سيف بارتولوميو العظيم، في وجهه.

قال بارتولوميو بصوت عالٍ: «مَن هناك؟».

ردَّ إتزيو: «مرحبًا بك أيضًا».

ضحك بارتولوميو ضحكة اهتز معها بطنه: «أمسكت بك!».

- علمني الحذر طوال الوقت.

غمز بارتولوميو غمزة درامية، وقال: «في الواقع كنت أنتظر زوجتي».

- حسنًا، حسنًا.

أنزل بارتولوميو سيفه واحتضن إتزيو.

ولما ترك إتزيو بعد عناق شديد، اكتسى أسلوبه بالجدية.

- لقد سعدت بمجيئك يا إتزيو.

- ما الأمر؟

- انظر.

تبع إتزيو نظرة صديقه إلى حيث يدخل فصيل من الجنود المرتزقة الجرحى إلى ساحة الاستعراض.

قال بارتولوميو مجيبًا عن سؤال إتزيو الذي لم ينطق به: «الفرنسيون الأوغاد يضغطون علينا مرة أخرى».

- اعتقدت أنك قد أخضعت قائدهم، ما اسمه؟

- يعتقد أوكتافيان دي فالوا أنه سليل عائلة فالوا النبيلة. وفي رأيي ما هو إلا وغد لقيط.

بصق بارتولوميو مع دخول مجموعة أخرى من الجرحى.

قال إتزيو: «يبدو الأمر خطِرًا».

قال بارتولوميو وهو يحك لحيته: «لا بدَّ أن الملك لويس قد أرسل تعزيزاته لمساندة تشيزاري بعدما سددنا لفالوا ضربة ساحقة. أظن أنه يحقُّ لي أن أشعر بالإطراء».

- ما مدى سوء الوضع؟

قال بارتولوميو عابسًا: «لقد استعادوا برجهم».

- سنستعيده، أين فالوا الآن؟

قال بارتولوميو متجاهلًا السؤال: «أنت محق. بالطبع سنستعيده مجددًا! وسنجعل الأوغاد يتراجعون سريعًا. إنها مسألة وقت ليس إلا».

في تلك اللحظة، مرت رصاصة بالقرب من آذانهما واستقرت في الجدار خلفهما.

قال إتزيو وهو ينظر إلى السماء: «لقد كان الجوُّ هادئًا للغاية عند وصولي». وغابت الشمس خلف سحب كبيرة وراحت تجوب السماء.

قال بارتولوميو: «تقصد بدا الجوُّ هادئًا. إن هؤلاء الفرنسيين أوغاد مخادعون. بيدَ أني سأتمكن من فالوا عما قريب، تذكر كلامي». ثم

استدار ليصرخ بأمر إلى الرقيب الذي أتى يركض باتجاهه. «أغلقوا البوابات! أبعدوا هؤلاء الرجال عن الأسوار الخارجية! *تحركوا*!».

راح الرجال يركضون هنا وهناك، ويتوزعون عند الشرفات الدفاعية ويُجهزون شعلات المدفع.

قال زعيم المرتزقة: «لا تقلق يا صديقي، الوضع تحت السيطرة».

في تلك اللحظة، ارتطمت قذيفة كبيرة بحواجز الأسوار القريبة من الرجلين، فتطاير بفعلها غبار الصخور وشظاياها في كل الأرجاء.

هتف إتزيو: «يبدو أنهم يقتربون!».

ردَّ رجال بارتولوميو بإطلاق وابل من رشق المدافع من مدفع الثكنات الرئيسي وبدت الأسوار كأنها تهتز بسبب دَويِّ المدافع الكبيرة. وأتى رد المدفعية الفرنسية بالشراسة نفسها، إذ اخترق الهواء دَويُّ أربعين مدفعًا، وهذه المرة أصابت القذائف أهدافها بدقة أكبر. انهمك رجال بارتولوميو في محاولتهم اليائسة لاستعادة الترتيبات الدفاعية عندما زلزل وابلٌ هائل آخر من رشق مدافع الفرنسيين أسوار الثكنات. وبدا الفرنسيون هذه المرة يركزون جهودهم على البوابة الرئيسية، ولقي اثنان من حراس البوابات حتفهم بعد إصابتهم في القصف.

صاح بارتولوميو بأعلى صوته: «أغلقوا البوابات اللعينة!».

اندفع الجنود المدربون جيدًا تحت قيادة بارتولوميو لصد الهجوم المضاد من القوات الفرنسية التي ظهرت فجأة دون سابق إنذار عند المدخل الرئيسي للثكنات. تماسك الفرنسيون لشن هذا الهجوم المباغت، وكما خطر لإتزيو، للأسف تمكنوا من التغلب عليهم. فقد وقعت قلعة بارتولوميو تحت هجوم مباغت على حين غرة وعدم استعداد.

نزل بارتولوميو قافزًا عن الشرفات الدفاعية وجرى باتجاه البوابة بأقصى سرعته. كان بارتولوميو طويلًا جدًّا بين الفرنسيين، وراح يلوح بسيفه العريض ويضرب صفوفهم بشراسة. بدا أن الفرنسيين وقفوا مرتابين عند وصول بارتولوميو. في حين أمر إتزيو الفرسان بتغطية هؤلاء الرجال الذي يحاولون بصعوبة إغلاق البوابات قبل أن ينال العدو من موطئ قدم داخل الثكنات. استجمعت قوات الحشاشين قوتهم بوجود قائدهم ونجحوا في إغلاق البوابة. ولم تمر إلا ثوانٍ معدودة حتى وقع تحطم ضخم وانحنى المصد الخشبي الذي يغلق البوابات، ما أنذر بخطورة الوضع. فقد نجح الفرنسيون في تسديد ضربة بمدكٍّ في البوابات الرئيسية عندما انصرف انتباه المدافعين إلى الجنود الفرنسيين الذين اقتحموا أسوار الثكنات.

هتف بارتولوميو قائلًا: «وجب علينا أن نبني خندقًا مائيًّا لعينًا حول القلعة!».

- لم يسعفنا الوقت لهذا!

هتف إتزيو بالفرسان حتى يوجِّهوا نيرانهم إلى خارج الأسوار على القوات الفرنسية المتجمعة. وقفزوا بارتولوميو وصعد إلى حواجز السور ووقف إلى جانب إتزيو، الذي كان يراقب المشهد الذي يحدث أمامه، لقد ظهرت القوات الفرنسية من المجهول وبأعداد كبيرة.

راح بارتولوميو يسب ويلعن دون مبالغة قائلًا: «إننا محاصرون!».

ومن خلفهم انهارت إحدى البوابات الثانوية، مصدرة صوت تحطم وتشظِّي خشبها، وقبل أن يستطيع أيُّ مدافع فعل أيِّ شيء للتصدي للأمر، اقتحمت وحدة كبيرة من المشاة الفرنسيين المكان، مُشهرين سيوفهم ويبدو أنهم مستعدون للقتال حتى الموت. وقد نجح هذا الاختراق المفاجئ في عزل مقر بارتولوميو عن البقية.

صرخ بارتولوميو قائلًا: «يا إلهي ما الذي ينوون فعله الآن؟». كان لجنود الحشاشين أفضلية من حيث التدريب عن الفرنسيين، وفي الغالب أكثر عزيمة وولاء لقضيتهم، لكن مقدار العدد الكبير وفجأة الهجمة قد باغتتهم. كان كل ما في وسعهم هو الثبات في مواجهة العدو ومحاولة دحر السرب العسكري الفرنسي ببطء. كان الهواء متخنًا ومشبعًا بالفوضى الناجمة عن القتال القريب المدى بالأيدي. وازدحم المكان عن آخره لدرجة أنه في بعض الأماكن انقلبت المعركة إلى قتالٍ مباشر بالأيدي حيث لم يتسع المجال لاستعمال الأسلحة.

احتنق الجوُّ واشتدت حرارته بفعل العاصفة التي تتكون، كأن الآلهة غاضبة من المشهد الحاصل حيث حجبت غيوم كثيفة كبيرة السماء من فوقهم. وارتفع الغبار من ساحة الاستعراض مثل الضباب، وانقلب النهار، الذي كان جميلًا قبل لحظات فحسب، إلى العتمة القاتمة. وما لبث المطر أن نزل مدرارًا وتحولت المعركة المحتدمة إلى تخبط فوضوي لم يتمكن فيه الطرفان من رؤية ما يفعلونه. وتحولت الأرض إلى وحل، وأضحى القتال أكثر فوضوية ويأسًا.

ثم فجأة، كأن العدو قد حقق أحد أهدافه، تعالت أصوات الأبواق الفرنسية وانسحب رجال فالوا بخفة كما جاؤوا.

وتطلب الأمر مدة من الوقت حتى يستعيدوا نظامهم، وكان الاهتمام الأول لبارتولوميو هو أن يأمر النجارين أن يغيروا البوابة المحطمة بأخرى جديدة. وبطبيعة الحال كانت لديهم بوابة جاهزة تحسبًا لحدوث مثل هذا الأمر، لكن الأمر سيستغرق ساعة لتركيبها. في حين قاد إتزيو باتجاه مقره.

قال بارتولوميو متسائلًا ولم يوجه سؤاله إلى شخصٍ بالتحديد: «ما الذي كانوا يسعون وراءه؟ خرائطي؟ إن تلك الخرائط ثمينة!».

وقطع حديثه صوت نفير بوق فرنسي آخر. ومع وجود إتزيو خلفه مباشرة، ركض إلى أحد السلالم المؤدية إلى أحد حواجز السور العالية فوق البوابة الرئيسية. وهناك، على مسافةٍ قصيرة فقط في السهل الذي تنتشر فيه أشجار السرو أمام الثكنات، جلس الجنرال الدوق أوكتافيان دي فالوا بنفسه على ظهر حصان، محاطًا بثلة من موظفيه والجنود المشاة. وكان جنديان من المشاة يمسكان بأسير، أُخفي جسده بجوال وُضع فوق الرأس.

قال الفرنسي وهو ينظر إلى بارتولوميو متملقًا بالفرنسية: «صباح الخير يا جنرال دا ألفيانو هل أنت مستعد للاستسلام؟».

- لمَ لا تقترب قليلًا وتقول هذا أيها الضفدع الوضيع؟

قال وهو يبتسم: «لا، لا يا جنرالي العزيز. عليك تعلم الفرنسية. فقد يساعدك هذا على إخفاء طباعك الهمجية، لكن بصراحة أشك في ذلك». وراح ينظر إلى الجنود من حوله الذين ضحكوا ضحكات مكتومة استحسانًا لما قاله.

صاح بارتولوميو بأعلى صوته قائلًا: «ربما بإمكانك تعليمي الفرنسية. *وسأعلمك* أنا القتال، بما أنك وعلى ما يبدو لا تجيده، على الأقل، نقاتل قتالًا نزيهًا، مثلما يفعل النبلاء».

ابتسم فالوا ابتسامة باهتة: «اممم، حسنًا يا صديقي رغم أن هذه المحادثة القصيرة كانت مسلية، أرى أنه يجب أن أُكرر طلبي: أريد استسلامك غير المشروط بحلول شروق الشمس».

- تعالَ واحصل عليه، وستهمس لك به سيدتي بيانكا في أذنك.

- أوه! أظن أن سيدةً أخرى ربما تعترض على هذا.

أومأ إلى جنود المشاة، الذين أزاحوا الجوال عن أسيرتهم. لقد كانت بانتاسيليا!

راحت تغمغم بالإيطالية في تحدٍّ وهي تبصق قطعًا من القنب والغبار: «زوجي سيقتلكم جميعًا!».

استغرق الأمر من بارتولوميو لحظة حتى يستفيق من صدمته. أمسك إتزيو بذراعه، في حين وقف رجاله مشدوهين ينظرون بعضهم إلى بعض.

وصرخ قائلًا: «سأقتلك أيها الفرنسي اللعين!».

قال فالوا ساخرًا: «يا عزيزي، اهدأ من فضلك، من أجل زوجتك. واطمئن فلن يؤذي فرنسي امرأة، دون ضرورة». واكتست نبرته بالجدية، فقال: «ولكن أعتقد أنه حتى غبي مثلك بإمكانه تخيُّل ما قد يحدث إن لم تذعن لشروطي». وركل جانبَي حصانه، واستعدَّ ليستدير مغادرًا: «تعال إلى مقرِّي عند الفجر، غير مسلح، وتعلم قليلًا من الفرنسية. فستتحدث بها كل إيطاليا عما قريب».

ورفع يده، فرمى جنود المشاة بانتاسيليا على ظهر أحد أحصنة الجنود ومضى الجَمع، وفي أعقابه المشاة.

هتف بارتولوميو بلا جدوى من ورائهم متمتمًا لإتزيو قبل أن ينطلق مغادرًا: «سأنال منك أيها الحقير الساقط».

هتف إتزيو من ورائه: «أين تذهب؟».

- لأستعيدها.

- بارتولوميو! انتظر!

لكن مضى بارتولوميو في طريقه، ولما لحق به إتزيو، كان قد امتطى السرج، طالبًا فتح البوابات.

قال إتزيو متوسلًا: «لا يمكنك القيام بهذا وحدك».

ردَّ المرتزق وهو يربت على بيانكا الذي كان معلقًا على جنبه: «أنا لست وحدي. تعال معي إن أحببت، لكن عليك أن تسرع». وضرب حصانه وتوجَّه نحو البوابات التي فُتحت.

لم يتوقف إتزيو ليشاهده وهو يغادر. بل هتف بحدة بأوامره على قائد الفرسان التابع لبارتولوميو، وفي غضون دقائق، انطلق إتزيو ووحدة من المرتزقة ممتطين الأحصنة خارج الثكنات في محاولة محمومة للحاق بقائدهم.

40

كان مقر الجنرال دي فالوا يقع وسط أنقاض ثكنات الرومان القديمة المحصنة التابعة للواء الشخصي للأباطرة القدماء، الحرس البريتوري. وكان يقع في المنطقة الثامنة عشرة، على الطرف الشمالي الشرقي من روما، والذي غدا خارج مدينة روما المتقلصة الآن. تلك المدينة التي كانت في عزها، قبل ألف وخمسمئة سنة، فسيحة، أكبر مدينة في العالم بفارق كبير، وضمت مليون نسمة.

لحق إتزيو وقواته ببارتولوميو في الطريق، وقد اجتمعوا حينها على مرتفع صغير بالقرب من مخيم القاعدة الفرنسية. وحاولوا الهجوم، لكن طلقاتهم ارتدت بلا فائدة عن الأسوار الحديثة القوية التي بناها دي فالوا فوق الأسوار القديمة. والآن انتقلوا من نطاق وابل النيران الذي جاء ردًّا من الفرنسيين على محاولتهم للهجوم. وجُل ما قدر بارتولوميو على فعله هو سبُّ أعدائه: «أنتم أيها الجبناء! ما هذا، تسرقون زوجة رجل ثم تختبئون داخل الحصن؟ هاه! أنتم عديمو الرجولة، أتسمعونني؟ عديمو الرجولة». وراح يكررها بالفرنسية. «إليكم، أهذا القدر من الفرنسية يكفيكم أيها الأوغاد؟ في الحقيقة، لا أعتقد أنكم تتمتعون بأي شجاعة على الإطلاق».

أطلق الفرنسيون نيران أحد المدافع، وكان إتزيو وبارتولوميو في نطاقه واصطدمت الطلقة بالأرض من جانبهما على بُعد عدة أقدام من حيث يقفان.

قال إتزيو: «اسمع يا بارتو. اهدأ فلن تنفعها إن مت. دعنا نجمع قواتنا من جديد، ثم سنقتحم البوابات مثلما فعلنا في الترسانة تلك المرة في البندقية عندما كنا نطارد سيلفيو باربريغو».

قال بارتولوميو والعبوس بادٍ عليه: «لن يفلح الأمر. إن المدخل مليء بالفرنسيين أكثر من شوارع باريس».

- إذن سنتسلق الشرفات الدفاعية.

قال بارتولوميو: «لا يمكن تسلقها وحتى إن تمكنت من تسلقها، فسيتفوق عددهم عليك، ولن تستطيع الصمود». وراح يفكر بعمق ثانيةً: «كانت بانتاسيليا لتعرف ما ينبغي لنا فعله». ثم غرق في تفكير أعمق، واستطاع إتزيو رؤية اليأس يتمكن من صديقه. وتابع بنبرة حزينة: «ربما هذه هي النهاية. سيتعين عليَّ فعل ما قاله بأن أدخل إلى معسكرهم عند الفجر، حاملًا لهم الهدايا الاسترضائية، وآمل فحسب ألا يقتلها هذا الوقح. يا له من جبان خسيس!».

كان إتزيو مستغرقًا في التفكير، ثم فرقع أصابعه في حماس قائلًا: «لمَ لم تخطر لي هذه الفكرة من قبل؟».

- ماذا؟ هل قلت شيئًا؟

لمعت عينا إتزيو وقال: «ارجع إلى ثكناتك».

- ماذا؟

- استدعِ رجالك للعودة إلى الثكنات، سوف أشرح الفكرة هناك. هيَّا!

قال بارتولوميو وهو يأمر رجاله بالعودة: «يُفضل أن تكون فكرة مُجدية. تراجعوا!».

***

كان الليل قد حلَّ بعودتهم. وما إن أُدخلت الخيول إلى الإسطبل وأنهى الرجال مناوباتهم، حتى ذهب إتزيو وبارتولوميو إلى غرفة الخرائط وجلسا ليتناقشا.

- إذن ما خطتك هذه؟

فتح إتزيو إحدى الخرائط المرسومة لثكنات بريتوريا ومحيطها بالتفصيل. وأشار إلى داخل الحصن.

- بمجرد الدخول إلى المعسكر يمكن لرجالك التغلب على دوريات المعسكر، أليس كذلك؟

- أجل، ولكن...

- لا سيما إن أُخذوا بغتة تمامًا؟

- بالطبع، إن عنصر المفاجأة دائمًا...

- إذن نحتاج إلى الكثير من الملابس الفرنسية ودرعهم. بسرعة. عند الفجر سننطلق بكل شجاعة، لكن لا نملك الوقت لنضيعه.

بانت آيات الفهم على وجه بارتولوميو المتجهم، كانت آيات الفهم والأمل، وقال: «هاه! أيها المحتال العجوز الماكر! إتزيو أوديتوري، أنت رجل يحبه قلبي. وتستحق بانتاسيليا فكرتك اللامعة. رائع!».

- امنحني بعضًا من رجالك. سأُغِير على برجهم الآن، ثم أدخل وأُحضر ما نحتاج إليه.

- سأمنحك كل الرجال الذين تحتاج إليهم، إذ يمكنهم أن يجردوا القوات الفرنسية الميتة من ملابسها.

- جيد.

- يا إتزيو.

- ما الأمر؟

- احرص على قتلهم بنظافة قدر ما تستطيع. فلا نريد ملابس ملطخة بالدماء.

قال إتزيو: «لن يشعروا بشيء، صدقني».

بينما كان بارتولوميو يختار الرجال للمهمة المطلوبة، جمع إتزيو حقيبة سرجه، ومنها اختار النصل السام.

وركبوا في صمت إلى برج آل بورجيا، الواقع تحت إمرة الفرنسيين، وكتموا صوت حوافر خيولهم بالقماش الخيش. نزل إتزيو على بُعد مسافة قصيرة، وأمر رجاله بالانتظار إلى أن تسلق السور الخارجي بمهارة ساكني جبال الألب النائية ورشاقة القطط ومكرها. كان خدش واحد من النصل السام كافيًا للقتل، واغترَّ الفرنسيون غرورًا شديدًا بأنفسهم، فلم يضعوا الكثير من الحراس، ومَن كان منهم هناك أخذهم إتزيو على حين غرة تمامًا وماتوا قبل حتى أن يدركوا ما حدث لهم. وما إن خلا الطريق من الحراس، حتى فتح إتزيو البوابة الرئيسية والتي أصدرت مفصلاتها صريرًا جعل نبضات قلب إتزيو تتسارع. فتوقف ليستمع، لكن أفراد الموقع العسكري كانوا يغطون في النوم. أسرع رجاله للدخول إلى البرج دون أن يصدروا أيَّ صوت، ثم دخلوا الموقع العسكري، وتغلبوا على مَن فيه دون قتال يُذكر. واستغرق جمع الملابس وقتًا أطول بقليل، لكن في غضون ساعة كانوا قد رجعوا إلى الثكنات وأتموا المهمة.

قال بارتولوميو متذمرًا، وهو يفرز الغنائم: «هناك بعض الدماء على هذا الزي».

قال إتزيو بالفرنسية بينما يبدل الرجال الذين كُلفوا بالمهمة المطلوبة ملابسهم بالملابس الرسمية: «هو الاستثناء الوحيد لأنه كان

الرجل الوحيد المتأهب، فلزم عليَّ التخلص منه بالطريقة التقليدية باستخدام سيفي».

قال بارتولوميو: «حسنًا، كان من الأفضل لو أحضرت لي بزة من زردياتهم العفنة أيضًا».

قال إتزيو وهو يرتدي زِيَّ ملازم فرنسي: «أنت لن ترتدي زيًّا».

- ماذا؟

- بالطبع لن تفعل! الخطة هي أن تسلم لنا نفسك. إننا الدورية الفرنسية التي ستحضرك إلى الجنرال الدوق دي فالوا.

قال بارتولوميو وهو يفكر بجدية: «بالطبع. ثم ماذا؟».

- بارتو، يبدو أنك لم تكن منتبهًا. ثم يهاجم رجالك، عند إشارتي.

ابتسم بارتولوميو، وقال: «حسنًا!» ثم أضاف مخاطبًا رجاله الذين لم ينتهوا من ارتداء الزي الفرنسي بعد: «تحركوا سريعًا. بإمكاني شمُّ رائحة الفجر يقترب، وطريقنا طويل».

***

انطلق الرجال على أشدهم في الليل، لكن تركوا خيولهم على مسافةٍ قصيرة من المقر الفرنسي تحت مسؤولية مساعدي الفرسان. وقبل أن يتركها إتزيو، تفحص أولًا مسدس المخطوطة الصغير الذي صنعه ليوناردو، وكان التصميم قد تحسن بحيث يُمكِّنه من إطلاق أكثر من طلقة واحدة قبل إعادة التلقيم، وثبته على ذراعه في سرية. ثم تقدم هو ومجموعته من الجنود «الفرنسيين» على أقدامهم باتجاه ثكنات بريتوريا.

قال بارتولوميو مفسرًا عند سيره إلى جانب إتزيو، وكان إتزيو يؤدي دور كبير جنود الدورية الذي سيُسلم بارتولوميو بنفسه: «يظن دي

فالوا أن تشيزاري سيسمح للفرنسيين بحكم إيطاليا. الأحمق السخيف! لقد اغترَّ بقطرة الدم الملكي التي تجري في عروقه لدرجةٍ عجز معها عن رؤية خطة ساحة المعركة، يا له من قزم وضيع حقير!». وتوقف، ثم قال: «لكنك تعلم وأنا أعلم أنه أيًّا ما قد يعتقد الفرنسيون، ينوي تشيزاري أن يكون أول ملك لإيطاليا الموحدة».

- إلا إذا أوقفناه.

قال بارتولوميو متأملًا: «أجل. أتعلم، أن خطتك فكرة ذكية، وشخصيًّا لا أحب استخدام هذا النوع من الخدع. فأنا أومن بالقتال النزيه، وليفُز به أفضل الرجال».

- إن تشيزاري ودي فالوا لهما أساليب مختلفة يا بارتو، لكنهما يقاتلان بطريقةٍ غير شريفة، ولا نملك خيارًا إلا محاربة النار بالنار.

قال مقتبسًا: «اممم ثمة يوم لن يخون الناس فيه بعضهم بعضًا بعد الآن، وفي ذاك اليوم سنرى قدرة البشر بحق».

- لقد سمعتُ هذا الكلام من قبل.

- لا بدَّ أنك قد سمعته! فهو شيء كتبه أبوك.

- ششش!

كانوا قد اقتربوا من المعسكر الفرنسي، ورأى إتزيو أشخاصًا أمامهم يتحركون في الأرجاء، كانوا حراس محيط المعسكر الفرنسيين.

سأل بارتولوميو بصوت خافت: «ما الذي سنفعله؟».

- سأقتلهم، هم ليسوا بالكثرة، لكن علينا القيام بهذا في هدوءٍ ودون إصدار أيِّ ضجة.

- هل لديك ما يكفي من السم في جهازك ذاك؟

- هذا العدد متيقظ ومتفرق على نطاق واسع. فإذا قتلت واحدًا ولاحظني الآخرون، فقد لا أتمكن من منع البعض من العودة وإنذار الآخرين.

- لمَ تقتلهم بالأساس؟ إننا مرتدون للزي الفرنسي. حسنًا، والمجموعة كذلك.

- سيطرحون الأسئلة إن دخلنا بك مقيدًا بالسلاسل...

- السلاسل؟!

- صه! إن دخلنا مستعرضين مهاراتنا، سيُسر دي فالوا للغاية ولن يخطر له أن يسأل من أين جئنا. على الأقل، أتمنى ألا يحدث هذا.

- هذا الأبله الذي له عقل دجاجة؟ لا داعي للقلق! لكن كيف سنتخلص منهم؟ يصعب إطلاق النار عليهم. فإطلاق النار سيكون له دويٌّ عالٍ.

قال إتزيو وهو يُخرج القوس الخفيف السريع التلقيم الذي صنعه ليوناردو: «سأضربهم بهذا. لقد أحصيتهم، هنالك خمسة منهم، ولديَّ ستة سهام صغيرة. الضوء معتم هنا قليلًا حتى أصوب بدقة، لذا عليَّ الاقتراب بعض الشيء. انتظر أنت هنا مع البقية».

تسلل إتزيو إلى الداخل حتى كان في نطاق عشرين خطوة من أقرب حارس فرنسي. وبشدِّ الوتر للوراء، وضع أول سهم في فراغ القوس ورفع الذراع إلى كتفه ثم صوَّب السهم سريعًا على صدر الرجل وأطلقه. تلا ذلك صوت طقة مكتومة وصوت أزيز السهم، ثم سقط الرجل أرضًا في الحال، كالدمية التي انقطعت خيوطها. مشى إتزيو بثبات بين أجمات السرخس باتجاه ضحيته التالية، وبالكاد كان صوت إطلاق القوس مسموعًا. ضرب السهم الصغير عُنق الرجل، وأصدر الرجل غرغرة اختناق قبل أن تخور قدماه من تحته. وبعد خمس دقائق كان

الأمر قد انتهى. واستخدم إتزيو الأسهم الستة، فقد فوت الضربة الأولى على الرجل الأخير، مما زعزع إصراره للحظة، لكنه أعاد التلقيم، ونجح في تسديد السهم قبل أن يتمكن الجندي من الرد على الصوت الغريب المكتوم الذي سمعه.

لم يكن بحوزة إتزيو المزيد من السهام للقوس حينها، إلا أنه شكر ليوناردو سرًّا. فهو يعرف أن هذا السلاح سيثبت فاعليته بصورةٍ أكبر في مناسبة أخرى. وجرَّ إتزيو في هدوء الجنود الفرنسيين المطروحين أرضًا إلى بعض المواقع ذات الغطاء الخفيف، آملًا أن يكون هذا كافيًا لإخفائهم عن أعين أيِّ شخص قد يمر من هناك. وبينما يفعل ذلك استعاد الأسهم الصغيرة المستخدمة ليعيد استخدامها في وقتٍ آخر، متذكرًا نصيحة ليوناردو، وأدخل القوس، وقفل عائدًا إلى بارتولوميو.

سأله الرجل الضخم: «هل انتهى كلُّ شيء؟».

- انتهى كل شيء.

قال بارتولوميو متوعدًا: «فالوا هو التالي. سأجعله يصرخ كخنزير مذبوح».

كان ظلام الليل ينقشع والفجر المكتسي بحُلة خمرية يتهادى فوق قطر الندى على التلال البعيدة في الشرق.

قال بارتولوميو: «يُستحسن لنا الانطلاق».

ردَّ إتزيو وهو يُقيد معصميه بالأصفاد قبل أن تتسنى له الفرصة للاعتراض قائلًا: «هيَّا إذن. لا تقلق إنها أصفاد مزيفة مزودة بنابض. ما عليك إلا أن تقبض بشدة فجأة على يديك وستسقطان. لكن حبًّا بالرب انتظِر إشارتي. وعلى أيِّ حال، سيبقى «الحارس» الذي على يسارك بالقرب منك. ومعه السيف بيانكا تحت عباءته. وكل ما عليك فعله هو

الوصول إليه و...»، وخالط صوت إتزيو نبرة تحذيرية، وأردف: «لكن عند إشارتي».

ابتسم بارتولوميو، وقال: «أجل، أجل يا سيدي».

وتقدم إتزيو رجاله ومن خلفه بارتولوميو على بُعد خطوتين ومعه أربعة رجال، ومشى بشجاعة تجاه البوابة الرئيسية لمقر الفرنسيين. ولمعت دروع الزرد ودروع الصد تحت الشمس المشرقة.

قال واحد من القادة الرقباء عند البوابة الذي كان مدعومًا باثني عشر حارسًا عالي التسليح بالفرنسية: «توقفوا هناك». وقد عرف بالفعل زيَّ زملائه الجنود، لذا فقد أمرهم: «عرِّفوا عن أنفسكم!».

تكلم إتزيو بالفرنسية بطلاقة جعلت بارتولوميو يُعجب لها: «أنا الملازم غيموه، وأنا أحضر الجنرال دا ألفيانو الموجود هنا إلى سعادة الدوق الجنرال سيدي دي فالوا. وقد استسلم الجنرال دا ألفيانو، وهو وحده وغير مسلح، وفقًا لمتطلبات سيدي الدوق».

قال قائد الحرس الذي أسرع للقيام بمهامه: «حسنًا أيها الملازم، سيُسر الجنرال من رؤية أن الجنرال دا ألفيانو قد عاد لرشده. لكن ثمة شيئًا، شيئًا بسيطًا للغاية، بخصوص لكنتك، لا يمكنني تحديده. أخبرني من أي منطقة من فرنسا تكون؟».

التقط إتزيو نَفَسه وردَّ بحزم: «مونتريال».

قال قائد الحرس لرقيبه: «افتح البوابة».

هتف الرقيب: «افتحوا البوابات!».

وفي غضون دقائق كان إتزيو يتقدم رجاله داخلين إلى قلب مقر الفرنسيين. وتأخر خطوة حتى يجعل بارتولوميو ورفقة «الأسير» إلى جانبه.

غمغم بارتولوميو قائلًا: «سأقتلهم جميعًا، وسآكل أكبادهم مقلية على الفطور. على أيٍّ حال، لم أعرف أنك تتحدث الفرنسية».

أجابه إتزيو عرضًا: «تعلمتها في فلورنسا على يد فتاتين أعرفهما هناك». وسُرَّ إتزيو لأن لكنته كانت مُرضية وأدت الغرض دون أن يظهر عليه ذلك.

- أيها المحتال! مع هذا يقولون إن هذا أفضل مكان لتعلم أيِّ لغة.

- ماذا، فلورنسا؟

- لا، أيها الأحمق، الفراش!

- اصمت.

- هل أنت متأكد من أن تلك الأصفاد مزيفة؟

- لم يحن الوقت بعد يا بارتو. تحلَّ بالصبر واصمت!

- إن الأمر يستنفد جُلَّ صبري. ما الذي يقولونه؟

- سأخبرك فيما بعد.

وفكر إتزيو أنه كان خيرًا أن فرنسية بارتولوميو اقتصرت على بضع كلمات فحسب، إذ سمع الملاحظات الساخرة التي وُجهت إلى صديقه: «الكلب الإيطالي»، «اركع على ركبتيك أمام أسيادك»، «انظروا إليه كم هو خجلان من نفسه بسبب سقوطه!».

وسرعان ما انقضت محنتهم لما وصلوا إلى أسفل السلم الواسع المؤدي إلى مدخل مقر الجنرال الفرنسي. وكان دي فالوا يقف بنفسه على رأس مجموعة من الجنود وأسيرته بانتاسيليا إلى جانبه. كانت يداها مربوطتين خلف ظهرها، وعلى كاحليها أصفاد فضفاضة سمحت لها بالسير، لكن بخطوات صغيرة. وعند رؤيتها لم يتمالك بارتولوميو نفسه وراح يتمتم في غضب، فركله إتزيو.

رفع دي فالوا يده قائلًا: «لا حاجة إلى العنف أيها الملازم، إلا أني أهنئك على حماستك». وحوَّل اهتمامه إلى بارتولوميو، وقال: «يا جنرالي العزيز، يبدو أن الغشاوة قد انقشعت عن عينيك».

زمجر بارتولوميو غاضبًا: «كُف عن الهراء! وأطلق سراح زوجتي، وأزح هذه القيود عني».

قال دي فالوا: «أوه، يا عزيزي، يا لها من غطرسة من شخص فقير مُعدم».

كان إتزيو على وشك إعطاء الإشارة، عندما ردَّ بارتولوميو على دي فالوا رافعًا صوته: «إن اسمي له قيمته، بخلاف اسمك ذي الصيت الزائف!».

أطرقت القوات المحيطة بهم ولم يصدر عنها أيُّ فعل.

قال دي فالوا الذي امتقع وجهه من الغضب: «كيف تجرؤ على قول هذا؟».

- أتظن أن قيادة الجيش وحدها تمنحك الرفعة والمكانة؟ إن الرفعة الحقيقية للنفس تأتي من القتال جنبًا إلى جنب مع رجالك، وليس باختطاف النساء حتى تفر من المعركة بالخداع.

قال دي فالوا والحقد يعتمل في صدره: «أنتم لا تتعلمون أبدًا أيها الهمج». وأخرج مسدسًا وصوبه إلى رأس بانتاسيليا.

أدرك إتزيو أن عليه التصرف بسرعة، فأخرج مسدسًا وضرب طلقة في الهواء. وفي الوقت نفسه ضرب بارتولوميو، الذي انتظر هذه اللحظة على أحر من الجمر، قبضتيه، فسقطت الأصفاد.

وتلت الفوضى ذلك، فالمرتزقة المرافقون لإتزيو هاجموا من فورهم الجنود الفرنسيين المذهولين، واقتنص بارتولوميو السيف بيانكا من

«الحارس» الذي وقف إلى يساره. وقفز صاعدًا السلم. إلا أن دي فالوا كان أسرع منه. إذ أحكم قبضته على بانتاسيليا، ورجع إلى مقره وصفق الباب من خلفه.

قال بارتولوميو متوسلًا: «إتزيو! عليك إنقاذ زوجتي. وحدك مَن يمكنه ذلك. هذا المكان مثل الخزانة الحديدية».

أومأ إتزيو وحاول أن يمنح صديقه ابتسامة مطمئنة. وراح يتفحص المبنى بعينيه من حيث يقف. لم يكن كبيرًا، لكنه كان بناء متينًا جديدًا، وقد بناه المعماريون العسكريون الفرنسيون وصمموه ليكون منيعًا. ولم يكن ثمة بُد إلا بمحاولة الدخول من الأسطح، حيث لا يتوقع أحد أن يأتي الهجوم من هناك، وبالتالي، حيثما قد توجد نقاط الضعف.

قفز إتزيو صاعدًا الدرج، ومستغلًّا الاشتباك الحاصل بالأسفل والذي استولى على اهتمام الجميع، وراح يبحث عن مكان يتسلق منه. وفجأة، بدأ اثنا عشر رجلًا فرنسيًّا يلاحقونه، ولمعت سيوفهم الحادة تحت شمس الصباح الباكر، في طرفة عين كان بارتولوميو يحول بين إتزيو وبينهم ويلوح ببيانكا متوعدًا إياهم.

ربما صُممت أسوار مقر دي فالوا كي تكون مستحكمة منيعة، لكنها غير مصمتة، فقد حوت ما يكفي من الأركان والشقوق ليرسم إتزيو مسار تسلق بعينيه، وخلال بضع دقائق كان قد تسلق إلى السطح. كان السطح مستويًا ومصنوعًا من الخشب ومغطى بالبلاط، وكان هنالك خمسة حراس فرنسيين متمركزين هناك استوقفوه حينما قفز من فوق حاجز السور طالبين كلمة المرور. ولما لم يستطع إعطاءهم كلمة مرور، جروا باتجاهه حاملين مَطاردهم ووجهوها للأسفل. ومن حسن حظه أنهم لم يكونوا مسلحين بالماسكيت أو المسدسات! أطلق إتزيو النار على أول واحد، ثم استلَّ سيفه وتقاتل مع الأربعة الآخرين، وقاوموه

مقاومة شديدة، فأحاطوا به وراحوا يلكزونه بأسنة أسلحتهم بلا رحمة. وتسبب أحدهم بشق كمِّه وجرح مرفقه مما أراق دمه، لكن السيف انزلق على معدن واقي الرسغ المثبت على ساعده الأيسر فلم يتسبب له بأذى.

وتمكن من الدفاع عن نفسه مستخدمًا السيف وواقي الرسغ في صد الضربات الهستيرية المتزايدة. وحُيدت مهارة إتزيو في استخدام السيف باضطراره للتعامل مع أربعة أعداء في آنٍ واحدٍ، بيدَ أن فِكره المنشغل بزوجة بارتولوميو الحبيبة قد شجعه، فهو يدرك أنه لا يقوى على الفشل، لا توجد فرصة للفشل بالأساس. في نهاية المطاف تحولت دفة القتال لصالحه، فقد خفض رأسه تحت حد سيفين كانا موجهين باتجاه رأسه، واشتبك مع آخَر بواقي الرسغ، ما أفسح له المجال ليحطم سيف الرجل الرابع. وأتاحت له المناورة المساحة التي يحتاج إليها، وقضى على الرجل بضربةٍ قاتلة في فكه. تبقى ثلاثة. اقترب إتزيو من أقرب فرنسي له ضمن مسافة لا تسمح له بالرد على الهجوم، ما ضيق الخناق على الرجل ولم يُمكنه من استخدام سيفه. ثم غرز نصله الخفي في بطن الرجل واخترقه. تبقى اثنان، وبدا كلاهما متوترين. لكن لم يستغرق الأمر من إتزيو أكثر من دقيقتين لهزيمة الحارسين الفرنسيين المتبقيين، ولم تعد لهما أفضلية التفوق العددي. ولم يكن قتالهم بالسيف يضاهي إتقان إتزيو استخدام السيف. والتقط إتزيو أنفاسه بصعوبة ومال على سيفه للحظة، ثم وقف وسط خصومه الخمسة المهزومين.

كان في وسط السقف فتحة ساحة كبيرة. وبعدما أعاد إتزيو تعبئة مسدسه، اقترب من الفتحة في حذر. وكما توقع، وجد نفسه ينظر بالأسفل على فناء بلا زخرفة وخالٍ بلا نباتات أو مقاعد أو طاولات، إلا أنه كان ثمة ثلاثة مقاعد حجرية حول نافورة جافة وحوض مياه.

وبينما ينظر من فوق الحافة، سمع صوتَ طلقة ومرت رصاصة مخترقة الأجواء من جنب أذنه اليسرى، جعلته يتراجع للوراء. لم يعرف إتزيو كم يملك دي فالوا من المسدسات. لو كان واحدًا فحسب، قدَّر أنه سيستغرق عشر ثوانٍ لإعادة تلقيمه. وتحسَّر على تعذُّر استخدامه للقوس، إلا أنه لم تكن باليد حيلة. وكانت هناك خمس إبر سامة موضوعة في مؤخرة حزامه. لكنه يجب أن يكون في نطاق قريب كفاية لاستخدامها، ولم يُرد الإقدام على فعل شيء قد يعرض بانتاسيليا للخطر.

هتف دي فالوا من الأسفل: «لا تقترب قيد أنملة! سأقتلها إن فعلت».

حام إتزيو بالقرب من الحافة، ناظرًا بالأسفل على الفناء، لكن حدَّت حافة السقف من مجال رؤيته. ولم يستطع رؤية أيِّ أحد هناك، إلا أنه شعر بعلامات الفزع في صوت دي فالوا.

نادى الجنرال: «مَن أنت؟ مَن أرسلك؟ رودريغو؟ أخبِره أن الأمر كله خطة تشيزاري».

- يُستحسن لك إخباري بكل ما تعرفه إن أردت العودة إلى بورغونيا سالمًا.

- إن أخبرتك هل ستدعني أذهب.

قال إتزيو آمرًا: «سنرى. يجب ألا يلحق بالمرأة أيُّ ضرر. اخرج في مكانٍ أراك فيه».

ومن تحت إتزيو، خرج دي فالوا من الفناء المُعمد الذي يحيط بالفناء وتمركز بالقرب من النافورة الجافة. كانت يدا بانتاسيليا مربوطة وراء ظهرها، وأمسكها بلجامٍ مربوط برُسنٍ حول رقبتها. كانت قد بكت في وقتٍ سابق، وكان بمقدور إتزيو رؤية هذا، لكنها سكتت الآن، وحاولت إبقاء رأسها مرفوعًا. كانت النظرة التي رمقت بها دي فالوا ازدرائية

لدرجة أنه لو كانت سلاحًا، لتفوقت على جميع أسلحة المخطوطة مجتمعة.

تسأل إتزيو كم من الرجال كانوا يختبؤون بالأسفل معه؟ رغم أن النبرة المشبعة بالخوف في صوته أوحت أن الجنرال قد نفدت خياراته وأنه يشعر بالقلق.

- كان تشيزاري يرشو الكرادلة لإبعادهم عن البابا واجتذابهم لصفه. وبمجرد أن يُخضع بقية البلاد لروما، كان من المفترض عليَّ أن أتقدم نحو العاصمة وأستولي على الفاتيكان، إلى جانب أيِّ شخص آخر يعترض على إرادة القائد العام.

لوَّح دي فالوا بمسدسه في الأنحاء باهتياج، ولما استدار، رأى إتزيو أنه يحمل مسدسين آخرين موضوعين في حزامه.

استرسل دي فالوا في الحديث: «لم تكن فكرتي. أنا بعيد عن هذه المكايد». وتسلل إلى صوته شيء من غروره القديم. وتساءل إتزيو إن كان قد ترك للرجل مسافة ارتفاع كافية للتحرك. فتحرك ليكون في مرمى البصر وقفز بشجاعة إلى الفناء، وهبط جاثمًا مثل الفهد.

صرخ دي فالوا قائلًا: «تراجع! وإلا سوف...».

قال إتزيو هامسًا: «إن مسست شعرة واحدة منها، فإن الرماة بالأعلى سيرمونك بوابل من السهام التي ستملأ جسمك أكثر من القديس سيباستيان. إذ أيتها الروح البريئة النبيلة، ما الذي كنت ستستفيدينه من الأمر؟».

- بما أني من عائلة فالوا، فإن تشيزاري سيمنحني إيطاليا. سأحكم هنا بما يتلاءم مع حقي المكتسب.

كاد إتزيو يضحك، فلم يكن بارتولوميو يبالغ، على النقيض تمامًا، عندما وصف هذا المتبجح بأن له عقل دجاجة! إلا أن بانتاسيليا لا تزال في قبضته، لذا فإنه لا يزال يشكل خطرًا.

- جيد، الآن أطلق سراح المرأة.

- أخرِجني أولًا، وسأطلق سراحها.

- لا.

- إن الملك لويس كله آذان صاغية لي. اطلب ما تتمناه في فرنسا، وستناله. ربما ضيعة؟ لقب؟

- أنا أملك هذه الأشياء بالفعل. هنا. ولن تحكم في ظل وجودها مطلقًا.

قال دي فالوا متملقًا ومغيرًا أسلوبه: «لقد حاول آل بورجيا أن يقلبوا نظام الحكم الطبيعي. وأعتزم تصحيحه مرة أخرى. فالدم الملكي لا بدَّ أن يحكم، وليس ذاك الدم القذر المتعفن الذي يجري في عروقهم». ووجم ثم قال: «وأنا أعرف أنك لست همجيًّا مثلهم».

قال إتزيو وهو يتقدم ببطء: «لا أنت ولا تشيزاري ولا البابا ولا أي أحد لا يدعم السلام والعدل سيحكم إيطاليا ما حييت».

بدا أن الخوف قد جمَّد الجنرال الفرنسي في مكانه. وراحت اليد التي تحمل المسدس موجهًا إلى صدغ بانتاسيليا ترتجف، ولم يتراجع. ويبدو أنهم كانوا وحدهم في مقره، إلا من بعض الموجودين من الخدم الذين اختبؤوا بوازع منطقي.

وسمعوا ضجيجًا ثابتًا وثقيلًا كأنه وقع ضربات متأنية بطيئة وراحت الأبواب الخارجية للمقر تهتز. يلزم أن بارتولوميو قد هزم الفرنسيين وأحضر الكباش لدكِّ الأبواب.

قال الجنرال بصوت متلعثم بعد أن زال عنه كل رُقي: «أرجوك... سأقتلها». ثم رفع بصره إلى الفتحة الموجودة في السقف، محاولًا استراق النظر على رماة إتزيو الخياليين دون أدنى تفكير، كما كان إتزيو يخشى عندما ذكرهم للمرة الأولى، إن ذاك النوع من الجنود قد حلت محلهم طرق الحرب الحديثة، رغم أن القوس لا يزال أسرع كثيرًا في التلقيم من المسدس أو بندقية الماسكيت.

تقدم إتزيو خطوة أخرى للأمام.

- سأمنحك أيَّ شيء تريده. ثمة مالٌ هنا، الكثير من المال، إنه مخصص لأشتري به رجالي، لكن يمكنك الحصول على جميعه. وأنا... أنا... أنا سأفعل أيَّ شيء تريده مني.

كانت نبرته نبرة توسلٍ الآن، وبدا بمظهر بائس لدرجة أن إتزيو بالكاد كبح ازدراءه له. أهذا الرجل حقًّا يرى نفسه ملك إيطاليا؟

وبدا الأمر لا يستحق عناء قتله.

كان إتزيو قريبًا منه الآن ونظر الرجلان بعضهما في عينَي بعض. أولًا أخذ إتزيو بتأنٍّ المسدس ثم اللجام من يدَي الجنرال المتوترتين. وبأنين الخلاص تراجعت بانتاسيليا للوراء وهي تعرج، وراحت تراقب المشهد بوضوح.

قال الجنرال بوهن: «لم أرد إلا الاحترام...».

- لكن الاحترام الحقيقي يُكتسب ولا يورث ولا يُشترى. ولا يُكتسب بالقوة. ويبدو أن مقولة «ليكرهني الناس ما داموا يخافونني» هي أغبى المقولات التي قيلت. ولا عجب أن كاليجولا قد تبنى تلك المقولة. ولا عجب أن كاليجولا عصرنا يتبنى المبدأ نفسه. وأنت تخدمه!

بدت أمارات الإحباط على وجه دي فالوا، وقال: «أنا أخدم ملكي لويس الثاني عشر. ربما تكون محقًّا. أفهم هذا الآن». ثم لمع الأمل في عينيه، واستطرد: «أحتاج إلى مزيدٍ من الوقت... ».

تنهد إتزيو، وقال: «وا أسفاه يا صديقي، ليس لديك متسع من الوقت...». ثم استلَّ سيفه، حينها تفهَّم دي فالوا الوضع وتصرف أخيرًا بكرامة، فركع وخفض رأسه.

قال إتزيو: «ارقد بسلام».



انهارت وسقطت الأبواب الخارجية لمقر دي فالوا مُصدرة صوت تحطم هائل، وظهر بارتولوميو مغبرًا وملطخًا بالدماء لكنه لم يكن مجروحًا، واقفًا في مقدمة قوة من رجاله. وأسرع نحو زوجته واحتضنها بشدة حتى إنه كاد يخنقها، قبل أن ينشغل بفك الرسن عن رقبتها، وكانت أصابعه متوترة ومرتبكة لدرجة أن إتزيو اضطر إلى أن يفعل هذا بدلًا عنه. ثم قطع الأصفاد عن قدميها بضربتين قويتين من بيانكا، وبهدوء أكبر الآن، فكَّ الحبال التي تربط معصميها.

- أوه يا بانتاسيليا، يا حُبِّي ويا قلبي ويا حبيبتي. لا تجرؤي على الاختفاء هكذا مرةً ثانية. لقد كنت ضائعًا في غيابكِ.

- الآن لست ضائعًا، لقد أنقذتني.

بدا بارتولوميو محرجًا: «آه. لا، لا، أنا...لقد كان إتزيو. هو صاحب...».

قال إتزيو مقاطعًا: «سيدتي، أنا مسرور لأنكِ بخير».

- عزيزي إتزيو، كيف أعبِّر لك عن شكري؟ لقد أنقذتني.

- لم أكن إلا وسيلة، جزء فحسب من خطة زوجكِ الذكية.

نظر بارتولوميو إلى إتزيو وعلى وجهه أمارات الحيرة والعرفان.

قالت بانتاسيليا وهي تعانق زوجها: «أميري! بَطَلي!».

تورد خدًّا بارتولوميو وغمز لإتزيو وهو يقول: «حسنًا إن كنتُ أميركِ، فحريٌّ بي أن أستحق هذا اللقب. وتذكري أنها لم تكن فكرتي *بالكلية*، كما تعلمين».

وعندما استعدوا للمغادرة، مشت بانتاسيليا بجانب إتزيو وهمست: «شكرًا لك».

41

بعد مرور عدة أيام بعدما جمَع بارتولوميو ما تبقى من جيش دي فالوا المهزوم، التقى إتزيو بالثعلب في طريقيهما إلى اجتماع دعا إتزيو الأخوية إليه في مخبأ الحشاشين في جزيرة التيبر.

وكان أول سؤال طرحه إتزيو هو: «كيف تجري الأحوال هنا في روما الآن؟».

- على ما يرام يا إتزيو، فمع سقوط الجيش الفرنسي، فإن تشيزاري قد فقد دعمًا مهمًّا. وأخبرتنا أختك كلاوديا أن الإسبان وسفراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد عجَّلوا بالمغادرة لموطنهم، وهزم رجالي عصابة المئة عين.

- ثمة الكثير لنقوم به.

لما وصلا إلى وجهتم وجدوا بقية زملائهم قد تجمَّعوا بالفعل في الغرفة الداخلية للمخبأ، حيث تشتعل النيران في الموقد المتمركز وسط الأرضية.

وبعدما تبادلوا التحيات وجلسوا، وقف ماكيافيلي وترنم قائلًا باللغة العربية: «*لا شيء واقعٌ مطلق، بل كلٌّ ممكن*، إن الحكمة التي تتبعها عقيدتنا تتجلى في هذه الكلمات، نعمل في الظلام لنخدم النور. نحنُ الحشاشون».

ثم وقف إتزيو والتفت إلى أخته، وقال: «كلاوديا، إننا نُكرس حياتنا لحماية حرية الإنسانية. وقد وقف ماريو أوديتوري ووالدنا جيوفاني

أخوه ذات مرة عند نار شبيهة بهذه، وقاموا بالمهمة نفسها. والآن أقدم لك خيار الانضمام إلينا».

مدَّ يده فوضعت يدها في يده. وأخرج ماكيافيلي من النار المِيسَم المعهود المنتهي بشبه دائرتين تشبه الحرف C، والذي يمكن ضمهما عن طريق ذراع في المقبض. وقال بنبرة مهيبة وردد الآخرون وهم بارتولوميو والثعلب وإتزيو الكلمات من بعده: «لا شيء واقعٌ مطلق، بل كلٌّ ممكن».

وكما فعل أنتونيو دي ماغيانس مع إتزيو، وضع ماكيافيلي وعليه حُلة من المهابة والرسمية المِيسَم على بنصر كلاوديا وأغلق الكماشة، حتى ترتسم علامة الخاتم عليه للأبد.

جفلت كلاوديا، لكنها لم تصرخ. وأبعد ماكيافيلي الحديدة ووضعها جانبًا في مكانٍ آمن. وقال لكلاوديا بنبرة رسمية: «مرحبًا بكِ في جماعتنا، أخويتنا».

قالت وهي تدلك إصبعها الموسوم بمرهم مُهدئ من قنينة صغيرة قدمها لها بارتولوميو: «هل هي أُختية كذلك؟».

تبسم ماكيافيلي، وقال: «إن أحببتِ ذلك».

وركزت كل الأعين عليه الآن وهو يستدير نحو إتزيو.

- لم تلتقِ وجهات نظرنا على الكثير من الأمور...

قاطعه إتزيو قائلًا: «نيكولو...»، لكن ماكيافيلي رفع يده ليوقفه: «لكن منذ لحظة التجلي في القبو السري الموجود تحت كنيسة سيستينا، وحتى من قبل ذلك، لقد أثبتَّ مرارًا وتكرارًا أنك أنت مَن تحتاج إليه جماعتنا. لقد تزعمت الهجوم على فرسان الهيكل، وحملت رايتنا عالية خفاقة، وأعدت بناء أخويتنا بثبات بعد انهيارها التام في مونترجيوني». ثم نظر حوله،

واستطرد: «لقد حانت اللحظة يا أصدقائي لتقليد إتزيو رسميًّا المنصب الذي يشغله بالفعل بالموافقة الجماعية، قائدنا. أقدم لكم إتزيو أوديتوري الفلورنسي القائد الكبير لجماعتنا». ثم التفت إلى إتزيو وقال: «يا صديقي من الآن فصاعدًا سيُطلق عليك لقب المُعلم، حامي أخويتنا وأسرارنا».

ترنح رأس إتزيو من تخبط المشاعر، رغم أن بعضًا منه لا يزال يريد الهرب من هذه الحياة التي تحتاج إلى اليقظة كل ساعة، وحتى لا تسمح له إلا بالقليل من الوقت للنوم. إلا أنه تقدم وردد بحزم الكلمات التي تقوم عليها عقيدتهم: «في حين أن الرجال الآخرين مقيدون بالأخلاق والقانون، يجب علينا في سعينا لتحقيق أهدافنا المقدسة أن نتذكر أنه: كلٌّ ممكن، لا شيء واقعٌ مطلق. لا شيء واقعٌ مطلق، بل كلٌّ ممكن».

كرر الآخرون الصيغة من بعده.

قال ماكيافيلي: «والآن حان الوقت لعضوتنا الجديدة لأن تقفز قفزة الإيمان الأعمى».

سلكوا طريقهم إلى كنيسة سانتا ماريا في كوزميدين وتسلقوا برج الجرس. ورمت كلاوديا بنفسها بعناية وبكل شجاعة متبعةً إرشادات بارتولوميو والثعلب في الخواء مع طلوع قرص الشمس الذهبي من الأفق الشرقي، ما جعل طيات فستانها الذهبي تلمع تحت ضوئه. شاهدها إتزيو وهي تهبط بسلام وتمشي مع بارتولوميو والثعلب باتجاه ساحة معمَّدة. والآن بقي ماكيافيلي وإتزيو وحدهما. وفي اللحظة التي أوشك ماكيافيلي على القفز فيها، أوقفه إتزيو.

- لمَ التغيُّر المفاجئ يا نيكولو؟

ابتسم ماكيافيلي، وقال: «أيُّ تغيُّر؟ لطالما ساندتك. ولطالما أخلصت للقضية. وعيبي هو التفكير الفردي. وهو سبب الشكوك التي تساورك، وتساور جيليبرتو. والآن قد ذهبت عنا كل تلك الخلافات. ولم أسعَ أبدًا إلى

القيادة. أنا... أميل لأن أكون مراقبًا لما يجري. والآن لنقفز قفزة الإيمان الأعمى معًا، بصفتنا صديقين ومحاربين رفيقين لصالح العقيدة!».

مدَّ ماكيافيلي يده وهو يبتسم، فأمسكها إتزيو بقوة بقبضة يده. ثم رميا بنفسيهما من على سطح برج الجرس.

وما إن نزلا وانضما إلى رفاقهما حتى أتى ساعٍ. وقال لاهثًا: «سيدي ماكيافيلي، لقد عاد تشيزاري إلى روما وحده من غارته الأخيرة في منطقة رومانيا. وقد ركب قاصدًا قلعة سانت آنجيلو».

قال ماكيافيلي بينما يُدير الساعي حصانه ويسرع بالعودة من الطريق الذي أتى منه: «شكرًا يا ألبرتو».

سأله إتزيو: «إذن؟».

رفع ماكيافيلي راحتيه، وقال: «القرار قرارك أنت، ولا دخل لي».

- نيكولو يُستحسن ألا تتوقف عن إخباري برأيك. فأنا أطلب رأي أكثر مستشاريَّ ثقة.

تبسم ماكيافيلي، وقال: «في هذه الحالة أنت تعرف رأيي بالفعل. فلم يتغير. لا بدَّ من استئصال آل بورجيا. اذهب واقتلهم أيها المُعلم. أنهِ المهمة التي بدأتها».

- نصيحة سديدة.

نظر إليه ماكيافيلي نظرة متفحصة، وقال: «أعرف».

سأله إتزيو: «ما الأمر؟».

- كنت أفكر في تأليف كتاب عن طرق تشيزاري. الآن أعتقد أني سأوازن الكتاب بدراسة لأساليبك أيضًا.

- إن كنت ستكتب كتابًا عني. فلا بدَّ أن تجعله كتابًا قصيرًا!

42

وصل إتزيو إلى قلعة سانت آنجيلو ليجد أن حشدًا قد اجتمع على الضفة المقابلة لنهر التيبر. فاندمج في الحشود المجتمعة وسلك طريقه نحو المقدمة ورأى أن القوات الفرنسية تحمي الجسر المؤدي إلى القلعة، والقلعة نفسها كانت في تخبط تام. راح بعض الجنود يحزمون معداتهم، في حين يتحرك الضباط والملازمون باهتياج بينهم، مصدرين الأوامر بإخراج المعدات ثانية. وتناقضت الأوامر بعضها مع بعض، وعليه نشب العراك في كافة الأرجاء. ورغم أن إتزيو حمل ملابسه في حقيبة معلقة على كتفه، إلا أنه احتاط بلبس الزي الفرنسي الذي لبسه في هجومهم على ثكنات بيرتوريا، والآن خلع العباءة التي تغطيه وأسرع بالمشي إلى الجسر. ولم يلتفت لأمره أيٌّ أحد، لكنه في مروره بالقوات الفرنسية سمع مقاطع من المحادثات الدائرة.

- متى نتوقع حدوث الهجمة من دا ألفيانو ومرتزقته؟
- يقولون إنه في الطريق.
- لمَ يحزمون أغراضهم؟ هل نتراجع؟
- آمل ذلك! كل هذا هراء محض.

ولمح جندي ما إتزيو، فقال: «سيدي! سيدي! ما الأوامر الخاصة بنا؟».

ردَّ إتزيو قائلًا: «أنا في طريقي لمعرفة هذا».

- سيدي!

- ما الأمر؟

- مَن المسؤول الآن بما أن الجنرال دي فالوا قد مات؟

- لا شكَّ أن الملك سيرسل بديلًا عنه.

- هل صحيح يا سيدي أنه مات ببسالة في المعركة؟

ابتسم إتزيو بينه وبين نفسه، وقال: «بالطبع صحيح. وفي مقدمة رجاله».

وواصل سيره باتجاه القلعة.

ما إن دخل إليها، حتى سلك طريقه إلى حواجز الأسوار، ومن موقعه نظر إلى الأسفل إلى الفناء حيث وجد تشيزاري يتحدث إلى قائد الحرس البابوي الذي كان متمركزًا عند باب القلعة الداخلية.

قال تشيزاري بإلحاح: «أريد مقابلة البابا. أريد رؤية أبي *الآن!*».

- بالطبع سموُّك، ستجد قداسة البابا في جناحه الخاص في قمة القلعة.

قال تشيزاري: «إذن ابتعد عن طريقي أيها الأحمق!»، واندفع متخطيًا القائد التعيس الذي راح يصدر أوامر عاجلة بفتح البوابة الصغيرة في الباب الرئيسي لإدخاله. راقب إتزيو المشهد للحظة، ثم سلك طريقه حول محيط القلعة حتى جاء إلى المكان الذي توجد به البوابة السرية. فنزل إلى الأرض ودلف إلى الداخل مستعينًا بمفتاح بيترو.

وما إن دخل حتى نظر حوله في ارتياب، ثم لم يرَ أحدًا فنزل من درج باتجاه الزنازين التي أنقذ منها كاترينا سفورزا. ولما وجد مكانًا هادئًا، خلع زِيَّ الملازم الفرنسي ولبس ملابسه المخصصة للعمل الذي عليه القيام به. ثم تفحَّص أسلحته سريعًا، وارتدى واقي الرسغ والنصل

السام، وتحقق من أن لديه مخزونًا كافيًا من الإبر السامة موضوعة بأمان في حزامه. ثم سلك طريقه ملتصقًا بالجدار باتجاه الدرج المؤدي إلى قمة القلعة. كان الطريق إليها تحت الحراسة وكان عليه إرسال ثلاثة جنود إلى خالقهم قبل أن يستكمل طريقه.

وفي النهاية وصل إلى الحديقة التي رأى فيها لوكريتزيا وعشيقها يلتقيان. في ضوء النهار استطاع رؤية أن جناحها كان ضمن مُجمَّع سكني. إلا أنه كان ثمة جناح أكبر وأفخم يقع خلفه، وخمَّن أن هذا الجناح يخص البابا. لكن بينما هو في طريقه من هذا الاتجاه صادف حديثًا آتيًا من مسكن لوكريتزيا. فمشى خلسة إلى النافذة المفتوحة التي تأتي منها الأصوات، وأنصت. واستطاع رؤية لوكريتزيا، وبدا أنها بحالة جيدة ولم تتأثر بمحنتها في الزنازين، تتحدث إلى المرافق نفسه الذي رآها إتزيو تأتمنه على معلومات تخص علاقتها الغرامية مع بيترو والذي وشى بها إلى أخيها الغيور ونجح نجاحًا واضحًا بدليل عودة تشيزاري السريعة إلى روما.

راحت لوكريتزيا تقول باهتياج: «لا أفهم الأمر، لقد طلبت سُمَّ الكانتريلا الليلة الماضية فحسب. ويفترض بتوفانا أن تسلمني شخصيًّا إياه بحلول الظهيرة. هل رأيتها؟ ما الذي يحدث؟».

- أنا آسف بشدة يا سيدتي، لكني سمعت أن البابا قد اعترض الطرد وأخذه كله لنفسه.

- ذاك الوغد العجوز. أين هو؟

- في مسكنه يا سيدتي، ثمة اجتماع...

- اجتماع؟ مع مَن؟

تردد المرافق، وقال: «مع تشيزاري يا سيدتي».

فكرت لوكريتزيا في الأمر، ثم قالت لنفسها: «هذا غريب. لم يخبرني أبي أن تشيزاري عاد إلى هنا مجددًا».

ثم غادرت الغرفة وهي مستغرقة في التفكير.

ولما غدا المرافق وحده، راح يرتب ويعيد تنظيم الطاولات والكراسي ويتمتم بينه وبين نفسه.

انتظر إتزيو لحظة ليرى إن كان ثمة معلومات مفيدة أخرى، لكن كل ما قاله المرافق كان: «تلك المرأة تتسبب لي بالكثير من المشكلات... لمَ لم أبقَ في الإسطبلات، حيث كنت مرتاحًا؟ هل هذه تسمى ترقية؟! أعرض نفسي للخطر كل مرة أقوم فيها بمهمة. وأيضًا عليَّ تذوق طعامها كل مرة تجلس إلى وجبة طعامها اللعينة». ثم أطرق للحظة، وقال: «يا لها من عائلة!».

43

غادر إتزيو قبل أن يسمع تلك الكلمات الأخيرة. وانسلَّ من الحديقة باتجاه جناح البابا وبما أن المدخل الوحيد كانت عليه حراسة مشددة ولا يريد أن يُلفت الأنظار إليه، ولن يطول الوقت قبل اكتشاف جثث الحراس الذين قتلهم أسفل الدرج، لذا فقد وجد مكانًا يُسهل عليه التسلق إلى واحدة من النوافذ الرئيسية للمبنى دون أن يكتشفه أحد. وصَدَق حدسه بأن هذه ستكون نافذة تطل على غرفة البابا، وكانت لها عتبة خارجية واسعة يمكنه أن يجثم على طرف واحد منها وفي الوقت نفسه يبقى بعيدًا عن الأنظار. وقدر باستخدام نصل خنجره أن يفتح نافذة الضوء الجانبية فتحة صغيرة حتى يسمع أيَّ شيء ربما يقال في الداخل.

كان رودريغو، البابا السادس، وحده في الغرفة واقفًا إلى جوار طاولة عليها وعاء كبير فضي مليء بالتفاح الأحمر والأصفر، والتي أخذ يُعدل من موضعها في ارتباك لما انفتح الباب ودخل تشيزاري بلا سابق إعلان. بدا عليه الغضب، وبلا أيِّ مقدمات، أخذ يتفوه بكلام لاذع.

قال: «ما الذي يجري بحق الجحيم؟».

ردَّ أبوه بتحفُّظ: «لا أعرف ماذا تقصد؟».

- أوه، أجل تعرف. لقد قُطع تمويلي وتفرقت قواتي.

- آه، حسنًا، تعرف أنه بعد الموت... المأساوي لمصرفيِّك الشخصي، تولى أغوستينو كيجي كل شؤونه...

ضحك تشيزاري بمرارة: «مصرفيك *الشخصي*! كان حريًّا بي أن أعرف. وبالنسبة إلى رجالي؟».

- تعصف بنا الضوائق المالية من حين لآخر يا بني، حتى بأصحاب الجيوش والطموحات المفرطة المغرورة.

- هل ستطلب من كيجي صرف المال لي أم لا؟

- لا.

قال تشيزاري وهو يأخذ تفاحة بسرعة وغضب من الوعاء: «سنرى ذلك!». رأى إتزيو أن البابا كان يشاهد ابنه بعناية. وقال البابا بنبرة فاترة: «لن يساعدك كيجي. إنه أقوى من أن ينصاع لإرادتك».

قال تشيزاري ساخرًا: «في تلك الحالة، سأستخدم قطعة عدن لأحصل على ما أريد. وسأجعل مساعدتك أمرًا غير مجدٍ». ثم قضم التفاحة بابتسامة خبيثة.

قال البابا بجفاء: «لقد اتضح لي هذا وضوح الشمس فعلًا. وبالمناسبة، أظن أنك تعرف أن الجنرال دي فالوا قد مات؟».

اختفت ابتسامة تشيزاري في لمحة، وقال: «لا، لقد عدت من فوري إلى روما». تضمنت نبرته تهديدًا، وتابع: «هل قمت...؟».

فردَ البابا يديه، وقال: «ما السبب الممكن الذي يدفعني لقتله؟ أكان يحيك مؤامرات ضدي مع قائدي العام العزيز الذكي الخائن؟».

قضم تشيزاري قضمة أخرى، وقال بغضب وهو يمضغ التفاحة: «لست مُضطرًّا إلى تحمُّل هذا».

- إن كان يتحتم عليك أن تعرف، فقد قتله الحشاشون.

بلع تشيزاري ما يمضغه واتسعت عيناه، وتغير لونه من الغضب، وقال: «لمَ لم توقفهم؟».

- كأنه كان بمقدوري فعل هذا. لقد كان قرار الهجوم على مونترجيوني قرارك وحدك، وليس لي دخل فيه. وحان الوقت لتتحمل مسؤولية أخطائك، إن لم يكن قد فات الأوان.

ردَّ تشيزاري بتفاخر: «تقصد أفعالي. رغم التدخل المستمر من الفشلة أمثالك».

استدار الشاب للمغادرة، لكن البابا أسرع بالالتفاف حول الطاولة لسد طريق خروجه من الباب.

قال البابا غاضبًا: «لن تذهب إلى أيِّ مكان. وأنت مخدوع، إذ إن قطعة عدن بحوزتي *أنا*».

- كذاب، ابتعد عن طريقي أيها الأحمق العجوز.

هزَّ البابا رأسه في أسًى، وقال: «لقد منحتك كل ما قدرت عليه، إلا أنه لم يكن كافيًا أبدًا».

في تلك اللحظة، رأى إتزيو لوكريتزيا تدخل مندفعة إلى الغرفة، وعيناها مهتاجتان. وصرخت: «تشيزاري! احترس إنه ينوي تسميمك».

تصلب تشيزاري مكانه، ونظر إلى التفاحة التي في يده، ثم بصق القطعة التي قضمها لتوه، وتجمَّد وجهه. وتحولت تعابير وجه رودريغو من الانتصار إلى الخوف. ثم تراجع للوراء مبتعدًا عن ابنه، جاعلًا الطاولة بينهما.

قال تشيزاري وعيناه تحدقان بأبيه: «يسممني؟».

قال البابا متلعثمًا: «لم تكن... لتصغي إلى صوت العقل».

ابتسم تشيزاري وهو يتقدم في تأنٍّ شديد نحو رودريغو، قائلًا: «أبي. العزيز أبي. ألا ترى؟ أنا أتحكم في كل شيء. *كل* شيء. إن أردت العيش، رغمًا عن جهودك، فلا بدَّ أن أعيش. وإن كان هناك شيء، *أيّ*

شيء، أريده، فإني آخذه». ثم اقترب من البابا وأمسكه من تلابيبه، ورفع التفاحة المسمومة في يديه، وقال: «مثلًا، إن أردتُ موتك، فستموت!».

وسحب تشيزاري أباه إليه وأقحم التفاحة في فمه المفتوح قبل أن يتمكن من إغلاقه وأمسكه من رأسه وفكه وأرغم شفتيه على الإطباق معًا ليغلق فمه على التفاحة. حاول رودريغو المقاومة لكنه اختنق بفعل التفاحة ولم يقدر على التنفس. ثم سقط أرضًا وهو يعاني سكرات الموت وراح ولداه يشاهدانه ببرود وهو يحتضر.

لم يُهدر تشيزاري أيَّ وقت، فجثا على ركبتيه وراح يفتش في ملابس أبيه الميت. فلم يجد شيئًا. فوقف ومال على أخته التي تراجعت لاقترابه منها. وصرخت: «لا بُدَّ... وأن تطلب المساعدة. إن السم يجري بداخلك».

صرخ بصوت أجش: «هذا لا يكفي. أتظنين أني بهذه الدرجة من الحماقة بألا آخذ الترياق الوقائي قبل المجيء إلى هنا؟ أنا أعرف أي ساقط مخادع يكون والدنا، وكيف سيتصرف إذا أحسَّ للحظة بأن السلطة الحقيقية تميل في كفتي. والآن لقد قال بأنه يملك قطعة عدن».

- لقد... لقد... قال الحقيقة.

لطمها تشيزاري، وقال: «لمَ لم تقولي لي هذا؟».

- كنت بالخارج... لقد نقلها... إذ خشي أن الحشاشين قد...

لطمها تشيزاري مجددًا: «لقد تآمرتِ معه!».

- لا! لا! لقد ظننت أنه أرسل الرسل لإخبارك.

- كذابة!

- أنا أقول الحق، ظننت حقًّا أنك تعرف، أو على الأقل قد أُخبرت بأمر ما فعله.

لطمها تشيزاري مرة أخرى بشدة هذه المرة لدرجة أفقدتها توازنها وجعلتها تسقط.

قالت وهي تعاني لالتقاط أنفاسها والفزع في عينيها: «تشيزاري، هل أنت مجنون. أنا لوكريتزيا. أنا شقيقتك. صديقتك. ملكتك»، ثم نهضت ووضعت يدها برفق على خديه لتربت عليهما. وكان ردَّ تشيزاري على هذا أن أمسكها من حلقها وهزها مثلما يهز كلب الترير النمس.

قال وهو يقرب وجهه من وجهها، مندفعًا نحوها بعدوانية: «ما أنتِ إلا محض ساقطة. الآن أخبريني»، وتابع بصوت منخفض ينذر بالشر: «أين هي؟».

بانت الدهشة في صوتها لما ردَّت وهي تختنق في معاناتها لتتكلم: «أنت... لم تحبني أبدًا؟».

كان رده أن ترك حلقها وضربها ثانية، ولكن هذه المرة بالقرب من عينيها بقبضة يده المغلقة.

صرخ قائلًا: «أين التفاحة؟ التفاحة! أخبريني؟».

بصقت في وجهه، وأمسك بذراعها ورمى بها أرضًا، وركلها بقوة وهو يردد سؤاله مرارًا وتكرارًا. توتر إتزيو، مجبرًا نفسه على عدم التدخل، فقبل كل شيء عليه معرفة الإجابة، رغم أنه صُدم مما يراه.

ثم قالت في النهاية بصوت منكسر: «حسنًا، حسنًا».

فأنهضها على قدميها ووضعت شفتيها بالقرب من أذنه وهمست له بمكانها، مما أثار حنق إتزيو.

ولما شعر تشيزاري بالرضا، دفعها بعيدًا، وقال: «قرار ذكي يا أختي الصغيرة». حاولت التشبث به، لكنه دفعها بعيدًا بإيماءة توحي بالاشمئزاز وخرج مسرعًا من الغرفة.

وما إن غادر، حتى هشم إتزيو النافذة ونزل بالقرب من لوكريتزيا التي فزعت لدخوله والتصقت بالجدار. جثا إتزيو سريعًا بالقرب من جسد رودريغو الخامد وتحسس نبضه. فلم يجد نبضًا.

همس إتزيو قائلًا: «ارقد بسلام»، ثم نهض ثانيةً وواجه لوكريتزيا التي نظرت إليه وابتسمت بمرارة، ثم عاد إلى عينيها بعض من الحماس عند رؤيته.

- أكنت هناك؟ طوال الوقت؟

أومأ إتزيو.

قالت: «جيد، أعرف أين يذهب الوغد».

- أخبريني.

- بكل سرور. كنيسة سانت بيتر. السرادق الذي في الفناء.

- شكرًا لكِ سيدتي.

- إتزيو.

- نعم؟

- توخَّ الحذر.



44

ركض إتزيو على طول ممر الباسيتو دي بورجو الممتد على طول منطقة بورجو ويصل قلعة سانت آنجيلو بالفاتيكان. وتمنى لو تمكن من جلب بعضٍ من رجاله معه، أو لو تسنى له الوقت لإيجاد حصان إلا أن الضرورة أكسبت رجليه جناحين، وأطاح بأيٍّ حراس يقابلهم جانبًا بسبب ركضه المندفع السريع.

ما إن وصل إتزيو إلى الفاتيكان، حتى سلك طريقه إلى السرادق الذي في الفناء، حيث أشارت لوكريتزيا إلى مكان وجود التفاحة. وبموت رودريغو، كان هنالك فرصة مواتية لتنصيب بابا جديد غير خاضع لنفوذ آل بورجيا، بما أن مَجْمَع الكرادلة، بخلاف أولئك الأعضاء الذين اشتُري ولاؤهم بالمال الكثير، قد سئم وكره سيطرة هذه العائلة الأجنبية عليه.

لكن في الوقت الحالي يتعين على إتزيو إيقاف تشيزاري، قبل أن تقع التفاحة في قبضته ويستخدم قواها، بغض النظر عن مدى فهمه البسيط لها، كي يضع قبضته من جديد على كل الأرض التي خسرها.

والآن حان الوقت ليتخلص من عدوه للأبد، فإما أن يحدث هذا الآن أو لن يحدث مطلقًا.

لما وصل إتزيو إلى الفناء وجده خاليًا. ولاحظ أنه في الوسط يوجد، بدلًا من نافورة، منحوتة كبيرة من الحجر الرملي على شكل مخروط صنوبر في كأس حجرية على قاعدة أساس. وكانت بعلو عشرة أقدام.

فتفحص باقي الفناء المشمس، إلا أنه كان خاليًا وله أرضية مغبرة بيضاء تحرق الأعين من شدة سطوعها. لم يضم المكان ساحة مُعمَّدة حتى، ولا توجد فيه أيٌّ زينة على جدران الأبنية المحيطة، رغم وجود صفوف من النوافذ الصغيرة المرتفعة بالأعلى، وعلى المستوى الأرضي باب واحد يخلو من أي رسوم في أيٍّ جوانب والتي كانت جميعها مغلقة. كان مكانًا كئيبًا على نحو غير عادي.

عاود النظر على مخروط الصنوبر واقترب منه. ولما أمعن النظر، رأى فتحة ضيقة بين قبة المخروط وجسمه تمتد حول محيط المخروط. ولما تسلق القاعدة الأساسية، وجد أنه قادرٌ على تثبيت نفسه بقبض أصابع قدميه. وبالإمساك بيد واحدة، مرر يده الأخرى على حافة المخروط حيث كانت الفتحة، متحسسًا برفق وجود أيٍّ عيب قد يكشف عن زناد أو زر.

ها هو! لقد وجده. ضغط إتزيو عليه برفق، فانفتح الجزء العلوي من المخروط على مفصلات برونزية مخفية، مثبتة بإحكام في الحجر الأملس ومعززة بالإسمنت. في وسط المكان المجوف الذي ظهر الآن، رأى جعبة جلدية خضراء داكنة. راح يعبث برباط الشَّد بيده، وأكَّد البريق اللامع الذي رآه في الأعماق آماله بأنه قد وجد التفاحة!

اشتد خوفه بينما يخرج الجعبة، فهو يعرف آل بورجيا، ولم يكن هناك ما يضمن أن هذا ليس كمينًا خداعيًّا، إلا أنه كان عليه أن يغامر.

أين كان تشيزاري بحق الجحيم؟ لقد سبقه الرجل ببضع دقائق، وقد أتى إلى هنا بلا شك ممتطيًا حصانه.

هتف صوت بارد قاسٍ من خلفه قائلًا: «سآخذ هذه». نزل إتزيو إلى الأرض برفق والجعبة في يده واستدار لمواجهة تشيزاري الذي اندفع لتوه داخلًا من باب الجدار الجنوبي ومن ورائه قوة من حرسه الشخصي الذين توزعوا في جنبات الفناء، مطوقين إتزيو.

فكر إتزيو: *بالطبع لم يخطر في باله وجود منافس لذا فقد أضاع الوقت في جمع الدعم.*

قال لتشيزاري مستهزئًا: «سبقتك إليها».

- لن تفيدك بشيء يا إتزيو أوديتوري. لقد أرَّقتَني لوقت طويل. لكن هذا ينتهي هنا. الآن. إن سيفي سيُنهي حياتك.

استلَّ سيف السكيافونا الحديث الذي له مقبض يشبه السلة وتقدم نحو إتزيو. لكن حينها فجأة، تغير لونه وأمسك بطنه، وسقط سيفه لما انحنت ركبتاه. ففكر إتزيو وهو يتنهد تنهيدة ارتياح: *يبدو أن الترياق المضاد ليس فعالًا.*

قال تشيزاري بصوتٍ مبحوح وهو يحاول الوقوف على قدميه: «يا حراس!».

كان هناك عشرة حراس، منهم خمسة مسلحون بالماسكيت. بذل إتزيو وسعه لتفادي طلقات نيرانهم، وأصابت طلقات بنادق الماسكيت الأرض والجدران. مشى إتزيو بخفة ليحتمي خلف عامود. وسحب الإبر السامة من حزامه، وخرج من وراء الساتر الذي يحتمى فيه، واقترب بدرجة كافية من الحراس المسلحين بالماسكيت ليقذفهم بالإبر واحدًا بعد الآخر. لم يتوقع رجال تشيزاري أيَّ هجوم، وراحوا يتبادلون النظرات فيما بينهم في ذهول. رمى إتزيو إبره، وأصابت كل إبرة منها هدفها في مقتل. وفي غضون دقائق، سقط ثلاثة حراس، وكان تأثير السمِّ الذي في الإبر قاتلًا.

استعاد أحد المسلحين بالماسكيت رباطة جأشه للحظة وألقى سلاحه مثل الهراوة، لكن إتزيو انحنى ومر السلاح من فوق رأسه. ثم أطلق الإبرتين التاليتين سريعًا، حتى سقط كلُّ المسلحين بالماسكيت. ولم يتسع الوقت لإتزيو حتى يستعيد إبره كما اقترح عليه ليوناردو.

انقضَّ خمسة سيافين بعدما استفاقوا من صدمتهم الأولى، لأنهم افترضوا أن أصحابهم سيقضون على الحشاش سريعًا، مشهرين سيوفهم الحدباء الثقيلة. كان إتزيو أشبه بالراقص فيما بينهم وهو يتفادى ضرباتهم الخرقاء، فقد كان السيف ثقيلًا جدًّا للقتال وسرعة الحركة، وأطلق النصل السام الجديد وأخرج خنجره. أدرك إتزيو أنه لا يوجد وقتٌ كافٍ ليشتبك مع الجنود قبل أن يقدم تشيزاري على فعل أيِّ شيء، لذا فقد اعتمد أسلوب قتال خفيف وفعال أكثر من المعتاد، حيث فَضَّل تحييد سيوف خصومه بخنجره واستخدام النصل السام لإنهاء مهمته. سقط أول اثنين بكل هدوء، في تلك اللحظة قرر الثلاثة المتبقون أن يهجموا هجمة رجلٍ واحد. تراجع إتزيو سريعًا للوراء قدر خمس خطوات ورفع خنجره إلى الأعلى بشدة، واندفع نحو أقرب الحراس الثلاثة المقتربين. وفي اقتراب إتزيو منهم، نزل على ركبتيه، منزلقًا على الأرضية من تحت سيف أحد الحراس المذهولين. جرح النصل السام ركبة الرجل بينما ينزلق إتزيو متخطيًا إياه، مسرعًا باتجاه الحارسين المتبقيَين، في الوقت الذي يقطع خنجره أوتار سيقانهم السفلية. صرخ الرجلان عندما أصاب نصل إتزيو هدفه وسقط الرجلان لما خارت ساقاهما.

شاهد تشيزاري كل هذا في نُكران تام، ولما اتجه إتزيو نحو آخر ثلاثة حراس، قرر تشيزاري ألا ينتظر نتيجة القتال. فقد استجمع ذاته بالقدر الكافي ليُدبِر هاربًا.

لما طوَّق الحراس إتزيو وعجز عن ملاحقته، راقبه وهو يختفي بطرف عينيه.

لا بأس إذن لأن التفاحة لا تزال بحوزته، وهو يتذكر ما يكفي من قوتها -كيف له أن ينسى- لاستخدامها بعدما ينفضُّ القتال، وذلك

لإرشاده إلى مسار مغاير بديل لما أتى منه عبر الفاتيكان، ظنًّا -كما فعل- أن تشيزاري لن يُضيع الوقت في تأمين ممر باستيو دي بورجو. وبلمعانها من داخل الجعبة، أوضحت التفاحة على سطحها طريقًا عبر الأروقة والغرف المطلية العالية لمكاتب الفاتيكان باتجاه كنيسة سيستينا، ومن هناك عبَر ممرًّا يؤدي إلى الاتجاه الجنوبي نحو كنيسة سانت بيتر نفسها. كانت قوتها هي أن الرهبان والكهنة المارين في جنبات الفاتيكان ابتعدوا عن طريق إتزيو، متحاشين إياه وبقي الحرس البابوي ثابتين في أماكنهم.

وتساءل إتزيو عن مدى سرعة انتشار خبر موت البابا عبر التسلسل الهرمي في الفاتيكان. فالتخبط الذي سيَتبع ذلك سيحتاج إلى قبضة من حديد للسيطرة عليه، وأمل ألا تسنح الفرصة لتشيزاري ليستغل أيَّ شكوك ليطلب أيَّ منصب لنفسه، إن لم يطلب البابوية، فلا شك أن هذا كان بعيدًا عن مناله، ومن ثَم يؤثر على الانتخاب كي يُنَصب بابا جديد على عرش كنيسة سانت بيتر يطاوع طموحاته.

وفي مروره بمنحوتة مايكل آنجلو الشاب الرائعة الجديدة لبيتتا على يساره، ترك إتزيو الكاتدرائية وذاب ضمن الحشود السائرة في الساحة القديمة المتهالكة الممتدة أمام المدخل الشرقي.

45

بحلول الوقت الذي وصل فيه إتزيو إلى مخبأ الحشاشين في جزيرة التيبر، راحت أجراس الكنائس تدقُّ في كل جنبات روما. كانت تُعلن نبأ وفاة البابا.

وجد إتزيو أصدقاءه بانتظاره.

فقال مُعلنًا: «لقد مات رودريغو».

قال ماكيافيلي: «لقد خمنا الشيء نفسه من قرع الأجراس. عملٌ رائع».

- لم تكن فعلتي، بل فعلها تشيزاري.

ذُهل ماكيافيلي لبعض الوقت من هول الفكرة، ثم عاود الحديث: «وماذا عن تشيزاري؟».

- إنه على قيد الحياة رغم أن البابا حاول تسميمه قبل أن يموت.

قال الثعلب: «الثعبان يعضُّ ذيله».

هتفت كلاوديا: «إذن حُلت المشكلة!».

قال ماكيافيلي: «لا، إن حرَّر تشيزاري نفسه من قبضة أبيه، قد ينجح في استعادة مكانته التي خسرها، علينا ألا نسمح له بتجميع أنصاره المتبقين. إن الأسابيع القادمة ستكون صعبة».

قال إتزيو بحزم: «سأوقع به بمساعدتك».

علَّق الثعلب قائلًا: «إن نيكولو محق، علينا التصرف بسرعة. هل سمعتم تلك الأبواق؟ إنها استدعاء لقوات آل بورجيا لتحتشد».

سأل بارتولوميو: «هل تعلم المكان؟».

- على الأرجح أنهم سيحشدون قواتهم في الساحة الموجودة أمام قصر تشيزاري في تراستيفيري.

قال بارتولوميو: «سيقوم رجالي بدورات في المدينة، لكننا سنحتاج إلى جيش كامل للقيام بالأمر على أتم وجه».

أخرج إتزيو التفاحة بعناية من جعبتها. فتوهجت توهجًا باهتًا، وقال: «لدينا واحد. أو شيءٌ ما بنفس كفاءته».

سأله ماكيافيلي: «هل تعلم كيف تستخدمها؟».

أجاب إتزيو: «أتذكر ما يكفي من تجارب ليوناردو معها منذ وقتٍ طويل في البندقية». ثم رفع التحفة الفنية عاليًا، وركز محاولًا إسقاط أفكاره عليها.

لم يأتِ أيُّ ردٍّ في البداية، وكان على وشك الاستسلام لما بدأت التفاحة في التوهج أكثر فأكثر ببطء في البداية ثم بطاقة متزايدة، إلى أن جعلهم النور الذي ينبعث منها يغطون أعينهم.

صرخ بارتولوميو بصوت عالٍ قائلًا: «تراجعوا!»، وشهقت كلاوديا في قلق، وحتى الثعلب بدأ في التراجع.

قال ماكيافيلي: «لا، إنه علم لكنه خارج نطاق معرفتنا». ثم نظر إلى إتزيو وقال: «لو كان ليوناردو هنا».

قال إتزيو: «لا بأس ما دامت تخدم أهدافنا».

قال الثعلب: «انظروا إنها تُظهر لنا برج جرس كنيسة سانتا ماريا في تراستيفيري. هذا هو المكان الذي يجب أن يكون فيه تشيزاري».

هتف بارتولوميو: «لقد كنت محقًّا، لكن انظر إلى عدد القوات التي لا يزال يملكها».

قال إتزيو حينما اختفى المشهد المعروض وغدت التفاحة خاملة: «أنا ذاهب الآن».

- إننا قادمون معك.

قال إتزيو رافعًا يده: «لا، يا كلاوديا أريدكِ أن تعودي إلى ماخور الوردة المتفتحة وتجعلي فتياتكِ يعرفن ما يمكنهنَّ عن خطط تشيزاري، ثم احشدي مجندينا. وأنت يا جيلبرتو، اطلب من لصوصك التفرق في جنبات المدينة والإتيان بأي أخبار عن فصائل فرسان الهيكل ربما تعمل على إعادة تنظيم صفوفها. إن أعداءنا يقاتلون من أجل حياتهم. وأنت يا بارتولوميو، نظِّم صفوف رجالك وجهزهم للتحرك فورًا عندما تأتيك الأوامر بذلك».

استدار نحو ماكيافيلي، وقال: «نيكولو اذهب إلى الفاتيكان. سيعقد مَجْمَع الكرادلة اجتماعًا سريًّا قريبًا لاختيار البابا الجديد».

- بالطبع، وسيحاول تشيزاري استخدام أيِّ نفوذ يملكه ليُنصب مرشحًا مفضلًا عنده إلى العرش البابوي، أو على الأقل أحد الأشخاص الذين يمكنه التلاعُب بهم.

- لكن الكاردينال ديلا روفيري يتمتع بنفوذ كبير الآن، وهو العدو اللدود لآل بورجيا، كما تعلم. لو فقط...

- سأذهب لأتحدث مع الكاردينال أمين خزانة الكرسي الرسولي. قد تكون فترة الانتخابات طويلة وممتدة.

- علينا استغلال كل ميزةٍ ممكنة خلال الفترة الانتقالية. شكرًا لك يا نيكولو.

- كيف ستتمكن من إدارة الأمور بمفردك يا إتزيو؟

قال إتزيو وهو يُعيد التفاحة إلى الجعبة برفق: «أنا لست وحدي. سآخذ هذه معي».

قال بارتولوميو بنبرة تنمُّ عن عدم ثقة: «ما دمت تعرف طريقة إبقائها تحت السيطرة. إن طلبت رأيي، إنها صنيعة من ورشة بعلزبوب».

- في الأيادي الخطأ، ربما. لكن ما دامت بحوزتنا...

- إذن لا تغفل عنها، فضلًا عن ألا ترخي قبضتك عليها.

حينها تفرقوا، كلٌّ يسرع إلى تأدية ما أملاه عليه إتزيو من واجبات. أما إتزيو فقد عبر الضفة الغربية للنهر وركض لمسافة قصيرة نحو الكنيسة التي تعرَّف عليها إتزيو في الرؤية التي أظهرتها لهم التفاحة.

لقد تغير المشهد بحلول الوقت الذي وصل فيه إتزيو إلى الكنيسة، رغم أنه رأى وحدات من الجنود يرتدون زِيَّ تشيزاري يقطعون طريقهم إلى الساحة في مجموعات منظمة، كما لو أنهم يتبعون أوامر. كان هؤلاء رجالًا منضبطين يفهمون أن الفشل يعني هلاكهم.

لم تظهر أي دلائل على وجود تشيزاري، لكن إتزيو أدرك أنه يتعين أن المرض لا يزال يُصاحبه من تبعات السُّم. ولا بدَّ أن استدعاء حشد القوات قد استنفد قواه. ثمة مكان وحيد سيفكر بالتراجع إليه ألا وهو قصره المُحصن غير البعيد عن هنا. فانطلق إتزيو باتجاهه.

اندمج إتزيو وسط مجموعة من خدم آل بورجيا يضعون شعار تشيزاري الشخصي على أكتاف عباءتهم. كانوا مهتاجين بشدة ليلاحظوه، حتى لو لم يستعن بالتفاحة ليتخفى عن الأنظار. وانسلَّ مستخدمًا الحراس ساترًا له في عبوره من بوابات القصر، والتي فُتحت لهم سريعًا ثم بالسرعة نفسها انغلقت من ورائهم.

تسلل إتزيو إلى ظلام الرواق المُعمد في فناء القصر ومشى على طول محيط الجدران الداخلية، وتوقف لينظر في كل نافذة مفتوحة. ثم رأى في الأمام بابًا عليه حارسان متمركزان خارجه. تلفَّت حوله، فوجد أن باقي الفناء كان خاليًا. فاقترب في صمت، وأخرج نصله الخفي، وانقضَّ على الحارسين قبل أن يستوعبا ما يجري. فقتل منهما واحدًا في الحال. وتمكن الآخر من توجيه ضربة لإتزيو كادت أن تفصل يده اليسرى عن ذراعه لولا وجود واقي الرسغ. ولما استفاق الرجل من دهشته مما بدا كأنه ضرب من الشعوذة، غرز إتزيو النصل أسفل عنقه، وسقط بثقله على الأرض.

كان الباب غير مقفل، ولما حاول إتزيو اختبار مفصلاته والقلق يعتريه من أن يصدر عنه أيٌّ صوت، وجدها مُزيَّتة جيدًا، لذا فقد تسنى له الولوج إلى الغرفة دون أن يشعر به أحد.

كانت الغرفة كبيرة وكئيبة. واختبأ إتزيو خلف ستارة من قماش النجود قرب الباب، أسدلت حتى تحجب تيارات الهواء، وشاهد الرجال يجلسون بالقرب من طاولةٍ من شجر السنديان في منتصف الغرفة. وانتشرت على الطاولة أوراق وأضاءتها شموع في شمعدانين من الحديد. جلس على رأسها تشيزاري وطبيبه الشخصي، جاسبر توريلًا إلى جانبه. كان وجهه ممتقعًا، ويتصبب عرقًا وهو يحدق إلى ضُباطه.

أخذ يقول وهو يقبض على ذراعَي كرسيه بشدة كي يبقى واقفًا: «لا بدَّ أن تطاردوهم».

قال أحدهم بنبرة تنمُّ عن قلة حيلة: «إنهم موجودون في كل مكان وغير موجودين في أيِّ مكان في الوقت نفسه».

- لا أهتم بالطريقة التي ستقوم بها بالأمر!

- لا يمكننا ذلك يا سيدي، ليس من دون توجيهاتك. فقد أعاد الحشاشون تجميع صفوفهم. ومع غياب الفرنسيين أو في حالة الفوضى، فإن رجالنا بالكاد يقدرون على مضاهاتهم. فهم ينشرون جواسيس في كل مكان، ولم تعد شبكتنا قادرة على التخلص منهم. وحوَّل إتزيو أوديتوري عددًا كبيرًا من المواطنين لصالح قضيته.

تنهد تشيزاري وهوى على كرسيِّه، وقال: «أنا مريضٌ أيها الأحمق. أنا أعتمد على مبادراتكم. لقد كدت ألقى حتفي، إلا أن شوكتي لم تنكسر».

- سيدي...

قال تشيزاري: «فقط أبعدوهم، لو أن هذا أفضل ما يمكنكم». وتوقف ليلتقط أنفاسه ومسح الدكتور توريلًّا جبينه بقطعة قماش مبللة بالخل، أو مادةٍ ما لاذعة لها رائحة نفاذة، متمتمًا برفق لمريضه وهو يفعل هذا. تابع تشيزاري: «عما قريب، عما قريب سيصل ميكيليتو إلى روما بقواتي الخاصة من منطقة رومانيا والشمال، وسترون حينها كيف أن الحشاشين سينهزمون سريعًا».

دخل إتزيو وأخرج التفاحة، وقال بنبرة تنمُّ عن سُلطة حقيقة: «لقد خدعت نفسك يا تشيزاري».

نهض تشيزاري من كرسيه، والخوف يُطل من عينيه، وقال: «أنت! كم لك من الأرواح يا إتزيو؟ لكن هذه المرة ستموت بالتأكيد». وصرخ على ضباطه في الوقت نفسه الذي سمح لطبيبه أن يُخرجه على عجل من الغرفة بعيدًا عن الخطر عبر باب داخلي قائلًا: «نادوا الحراس! الآن!».

توجه أحد الضباط بسرعة البرق إلى الباب ليطلق الإنذار بينما أخرج الآخرون مسدساتهم ووجَّهوها نحو إتزيو، الذي أخرج التفاحة

من جعبتها بالسرعة نفسها ورفعها عاليًا، وركز تركيزًا شديدًا وأنزل قلنسوة ردائه على عينه ليحميها.

بدأت التفاحة تتذبذب وتتوهَّج، وتحول الوهج إلى توهج شديد لا تصدر عنه أيُّ حرارة، بل كان ساطعًا سطوع الشمس. وتحولت الغرفة إلى اللون الأبيض.

هتف أحد الضباط وهو يطلق النار باهتياج قائلًا: «أيُّ نوع من السحر هذا؟». وبالصدفة ضربت طلقة التفاحة، إلا أنها لم تؤثر عليها إلا كأثر حفنة من الرماد.

صرخ آخر وهو يحاول بلا جدوى حماية عينيه، مترنحًا كالأعمى باتجاه ما اعتقد أنه الباب قائلًا: «حقًّا الرب يقف إلى جانب هذا الرجل!».

وبازدياد النور، مشى الضباط متعثرين نحو الطاولة، مغطين أعينهم بأيديهم.

- ما الذي يحدث؟

- كيف يمكن هذا؟

- لا تضربني يا ربي!

- لا يمكنني أن *أرى*!

زمَّ إتزيو شفتيه معًا وهو يصبُّ جام تركيزه على محاولته إسقاط إرادته عبر التفاحة، لكن لم يجرؤ على رفع نظره من تحت طرف قلنسوته الواقية. كان عليه أن يحدد اللحظة المناسبة للتوقف. ولما فعل ذلك، أصابته موجة من الإرهاق حينما أصبحت التفاحة فجأة خاملة وضوؤها يجعلها مخفية. لم يُسمع أيُّ صوت في الغرفة. ورفع إتزيو قلنسوته بحذر ورأى أن الغرفة كانت على حالتها السابقة تقريبًا. وتشعُّ الشموع الموجودة على الطاولة ببقعة من الضوء في قلب العتمة

وواصلت الاشتعال بوقعٍ مطمئن تقريبًا، كأن شيئًا لم يحدث. كانت ألسنة اللهب الصادرة منها ثابتة، كما لو أنه لا توجد أي نسمة هواء.

وابيضَّت المنسوجة الجدارية الموجودة في ستارة قماش النجود وضاعت كل ألوانها، وطرح الموت الضباط أرضًا حول الطاولة، عدا الذي حاول أولًا الوصول إلى الباب، كان منحنيًا عليه، ويده لا تزال تمسك بالمزلاج. مشى إتزيو نحوه وتعين عليه تحريكه حتى يمكنه أن يغادر.

ولما قلَّب الرجل، نظر عن غير قصدٍ إلى عينيه. وتمنى لو أنه لم ينظر، فقد كان منظرًا لن ينساه مطلقًا.

قال إتزيو: «ارقد بسلام»، وأقرَّ بالاعتراف المخيف أن التفاحة لها بالفعل قدرات لو أطلقت دون رقابة يمكنها أن تتحكم في عقول البشر وتفتح إمكانيات وعوالم خياليَّة.

يمكن للتفاحة أن تجلب خرابًا رهيبًا يستعصي على المخيِّلة نفسها الإتيان به.

46

لم يكن الاجتماع السري حاسمًا. ورغم جهود الكاردينال ديلا روفيري ليتفوق على تشيزاري، بيدَ أن تشيزاري كان ما زال يتمتع بالنفوذ الكافي لتحييده. وأبقى الخوف أو المصالح الشخصية الكرادلة متزعزعين. خمَّن ماكيافيلي ما كانوا يحاولون القيام به، فقد يختارون مرشحًا قد لا يُعمر طويلًا، لكنه سيكون مقبولًا لدى جميع الأطراف. بابا مؤقت، إذا شئت قل وصي حتى يستقر توازن القوى.

كان إتزيو يضع هذا في حُسبانه، وسُرَّ عندما جلبت له كلاوديا أخبارًا بعد أسابيع من الانقطاع إلى جزيرة التيبر.

- لقد صرح كاردينال روان، الفرنسي جورج دامبواز، تحت... الإكراه... لقد خطط لاجتماع مع الموالين لفرسان الهيكل في الريف خارج روما. والكاردينال سيحضر شخصيًّا.

- متى؟

- الليلة.

- أين؟

- سيبقى الموقع سرًّا حتى اللحظة الأخيرة.

- إذن سأذهب إلى مقر إقامة الكاردينال وأتبعه عند مغادرته.

دخل ماكيافيلي سريعًا قائلًا: «لقد اختاروا بابا جديد. الكاردينال الفرنسي المفضل عندك يا كلاوديا سينقل الخبر إلى تشيزاري الليلة.

في الحقيقة، وفد صغير العدد منهم لا يزالون مقربين من آل بورجيا سيذهب معهم».

سأل إتزيو: «مَن البابا الجديد؟».

ابتسم ماكيافيلي: «إنه كما ظننت. الكاردينال بيكولوميني. إنه ليس عجوزًا، بل في الرابعة والستين من عمره، لكنه معتل الصحة. لقد اختار أن يُطلق عليه لقب بيوس الثالث».

- وفي أيٍّ صف يكون؟

- لا نعرف، لكن كل السفراء الأجانب يضغطون على تشيزاري ليترك روما خلال فترة الانتخاب. وديلا روفيري غاضبٌ، لكنه يعرف كيفية التريث.

قضى إتزيو ما تبقى من اليوم في التشاور مع بارتولوميو، ووضعا فيما بينهما قوة مُجمعة من المجندين والمرتزقة قوية بما يكفي لخوض أيٍّ معركة قد تنشب مع تشيزاري.

قال بارتولوميو: «جيد أنك لم تقتل تشيزاري في قصره. بهذه الطريقة، سوف يجذب كل أنصاره إليه ثم يمكننا القضاء عليهم جميعًا». نظر إلى إتزيو، وتابع: «عليَّ الإقرار بالفضل لك يا صديقي، ربما تكون خططت للأمر ليسير على هذا النحو».

ابتسم إتزيو وعاد إلى مسكنه حيث ثبَّت المسدس على جسمه ووضع النصل المزدوج في محفظة حزامه.

***

شكَّل إتزيو طليعة بمجموعة صغيرة من الرجال المختارين، وترك الآخرين كي يلحقوا بهم من خلفهم وحافظوا على مسافة قصيرة بينهم. ولما ركب كاردينال روان بعد العصر مع رفاقه وحاشيتهم، تبعهم إتزيو

وخيالته على بُعد مسافة آمنة. ولم يطل بهم المسير قبل أن يتوقف الكاردينال عند ضيعة ريفية كبيرة يقع قصرها خلف أسوار محصنة بالقرب من شواطئ بحيرة براتشانو.

تسلق إتزيو أسوار القصر وحده، وتبع وفد الكرادلة وهو يشقُّ طريقه إلى القاعة الكبرى، وانخرط مع كبار ضباط آل بورجيا البالغ عددهم مئة أو يزيد. كان هناك المزيد من الأشخاص الآخرين الآتين من أراضٍ مختلفة، ولم يعرفهم إتزيو، لكنه عرف أن لا بد أنهم أعضاء من جماعة فرسان الهيكل. وقف تشيزاري الذي تعافى تمامًا الآن على منصة مرتفعة في قلب القاعة المزدحمة. وومضت المشاعل في حواملها على الجدران الصخرية، مما جعل الظلال تتراقص وأضفى على الاجتماع جوًّا أشبه بجوٍّ عصبة الساحرات بدلًا من كونه اجتماعًا للقوات العسكرية.

بالخارج، تجمَّع جنود آل بورجيا بأعداد كبيرة أذهلت إتزيو، الذي لم ينسَ ملحوظة تشيزاري عن جلب ميكيليتو لفلول قواته من الأقاليم لدعمه. واعتراه القلق من أنه حتى في ظل وجود رجال بارتولوميو ومجنديه، الذين تمركزوا على بُعد مئات الياردات من القصر، قد يجدون ما يُضاهيهم في ذلك الجمع. لكن الأوان قد فات الآن.

راقب إتزيو المشهد بينما يُفتح ممر بين الصفوف المتراصَّة في القاعة للسماح للكرادلة بالاقتراب من المنصة.

قال تشيزاري معلنًا: «انضموا إليَّ وسأعيد روما إلى ملكنا»، وعند ظهور كاردينال روان ورفاقه الأساقفة الذين ما إن رآهم تشيزاري حتى قطع كلامه، وسألهم: «ما أخبار مجريات الاجتماع السري؟».

قال كاردينال روان مترددًا: «أخبار جيدة... وسيئة».

- هات ما عندك!

- لقد انتخبنا بيكولوميني.

فكَّر تشيزاري في ذلك، وقال: «على الأقل ليس ابن الصياد ديلا روفيري!». واستدار إلى الكاردينال، وقال: «لكنه ليس الرجل الذي أريد. لقد أردت دمية. ربما يكون بيكولوميني على أعتاب القبر، لكن لا تزال له القدرة على الإضرار بمصالحي. لقد دفعت المال حتى أعينك في منصبك. أهذه الطريقة التي تشكرني بها؟».

قال الكاردينال مترددًا ثانية: «إن ديلا روفيري عدوٌّ قوي. ولم تعد روما على ما كانت عليه في سابق عهدها. لقد أصبح مال آل بورجيا مشبوهًا».

نظر إليه تشيزاري نظرة فاترة، وقال ببرود: «ستندم على هذا القرار».

حنى الكاردينال رأسه واستدار للانصراف، لكن عند فعله هذا، لمح إتزيو الذي سلك طريقه للأمام حتى يرى بوضوح.

فصرخ قائلًا: «إنه الحشاش! لقد استجوبتني شقيقته. وهذه هي الطريقة التي وصل بها إلى هنا. اهربوا! سيقتلنا جميعًا!».

أسرع الكرادلة بالركض دفعة واحدة وسط حالة من الفزع العام. فتبعهم إتزيو، وما إن أصبحوا بالخارج حتى أطلق طلقة من مسدسه. وصل الصوت إلى الطليعة المتمركزة خارج الأسوار، وأطلقوا بدورهم بنادق الماسكيت لإرسال إشارة إلى بارتولوميو للهجوم. ووصلوا في اللحظة التي كانت تُفتح فيها بوابات الأسوار للسماح للكرادلة الفارين بالمغادرة. ولم يتسع الوقت للمدافعين لإغلاق البوابات قبل أن تنقضَّ عليهم الطليعة، التي قدرت على إبقاء البوابة مفتوحة إلى أن وصل بارتولوميو، ملوحًا بسيفه بيانكا فوق رأسه ويهدر بصرخة الحرب، ومعه قوة رئيسية من الحشاشين. أطلق إتزيو طلقته الثانية في بطنٍ واحد من حراس آل بورجيا الذي اندفع صارخًا ملوحًا بهراوة مسننة

الرأس مخيفة، إلا أنه لم يسعه الوقت لإعادة التلقيم. على أيٍّ حال من الأحوال، بالنسبة إلى القتال القريب المدى، فإن النصل المزدوج هو السلاح الأفضل. ولما وجد إتزيو تجويفًا في السور، احتمى فيه. وبمهارة المتمرس، بدَّل المسدس بالنصل. ثم اندفع عائدًا باحثًا عن تشيزاري.

كانت المعركة التي دارت في القصر والمنطقة المحيطة بأسواره، قصيرة ودامية. إذ لم تكن قوات آل بورجيا ولا فرسان الهيكل مستعدين لهجمةٍ بهذا الحجم، وحُوصروا داخل الأسوار. وقاتلوا بشدة ولاقى العديد من المرتزقة ومجندي الحشاشين مصرعهم بنهاية المعركة. لكن تمتع الحشاشين بأفضلية كونهم كانوا راكبين الخيول بالفعل، ورغم هذا استطاعت قلة من فصيل آل بورجيا أن تصل إلى خيولها قبل أن يُلاقوا مصرعهم.

ولم تهدأ الأوضاع إلا متأخرًا. نزف إتزيو من جرح سطحي في صدره، فقد قاتل بشراسة باستخدام النصل المزدوج لدرجة أنه قطع قفازه وأصاب يده بجرح عميق. وتبعثرت حوله الجثث، نصف مَن كانوا موجودين تقريبًا، أولئك الذين لم يستطيعوا الهروب ولا الركوب باتجاه الشمال ليلًا.

لم يكن تشيزاري من بينهم رغم هذا. فقد استطاع الهرب كذلك.

47

وقع الكثير من الأحداث في الأسابيع التي تلت ذلك. بحث الحشاشون عن تشيزاري، ولكن دون جدوى. فهو لم يعد إلى روما، وبلا شك بدت روما وقد طُهرت من كل نفوذ لآل بورجيا أو فرسان الهيكل، رغم أن إتزيو ورفاقه بقوا متأهبين، مدركين أنه ما دام عدوهم على قيد الحياة، فإن الخطر يحدق بهم. وقد شكوا في أنهم لا تزال بعض الجيوب من الموالين المتعصبين بانتظار الإشارة فحسب.

أثبت بيوس الثالث أنه رجل يهوى الكُتب وشديد التدين. لكن للأسف، بعد فترة حكم استمرت سنة وعشرين يومًا فحسب، تدهورت صحته العليلة بفعل الضغوط والمسؤوليات الزائدة التي حتمها المنصب البابوي، ومات في أكتوبر. ولم يكن -كما خشي إتزيو- دمية بيد آل بورجيا. بل خلال فترة حكمه القصيرة، أدخل إصلاحات إلى مَجْمَع الكرادلة والتي بدورها محت كل الفساد والانحلال الذي تسبب به سلفه. فلم يعد هناك بيع لمنصب الكاردينال مقابل المال، ولا مزيد من قبول الأموال لتخليص القتلة الأثرياء من حبل المشنقة. فلم تعد هناك قيمة للعقيدة البراجماتية التي تبناها ألكسندر السادس التي تقول «دعهم يعيشوا كي يتوبوا».

والأهم من هذا كله، أنه أصدر في كل الولايات البابوية أمرًا بالقبض على تشيزاري بورجيا.

وعُين خلفه في الحال بأغلبية كبيرة. ولم يعارضه إلا ثلاثة كرادلة، أحدهم جورج دامبواز، كاردينال روان، الذي يأمل بلا جدوى في كسب التاج الثلاثي البابوي لصالح الفرنسيين، بعدما عرقل مسيرة جوليانو ديلا روفيري، كاردينال سانت بيترو في فانكولي، انتخاب بيوس الثالث، فلم يُضيع أيَّ وقت في تعزيز أنصاره وضمان منصب البابوية لنفسه في الفرصة التالية، والتي يعرف أنها ستأتي قريبًا.

يوليوس الثاني كما أطلق على نفسه، كان رجلًا قويًّا في الستين من عمره، ولا يزال قويًّا في العقل والجسم. لقد كان رجلًا مفعمًا بالحيوية والطاقة، كما سيعرف إتزيو عما قريب، ومتآمرًا سياسيًّا ومقاتلًا، ومتفاخرًا بأصوله المتواضعة كونه سليل صيادين، ألم يكن القديس بيتر نفسه صيادًا؟

ظل تهديد آل بورجيا مخيمًا رغم هذا.

دمدم بارتولويمو في أثناء اجتماعه مع إتزيو في غرفة الخرائط في الثكنات قائلًا: «لو أن تشيزاري يُظهر نفسه».

- سيفعل لكن عندما يكون جاهزًا.

- يُخبرني جواسيسي أنه يخطط لجمع أفضل رجاله للهجوم على روما من إحدى بوابتها الرئيسية.

فكر إتزيو في هذا الأمر، وقال: «إن جاء تشيزاري من الشمال، كما يبدو الأمر مؤكدًا، سيحاول الدخول من البوابة القريبة من ثكنات بيرتوريا. وقد يحاول كذلك استعادة الثكنات نفسها لما لها من موقع استراتيجي قوي».

- أنت محق على الأرجح.

نهض إتزيو، وقال: «اجمع الحشاشين سنواجه تشيزاري معًا».

- وإن لم نستطع؟

- هذا كلام جميل يا بارتو! إن لم نستطع، سوف أواجهه وحدي.

وافترقا على أن يلتقيا في روما في وقتٍ لاحق من اليوم. إن كان ثمة هجوم، فستكون المدينة المقدسة متأهبةً له.

ثبتت صحة حدس إتزيو. وقد أخبر بارتولوميو باستدعاء الآخرين إلى ساحة إحدى الكنائس قُرب ثكنات بيرتوريا، ولما وصلوا شقوا طريقهم إلى البوابة الشمالية. كانت البوابة مشددة الحراسة بالفعل، إذ أبدى يوليوس الثاني سعادة تامة بقبول نصيحة إتزيو. كان المنظر الذي وقعت عليه أعينهم على بُعد مئة ياردة مروعًا. كان تشيزاري هناك على حصان واهن يحيطه مجموعة من الضباط يرتدون زِيَّ جيشه الخاص، ومن خلفه تراصت كتيبة واحدة من قواته.

وحتى على هذا البُعد، استطاعت أذنا إتزيو المصغيتين سماع كلام تشيزاري المنمق، كان الغريب في الأمر هو أنه لمَ لا يزال ينطلي على الناس خداعه لهم في كل مرة؟

أخذ تشيزاري يقول معلنًا: «لا بدَّ من توحيد كامل إيطاليا، وستحكمون إلى جانبي!».

استدار ولمح إتزيو ورفاقه الحشاشين مصطفين على طول حواجز الأسوار عند البوابة. ثم تقدم على فرسه قليلًا. ولكن لم يتقدم بالقرب الكافي الذي يجعله في مرمى السهام أو بنادق الماسكيت.

وهتف موجهًا كلامه إليهم: «هل جئتم لرؤية انتصاري؟ لا تقلقوا فهذه ليست كامل قوتي. فعما قريب سيصل ميكيليتو بجيوشي، لكن حينها ستكونون في عداد الأموات. ولديَّ العديد من الرجال للتعامل معكم».

نظر إتزيو إليه، ثم التفت كي ينظر إلى حشد القوات البابوية ومجندي الحشاشين والمرتزقة المصطفين بالأسفل داخل البوابة. ورفع يده، فسحب حراس البوابات الأضلاع الخشبية للخلف، التي كانت توصد البوابات. وقد تجهزوا حتى يفتحوها عند إشارته التالية. وأبقى إتزيو يده مرفوعة.

هتف تشيزاري: «لن يخذلني رجالي أبدًا. فهم يعرفون ما ينتظرهم إن فعلوا ذلك! وعمَّا قريب سترحل عن هذه الأرض، وسيعود لي مُلكي».

تساءل إتزيو مما إذا كان الداء الإفرنجي قد أثَّر على توازن عقله. أنزل إتزيو يده وانفتحت البوابات من تحته وتدفقت القوات الرومانية، الفرسان أولًا ومن خلفهم المشاة يركضون. شد تشيزاري اللجام واليأس يتملكه، ما أقحم الشكيمة في فم الحصان بشدة وهو يديره. وجعل هذا العنف الحصان يتعثر، وسرعان ما سبقه الجنود. وبالنسبة إلى كتيبته فقد انهارت وفرت عند رؤية منظر الألوية الرومانية المقتربة.

فكر إتزيو: *حسنًا، حسنًا. لقد وجدتُ إجابة سؤالي. إن هؤلاء الناس تجهزوا للقتال مقابل المال، وليس بدافع الولاء. لا يمكن للمرء شراء الولاء.*

صرخ تشيزاري بجنون: «اقتلوا الحشاشين! احفظوا شرف آل بورجيا!». إلا أن كل كلامه راح سُدى. فقد حُوصر.

نادى عليه إتزيو قائلًا: «ارمِ سلاحك يا تشيزاري».

- لن أفعل مطلقًا.

- هذه ليست مدينتك بعد الآن. فلم تعد القائد العام. إن عائلات أورسيني وكولونا تصطفُّ إلى جانب البابا الجديد، ولما قدم لك بعضهم وعودًا شفهية، فلم تكن إلا محض وعود شفهية. لقد كانوا

يتحينون الفرصة لاستعادة المُدن والضيعات التي استوليت عليها من أيديهم.

خرج وفد مفوض صغير على ظهر خيولهم الآن من البوابات. ستة فرسان يرتدون دروعًا سوداء، أحدهم يحمل راية عليها شعار يوليوس الثاني، شجرة سنديان عتيقة. وفي مقدمتهم، ركب على فرس رمادي مرقط (على النقيض تمامًا من حصان الحرب) رجلٌ عرفه إتزيو في الحال أنه فابيو أورسيني. وقاد رجاله مباشرة نحو تشيزاري الذي لم يتنازل عن كبريائه.

حلَّ الصمت على المكان.

قال أورسيني معلنًا، بينما يرى إتزيو لمعة الانتصار في عينيه: «تشيزاري بورجيا، المعروف بفالنتينو، الذي كان يومًا ما كاردينال بلنسية ودوق فالانس، بأمر من قداسة البابا يوليوس الثاني، أعتقلك بتهم القتل والخيانة وسفاح القُربى!».

نزل الفرسان الستة بجوار تشيزاري، اثنان من كل جانب، وواحد أمامه وواحد خلفه. وأُخذ منه لجام حصانه ورُبط باللجام.

صاح تشيزاري قائلًا: «لا، لا، لا! ليس هكذا ينتهي الأمر!».

ضرب أحد الفرسان على مؤخرة حصان تشيزاري، فمشى للأمام.

صرخ تشيزاري في تحدٍّ: «ليس هكذا ينتهي الأمر! لن تقيدني السلاسل!». واحتدَّ صوته بالصراخ، لن أموت على يد أيِّ إنسان!».

كان الجميع يسمعه، غير أن أحدًا لم يكن يُصغي إليه.

قال أورسيني بحدة: «تقدم يا أنت».

48

قال إتزيو: «تساءلت عما حدث لك، ثم رأيت رسمة اليد المشيرة، وعلمت أنك ترسل إليَّ إشارة، وهذا ما حملني على أن أبعث لك برسالة. والآن ها أنت ذا! ظننت أنه ربما تسللت إلى فرنسا».

قال ليوناردو وهو يزيل بعض الغبار عن مقعد في مخبأ الحشاشين في جزيرة التيبر قبل أن يجلس عليه: «ليس من شيمي، ليس بعد!». وتدفقت أشعة الشمس إلى المخبأ من النوافذ العالية.

- أنا سعيدٌ بهذا. وأسعد أنك لم تقع في قبضة حملة التفتيش التي نظمها البابا الجديد للإمساك بأيٍّ فلول من أنصار آل بورجيا.

ردَّ ليوناردو، الذي حافظ على رونق ملبسه وأناقته كما كان في سابق عهده، ولم يبدو أن الوقائع الأخيرة قد نالت منه على الإطلاق قائلًا: «حسنًا، أصحاب العزم لا يمكن إحباطهم. البابا يوليوس ليس أحمق، فهو يعرف مَن سينفعه ومَن لن ينفعه، بغض النظر عمَّا اقترفوه في الماضي».

- ما دامت توبتهم صادقة.

أجاب ليوناردو بنبرة جافة: «كما قلت».

- وهل أنت مستعد لتنفعني؟

ابتسم ليوناردو، وقال: «ألم يكن هذا دأبي؟ هل من شيءٍ يقلقك حاليًّا رغم وجود تشيزاري في الحبس؟ إنها مسألة وقت قبل أن يأخذوه

ويحرقوه على الخازوق. انظر إلى قائمة التُّهم الموجهة له! إنها بطول ذراعك».

- قد تكون محقًّا.

قال ليوناردو، محاولًا تغيير الموضوع: «بالطبع لن يخلو العالم من المشكلات. وخيرٌ أنه أُطيح بتشيزاري، لكنني قد فقدت راعيًا ماليًّا مهمًّا، وأرى أنهم يفكرون في جلب الصغير التافه مايكل آنجلو إلى هنا من فلورنسا. حبًّا بالرب! كل ما يستطيع فعله هو نحت التماثيل».

- إنه معماري بارع كذلك، حسبما سمعته. وليس رسامًا سيئًا كذلك.

رمقه ليوناردو بنظرة قاتمة، وقال: «أتعلم الإصبع المشيرة التي رسمتها؟ ستكون يومًا ما، آمل، أن تكون في قلب لوحة لرجل -يوحنا المعمدان- تشير نحو السماء. والآن هذه ستكون لوحة!».

أضاف إتزيو سريعًا: «لم أقل إنه رسام بارع مثلك. وبالنسبة إلى كونه مخترعًا...».

- لو طلبت رأيي، عليه الالتزام بما يعرفه.

- ليو، هل أنت غيور؟

- أنا؟ مطلقًا!

حان الوقت لإرجاع ليوناردو إلى المشكلة التي تؤرق إتزيو، والسبب الذي لأجله ردَّ على رسالة ليوناردو التي كان فحواها أنه يبحث عنه.

وكل ما أراه هو قدرته على الوثوق به، رغم أنه يعرف ليوناردو حق المعرفة ليفهم الدافع من وراء سلوكه.

استهل كلامه: «رئيسك السابق...».

- تشيزاري؟

- أجل، لم أحب الطريقة التي قال بها «لن تُقيدني السلاسل».

- بربك يا إتزيو. إنه في أعمق زنزانة في قلعة سانت آنجيلو. ويحي يا لسقوط الجبابرة، أليس كذلك؟

- لا يزال لديه أصدقاء.

- قد يعتقد بعض الأشخاص المخدوعين أنه لا يزال له مستقبل، ولكن نظرًا إلى أن ميكيليتو وجيوشه لم يظهروا، لا أرى خطرًا حقيقيًّا.

- حتى لو فشل ميكيليتو في لمِّ شمل فلول قوات تشيزاري، وهو ما يبدو الأمر عليه، بما أنه لم يُرد من أيٍّ من جواسيسنا في الريف أخبارًا عن أيِّ تحركات...

- انظر يا إتزيو، عندما وصلتهم أخبار صعود ديلا روفيري إلى منصب البابا، وبالقبض على تشيزاري، تفرق جيش آل بورجيا القديم هذا كتفرُّق النمل من جحره عندما تصب عليه الماء المغلي.

- لن يهدأ بالي حتى أتأكد من موت تشيزاري.

- حسنًا، ثمة طريقة لمعرفة هذا.

نظر إتزيو إلى ليوناردو، وقال: «أتقصد التفاحة؟».

- أين هي؟

- هنا.

- إذن أحضرها لنستشيرها.

تردد إتزيو، وقال: «لا إنها قوية للغاية. عليَّ إخفاؤها من البشر للأبد».

قال ليوناردو مستنكرًا: «ماذا، شيء قيم كهذا؟».

- لقد قلت بنفسك منذ عدة سنوات، أنها يجب ألا تقع في الأيدي الخطأ.

- إذن كل ما علينا فعله هو الحفاظ عليها من وقوعها في الأيدي الخطأ.

- لا يوجد ضمان أنه يمكننا ذلك.

اكتسى وجه ليوناردو بالجدية، وقال: «انظر يا إتزيو، إن قررت دفنها في مكانٍ ما، فعدني بشيء واحد فقط.

- ما هو؟

- حسنًا، شيئان. الأول، أبقها معك ما دمت في حاجة إليها. يجب أن يكون كل شيء إلى جانبك إن كان هدفك هو استئصال آل بورجيا وفرسان الهيكل للأبد. لكن عندما تنتهي من ذلك، وتخبئها من العالم حينها فكر فيها كبذرة تغرسها. اترك دليلًا من نوعٍ ما على مكانها لمَن يستطيعون العثور عليها. فقد تحتاج الأجيال المستقبلية، ربما الحشاشون المستقبليون، إلى قوة التفاحة يومًا ما، لاستخدامها لصالح الخير.

- وإن وقعت في يد تشيزاري آخر؟

- عدنا إلى سيرة تشيزاري، على ما يبدو. اسمع، لمَ لا تُرح نفسك من العناء وترى لو أن بإمكان التفاحة أن تقدم لك أيَّ توجيه؟

تصارع إتزيو مع نفسه للحظات، ثم قال: «حسنًا. أنا موافق».

اختفى إتزيو للحظة، ثم عاد حاملًا صندوقًا مربعًا له غطاء وعليه قفل كبير. وأخرج من ردائه مفتاحًا مربوطًا بسلسلةٍ فضية موضوعة حول عنقه، وفتح الصندوق. وهناك على فراش مخملي أخضر كانت التفاحة. بدت التفاحة باهتة ورمادية، كما تكون دائمًا في حالتها الخاملة وبحجم بطيخة صغيرة ولها ملمس ناعم ومرن مثل الجلد البشري.

حثه ليوناردو لما رأى التفاحة ثانيةً، قائلًا: «اسألها». عرف إتزيو أن صديقه يكبح رغبته في أن يأخذ التفاحة ويهرب، ويفهم كذلك حجم الإغراء كونه عالم موسوعي، ويقض مضجعه نهمه للمعرفة ويؤرقه أحيانًا.

أمسك إتزيو بالتفاحة وأغلق عينيه، مركزًا أفكاره عليها وهو يصوغ الأسئلة. بدأت التفاحة في التوهج في اللحظة نفسها تقريبًا، ثم بدأت في طرح الصور على الحائط.

كانت الصور كثيرة وسريعة ولم تبقَ طويلًا، لكن إتزيو، وإتزيو وحده، رأى تشيزاري يهرب من سجنه، ثم من روما. كان هذا كل ما في الأمر، حتى تجمعت الصور غير المكتملة لتُظهر ميناءً بحريًّا مزدحمًا، ولمعت المياه وتتلألأت تحت شمس جنوبية، وكان هناك أسطول في المرفأ. تبددت الرؤية، ثم ظهرت إطلالة لقلعةٍ بعيدة، أو ربما لبلدة جبليَّة مُحصنة، والتي عرف إتزيو نوعًا ما أنها بعيدة جدًّا، من المشهد وحرارة الشمس، كانت بلا شك غير موجودة في الولايات البابوية الإيطالية. وبدا المعمار كذلك غريبًا، لكن لا إتزيو ولا ليوناردو قدر على تحديده نوعه. ثم رأى إتزيو قلعة ماريو في مونترجيوني، وتحركت الصورة وتغيرت، وأخذته إلى مكتب ماريو السري، الملاذ، حيث جُمعت أوراق المخطوطة. كان باب المكتب المخفي مغلقًا، وعلى الجزء الخارجي منه رأى إتزيو أرقامًا وحروفًا مبهمة مكتوبة. وبعدها كان إتزيو كأنه نسرٌ يُحلق فوق أطلال معقل الحشاشين السابق. ثم بعدها خملت التفاحة، وعاد مصدر الضوء الوحيد في الغرفة هو ضوء الشمس الهادئ.

أسقط إتزيو التفاحة ثانيةً في صندوقها ووقف فجأة لدرجة كاد يسقط معها من على كرسيه، وقال: «سيهرب! عليَّ الذهاب».

- ماذا عن أصدقائك؟

قال إتزيو: «لا بدَّ أن تصمد الأخوية، بي أو دوني. هذا ما أنشأتها على أساسه». وأخرج إتزيو التفاحة من صندوقها مجددًا، ووضعها في جعبتها الجلدية. واستطرد: «سامحني يا ليو، لا أملك وقتًا أضيعه». وكان معه بالفعل النصل الخفي ومرتديًا واقي الرسغ، ووضع مسدسه وبعض الذخيرة في حافظة حزامه.

- توقف. لا بدَّ أن تفكر. لا بدَّ أن تخطط.

- خطتي هي القضاء على تشيزاري. كان عليَّ فعل هذا منذ وقت طويل.

فردَ ليوناردو يديه، وقال: «أرى أنه لا يمكنني إيقافك. لكني لا أُخطط لترك روما، وتعرف أين يكون معرضي».

قال إتزيو: «معي هدية لك». تربع صندوق صغير على الطاولة التي بينهما. وضع إتزيو يده عليه، وقال: «هنا».

نهض ليوناردو، وقال: «إن كان هذا وداعًا، فاحتفظ بمالك. أنا لا أريده».

ابتسم، وقال: «بالطبع هذا ليس وداعًا، وبالطبع أنت تريده. أنت بحاجة إليه من أجل عملك، خذه. واعتبرني راعيك المالي، إن أحببت تلك الفكرة، حتى تجد راعيًا أفضل».

تعانق الرجلان.

وقال إتزيو: «لا بدَّ أن نرى أحدنا الآخر مجددًا. أعدك. حظًّا موفقًا يا صديقي القديم».

***

لا يمكن تغيير ما توقعته التفاحة، لأن التفاحة تُظهر المستقبل كما سيكون، ولا يقدر بشر، رجلًا كان أو امرأة، على تغيير هذا، تمامًا كما لا يمكنهم تغيير الماضي.

لما اقترب إتزيو من قلعة سانت آنجيلو، رأى الحرس البابوي، الحراس الجُدد الذين يرتدون زيَّ يوليوس الثاني، يركضون خارجين من الحصن القديم ويتوزعون في فرق منظمة عبر النهر وفي الشوارع المحيطة. قرعت الأجراس والأبواق لإطلاق الإنذار. عرف إتزيو ما قد حدث، حتى من قبل أن يتوقف القائد متهدج الأنفاس ويقول: «لقد هرب تشيزاري».

- متى؟

«كان موعد تبديل الحرس. من نحو نصف ساعة». نصف ساعة! هو بالضبط الوقت الذي عرضت فيه التفاحة الواقعة وهي تحدث!

- هل تعرف كيف حدث ذلك؟

- في حالةٍ واحدة، إن كان يمشي عبر الجدران، لا نملك أدنى فكرة. لكن يبدو أن لديه أصدقاء بالداخل.

- مَن؟ لوكريتزيا؟

- لا، فهي لم تبرح جناحها منذ أن حدث كل هذا. فقد وضعها البابا تحت الإقامة الجبرية منذ توليه السلطة. واعتقلنا حارسين كانا يعملان لصالح آل بورجيا. أحدهما كان حدادًا سابقًا وربما تمكن من خلع القفل بعتلة، رغم أنه لا يوجد أي علامة على تلف باب الزنزانة، لذا يُحتمل أنهما استخدما المفتاح... إذا كانا مذنبَين.

- هل تسببت لنا لوكريتزيا بأي مشكلات؟

- من المستغرب أنها لم تفعل. يبدو أنها... مستسلمة لمصيرها.

- لا تثقوا بها. فأيًّا ما تفعل، لا تدعوا سلوكها يخدعكم بالأمان الزائف من جانبها. فهدوؤها يعني أنها في أعلى درجات خطورتها.

- يقوم على حراستها المرتزقة السويسريون. إنهم شديدو المراس.

- جيد.

فكر إتزيو بعناية. إن كان لتشيزاري أصدقاء متبقون في روما، وعلى ما يبدو أنه كذلك، فسيُخرجونه من المدينة بأسرع ما يمكن. إلا أن البوابات ستكون قد أُغلقت بالفعل، وبناءً على ما رآه، فتشيزاري الذي فقد التفاحة ولا يتمتع بمهارات الحشاشين لن يقدر على الهروب من حملة التفتيش التي تلاحقه ولا من الطوق الذي سيُضرب في كل أرجاء روما.

بهذا تبقى احتمالية واحدة.

النهر!

يجري نهر التيبر داخل روما من الشمال ويغادرها متجهًا نحو الغرب، حيث يصبُّ في البحر على بُعد بضعة أميال فقط، عند أوستيا. تذكر إتزيو تجار الرقيق الذين قتلهم، وأنهم كانوا في خدمة تشيزاري. لم يكونوا الوحيدين! يمكنهم تهريبه على متن قارب أو سفينة صغيرة تسافر بحرًا، متنكرًا في زيٍّ بحَّار أو متخفيًا تحت غطاء من القماش المشمَّع بين الحمولة. لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لسفينة تسير بالأشرعة أو المجاديف ويجرفها التيار حتى تصل إلى البحر التيراني، ومن هناك، يعتمد ذلك على ما خططه تشيزاري. الأهم هو الإمساك به قبل أن يتمكن من تنفيذ ما خططه.

شقَّ إتزيو طريقه من أسرع طريق باتجاه أرصفة الميناء وسط البلدة، والتي كانت أقرب إلى القلعة. ازدحمت الأرصفة بالمراكب والسفن من كل الأشكال والأحجام. وسيكون الأمر أشبه بالبحث عن إبرةٍ في كومة قش. مرت نصف ساعة. وبالكاد أسعف الوقت تشيزاري كي يُبحر، وكان المد قد بدأ في الارتفاع لتوه.

عثر إتزيو على مكانٍ هادئ، وجثم فيه. ودون تردد هذه المرة، أخرج التفاحة من الجعبة. لم يكن ثمة مكان هنا كي تعرض صورها، لكنه

شعر أنه إن أظهر ثقته بها، علَّها تجد طريقة أخرى كي تتواصل معه. قربها إتزيو منه قدر الإمكان، وأغمض عينيه، متمنيًا أن تجيب عن سؤاله.

لم تتوهج التفاحة، لكنه أحسَّ أنها تزداد دفئًا عبر قفازيه، وراحت تنبض. وفي أثناء ذلك، صدرت منها أصوات غريبة، أو أكانت أصواتًا داخل رأسه؟ لم يكن متأكدًا. صوت امرأة، كان مألوفًا على نحو غريب رغم أنه لم يستطع التعرف عليه، وبدا بعيدًا إلى حدٍّ ما، وقال بهدوء ووضوح في آنٍ: «السفينة الصغيرة ذات الأشرعة الحمراء عند الرصيف البحري السادس».

ركض إتزيو إلى رصيف الميناء. واستغرق وقتًا قليلًا، إذ سلك طريقه من وسط حشد من البحَّارة المنشغلين الذين يطلقون ألسنتهم بالسباب، حتى يعرف مكان الرصيف البحري السادس، ولما حدد مكانه، كانت السفينة التي طابقت وصف التفاحة قد أبحرت لتوها. لقد بدت السفينة الصغيرة مألوفة كذلك. كان سطحها مكدسًا بالكثير من أكوام البضائع، صناديق كبيرة كفاية لتُخفي رجلًا بداخلها، وعلى متن السفينة أصاب الذهول إتزيو لتعرفه على البحَّار الذي تركه في أيدي الموت بعد محاولته الفاشلة لإنقاذ السيدة سولاري. كان الرجل يعرج عرجًا شديدًا بينما يقترب من واحدة من الصناديق، وعدَّل مكانه بمساعدة أحد الزملاء. لاحظ إتزيو أن الصندوق به ثقوب محفورة على كل جانب من ناحية القمة. خفض إتزيو رأسه حتى يتوارى عن الأنظار خلف مركب تجديف قد رُفع على قواعد لإعادة الطلاء، لأن البحَّار الذي أصابه إتزيو بالعرج استدار لينظر باتجاه الرصيف، وفحصه بعينيه ربما تقصيًّا للملاحقين.

راقب إتزيو بقلة حيلة السفينة الشراعية للحظة وهي تشق طريقها في قلب التيار، رافعة أحد أشرعتها ليُجمع الرياح القوية لدفع السفينة. ولم يكن إتزيو ليلحق بالسفينة الشراعية الصغيرة على طول ضفة

النهر، حتى لو كان راكبًا حصانًا، لأن الطريق كان في أغلبه مسدودًا أو تعترضه المباني التي تصل مباشرة إلى المياه. لزم عليه أن يجد قاربًا لنفسه.

قفل عائدًا إلى الأرصفة ومشى سريعًا على طولها. كان طاقم أحد الزوارق قد انتهوا لتوهم من إفراغ حمولته، وكان القارب نفسه لا يزال مُشرعًا. اقترب منهم إتزيو، وقال بإلحاح: «أحتاج إلى استئجار قاربك».

- لقد وصلنا للتو.

قال إتزيو بينما يمدُّ يده في جعبته وأخرج لهم حفنة من الدوكات الذهبية: «سأدفع لكم أجرًا سخيًّا».

قال أحد أفراد الطاقم: «علينا معاينة الحمولة أولًا».

وسأل آخر: «أين تريد أن تذهب؟».

قال إتزيو: «في اتجاه مجرى النهر. وأحتاج إلى الذهاب الآن».

قال وافد جديد يقترب منهم: «اهتموا بالحمولة. سآخذ السيد. تعال معي يا ياكوبو. لن يتطلب الأمر أكثر منا نحن الاثنين للإبحار بالمركب».

استدار إتزيو ليشكر الوافد الجديد، وذهل عندما أدرك أنه كان كلاوديو، اللص الشاب الذي أنقذه من آل بورجيا.

ابتسم له كلاوديو، وقال: «طريقة أشكرك بها يا سيدي لإنقاذ حياتي. واحتفظ بمالك على أيِّ حال».

- ما الذي تفعله هنا؟

قال كلاوديو: «لم أُخلَق للصوصية. هذا رأي الثعلب كذلك. لطالما كنت بحَّارًا ماهرًا. لذا فقد أعارني المال لأشتري هذا القارب. أنا ربان القارب، وأتاجر تجارةً رابحة بين هنا وأوستيا».

- علينا الإسراع، لقد هرب تشيزاري بورجيا.

استدار كلاوديو وهتف آمرًا رفيقه.

قفز ياكوبو على متن القارب وبدأ بتجهيز الأشرعة، ثم صعد هو وإتزيو، وفكَّ باقي الطاقم الحبال.

ولخلو المركب من الحمولة، حملته المياه بخفة. وما إن وصلوا إلى منتصف النهر، حتى نشر كلاوديو أكبر عدد من الأشرعة، وحينها لم تعد السفينة الشراعية الصغيرة التي تحمل حمولة ثقيلة، مجرد بقعة في الأُفق.

سأله كلاوديو: «أتلك هي السفينة التي نُلاحقها؟».

ردَّ إتزيو: «أجل، رجاءً يا إلهي».

قال كلاوديو: «من الأفضل لك خفض رأسك، إننا معروفون في هذا الامتداد، لكن إن رأوك، سيعرفون ما نحن بصدده. أنا أعرف هذه المركبة. يديرها مجموعة من غريبي الأطوار، وهم لا يختلطون بالناس».

- أتعرف عدد طاقمهم؟

- خمسة في العادة، أو أقل. لكن لا تقلق. فلم أنسَ ما علمني إياه الثعلب، لا يزال مفيدًا لي أحيانًا، وياكوبو هنا يعرف كيفية استخدام الهراوة.

نزل إتزيو تحت حافة المركب، رافعًا رأسه من حينٍ لآخر ليتفقد المسافة المتناقصة بينهم وبين هدفهم. كانت السفينة الشراعية الصغيرة أسرع من القارب رغم حمولتها الثقيلة، ولاحت أوستيا في الأُفق قبل أن يقترب منها كلاوديو. ومع ذلك، حيَّا السفينة بجرأة، وناداهم: «يبدو أن حمولتكم ثقيلة. ما الذي تحملونه على متنها، سبائك ذهبية؟».

زمجر رُبان السفينة غاضبًا من مكانه قُرب الدفة: «ليس من اختصاصك. وابتعد فأنت تزاحمني في مياهي».

قال كلاوديو: «آسف يا صديقي»، في الوقت نفسه قرَّب ياكوبو مركبهم ليصطدم بحواجز السفينة الشراعية، ثم قال هتف كلاوديو لإتزيو: «الآن!».

قفز إتزيو من مخبئه عبر الفجوة التي تفصل بين المركبين. وعندما تعرف عليه البحَّار الأعرج، أطلق صيحةً مكبوتة واندفع نحوه بمنجل، أصاب المنجل واقي الرسغ، وتمكن إتزيو من سحبه والقضاء عليه بطعنة من النصل الخفي سددها في جانبه. ولما كان منشغلًا باشتباكه مع البحار، لم يلاحظ فردًا آخر من الطاقم يتسلل من خلفه، ملوحًا بسيف البحَّارة. واستدار إتزيو متأهبًا من فوره، غير قادر على تفادي النصل الذي يهوي فوقه، عندما دَوَّى صوت طلقة نارية وتقوس ظهرُ البحار، فسقط سيفه على سطح السفينة قبل أن يسقط هو نفسه من على متنها.

صرخ ياكوبو وهو يثبت قاربه قرب السفينة بينما يحاول ربان السفينة الابتعاد: «احترس!». ظَهَر بحَّار ثالث من تحت سطح السفينة وكان يستخدم عَتَلة لفتح الصندوق القائم ذي الثقوب على جوانبه العلوية، بينما كان الرابع جاثمًا بجانبه ليحمي ظهره بمسدس له قفل دولابي. فكر إتزيو: *لا يقدر أيُّ بحَّار عادي على حيازة سلاح كهذا*، متذكرًا المعركة مع تجَّار الرقيق. ثم قفز كلاوديو من القارب إلى سطح السفينة الشراعية وألقى بنفسه على الرجل الذي كان يحمل العتلة، بينما اندفع إتزيو إلى الأمام وطعن معصم الرجل الذي يحمل المسدس بالنصل الخفي. فأطلق المسدس طلقة استقرَّت في سطح السفينة دون أن تصيب أحدًا، وتراجع الرجل وهو يئن ويُمسك بمعصمه، محاولًا وقف النزف المتدفق من الوريد الأمامي في ذراعه.

عند رؤية ربان السفينة انهزام رجاله، سحب مسدسًا وأطلق النار على إتزيو، لكن السفينة الشراعية تمايلت مع التيار في اللحظة الحاسمة،

فجنحت الطلقة، وإن لم تجنح بما يكفي، حيث خدشت الطلقة أذن إتزيو اليمنى وبدأت تنزف بغزارة. هزَّ إتزيو رأسه، ووجه مسدسه نحو الربان وأطلق النار على جبهته.

وقال لكلاوديو: «سريعًا! أمسِك دفة هذا الشيء وسأتعامل مع صديقنا هنا».

أومأ كلاوديو وركض ليخضع السفينة لسيطرته. وأحسَّ إتزيو بأن الدم المتدفق من أذنه قد أغرق ياقته، ولوى معصم خصمه بشدة حتى يُفلت قبضته عن العتلة. ثم ركل الرجل في مغبنه، وأمسك بتلابيبه وهو يسحبه تارة ويركله تارة إلى حافة السفينة ثم رمى به خارجها.

في ظل الصمت الذي خيم بعد القتال، تعالت صيحات عراك وغضب وارتباك وشتائم من الصندوق.

- سأقتلك بفعلتك هذه. وسأمزق أحشاءك بسيفي. سأذيقك ألمًا أبشع مما تتخيل.

قال إتزيو: «آمل أنك تشعر بالراحة يا تشيزاري، لكن إن لم تكن كذلك، لا تقلق. ما إن نصل إلى أوستيا، فسنرتب أمرًا أكثر تحضرًا من أجل رحلة عودتك».

قال ياكوبو من القارب: «هذا ليس عدلًا، لم أحظَ بفرصة لاستخدام هراوتي!».

الجزء الثاني

لا شيء واقعٌ مطلق، بل كلٌّ ممكن

عقيدة السيكاري، الجزء الأول، الفصل الأول

49

في أواخر ربيع عام الرب 1504. فتح البابا رسالة جاء بها الساعي لتوه، ثم تفحَّصها وضرب بقبضته على مكتبه انتصارًا. وأمسكت اليد الأخرى بالرسالة التي تدلت منها أختام ثقيلة. ثم هتف قائلًا: «ليبارك الرب الملك فرديناند والملكة إيزابيلا حاكمَي أراجون وقشتالة!».

سأله إتزيو وهو جالس على كرسي في الجهة المقابلة له: «هل من بشرى قداستك؟».

ابتسم يوليوس الثاني ابتسامة قاتمة: «أجل! نُقل تشيزاري بورجيا إلى واحد من أقوى وأبعد حصونهما!».

- أين؟

- هذه معلومة سرية، حتى بالنسبة إليك. لا يمكنني المخاطرة مع تشيزاري.

زمَّ إتزيو شفته. هل خمَّن يوليوس ما سيفعله إن عرف المكان؟

وتابع يوليوس بنبرة مطمئنة: «لا تعبس هكذا يا عزيزي إتزيو. يمكنني أن أخبرك بأنه حصنٌ كبير في قلب سهول شمال شرق إسبانيا، وهو حصين تمامًا».

عرف إتزيو أن ليوليوس أسبابه الوجيهة في عدم حرق تشيزاري على الخازوق، لربما تجعل هذه الطريقة منه شهيدًا، وأقرَّ أن هذا كان الخيار الأفضل التالي. إلا أن كلمات تشيزاري لا تزال تطارد إتزيو: لن

تقيدني السلاسل مطلقًا». وأحس إتزيو شعورًا داخليًّا بأن الشيء الوحيد الذي سيُحكم تقييد تشيزاري تقييدًا تامًّا هو الموت. وابتسم مهنئًا البابا على أيِّ حال.

استرسل يوليوس: «إنهم يحتجزونه في زنزانة أعلى الحصن المركزي، في برج يبلغ ارتفاعه مئة وأربعين قدمًا. فلا داعي لأن نقلق بشأن أيِّ شيء آخر يخصه بعد الآن». نظر البابا إلى إتزيو باهتمام، وتابع: «ما أخبرتك به لتوِّي معلومات سرية *كذلك*. على أيِّ حال، لا تدع الأفكار تراودك حيال القيام بأيِّ شيء. وإن طرأ شيءٌ ما، فبكلمة مني سيغيرون المكان، حال لو ذهب أيُّ أحد للبحث عنه وعلمت أنا بالأمر».

أغفل إتزيو الأمر وغير دفة الحديث: «ولوكريتزيا؟ هل وردتنا أيُّ معلومات من فيرارا؟».

- سمعنا أن زواجها الثالث يسير على ما يرام، رغم أنه يجب أن أعترف بقلقي في البداية. إن عائلة إستي جماعة من المتعجرفين حتى إنِّي ظننت أن الدوق العجوز لن يقبلها زوجةً مناسبة لابنه. الزواج من آل بورجيا! أتحدث عن الزواج ممن هم أدنى منك! بالنسبة إليهم الأمر أشبه بالزواج من خادمة جلي الأواني! -ضحك البابا ضحكة خالصة- لكن أمورها استقرت. ولا نسمع لها صوتًا. وبدأت في تبادل رسائل الحب وحتى القصائد مع صديقها القديم بيترو بيمبو، كل ذلك علنيًّا بالطبع، -هنا غمز يوليوس بشدة- لكنها زوجة صالحة ووفية لزوجها الدوق ألفونسو، وحتى إنها تذهب إلى الكنيسة ودروس تطريز الأقمشة. وبالطبع لا مجال لعودتها إلى روما، مطلقًا. ستقضي ما تبقى لها من حياتها في فيرارا، وحريٌّ بها أن تكون ممتنة لأنها فلتت من العقاب حية.

عامةً، أظن أنه يمكن القول باطمئنان إننا تخلصنا من تلك الحفنة من الكتالونيين الفاسدين إلى الأبد.

تساءل إتزيو ما إذا كانت شبكة جواسيس الفاتيكان عالمة بأحوال فرسان الهيكل كما هم على دراية بآل بورجيا. كان تشيزاري قائدهم ولا يزال كذلك، حتى وهو في سجنه. لكن البابا لم يتطرق إلى هذا الشأن.

وعليه الإقرار بأن أحوال إيطاليا قد عصفت بها أيامٌ أسوأ من هذه. والآن لديهم بابا يتمتع بقوة تدفعه للإبقاء على أجوستينو كيجي في منصب المصرفي الشخصي له، والفرنسيون موقفهم ضعيف. لم يترك الملك لويس إيطاليا، لكنه انسحب على الأقل إلى الشمال، حيث بدا أنه راضٍ عن الاستقرار هناك. إضافةً إلى أن الملك الفرنسي قد تنازل عن نابولي إلى الملك فرديناند حاكم أراجون.

- آمل ذلك قداستك.

نظر يوليوس إلى إتزيو، وقال: «اسمع يا إتزيو، أنا لست أحمق، لذا لا تظن أني كذلك. لمَ تعتقد أني نَصبتك مستشارًا لي؟ أعرف أنه لا تزال ثمة جيوب من الموالين لآل بورجيا في أنحاء الريف، حتى بعض الفلول من الموالين المتعصبين في المدينة، لكن لديَّ أعداء آخرون غير آل بورجيا لأقلق بشأنهم هذه الأيام».

- ربما لم يزُل تهديد آل بورجيا.

- لا أظن ذلك.

- وما الذي تفعِله بخصوص أعدائك؟

- أُعيد تنظيم الحرس البابوي. ألم ترَ كيف أن السويسريين جنودٌ بارعون؟ إنهم أفضل مرتزقة على الإطلاق! وبما أنهم قد نالوا استقلالهم عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وماكسيميليان

منذ خمس أو ست سنوات، من حينها وهم يعرضون خدماتهم للاستئجار. إنهم شديدو الإخلاص ولا تغلبهم العاطفة، وهذا فرقٌ كبير عن أبناء وطننا الأعزاء، وأفكر في تشكيل لواء منهم ليكون الحرس الشخصي لي. سأُسلحهم بالمَطارد المعتادة وخلافها من المعدات، لكنني سأجهزهم كذلك ببنادق الماسكيت التي يصنعها ليوناردو -سكت للحظة- كل ما أحتاج إليه هو إعطاؤهم اسمًا.
-ثم نظر إلى إتزيو متسائلًا- هل لديك أي فكرة؟

قدم إتزيو الذي كان متعبًا بعض الشيء اقتراحه قائلًا: «ماذا عن الحرس السويسري؟».

فكر البابا في الأمر، وقال: «إنه ليس إبداعيًّا على نحو مدهش بصراحة يا إتزيو، كنت لأفضل الحرس اليوليوسي، لكنني لا أود أن أبدو مغرورًا». ثم ابتسم، واستطرد: «حسنًا، سأستخدم ما اقترحته. سيؤدي هذا الغرض الآن، على أي حال».

وقاطعهم صوت المطارق وغيرها من أعمال البناء، آتية من فوق رؤوسهم ومن مناطق أخرى من الفاتيكان. قال البابا معلقًا: «البناؤون الحمقى، لكن يجب عليهم القيام بعملهم». ثم مشى للطرف الآخر من الغرفة إلى حبل الجرس، وأردف: «سأجعل أحدهم يذهب ويُسكتهم إلى أن ننتهي. أعتقد أن البنائين هم أعظم قوة هدم اخترعها الإنسان».

وصل أحد الخدم من فوره، وأملى عليه البابا الأوامر. وبعد لحظات توقفت الآلات مصدرة ضجيج وسط سُباب غير مفهوم.

سأل إتزيو وهو يعلم أن هناك تنافس بين العمارة والحرب لدى البابا كونهما أعظم شغفين له: «ما الذي تفعله؟».

- أنا أغطي كل أجنحة آل بورجيا ومكاتبهم بالألواح الخشبية. إنها فخمة للغاية. وتتناسب أكثر مع شخص بطبيعة نيرون أكثر من

كونه رئيس كنيسة. وأزيل كافة مبانيهم من سطح قلعة سانت آنجيلو. وسأحولها إلى حديقةٍ كبيرة، وقد أنشئُ منزلًا صيفيًّا صغيرًا هناك.

قال إتزيو وهو يبتسم بينه وبين نفسه: «فكرة سديدة». لن يكون المنزل الصيفي إلا ملاذ استرخاء، ومناسبًا، إن لم يكن للقاءات البابا مع الملوك، فعلى الأقل للقاءاته الغرامية مع واحدة أو أكثر من العشيقات، ولا يهتم إتزيو بحياة البابا الخاصة. كل ما يهم هو أنه كان رجلًا صالحًا وحليفًا مخلصًا. وبالمقارنة مع رودريغو، فإن فساده أشبه بنوبات غضب الأطفال. وعلاوة على ذلك، واصل بثبات الإصلاحات الأخلاقية لسلفه، بيوس الثاني.

- أعمل على إتمام بناء كنيسة سيستينا كذلك. إنها قاتمة كئيبة، لذا فقد كلفت ذاك الفنان الشاب الألمعي من فلورنسا مايكل آنجلو لا أتذكر باقي اسمه برسم بعض الجداريات على السقف، عبارة عن مشاهد دينية، تعرف ذاك النوع من الرسومات. فكرت في طلب هذا من ليوناردو، لكن رأسه يعجُّ بالأفكار لدرجة أنه بالكاد يُنهي رسمة كبيرة. إنه لأمر محزن. لقد أعجبت بشدة باللوحة التي رسمها لزوجة فرانشيسكو ديل جيوكوندو...

قاطع يوليوس حديثه ونظر إلى إتزيو: «لكننا لم نأتِ إلى هنا للحديث عن اهتماماتي في الفن الحديث».

- لا.

- هل أنت متأكد من أنك لا تأخذ خطر عودة آل بورجيا على محمل الجد؟

- أظن أنه ينبغي لنا أخذها على محمل الجد.

- انظر، لقد استعاد جيشي أغلب منطقة رومانيا لصالح الفاتيكان. ولم يتبقَّ لآل بورجيا جيش يحاربون به.

- تشيزاري على قيد الحياة! ومع كونه الرئيس الصوري...

- آمل ألا تكون مشككًا في أحكامي يا إتزيو؟ أنت تعرف أسبابي التي جعلتني أتركه على قيد الحياة. وعلى أيِّ حال أين هو الآن؟ إنه كالمدفون حيًّا.

- إن ميكيليتو لا يزال حرًّا طليقًا.

- تبًّا! ميكيليتو من دون تشيزاري لا يعدو كونه مجرد نكرة.

- ميكيليتو أدرى بإسبانيا. لقد ولد في بلنسية. وهو ابن شقيق رودريغو غير الشرعي.

راح البابا، الذي بالرغم من سنِّه كان رجلًا ناشطًا وضخم البنية كأنه لا يزال في مقتبل حياته، يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا خلال هذه المحادثة الأخيرة. والآن عاد إلى مكتبه، ووضع يديه الكبيرتين عليه ومال بطريقة توحي بالتهديد فوق إتزيو. كان سلوكه مقنعًا. وقال: «أنت تسمح لأسوأ مخاوفك بالسيطرة عليك. ونحن حتى لا نعرف ما إذا كان ميكيليتو على قيد الحياة أم لا».

- أظن أن علينا معرفة هذا، على وجه التأكيد.

فكر البابا في وجهة نظر إتزيو واسترخى بعض الشيء وجلس ثانيةً. ثم نقر على خاتم التوقيع الذي يرتديه في يسراه بسبابة يمناه، ثم سأل بنبرة مثقلة: «ما الذي تريد فعله؟ لا تتوقع أيَّ إمداد مني لك بالموارد. لقد تجاوزنا الميزانية بالفعل».

- أول شيء هو تحديد مكان أيٍّ فلول للموالين المتعصبين في مدينة روما نفسها وتدميرهم. علينا إيجاد شخصٍ يعرف شيء عن ميكيليتو، أحواله أو مصيره، ثم...

- ثم ماذا؟

- ثم إذا كان على قيد الحياة...

- ستقضي عليه؟

قال إتزيو: «أجل». وفكر في نفسه: *إلا إذا اتضح أنه أكثر إفادة لي وهو على قيد الحياة.*

تراجع يوليوس للوراء، وقال: «يُذهلني إصرارك يا إتزيو. ويكاد يُخيفني. وأنا سعيد لأني لست عدوًّا للحشاشين».

رفع إتزيو نظره بحدة، وقال: «أنت تعرف بخصوص الأخوية؟».

شبك البابا أصابعه مُشكلًا خيمة، وقال: «لطالما أردت أن أعرف مَن هم أعداء أعدائي. لكن أسرارك في أمانٍ معي. كما قلت لك، أنا لست أحمق».

50

- غريزتك على صواب، سأُرشدك وأحرسك، لكني لست ملكك. وعمَّا قريب عليك أن تتركني. فلا أملك قوة تسيطر على مَن يتحكم بي. يجب أن أطيع إرادة سيد التفاحة.

كان إتزيو بمفرده في مسكنه السري، ممسكًا التفاحة بيده وهو يحاول استخدامها لمساعدته في تحديد هدفه في روما، عندما كلَّمه الصوت الغامض مجددًا. وفي هذه المرة لم يستطع التفريق بين إذا ما كان الصوت لرجل أو امرأة، أو إذا كان آتيًا من التفاحة أو من مكانٍ ما في عقله.

غريزتك على صواب. لكن كذلك، لا أملك قوة تُسيطر على مَن يتحكم بي. لمَ إذن لم تُظهر له التفاحة إلا صورًا ضبابية لميكيليتو، صورًا تكفي فحسب لإخباره بأن خادم تشيزاري كان لا يزال على قيد الحياة. ولم تستطع، أو لم تُرد، تحديد موضع تشيزاري. في الوقت الحالي على الأقل.

وفجأة أدرك إتزيو شيئًا لطالما عرفته ذاته الداخلية أنه لا يصح له إساءة استعمال قواها بالاستخدام المفرط لها. وأنه لا ينبغي له الاعتماد على التفاحة. عرف إتزيو أن إرادته الداخلية هي التي شوشت الإجابات التي احتاج إليها. يجب ألا يكون كسولًا. عليه أن يعتمد على نفسه. ويومًا ما سيتعين عليه فعل ذلك، على أيِّ حال.

فكر في ليوناردو، ما الذي بوسع هذا الرجل القيام به لو أن التفاحة بحوزته؟ ليوناردو الذي لم يمتلك التفاحة يومًا، مع كونه من أفضل الرجال، إلا أنه قد اخترع أسلحة دمار بكل سهولة مثلما يرسم لوحات راقية. هل التفاحة لا تملك القوة لمساعدة البشرية فحسب، بل لإفسادها؟ وبوجودها في قبضة رودريغو وتشيزاري، إن قدر أحدهما على التحكم بها، لربما كانت أداة، ليست للخلاص، بل للدمار!

إن السلطة مُخدر فعال، ولا يريد أن يقع إتزيو ضحية لها.

عاود النظر إلى التفاحة، بدت خاملة في يديه الآن، لكن لما أرجعها إلى صندوقها، وجد أنه يصعب عليه إغلاق الغطاء. ما الفرص التي يمكن أن تقدمها له؟!

كلا، عليه دفنها. وعليه تعلُّم العيش من دونها وفق القواعد. لكن لم يحن الوقت بعد!

ولطالما خامل إتزيو شعور داخلي أن ميكيليتو لا يزال على قيد الحياة. والآن تحقق من صحة الأمر. وما دام على قيد الحياة، سيحاول بأقصى جهده تحرير سيده الشرير تشيزاري.

لم يكشف إتزيو عن كامل خطته للبابا يوليوس، فهو ينوي البحث عن تشيزاري وقتله، أو الموت في سبيل ذلك.

كانت تلك هي الطريقة الوحيدة.

ولن يستخدم التفاحة إلا عندما يضطر إلى ذلك. وعليه أن يشحذ غرائزه وقواه في الاستنتاج، وذلك تحسبًا لليوم الذي لن تكون فيه التفاحة بحوزته. وسيطارد الموالين المتعصبين لآل بورجيا في روما من دونها. وسيلجأ لقوتها فقط إن فشل في الكشف عنهم خلال ثلاثة أيام. فلا يزال يملك أصدقاءه؛ الفتيات في الوردة المتفتحة ولصوص الثعلب ورفاقه الحشاشين، وبمساعدتهم كيف له أن يفشل؟

علم إتزيو أن التفاحة ستساعده بطرق لا يستوعبها تمامًا، ما دام يحترم إمكاناتها. ربما كان هذا سرها. ربما لم يتمكن أحدٌ من التحكم فيها كليَّة، عدا فرد من جنس المهرة القدماء الذين تركوا العالم في عهدة البشرية، إما ليبنوه وإما يدمروه، وفقًا لما أردوا.

ثم أغلق الغطاء وقفل الصندوق.

***

دعا إتزيو لاجتماعٍ للأخوية في جزيرة التيبر ليلًا.

واستهلَّ الحديث قائلًا: «يا أصدقائي. أعرف كم عانينا، وأظن أن النصر قد بات حليفنا، لكن ثمة عمل علينا القيام به».

تبادل الجميع النظرات فيما بينهم مندهشين، إلا ماكيافيلي.

هتف الثعلب قائلًا: «لكن تشيزاري قد قُيد! للأبد!».

أضافت كلاوديا: «ولدينا بابا جديد كان على عداء دائم مع آل بورجيا».

علَّق بارتولوميو: «ودحرنا الفرنسيين».

- والريف آمن، ومنطقة رومانيا عادت إلى السيطرة البابوية.

رفع إتزيو يده ليسكتهم، وقال: «جميعنا نعلم أن النصر لا يتحقق إلا بكونه نصرًا مطلقًا».

قال ماكيافيلي بهدوء: «قد يكون تشيزاري مقيدًا، إلا أنه على قيد الحياة. وميكيليتو...».

قال إتزيو: «بالضبط. وما دام يوجد جيوب من الموالين المتعصبين لآل بورجيا، هنا وفي الولايات البابوية، فلا تزال ثمة بذرة قد تنبت بعودة آل بورجيا».

هتف بارتولوميو: «أنت حذرٌ جدًّا يا إتزيو. لقد انتصرنا».

- أنت تعلم يا بارتو مثلي تمامًا أن بعضًا من المدن في منطقة رومانيا ما زالت وفية لتشيزاري. وهي شديدة التحصين.

- سأذهب وأتعامل معها.

- سينتظرون. إن جيش كاترينا سفورزا ليس بالقوة الكافية التي تجعله يهاجمهم من فرولي، لكني قد أرسلت رسلًا لأطلب منها وضعهم نصب عينيها. لديَّ مهمة أكثر إلحاحًا لك.

فكر إتزيو: *أوه يا إلهي، لما يخفق قلبي عندما أذكر اسمها؟*

- وما هي؟

- أريدك أن تصطحب قوة إلى أوستيا وتلزم مراقبة الميناء. أريد أن أعرف بأيِّ سفن مثيرة للشبهة تدخل الميناء أو تخرج منه. أريدك أن تجهز رُسلًا متأهبين على ظهور الخيل للإتيان بالأخبار إليَّ هنا في اللحظة التي يكون لديك أيُّ شيءٍ تخبرنا به.

نخر بارتولوميو، وقال: «مهمة حارس! هذا العمل بعيد عن طبيعة رجل ميدانٍ مثلي».

- ستجد الكثير من العمل قدر ما تحتاج عندما يحين الوقت للتحرك ضد المدن المتمردة التي ذكرتها. وفي الوقت الحالي، هم يعيشون على الأمل، منتظرين إشارة. دعهم يعيشون على الأمل، سيبقيهم هذا ساكنين. إن مهمتنا هي القضاء على هذا الأمل، للأبد.

ابتسم ماكيافيلي، وقال: «أتفق مع إتزيو».

ردَّ بارتولوميو متذمرًا: «حسنًا، جيد. إن أصررت على ذلك».

- ستستجمُّ بانتاسيليا بهواء البحر بعد محنتها.

تهلل وجه بارتولوميو، وقال: «لم تخطر لي هذه الفكرة».

قال إتزيو وهو يتوجه نحو أخته: «جيد. كلاوديا، أظن أن التغير الحاصل في نظام الحكم لم يؤثر على عمل ماخور الوردة المتفتحة بدرجةٍ سيئة».

ابتسمت كلاوديا، وقالت: «مضحكٌ كيف أن أمراء الكنيسة يجدون صعوبة في إخماد الشيطان الكائن بين خواصرهم، رغم عدد المرات التي يغتسلون فيها بالمياه الباردة على حد زعمهم».

- أخبري فتياتكِ بأن يصغين السمع، إن يوليوس يُحكم قبضته على مَجمع الكرادلة، إلا أنه لا يزال له الكثير من الأعداء ممن لهم طموحات شخصية، وقد يكون بعضهم مختلي العقل كفاية ليعتقدوا بأنهم لو حرروا تشيزاري، ستتسنى لهم فرصة استخدامه وسيلة للوصول لغاياتهم بطريقةٍ أسهل. وراقبي يوهان بيرشارد كذلك.

- ماذا؟ مشرف مراسم رودريغو؟ هو بالتأكيد لا يسبب الكثير من الأذى. لقد كره اضطراره إلى تنظيم كل حفلات العربدة هذه. ألم يكن دوره مجرد دور وظيفي؟

- لا يزال عليكِ إخباري بأيِّ شيء تسمعينه، لا سيما بخصوص فصائل الموالين المتعصبين.

- سيكون الأمر أسهل الآن لعدم وجود حراس آل بورجيا يُضيقون علينا الخناق ليل نهار.

ابتسم إتزيو وبدا شارد الذهن، وقال: «عندي سؤال آخر أودُّ طرحه. لقد انشغلت عن الزيارة والأمر يؤرقني، لكن كيف حال أمنا؟».

اكفهرَّ وجه كلاوديا، وقالت: «إنها تمسك الدفاتر، لكن يا إتزيو، أخشى أن قواها تخور وقلَّما تخرج. وتكثر الحديث عن جيوفاني وعن فيدريريكو وبيتروشيو».

لاذ إتزيو بالصمت للحظة، سارحًا في ذكرى أبيه وإخوته الفقداء. ثم قال: «سآتي عندما تسمح لي الظروف. أبلغيها حبي واطلبي منها العفو عن تقصيري».

- إنها تتفهم طبيعة العمل الذي يتعين عليك القيام به. وهي تعرف أنك لا تفعل هذا لصالحنا نحن فحسب، بل من أجل الراحلين من أحبتنا.

قال إتزيو بصوتٍ متماسك: «إن دمَّار قاتليهم لا بدَّ أن يكون نُصبهم التذكاري».

سأل الثعلب: «وماذا عن رجالي؟».

- رجالك مهمين لدعمي يا جيلبرتو. إن مجنديني يدينون لي بالولاء، لكنهم يرون أن الحياة تعود إلى مجراها الطبيعي، ومعظمهم يتوقون للعودة إلى الحياة التي عاشوها قبل أن نُقنعهم بالانضمام إلينا في كفاحنا من أجل التخلص من نير آل بورجيا. إنهم يُبقون على مهارتهم، لكنهم ليسوا أعضاءً محلفين في الأخوية، ولا أتوقع منهم أن يتحملوا وطأة النير الذي نتحمله، لأنه نير لا يخلصنا من وطأته إلا الموت.

- أتفهَّم الأمر.

- أعرف أن الرجال والنساء العاملين تحت إمرتك هم من أبناء المدينة. لكن شيئًا من هواء الريف سيحدث فرقًا.

سأل الثعلب متشككًا: «ماذا تعني؟».

- أرسل أفضل رجالك إلى البلدات والقرى في محيط روما. ولن تكون هنالك حاجة للذهاب إلى أبعد من فيتيربو وتيرني ولاكويلا وأفزانوا ونيتونو. أشك أن نجد الكثير خارج نطاق المحيط المحدد

الذي تُشكله هذه البلدات حول روما. فلا يمكن أن يتبقى الكثير من الموالين المتعصبين، وأولئك الذين يرغبون في البقاء قريبين من روما.

- سيصعب إيجادهم.

- عليك بالمحاولة، أنت تعلم كيف لقوة صغيرة في المكان الصحيح أن تُخربَ خرابًا لا يوصف.

- سأرسل أفضل لصوصي وأجعلهم يتخفون في هيئة باعة متجولين.

- ارجع إليَّ بأيِّ أخبار تجدها، لا سيما أخبار ميكيليتو.

- أحقًّا تظن أنه لا يزال حيًّا يرزق في مكانٍ ما؟ ألا يمكن أن يكون قد رجع إلى إسبانيا، أو على الأقل إلى مملكة نابولي؟ إن لم يكن ميتًا بالفعل، هذا ما أقصده.

- أنا موقنٌ أنه على قيد الحياة.

هزَّ الثعلب كتفيه، وقال: «هذه انطلاقة جيدة بالنسبة إليَّ».

لما انصرف الآخرون، التفت ماكيافيلي إلى إتزيو، وقال: «ماذا عني؟».

- أنا وأنت سنعمل معًا.

- لا شيء يُسعدني أكثر من هذا، لكن قبل أن نخوض في التفاصيل، لديَّ سؤال.

- تفضل.

- لمَ لا نستعين بالتفاحة؟

شرح إتزيو متنهدًا قدر ما استطاع.

لما انتهى نظر إليه ماكيافيلي، وأخذ مفكرته السوداء الصغيرة وكتب فيها نصًّا طويلًا. ثم نهض، ومشى للجهة المقابلة من الغرفة وجلس

إلى جانب إتزيو، ضاغطًا على كتفه بحرارة. لم تبدر من ماكيافيلي مثل هذه اللمحة إلا نادرًا.

- لنتحدث عن العمل.

- هذا ما يدور في ذهني.

- أخبرني.

- ثمة نساء في هذه المدينة قد يساعدننا. لا بدَّ من البحث عنهن والتحدث إليهن.

***

كان الوصول إلى أول امرأة سهلًا، فقد تولى البابا يوليوس أمر هذا، لكن حثها على الحديث لم يكن بالسهولة نفسها.

استقبلتهما في ردهة فاخرة في طابقٍ راقٍ من منزلها الفسيح الذي له نوافذ في جوانبه الأربعة، ما جعله يوفر إطلالات باهرة على المدينة ذات المجد الزائل، والتي يتراوح حالها في الوقت الحالي ما بين التداعي والروعة، بعدما أسرف الباباوات الراحلون ببذخ على تعظيم ذواتهم.

قالت بعدما استمعت إليهم: «لا أعرف كيف أساعدكم». بيدَ أن إتزيو لاحظ تحاشيها النظر في أعينهم.

قال ماكيافيلي: «إن كان هناك جيوب من الموالين المتعصبين في المدينة، نحتاج إلى معرفتهم، سموك، ونحتاج إلى مساعدتكِ. إن اكتشفنا لاحقًا أنك حجبتِ عنا المعلومات...».

ردَّت فانوتزا بحدة: «لا تهددني أيها الشاب. يا إلهي! أتعرف كم مضى على علاقتي الغرامية برودريغو؟ ما يربو على العشرين عامًا!».

سألها إتزيو: «ربما أولادكِ...؟».

ابتسمت بمرارة، وقالت: «أتوقع أنك تتساءل كيف لامرأةٍ مثلي أن تنجب مثل هذه الذرية. لكني أقول لك إنهم لا يسري فيهم دم آل كاتاني إلا قليلًا. حسنًا ربما قد نالت لوكريتزيا من دمائنا شيئًا، لكن تشيزاري...». توقفت عن الكلام ورأى إتزيو الأسى في عينيها.

- أتعلمين أين هو؟

- لا أعرف أكثر مما تعرفه أنت، ولا أهتم لذلك. لقد فاتت سنوات منذ أن رأيته، رغم أننا نعيش في المدينة نفسها. إنه ميتٌ بالنسبة إليَّ.

بدا أن البابا حرص على الحفاظ على سرية مكانه. «ربما تعرف ابنتكِ؟».

- إن كنت أنا لا أعرف؟ لمَ ستعرف هي؟ إنها تعيش في فيرارا الآن. بإمكانكم الذهاب إليها وسؤالها، لكن الطريق إليها يمتد بعيدًا إلى الشمال، وقد حرَّم عليها قداسة البابا العودة مطلقًا إلى روما.

سألها ماكيافيلي: «هل ترينها؟».

تنهدت فانوتزا، وقالت: «كما قلت، الطريق إلى فيرارا يمتد بعيدًا إلى الشمال، ولا أهتم لأمر السفر كثيرًا هذه الأيام».

جالت بنظرها في الغرفة، وحدقت إلى الخدم الواقفين قُرب الباب، وأحيانًا إلى الساعة المائية. ولم تعرض عليهم المشروبات المرطبة وبدت حريصة على مغادرتهم. كانت امرأة تعيسة، وبدت مرتبكة وراحت تفرك يديها معًا باستمرار، لكن أكان حالها هكذا لأنها كانت تخفي شيئًا، أو لأنها مضطرة للحديث عن أشخاص لا تود الحديث عنهم على ما يبدو؟

قالت على غير توقع: «لديَّ، أو بالأحرى كان لديَّ، ثمانية أحفاد». كان إتزيو وماكيافيلي يعرفان أن لوكريتزيا أنجبت العديد من الأطفال من أزواجها المتعددين، إلا أن قلةً منهم مَن عاشوا لما بعد مرحلة الطفولة. فالناس يقولون إن لوكريتزيا لم تأخذ الحمل مأخذ الجد، واعتادت

الحفلات والرقص حتى لحظة ولادتها. هل تسبب هذا في نفور والدتها منها؟ كان لتشيزاري ابنة اسمها لويز في سنِّ الرابعة من العمر.

سألها ماكيافيلي: «هل ترين أيًّا منهم؟».

- لا، أظن أن لويز في روما، لكن أمها حرصت على أن تجعلها فرنسية أكثر من كونها إيطالية.

في تلك اللحظة نهضت وفتح الخدم بابَي الغرفة المزخرفين كما لو أنهم تلقوا إشارة.

- أتمنى لو أني أفيدكما...

قال ماكيافيلي بنبرةٍ خشنة: «نشكركِ على وقتك».

قالت فانوتزا: «هناك أناس آخرون قد تودان الحديث إليهم».

- ننوي زيارة الأميرة دالبرت.

زمَّت فانوتزا شفتيها، وقالت بلا اقتناع: «حظًّا موفقًا. عليكم بالإسراع كذلك. فقد سمعت أنها تتجهز للمغادرة إلى فرنسا. ربما، إن كنت محظوظة، قد تأتي وتودعني».

نهض إتزيو وماكيافيلي كذلك، وودعاها.

وما إن خرجا إلى الشارع، حتى قال ماكيافيلي: «أظن أنه سيتعين علينا استخدام التفاحة».

- ليس بعد.

- افعل ما يحلو لك، أظن أنك أحمق. لنذهب لرؤية الأميرة. لحسن الحظ أننا نتحدث الفرنسية.

- ستغادر تشارلوت دالبرت إلى فرنسا اليوم، لقد نَصبتُ رجالًا ليرقبوا قصرها. ثمة شخص آخر أريد رؤيته أولًا. في الحقيقة، أنا متفاجئ أن فانوتزا لم تذكرها.

- مَن؟

- جوليا فارنيزي.

- أليست تعيش في كاربونانو هذه الأيام؟

- أخبرني جواسيسي أنها في المدينة، لذا علينا أن نستغلَّ هذا.

- لِمَ تظن أننا قد نعرف منها أكثر مما عرفنا من فانوتزا؟

ابتسم إتزيو، وقال: «كانت جوليا آخر عشيقة لرودريغو وقد كان شغوفًا بها».

- أتذكَّر أنه لما أسروها كان منهارًا.

- ثم طلب الفرنسيون فدية لها قدرها ثلاثة آلاف دوك. وكان ليدفع عشرين ضعف المبلغ فداءً لها. ربما كان سيُبرم أيَّ نوع من الصفقات التي يطلبونها. لكن في ظني أن هذا ما يحصل عندما تصغُرك عشيقتك بأربعين سنة، إذ يكون المرء مفتونًا.

- لم يمنعه هذا من هجرها عندما بلغت الخامسة والعشرين، مع ذلك.

- أجل كانت قد كبرت كثيرًا بالنسبة إليه! لنسرع.

اتجها نحو الشمال، من الشوارع الضيقة متجهين نحو قصر كويرينالي.

وهما في الطريق لاحظ ماكيافيلي أن إتزيو مضطربٌ بشكلٍ متزايد. فسأله: «ما الأمر؟».

- ألم تلاحظ شيئًا؟

- ما هو؟

قال إتزيو بنبرة مقتضبة خشنة: «لا تنظر حولك!».

- كلا.

- أظن أن أحدهم يتبعنا... امرأة.

- منذ متى؟

- منذ أن غادرنا قصر فانوتزا.

- أهي واحدة من ضمن خدمها؟

- ربما.

- وحدها؟

- إذن يُفضل لنا الهرب منها.

رغم أنهما كانا متعجلين للمضي قدمًا، إلا أنهما أبطآ من سيرهما، وراحا يتفرجان على نوافذ المتاجر وتوقفا حتى في كشك خمور. ومن فوق حافة كأسه لمح إتزيو امرأة شقراء طويلة لها بنية رياضية ترتدي فستانًا جيدًا، لكنه غير لافت باللون الأخضر الداكن من قماشٍ خفيف. ستقدر على الحركة بمثل هذه الملابس إن دعتها الحاجة إلى ذلك.

قال: «رأيتها».

تفحص كلاهما الجدار المقابل الذي نُصِب عليه الكشك. كان مكانًا جديدًا، مبنيًّا على الطراز التخشيني الحديث بكتلٍ حجرية كبيرة متخشنة تفصلها وصلات غائرة. وعلى مساحات متباعدة من الجدار، ثُبتت به حلقات حديدية لربط الخيول.

كانت مناسبة تمامًا.

سلكا طريقهما إلى الجانب الخلفي من الكشك، لكن لم يوجد مخرج من هناك.

قال ماكيافيلي: «علينا أن نكون سريعين».

ردَّ إتزيو: «راقبني!»، ووضع كأسه على طاولةٍ قُرب المدخل. وبعد عدة ثوانٍ كان قد تسلق الجدار حتى منتصفه وماكيافيلي من ورائه مباشرةً.

حدق المارة فاغرين أفواههم بينما يختفي الرجلان ومن خلفهما تتطاير عباءتاهما في الهواء من فوق الأسطح، وأخذا يقفزان عبر الأزقة والشوارع، ما تسبب بانزلاق القرميد وتحطمه على حصى الرصف أو سقوطه في طين الحارات غير المعبدة، وحاول الناس بالأسفل تفاديه أو القفز بعيدًا عن الطريق.

حتى لو قدرت المرأة على القيام بذلك، فلم تستطع تسلق الجدران العمودية بتنورتها الطويلة، لكن رأى إتزيو أن فستانها كان به شقٌّ مخفي بعناية عند الخصر من جانب واحد، ما سمح لها بالركض، وانطلقت في الشوارع في أعقابهما، تدفع جانبًا أيَّ أحد يعترض طريقها. وأيًّا ما كانت هذه المرأة، فهي مدربة جيدًا.

أخيرًا، فقدا أثرها. ثم وقفا بأنفاس متقطعة على سطح كنيسة سانت نيكولو دي بورتيز، واستلقيا أرضًا، يفحصان الشوارع بالأسفل بعناية. ولم يوجد أحدٌ مثير للريبة بين المواطنين في الشوارع، رغم أن إتزيو ظن أنه تعرف على اثنين من لصوص الثعلب يتجولان في الشوارع مستخدمين سكاكين حادة صغيرة لشقِّ مَحافظ الأموال. يُفترض أنهما لم يقع عليهما الاختيار للذهاب إلى محيط الريف، لكنهما سيسائلان الثعلب في هذا الخصوص لاحقًا.

قال ماكيافيلي مقترحًا: «لننزل».

- لا، يسهل علينا التواري عن الأنظار بالأعلى هنا ولم تعد تفصلنا مسافة كبيرة عن وجهتنا.

- يبدو أنها لم تلقَ صعوبات في ملاحقتنا. من حسن حظنا وجود هذا السطح الذي يحيطه سور عالٍ، حيث يُمكِّننا من تغيير وجهتنا دون أن تلاحظ هي ذلك.

أومأ إتزيو. أيًّا ما كانت هذه المرأة، فلا بدَّ أنها عادت بالأخبار الآن. تمنى لو أنها تعمل في صفهم. وعلى كل حال، تعين عليهم الوصول إلى مسكن جوليا في روما، ثم الخروج من منطقة كويرينالي سريعًا. ربما يتعين عليه تكليف بضع من مجنديه بمراقبة ظهورهما في أيِّ مهمات مستقبلية. كان الموالون المتعصبون لآل بورجيا يستكينون في ظل الحكم المتشدد للبابا الجديد، لكن من أجل إيهام السلطات بحسٍّ زائف بالأمان.

رضي زوج جوليا الأول، أورسينو أورسيني، بغَضِّ الطرف عن العلاقة الغرامية لزوجته بنت الثامنة عشرة مع رودريغو بورجيا ذي الاثنين والستين عامًا. كانت لها ابنة اسمها لورا، لكن لم يعرف أحد أهي من أورسينو أو رودريغو. وقد ارتقى رودريغو، رغم كونه بلنسيًّا، إلى كرسي الكنيسة حتى سيطر على خزينة الفاتيكان، وقد أظهر امتنانه لعشيقته الشابة الجميلة بإسكانها في منزل جديد تمامًا -والذي اضطرت إلى مغادرته منذ فترة طويلة- قريب من الفاتيكان وتنصيب أخيها أليساندرو كاردينالًا. ويطلق عليه الكرادلة الآخرون من وراء ظهره لقب «كاردينال التنورات»، رغم أن هذا بالطبع لا يكون في حضور رودريغو. ويطلقوا على جوليا اسم «عروس المسيح».

نزل إتزيو وماكيافيلي إلى الأرض في الساحة المقابلة لبناية مسكن الأميرة. وقف بضعة حراس بابويين في الجوار، وما عدا ذلك كانت الساحة خالية. حملت ملابس الحراس على أكتافهم شعار عائلة ديلا روفيري المؤلف من شجرة سنديان هائلة وجذور وغصون يعلوها التاج الثلاثي البابوي ومفاتيح سانت بيتر. تعرَّف إتزيو على الرجال، فقد كانوا قبل ستة أشهر يرتدون زيَّ آل بورجيا. كيف تغير الزمان، فالآن يحيونه ويرد عليهم التحية.

تمتم ماكيافيلي في سره: «ملاعين».

قال إتزيو: «على الإنسان أن يتكيف مع الظروف. أنا مستغرب أنك من بين كل الناس تعترض على أمرٍ تافه كهذا».

- هيَّا.

وصلا دون سابق إشعار، وتطلَّب الأمر بعض العناء لإقناع خدم آل فارنيزي، الذين يرتدون شعار الزنابق الست الزرقاء على خلفية صفراء على عباءاتهم، بإدخالهم، وحسبما يعرفه إتزيو فإن السيدة فارنيزي موجودة في المنزل. واستقبلتهما في غرفة شبه مبهرجة لكنها أرقى ذوقًا من غرفة فانوتزا. كانت محتفظة بجمال شبابها والذكاء الذي يضفي عليه رونقًا وهي في ثلاثينياتها. ورغم كونهم ضيوفًا غير متوقعين فقد ضيَّفتهم السيدة بتقديم نبيذ الموسكاتو وكعكة الفواكه الجافة بالعسل في الحال.

وما لبث أن اتضح أنها لا تعرف شيئًا وكانت بريئة من دنس آل بورجيا، رغم قُربها السابق من العائلة البغيضة، كما يسميها ماكيافيلي. رأى ماكيافيلي أنها قد تخطت ذلك، ولما سألها إتزيو عن صداقتها الوثيقة السابقة مع لوكريتزيا، كان كلُّ ما قالته هو: «ما رأيته منها كان جانبها الجيد، أظن أنها تأثرت كثيرًا بسلطة والدها وأخيها القهرية. أشكر الرب أنها تخلصت منهما». أطرقت ثم تابعت: «لو أنها قد قابلت بيترو بيمبو في وقتٍ مبكر. كانا روحين متآلفتين. وربما كان قد أخذها إلى البندقية وأنقذها من جانبها المظلم».

- هل ما زلتِ تلتقينها؟

- للأسف، فيرارا بعيدة في الشمال، وأنا مشغولة بإدارة كاربونانو. حتى الصداقات تخبو يا إتزيو أوديتوري.

وخطرت له فجأة صورة لكاترينا سفورزا قبل أن يتمكن من إخماد شعوره حيالها. آه يا إلهي، كيف يأسر قلبه مجرد ورود ذكراها على خاطره حتى الآن.

لما غادرا كان العصر وشيكًا. وتوخيا الحذر من وجود أيِّ أحد يراقبهما، إلا أنه لم يكن هناك أحد.

عاود ماكيافيلي القول: «علينا استخدام التفاحة».

- ما لبثنا إلا يومًا واحدًا من ثلاث. علينا تعلم الوثوق بأنفسنا وذكائنا، ولا نركن إلى ما وُهبنا إياه.

- إن الأمر مُلحٌّ.

- لنقوم بزيارةٍ أخرى اليوم يا نيكولو. ثم حينها يمكننا أن ننظر في أمر ذلك.

كانت الأميرة دالبرت، السيدة دى تشالو دوقة فالونتينوا، حسب ما قاله حراس قصرها الفخم في منطقة بينشانو، غير موجودة بالمنزل. لكن إتزيو وماكيافيلي نافدَي الصبر ومتعبَين اندفعا للداخل على أيِّ حال، وقابلا تشارلوت في غرفتها الرئيسية، وكانت منشغلة بحزم أغراضها. وانتشرت في النصف الفارغ من الغرفة صناديق كبيرة مليئة بالكتان الباهظ والكتب والمجوهرات، وفي زاويةٍ من الغرفة كانت لويز ذات الأربعة أعوام المرتبكة، والوريثة الشرعية الوحيدة لتشيزاري، تلعب بدميتها الخشبية.

قالت المرأة الشقراء ذات الملامح الباردة التي قابلتهم وعيناها البنيتان تتوقدان شررًا: «أنتما سفيهان للغاية».

قال إتزيو كاذبًا: «لدينا موافقة البابا شخصيًّا. وها هي المذكرة». ورفع ورقة برشمان فارغة، تتدلى منها أختام مبهرة.

قالت المرأة بنبرة فاترة: «إن كنتما تظنان أيها الوغدان أنني أعرف أين محبس تشيزاري، فأنتما أحمقان. أنا لا أريد رؤيته ثانيةً، وأرجو ألا يجري دمه الملعون في عروق ابنتي الصغيرة المسكينة».

قال ماكيافيلي بإصرار: «نبحث كذلك عن ميكيليتو».

قالت غاضبة: «ذاك الفلاح الكتالوني، كيف لي أن أعرف؟».

قال ماكيافيلي مقترحًا: «لقد أخبركِ زوجكِ بالطريقة التي ربما يهرب بها، إذا أُلقي القبض عليه. لقد اعتمد عليكِ».

- أتظنان هذا؟ أنا لا أظن هذا! ربما وثق تشيزاري بواحدةٍ من عشرات العشيقات اللائي حظي بهن. ربما التي أصابته بالزهري؟

- هل أُصبتِ...؟

- لم ألمسه بعد ظهور البثور الأولى، وعلى الأقل كان به من اللياقة ما جعله يبتعد عني وتردى في الوحل مع العاهرات منذ ذلك الوقت. وأنجب أحد عشر طفلًا منهن، فعلى الأقل أنا خالية من المرض، وكذلك ابنتي. وكما ترون، أنا مغادرة من هذا المكان. فرنسا بلد أفضل بكثير من هذا الجحيم البائس. سأعود إلى مُوتِه فويلي.

سألها ماكيافيلي بنبرةٍ ماكرة: «ليس إلى مملكة نَبْرة؟».

أدارات وجهها الفاتر ذا العظام البارزة نحوهما ولاحظ إتزيو أن جمالها شوهته، أو حسَّنته، غمَّازة في منتصف ذقنها، وقالت: «أرى أنكما تحاولان خداعي. أنا لا أختار الذهاب إلى هذه المقاطعة فقط بسبب أن أخي قد تزوج وريثة العرش وعليه غدا ملكًا».

سألها إتزيو: «هل لا يزال أخوكِ يدين بالولاء لتشيزاري؟».

- أشك في ذلك. لمَ لا تتوقفان عن تضييع وقتي وتذهبان لتسألاه؟

- مملكة نبرة بعيدة للغاية.

- بالضبط. هذا هو السبب الذي يجعلني أتمنى لو أنك وصديقك المتجهم في طريقكما إلى هناك. والآن لقد تأخر الوقت ولديَّ عمل أؤديه. رجاءً غادرا.

***

قال ماكيافيلي مُعلقًا بينما يخرجان إلى الشوارع ثانيةً والظلام يتكاثف: «يوم ضائع».

قال إتزيو: «لا أظن ذلك. لقد عرفنا أن لا أحد من هؤلاء مقربًا من تشيزاري أو يحاول حمايته». أطرق إتزيو ثم تابع: «فأهم امرأة في حياته تكرهه، وحتى جوليا ليس لديها متسع من الوقت من أجل رودريغو».

قال ماكيافيلي عابسًا: «تخيل أن يكون للمرأة علاقة حميمية مع شخص متقدم في العمر لدرجة تجعله في مقام جدها».

- حسنًا، لم يكن الوضع في غاية السوء بالنسبة إليها.

- لا نزال نجهل مكان تشيزاري، استخدم التفاحة.

- لا، ليس بعد. علينا الاعتماد على أنفسنا.

تنهد ماكيافيلي، وقال: «حسنًا، على الأقل وهبنا الرب عقولًا مستنيرة».

وفي تلك اللحظة، جاء واحدٌ من جواسيس ماكيافيلي راكضًا متقطع الأنفاس. كان رجلًا صغير البنية، أصلع الرأس، له عينان متيقظتان ووجه حاد.

قال ماكيافيلي والدهشة والقلق يتملكانه: «برونو؟».

قال الرجل لاهثًا: «سيدي، حمدًا للرب أني وجدتك».

- ما الأمر؟

- الموالون المتعصبون لآل بورجيا! لقد أرسلوا أحدهم ليتبعك أنت والسيد إتزيو...

- وماذا بعد؟

- ولما تأكدوا أنكما بعيدان عن طريقهما، أخذوا كلاوديا!

قال إتزيو بلهفة: «أختي! يا يسوع الرحيم، كيف ذلك؟».

- كانت في الساحة خارج كنيسة سانت بيتر، كما تعرف تلك الأعمدة الخشبية المتهالكة التي يريد البابا إزالتها؟

- هات ما عندك!

- لقد أخذوها. كانت تنظم فتياتها، وتجعلهم يتسللن إلى...

- أين هي الآن؟

- لديهم مخبأ في براتي، إلى الشرق من الفاتيكان. هذا هو المكان الذي أخذوها إليه. وأعطاهما برونو سريعًا تفاصيل مكان أَسْر كلاوديا.

نظر إتزيو إلى ماكيافيلي، وقال: «هيًّا».

قال ماكيافيلي بنبرة خشنة كعادته: «على الأقل عرفنا مكانهم»، وقفز الاثنان إلى الأسطح ثانيةً، يركضان ويقفزان فوق أسطح روما حتى وصلا إلى نهر التيبر، حيث عبرا جسر ديلا روفيري وأسرعا باتجاه هدفهما.

كان المكان الذي أشار إليه جاسوس ماكيافيلي برونو قصرٌ مهدم إلى الشمال تمامًا من سوق منطقة بارتي. لكن الجص المتهالك أخفى وراءه بابًا أماميًّا جديدًا مطوقًا بالحديد، وكانت الشبكات الموضوعة على النوافذ جديدة وحديثة الطلاء.

وقبل أن يتمكن ماكيافيلي من إيقافه، ذهب إتزيو إلى الباب وطرقه.

فُتحت عين الباب ونظرت إليهما عينان صغيرتان، ثم لدهشتهم، انفتح الباب بسلاسة على مفصلات مزيَّتة جيدًا.

وجدا نفسيهما في فناء عادي لم يكن فيه أحد. وأيًّا ما يكُن الشخص الذي فتح الباب، وأغلقه بإحكام من ورائهما، فقد اختفى. كان هناك أبواب على الجوانب الثلاثة من الفناء. كان الباب المواجه للمدخل مفتوحًا، وكانت فوقه لافتة مهترئة عليها ثور أسود في حقل ذهبي.

قال ماكيافيلي باقتضاب: «إننا محاصرون. ما الأسلحة التي لديك؟».

كان بحوزة إتزيو نصله الخفي الموثوق، وسيفه وخنجره. وكان مع ماكيافيلي سيف خفيف وخنجر ستيلتو صغير.

قال صوت لم يُرَ صاحبه آتٍ من نافذة تطل على الفناء في مكانٍ مرتفع في الحائط فوق الباب المفتوح: «هيَّا أيها السيدان المحترمان، أنتما محط ترحاب كبير. أظن أن لدينا شيئًا نقايض به».

ردَّ ماكيافيلي بحدة: «البابا يعرف مكاننا. أنتم في ورطة، سلِّموا أنفسكم. فالقضية التي تخدمونها خاسرة».

كان الردَّ على هذا ضحكة باهتة: «أهي كذلك بالفعل؟ لا أظن ذلك. لكن بربكما. كنا نعلم أنكما ستبتلعان الطُّعم».

- برونو؟

- الخيانة تجري في دم عائلته، والعزيز برونو ليس استثناءً منها. كلُّ ما أراده برونو كان القليل من المال بأكثر مما تدفع له. وتمكن بالحيلة من إقناع كلاوديا بالمجيء إلى هنا على أمل مقابلة أحد الكرادلة الإنجليز. إنهم يقفون على الحياد، كما يفعل الإنجليز دومًا، وحدا كلاوديا أمل بأن تجتذبه إلى صفك وتخرج منه ببعض المعلومات. وللأسف فإن الكاردينال شايكشافت وقعت له حادثة مروعة، قد دهسته عربة ومات في الحال، لكن شقيقتك يا إتزيو، بالكاد، على قيد الحياة، وأنا واثق من أنها تتوق لرؤيتك.

قال ماكيافيلي بينما ينظر الرجلان بعضهما إلى بعض: «اهدأ». كان دم إتزيو يغلي. لقد قضى يومًا كاملًا يبحث عن الموالين المتعصبين فقط ليُقاد إليهم مباشرةً.

غرز إتزيو أظافره في راحتي يديه، ثم صرخ: «أين هي أيها الوغد؟».

- ادخلا.

اقترب الحشاشان من المدخل المظلم في حرص.

كان ثمة قاعة معتمة الإضاءة في وسطها يرتكز تمثال على قاعدة للبابا ألكسندر السادس نحته أدكينونو (حسب ما خمَّن ماكيافيلي)، فالملامح الفظَّة المؤلفة من الأنف المعقوف والذقن النحيف والشفاه الغليظة واقعية. لم يكن ثمة أثاث آخر في القاعة، وتكرر وجود ثلاثة أبواب تؤدي إلى مخارج مختلفة من الجدران الثلاثة المواجهة للمدخل؛ ووحده المواجه للمدخل كان مفتوحًا. مشى إتزيو وماكيافيلي باتجاهه، ومرَّا من الباب، فوجدا نفسيهما في غرفة أخرى معتمة. كانت هناك طاولة عليها قطعة قماش مبقعة رُصت عليه أدوات جراحية صدئة متعددة، تلمع تحت ضوء شمعة واحدة مشتعلة. وإلى جانبها كان ثمة كرسي أُجلست عليه كلاوديا. كانت شبه عارية ومقيدة، ويداها في حجرها وتنتشر الكدمات في وجهها وصدرها، وفمها مكمم بخرقة.

خرج ثلاثة رجال من الظلال التي أخفت الجدار الخلفي. وعرف إتزيو وماكيافيلي أنه كان هناك أناس آخرون غيرهم، رجال ونساء من خلفهم في كل جانب. واستطاعا رؤيتهم في الضوء المعتم وهم يرتدون ألوان آل بورجيا البالية. كانوا جميعًا مسلحين عن آخرهم.

تحدثت عينا كلاوديا إلى إتزيو. واستطاعت أن تفك قيد إصبعها الموسوم لتريه أنها لم تستسلم رغم التعذيب. لقد كانت حشَّاشة صادقة. لمَ قد شك بها من قبل؟

قال زعيم الموالين المتعصبين، وكان رجلًا هزيلًا في الخمسين من عمره لم يعرفه إتزيو: «نعرف شعورك تجاه عائلتك. لقد تركت أباك وأخويك للموت. ولم نعبأ بأمك لأنها في طريقها للموت على أيِّ حال.

لكن يمكنك إنقاذ أختك، إن أحببت. وهي متقدمة في العمر وليس لديها أيُّ أطفال، لذا ربما لن تهتم».

تمالك إتزيو نفسه، وقال: «ما الذي تريده؟».

- في المقابل؟ أريدك أن تغادر روما. لمَ لا تذهب إلى مونترجيوني وتعيد بناء المكان من جديد؟ قم ببعض أعمال الزراعة. واترك صراع السلطة لمَن يفهمه.

بصق إتزيو.

قال الرجل النحيف: «أوه يا عزيزتي». وأمسك كلاوديا من شعرها، وأخرج سكينًا صغيرة وقطع ثديها الأيسر.

صرخت كلاوديا.

- إنها بضاعةٌ تالفة في الوقت الحالي، لكن أنا متأكد أنها ستسترد عافيتها بفضل رعايتك الحنونة.

- سأستعيدها وسأقتلك. ببطء.

- لقد منحتك فرصة يا إتزيو أوديتوري، لكنك تهددني، وأنت لست في وضع يسمح لك بالتهديد. فإن كان ثمة قتل سيقع، فأنا الذي سأوقعه. انسَ أمر مونترجيوني، فسيدة متحضرة مثل السيدة كلاوديا ستكره العيش هناك على أيٍّ حال، مصيركم هنا، وهو الموت في هذه الغرفة.

ضيَّق الرجال والنساء الموجودون في كل جانب من الغرفة الخناق، مشهرِين سيوفهم.

قال ماكيافيلي: «قلت لك إننا محاصران».

ردَّ إتزيو وهو يتبادل النظرات مع الرجل الآخر: «على الأقل وجدنا الأوغاد. إليك هذا!». ثم رمى بحفنة من الإبر المسمومة إلى رفيقه. وأردف: «لا تُخفق في استعمالها».

- لم تخبرني أنك جئت مستعدًّا.

- لم تسألني.

- لقد سألتك.

- اخرس.

نزل إتزيو أرضًا مقرفصًا بينما يقترب منه الموالون المتعصبون. ووضع قائدهم السكين الرفيعة على حلق كلاوديا.

- لننطلق!

استلَّا سيفيهما معًا. وبيديهما الأخريين، رميا الإبر السامة بدقة قاتلة.

تهاوى أنصار آل بورجيا على كلا الجانبين، في الوقت الذي أطبق فيه ماكيافيلي عليهم وهو يضرب ويقطع بسيفه وخنجره، مندفعًا نحو الموالين المتعصبين الذين حاولوا سحقه دون جدوى بقوة عددهم.

كان لإتزيو هدف وحيد، ألا وهو قتل الرجل النحيل قبل أن يقطع عنق كلاوديا. فقفز إلى الأمام، وأمسك الرجل من حلقه، لكن خصمه كان متملصًا كسمكة الأنقليس فأفلت من قبضته دون أن يترك ضحيته.

واستطاع إتزيو أخيرًا أن يطرحه أرضًا، وأمسك يده اليمنى بيسراه، دافعًا سنَّ السكين التي أمسكها الرجل بالقرب من حلقه. فلامست السِّن شريانه الوداجي.

قال قائد الموالين المتعصبين مغمغمًا: «ارحمنى. لقد خدمت قضية ظننتها صادقة».

سأله إتزيو: «ما مقدار الرحمة التي أظهرتها لأختي؟ أيها الحثالة! أنت منتهٍ».

لم يحتَج إتزيو إلى إطلاق النصل الخفي، فقال: «أخبرتك أن موتك سيكون بطيئًا». وسحب سكينه باتجاه مغبن الرجل. وأردف: «لكني سأكون رحيمًا». ثم عاد بالسكين إلى الأعلى عند حلق الرجل ونحره. تدفق الدم في فم الرجل، وراح يتمتم: «أيها الوغد! ستموت على يد ميكيليتو!».

ترك إتزيو رأس الرجل يتدلى: «ارقد بسلام»، قالها عن عدم قناعة منه بذلك.

استلقى الموالون الآخرون ما بين ميت ومُحتضر في أرجاء المكان من حولهم بينما أسرع ماكيافيلي وإتزيو بفك الحبال الشديدة التي قيدت كلاوديا.

كانت قد أُوسعت ضربًا، إلا أنهم امتنعوا عن تدنيس شرفها.

- أوه، إتزيو.

- هل أنتِ على ما يرام؟

- آمل ذلك.

- هيًّا. علينا الخروج من هنا.

- برفق.

- بالطبع.

حمل إتزيو شقيقته بين ذراعيه، وتبعه ماكيافيلي متجهمًا، ومشوا في ضوء النهار الآفل.

قال ماكيافيلي: «حسنًا، على الأقل تأكدنا من أن ميكيليتو على قيد الحياة».

51

قال الثعلب: «لقد وجدنا ميكيليتو».

قال إتزيو بنبرة مُلحة: «أين؟».

- مختبئٌ في زاجارولو، إلى الشرق من هنا مباشرةً.

- لننلَ منه إذن.

قال الثعلب محذرًا: «ليس بهذه السرعة. فلديه فرقٌ من بلديات منطقة رومانيا لا تزال موالية لتشيزاري وسيقاتل».

- ليفعل ذلك.

- علينا تنظيم صفوفنا.

- إذن لنفعل ذلك. الآن!

دعا إتزيو ومعه ماكيافيلي والثعلب إلى اجتماع في جزيرة التيبر تلك الليلة. كان بارتولوميو لا يزال في أوستيا يراقب الميناء، وكانت كلاوديا ترتاح في ماخور الوردة المتفتحة وتحيطها أمها العليلة بالرعاية بعد محنتها الشديدة. وتوفر ما يكفي من اللصوص والمجندين لحشد قوة من مئة رجل وامرأة قادرين على حمل السلاح، ولم تستدعِ الحاجة مرتزقة آخرين حتى يدعموهم.

- إنه مُعسكِرٌ في مدرسة المصارعين القديمة المسماة لودوس ماجنوس، ومعه ما يقرب من مئتين وخمسين رجلًا.

تساءل إتزيو قائلًا: «ما الذي ينوي فعله؟».

- لا أملك أدنى فكرة. ربما يهرب، أو يتجه إلى الأمان في الشمال مع الفرنسيين، مَن يدري؟

- أيًّا ما تكُن خططه، لنَئِدْها في مهدها.

بحلول الفجر، جمَّع إتزيو قوة تمتطي ظهور الخيل وانطلقوا لمسافة قصيرة باتجاه زاجارولو وحاصروا معسكر ميكيليتو عند طلوع الشمس. حمل إتزيو قوسه على ذراعه فوق واقي الرسغ، وعلى الذراع الأخرى النصل السام. فلا مجال للرحمة، رغم أنه يريد ميكيليتو حيًّا.

قاتل المدافعون قتالًا شديدًا، لكن انتصرت قوات إتزيو في النهاية، وفرقت الموالين المتعصبين تحت قيادة ميكيليتو كما يتفرق التبن.

وقف ميكيليتو بين الجرحى والقتلى والمحتضرين بشموخ وتحدٍّ حتى النهاية.

قال ماكيافيلي: «سنأخذك يا ميكيليتو دي كوريلا أسيرًا لنا. ولن تفسد علينا أمتنا بمخططاتك».

قال ميكيليتو غاضبًا: «لن تقيدني السلاسل مطلقًا. كما لن تقيد سيدي».

أخذوه مقيدًا بالسلاسل إلى فلورنسا، حيث أُودِع في زنازين السلطة الحاكمة، في الزنزانة نفسها التي قضى فيها جيوفاني والد إتزيو ساعاته الأخيرة. وهناك، اجتمع حاكم المدينة بييرو سوديريني وصديقه ومستشاره أمريكو فسبوتشي وماكيافيلي لاستجوابه وتعذيبه، لكنهم لم يحصلوا منه على شيء، لذا، في الوقت الحالي، تركوه ليتعفن. إذ يبدو أن أيامه كقاتل قد انتهت.

بالنسبة إلى إتزيو فقد عاد إلى روما.

وقال لصديقه عند المغادرة: «أعرف أنك فلورنسي الهوى يا نيكولو، لكني سأفتقدك».

ردَّ ماكيافيلي: «أنا حشاش كذلك. وولائي الأول سيكون للأخوية. أعلِمني حينما تحتاج إليَّ في المرة القادمة وسآتي إليك دون تلكؤٍ. إلى جانب..». أضاف بنبرةٍ قاتمة: «لم أتخلَّ عن الأمل في استخراج المعلومات من الرجل الشرير».

قال إتزيو: «أتمنى لك حظًّا طيبًا».

لم يكن متيقنًا من أنهم سيخضعونه. فقد يكون ميكيليتو رجلًا شريرًا، لكنه كان كذلك قوي العزيمة.

52

قال ليوناردو لإتزيو بينما يجلسان في معرض ليوناردو في روما: «عليك نسيان أمر ميكيليتو يا إتزيو. تنعم روما بالسلام الآن. ويتمتع البابا بالقوة، فقد أخضع منطقة رومانيا. إنه على دراية بالحروب بقدر ما هو رجل دين، وربما ستنعم كل ربوع إيطاليا بالسلام أخيرًا تحت قيادته. ورغم أن إسبانيا تسيطر على الجنوب، فإن فرديناند وإيزابيلا تربطنا بهما صداقة».

عرف إتزيو أن ليوناردو كان سعيدًا في عمله، فقد عيَّنه البابا يوليوس مهندسًا عسكريًّا وكان يعمل على مجموعة من المشاريع الجديدة، رغم أنه حنَّ في بعض الأحيان إلى ميلان الحبيبة، والتي ما زالت في يد الفرنسيين، وتكلم في أكثر لحظاته كآبة وحزنًا عن الذهاب إلى أمبواز، حيث قُدمت له كل التسهيلات التي احتاج إليها. وطالما تحدث عن الذهاب بمجرد أن يُنهي تكليفات البابا يوليوس.

وبخصوص منطقة رومانيا، تحولت أفكار إتزيو في الغالب إلى كاترينا سفورزا الذي لا يزال قلبه ينبض بحبها. وقد تلقى منها رسالة فحواها أنها تجمعها علاقة بالسفير الفلورنسي في الوقت الحالي. وعرف إتزيو أن حياتها لا تزال مضطربة، وأنه رغم دعم يوليوس، فإن شعبها قد أخرجها من فرولي بسبب القسوة التي أظهرتها في إخماد التمرد ضد زوجها الثاني العنيد الراحل، جيرولامو فيو، كانت تشيخ الآن متقاعدةً في فلورنسا. كانت رسائله إليها في البداية غاضبة، ثم معاتبة،

ثم متوسلة، إلا أنها لم ترد على واحدة منها. ثم تقبل في نهاية المطاف أنها قد استغلته وأنه لن يراها ثانيةً.

شعر إتزيو بالألم والإهانة، لكنه لا يملك متسعًا من الوقت ليغرق في بؤسه. فعمله في روما يقوِّي الأخوية، وقبل كل شيء يبقيها متأهبة، ويبقيه هو منشغلًا.

قال إتزيو بإصرار: «أظن أنه ما دام ميكيليتو على قيد الحياة، فسيبذل قصارى جهده ليهرب ويحرر تشيزاري بورجيا، ويساعده على إعادة بناء قواته».

كان لليوناردو مشكلاته الخاصة، فيما يخصُّ صديقه المقرب عديم المسؤولية سالاي، وبالكاد أصغى إلى صديقه القديم. وقال: «لم يهرب أحد أبدًا من السجن في فلورنسا. ليس من تلك الزنازين».

- لمَ لا يقتلونه؟

قال ليوناردو: «يظنون أنهم قد يحصلون منه على شيء، رغم أني شخصيًّا أشك في هذا. على أيِّ حال، انتهى أمر آل بورجيا، عليك الارتياح. لمَ لا تصطحب أختك المسكينة وتعودان إلى مونترجيوني؟».

- لقد ترعرعتْ على حب روما، ولن تعود إلى مكانٍ أقل منها مكانة الآن، وعلى أيِّ حال، يقع المقر الجديد للأخوية هنا.

كان هذا مدعاة أخرى للحزن في حياة إتزيو. فقد ماتت أمه ماريا بعد مرض فتك بها. وتخلت كلاوديا بعد اختطافها على يد الموالين المتعصبين لآل بورجيا عن ماخور الوردة المتفتحة، ويدير الماخور الآن شبكة جواسيس يوليوس الخاصة، الذي يستعين بفتياتٍ مختلفات. وتفاوض الثعلب مع زميله أنتونيو في البندقية لإرسال روزا -والتي غدت أكبر سنًّا وأكثر وقارًا لكن لم تتغير شراستها عما كانت عليه عندما عرفها إتزيو في لاسيرنسيما- إلى روما لإدارة الماخور.

كما كانت هناك مشكلة التفاحة.

فقد تغير الكثير من الأمور، ولما استُدعِي إتزيو إلى الفاتيكان لعقد مقابلة مع البابا، لم يكن مستعدًّا لما سيسمعه.

قال البابا يوليوس وهو يتطرق كالعادة إلى صلب الموضوع: «أنا شديد الإعجاب بالجهاز الذي بحوزتك».

- ما الذي تعنيه قداستك؟

ابتسم البابا، وقال: «لا تماطل معي يا عزيزي إتزيو. فأنا لديَّ مصادري وقد أخبروني أن بحوزتك شيئًا يسمى التفاحة وجدته تحت كنيسة سيستينا منذ بضع سنوات. ويبدو أن لها قوة كبيرة».

تسارعت الأفكار في عقل إتزيو، وكيف عرف يوليوس بأمر التفاحة؟ هل أخبره ليوناردو؟ يكون ليوناردو ساذجًا على نحو غريب في بعض الأحيان، وقد أراد راعيًا ماليًّا جديدًا. قال إتزيو: «لقد مُنِحتُها، بطريقة أجدها مستعصية على الشرح لك، من قِبل قوة من عالم قديم لمساعدتنا. وقد ساعدتنا، لكني أخشى من إمكاناتها. ولا أظن أن يد البشر مستعدة للتعامل مع شيء كهذا، لكنها تعرف بأنها قطعة عدن. وثمة قطع أخرى، بعضها مفقودة والأخرى ربما تكون تُركت مخفية.

- تبدو مفيدة جدًّا. ما الذي تفعله؟

- لها القدرة على السيطرة على أفكار البشر ورغباتهم. ولا يقتصر الأمر على هذا، فلها القدرة على كشف أمور عصية على الخيال.

تأمل يوليوس كلام إتزيو، وقال: «تبدو كأنها ربما تكون مفيدة للغاية لي. مفيدة جدًّا بالتأكيد. لكن يبدو كذلك أنها قد تُستخدم ضدي وهي في الأيدي الخطأ».

- لقد كانت الشيء الذي أساء آل بورجيا استخدامه لما حاولوا كسب الهيمنة التامة. ولحسن الحظ، أخفى ليوناردو أحلك أسرارها عنهم لما أعطوه إياها ليبحث في أمرها.

أطرق البابا مفكرًا للمرة الثانية، وقال أخيرًا: «إذن أظن أنه يُفضل لنا تركها في عهدتك. وإن كانت مُنحت لك من مثل هذه القوة التي وصفتها، سيكون صعبًا أن آخذها منك». وأحجم عن الحديث ثانيةً ثم قال: «يبدو لي أنه، عندما تشعر بأنك لم تعد تحتاج إليها، عليك إخفاؤها في مكانٍ آمن، وربما، إن أردت، تترك دليلًا من نوعٍ ما لأي خليفة يستحقها، ربما واحد من سلالتك، والذي ربما وحده سيقدر على فهمها، بهذا قد يكون لها استخدام آخر في العالم للأجيال القادمة. أنا أومن يا إتزيو أوديتوري، ولعلَّ هذا بإرشادٍ من الرب، أنه في زماننا، لا أحد سواك يجب أن تكون بحوزته. ربما يكون هنالك ميزة فريدة فيك، أو حسٌّ ما يمنعك من الاستهتار في استخدامها».

انحنى إتزيو ولم ينبس ببنت شفة، لكن في داخله أقرَّ بحكمة يوليوس، واتفق معه تمامًا في رأيه.

قال يوليوس: «بالمناسبة أنا لا أهتم بالصديق المقرب الحميم الذي اتخذه ليوناردو، ما اسمه؟ سالاي؟ إنه يبدو لي شخصًا مراوغًا ولم أكن لأثق به. مؤسف أنه يبدو أن ليوناردو يثق به، لأنه بغض النظر عن نقطة الضعف البسيطة هذه، فالرجل عبقري. هل تعرف أنه يصنع لي درعًا خفيفة مضادة للرصاص؟ لا أعرف من أين تأتيه الأفكار.

فكر إتزيو في واقي الرسغ الخاص بالمخطوطة الذي صنعه له ليوناردو وابتسم بينه وبين نفسه. حسنًا، لمَ لا؟ والآن بإمكانه تخمين مصدر معلومات البابا بخصوص التفاحة، وعرف أن يوليوس قد كشف له أمرها عمدًا. ولحسن الحظ، فإن سالاي تغلب فيه صفة الغباء على صفة الشر، لكن يجب مراقبته على أيِّ حال وإن لزم الأمر إبعاده.

وقبل كل شيء فهو يعرف ما يعنيه لقب سالاي: الشيطان الصغير.

53

رجع إتزيو إلى معرض ليوناردو بمجرد أن انتهى من اجتماعه مع البابا، لكنه لم يجد سالاي في المنزل، وشعر ليوناردو بالخجل بسببه. فقد أرسل سالاي إلى الريف ولم تُجدِ أيٌّ محاولة إقناع لحمله على الإفصاح عن مكانه. كانت تلك مشكلة على الثعلب وجمعية اللصوص التعامل معها. بدا جليًّا أن ليوناردو كان مُحرجًا. لعلَّه يتعلم التزام الصمت أمام الصبي في المستقبل، لأنه يعرف أن إتزيو قد يتسبب في قدرٍ من المتاعب لليوناردو. ولحسن الحظ كان ليوناردو لا يزال يمثل مصدر عون وصديقًا وفيًّا كذلك، أكثر من كونه عائقًا في الطريق، وقد أوضح له إتزيو هذا تمام الإيضاح. لكن إن حدث أيٌّ خرق للأمان ثانيةً، فحسن، يمكن الاستغناء عن أيٍّ أحد.

وأراد ليوناردو أن يعوض إتزيو عن هذا رغم ذلك، فقال بحماسه المعتاد: «كنت أفكر في تشيزاري».

- أوه؟

- في الحقيقة أنا سعيد بمجيئك. لقد وجدت شخصًا أظن أنه يجب أن تقابله.

سأله إتزيو: «هل يعرف مكان تشيزاري؟».

فكَّر إتزيو أنه إن كان يعرف، فلن يكون لميكيليتو أهمية. وإن لم يكن يعرف، فقد يفكر إتزيو في ترك ميكيليتو يهرب من السجن، إذ يعرف

إتزيو السلطة الحاكمة جيدًا، ويستغل الرجل ليرشده إلى سيده. كان يعرف أنها خطة محفوفة بالأخطار، لكن لن يلجأ للتفاحة إلا باعتبارها حلًّا أخيرًا. ووجد أن عبء قطعة عدن يتزايد على نحو مزعج، إذ راودته سلسلة من الأحلام الغريبة عن بلدان ومبانٍ وتقنية يستحيل أن تكون موجودة... ثم تذكر رؤية القلعة، القلعة البعيدة في الأرض الغريبة. والتي كانت على الأقل بناءً يمكن التعرف عليه من طراز عصره. لكن أين يمكن أن يكون؟

أعاده ليوناردو من تأملاته.

- لا أعرف إن كان يعرف مكان تشيزاري. لكنه يُدعى جاسبر توريلًّا، وقد كان الطبيب الشخصي لتشيزاري. ولديه بعض الأفكار أظن أنها مهمة. هل نذهب ونلتقيه؟

- أيُّ دليل يصلح.

استقبلهم الدكتور توريلًّا في عيادة فسيحة في أبينيني تدلت الأعشاب من سقفها والمخلوقات الغريبة مثل الخفافيش المجففة وجثث صغيرة للضفادع المجففة وحتى تمساح صغير. كان توريلًّا واهن البنية مع انحناءة بسيطة في الكتفين، لكنه أصغر مما يبدو عليه، وسريع الحركة أشبه بالسحلية تقريبًا، وعيناه تلمعان من خلف النظارة. لقد كان مغتربًا إسبانيًّا آخر، لكنه اشتهر بذكائه، لذا فقد عفا عنه البابا يوليوس، فقبل كل شيء كان عالمًا لا شأن له بالسياسة.

ما تحدث عنه وكان مهتمًّا به باستفاضة كان الداء الإفرنجي.

- تعرفون أن سيدي السابق ووالده رودريغو كانا مصابين به. إنه بشع حقًّا في مراحله الأخيرة، وأنا أعتقد أنه أثَّر على عقله، وربما أثر على عقل كلٍّ من تشيزاري والبابا السابق. فلم يتمتعا بأي

حس عقلاني، وقد يكون المرض على أشده عند تشيزاري، أينما كان في سجنه.

- هل تملك أدنى فكرة عن مكانه؟

- حسب حدسي، مكان بعيد قدر الإمكان، وفي مكانٍ لا يمكنه الهرب منه.

تنهد إتزيو، فقد اتضح الكثير من الأمور.

اندفع الدكتور توريلّا قائلًا بحماس: «لقد أطلقت على الزهري اسم المرض الفرنسي. وقد أصيب به البابا الحالي كذلك وهو في مراحله الأولى وأنا أقوم على علاجه. إنه وباء بلا شك. ونظن أنه جاء من بحّارة كولومبوس، وعلى الأرجح فسبوتشي كذلك، من قرابة سبع أو ثماني سنوات لما جلبوه من العالم الجديد».

سأله ليوناردو: «لمَ تسميه المرض الفرنسي إذن؟».

- حسنًا لم أرِد بالطبع الإساءة إلى الإيطاليين، والبرتغاليين والإسبان أصدقائنا. وقد تفشى في مطلع الأمر بين صفوف الجنود الفرنسيين في نابولي. ويبدأ بتقرحات في الأعضاء التناسلية ويمكنه إتلاف اليدين والوجه، وكامل الرأس بالطبع. وأنا أعالجه بالزئبق إما بشربه أو بتمسيد البشرة به، لكن لا أظن أني وجدت علاجًا.

قال إتزيو: «هذا شيِّق بالطبع، لكن هل سيودي بحياة تشيزاري؟».

- لا أعلم.

- إذن، لا يزال يتعين عليَّ إيجاده.

قال ليوناردو الذي أثار اكتشاف آخر جديد حماسه: «مذهل».

قال توريلّا: «ثمة شيء آخر أعمل عليه، وأظن أنه أكثر تشويقًا».

قال زميله العالم: «ما هو؟».

- إنه ذاك الشيء المتعلق بأن ذكريات الأشخاص قد تُمرر، أو تحفظ، من جيل إلى آخر في سلالة الدم. مثل بعض الأمراض. يروقني الاعتقاد بأني سأجد علاجًا للزهري، لكن أشعر أنه سيبقى معنا لقرون.

قال إتزيو الذي انزعج على نحو غريب من ملحوظة الرجل حول تمرير الذكريات عبر الأجيال: «ما الذي يحملك على قول هذا؟».

- لأني أظن أنها تنتقل، في أول الأمر، عبر الجنس، وسننقرض جميعًا إذا استغنينا عنه.

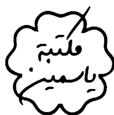
نفد صبر إتزيو، وقال: «شكرًا لك على وقتك».

ردَّ توريلًّا: «لا عليك. وإن كنت تريد العثور على سيدي السابق، أظن أن عليك البحث في إسبانيا».

- إسبانيا؟ في أيِّ مكان في إسبانيا؟

نشر الطبيب ذراعيه، وقال: «أنا إسباني، وكذلك تشيزاري. فلمَ لا يرسلونه إلى الديار؟ هذا مجرد حدس. آسف لا يمكنني أن أكون أكثر تحديدًا».

فكر إتزيو في نفسه: *سيكون كالبحث عن إبرة في كومة قش*... لكنها قد تكون البداية.



54

لم يُبقِ إتزيو موقع مسكنه سرًّا مطلقًا، لكن قلة قليلة تعرف مكانه. وكان من هذه القلة ماكيافيلي. ففي إحدى الليالي استيقظ إتزيو على وقع طرقه المتأني المُلح على الباب في الرابعة صباحًا.

اعترى إتزيو من فوره حسٌّ بالانتباه مثل القطط، وقال: «نيكولو! ما الذي تفعله هنا؟».

- لقد كنت مغفلًا.

قال إتزيو الذي أدرك أنه لا بدَّ أن ثمة خطبًا جللًا قد وقع: «ما الذي حدث؟ لقد كنت تعمل في فلورنسا، لا يمكن أن تكون قد عدت على وجه السرعة هكذا».

عاود ماكيافيلي القول: «لقد كنت مغفلًا».

- ما الذي يجري؟

تنهد ماكيافيلي، وقال: «في خضم غطرستي، تركت ميكيليتو على قيد الحياة في زنزانة محصنة لاستجوابه».

- يُفضل أن تخبرني بما يجري.

- لقد هرب! عشية إعدامه!

- من مقر السلطة الحاكمة؟ كيف؟

- من على السطح. لقد تسلَّق الموالون المتعصبون لآل بورجيا إليه ليلًا وقتلوا الحراس، ثم أنزلوا حبلًا. وكان الكاهن الذي تلقى منه

اعترافه من المتعاطفين مع آل بورجيا، سوف يُحرق اليوم على الخازوق، وهَرَّب له مبردًا إلى داخل زنزانته. نَشر ميكيليتو قضيبًا واحدًا فحسب من القضبان الموجودة في النافذة. إنه رجل ضخم البنية، لكنها كانت كافية ليتسلل للخارج ويتسلق السور. وأنت تعلم مدى قوته. وعندما أُطلق الإنذار، لم يُعثر له على أثر في المدينة.

قال إتزيو: «علينا البحث عنه»، ثم أطرق، مُدركًا فجأة منحة في المحنة، فقال: «وعند العثور عليه، اعرف إلى أين يفر. فقد يقودنا إلى تشيزاري. إنه مخلصٌ لدرجة الجنون، ودون دعم تشيزاري فلا قيمة لقوته».

- لديَّ بعض الخيالة بأعداد بسيطة تجوب الريف الآن، محاولين القبض عليه.

- لكن يوجد الكثير من الجيوب الصغيرة من الموالين المتعصبين لآل بورجيا مستعدين لإيوائه، مثل أولئك الذين أنقذوه.

- أظن أنه في روما. وهذا ما أتى بي إلى هنا.

- لماذا روما؟

- لقد تساهلنا كثيرًا. يوجد أنصار لآل بورجيا هنا كذلك. وسوف يستعين بهم للوصول إلى أوستيا ومحاولة الإبحار على ظهر سفينة إلى هناك.

- إن بارتولوميو موجود في أوستيا، ولن يفلت من قبضته أحد، كما أن مرتزقته هناك. سوف أُرسل برسول لتحذيره.

- لكن أين سيذهب ميكيليتو؟

- إلى أين سوى بلنسية، مسقط رأسه.

- إتزيو علينا التأكد، علينا استخدام التفاحة الآن، في تلك اللحظة لنرى إن كان بإمكاننا تحديد مكانه.

55

في غرفة نوم مسكنه، بعيدًا عن نظر ماكيافيلي، استدار إتزيو وأخرج التفاحة من مخبئها السري. وأخرجها من حاويتها بعناية بيديه المرتديتين القفازات ووضعها على الطاولة في غرفة نومه. ثم ركَّز. بدأت التفاحة تتوهج ببطء، ثم سطع ضوؤها حتى امتلأت الغرفة بضياء بارد. ثم ومضت الصور التي كانت معتمة ومبهمة في البداية على الجدار ثم تحولت إلى شيء أظهرته لإتزيو من قبل.

قال موضحًا لماكيافيلي: «إنها قلعة غريبة ونائية في مكان يسوده اللون البني والأراضي القاحلة، إنها قلعةٌ عتيقة ولها برج مراقبة خارجي كبير وأربعة أبراج رئيسية وحصن مربع منيع المظهر في مركزها».

هتف ماكيافيلي من الغرفة الأخرى: «أين الحصن؟ ما الذي تخبرنا به التفاحة؟».

تمتم إتزيو لنفسه: «يمكن أن يكون في أيِّ مكان. من خلال ما أراه، ربما تكون سوريا، أو..». ثم هتف لماكيافيلي بدفعة مفاجئة من الإثارة عندما تذكر كلام الدكتور توريلَّا: «إسبانيا! إسبانيا!».

- لا يمكن أن يكون ميكيليتو في إسبانيا.
- أنا على يقين بأنه يخطط للذهاب إلى هناك.
- حتى مع ذلك، لا نعلم أين يكون هذا المكان. ثمة الكثير والكثير من القلاع في إسبانيا، والمماثلة لتلك القلعة. استشِر التفاحة ثانيةً.

لكن عندما حاول إتزيو مجددًا لم تتغير الصورة، قلعة حصينة البناء على تلة عمرها يصل إلى ثلاثمئة سنة وتحيطها بلدة صغيرة. كانت الصورة أحادية اللون، واكتست كل المنازل والحصن والريف بلون بني موحد تقريبًا. كانت هناك بقعة واحدة ملونة، علم فاتح اللون على سارية في أعلى الحصن المربع.

زرَّ إتزيو عينيه ليراه.

كان علم أبيض عليه صليب غير مستوٍ على شكل حرف 'X'.

زاد حماسه، وقال: إنها الراية العسكرية للملك فرديناند والملكة إيزابيلا حاكمَي إسبانيا!».

هتف ماكيافيلي من الغرفة الأخرى وصوته ينقبض من شدة الحماس: «أيمكنك رؤية علمهما! جيد والآن نعرف الدولة. ولكننا لا نزال نجهل موقع القلعة. أو أنها لمَ تظهر لنا. هل ميكيليتو في طريقه إلى هناك؟ اسأل التفاحة ثانيةً».

تبددت هذه الرؤية، ثم حل محلها بلدة جبلية محصنة، ويرفرف من حصنها علم أبيض عليه سلاسل حمراء متقاطعة مع بعضها بعضًا، ويغطي اللون الأصفر وصلاتها، وعرف إتزيو أنه علم مملكة نبرة. ثم ظهرت صورة أخيرة بها ميناء بحري كبير وثري وسفنٌ مصطفَّة في بحر لامع وجيش يحتشد. ولكن لم يظهر أيُّ دليل على الموقع المحدد لأيٍّ من تلك الأماكن.

56

كان الجميع في مكانه المطلوب. وتردد حاملو الرسائل يوميًّا بين الأماكن التي نصبت فيها الأخوية قواعدها. كان بارتولوميو قد بدأ يستمتع بأوستيا، وأحبتها بانتاسيليا. ولا يزال أنتونيو دي ماغيانس يُحكم سيطرته على الحصن في البندقية. وقد عادت كلاوديا في الوقت الحالي إلى فلورنسا لتُقيم مع صديقتها القديمة باولا التي تدير بيت متعة فاخرًا مُصممًا على غرار ماخور الوردة المتفتحة، وتولى الثعلب وروزا شؤون أعمال الأخوية في روما.

كان الوقت قد حان لينطلق ماكيافيلي وإتزيو في صيدهما.

57

تردد ليوناردو في إدخال إتزيو وماكيافيلي إلى مكتبه، لكن في نهاية المطاف سمح لهما بالدخول. قال إتزيو متطرقًا إلى صلب الموضوع: «نحتاج إلى مساعدتك يا ليو».

- لم تكن راضيًا عني كثيرًا في آخر مرة التقينا فيها.

- لم يكن ينبغي لسالاي إخبار أيٍّ أحد بشأن التفاحة.

- لقد ثمل في كشكٍ للخمور وأفشى الأمر ليُبهر الآخرين. ومعظم مَن حوله لم يعرفوا عما كان يتحدث، لكن كان هناك عميل للبابا يوليوس في مرمى السمع. إنه نادم أشد الندم.

سأله إتزيو: «أين هو الآن؟».

اعتدل ليوناردو، وقال: «إن كنت تريد عوني، فأنا أريد مقابلًا لهذا».

- ما الذي تتحدث عنه؟ أيُّ نوع من المقابل تريد؟

- أريدك أن تدعه وشأنه. إنه يعني لي الكثير، وهو شابٌّ يافع وسيصقله الزمن.

قال ماكيافيلي: «إنه شخصٌ وضيع».

- أتريد عوني أم لا؟

تبادل إتزيو وماكيافيلي النظرات.

- حسنًا، أبقِهِ تحت المراقبة الشديدة، وإلا قسمًا لن نرحمه في المرة التالية.

- حسنًا، والآن ما الذي تريد مني فِعله؟

سأله ماكيافيلي قائلًا: «نواجه مشكلة في التفاحة. فهي غير دقيقة كما كانت من قبل. هل يعقل أن يكون بها مشكلة آلية؟».

مَسد ليوناردو ذقنه، وقال: «هل هي معك؟».

أخرج إتزيو الصندوق، وقال: «ها هي». وأخرجها ووضعها بعناية على طاولة العمل الخاصة بليوناردو.

عاينها ليوناردو بعناية مماثلة، وأقر أخيرًا: «لا أعلم حقًّا ماهية هذا الشيء. إنها خطِرة، إنها لغز وقوية جدًّا جدًّا، غير أنه يبدو أن إتزيو وحده هو القادر على التحكم فيها. يعلم الرب أنها لما كانت تحت سيطرتي في الأيام الخوالي تحت حكم تشيزاري، حاولت، لكني لم أفلح إلا قليلًا». توقف عن الكلام ثم أردف: «لا، لا أظن أن كلمة «آلي» تصف هذا الشيء. ولو لم أكن عالمًا أكثر من كوني فنانًا، كنت سأقول إن لها عقلًا خاصًّا بها».

تذكر إتزيو الصوت الذي خرج من التفاحة. ماذا لو أن ليوناردو محق؟

قالت إتزيو بإلحاح: «ميكيليتو يهرب منا. ونحتاج إلى تحديد موقعه سريعًا. نحتاج إلى تقفِّي أثره قبل فوات الأوان».

- ما الذي تظن أنه يخطط له؟

قال ماكيافيلي: «إننا متيقنون أن ميكيليتو قرر الذهاب إلى إسبانيا لمعرفة مكان سيده تشيزاري وتحريره، ثم سيحاولون بعدها العودة إلى السلطة. نحتاج إلى إيقافهم».

- وماذا عن التفاحة؟

قال إتزيو: «إنها تظهر صورة لقلعة، ولا بدَّ أنها في مكانٍ ما في إسبانيا لأن العلم الإسباني يرفرف عليها، لكن التفاحة، لا تحدد، أو لن تحدد، أو لا تستطيع أن تحدد موقعها. وقد رأينا صورة لبلدة يرفرف عليها علم مملكة نبرة، وميناء به جيش يحتشد للانطلاق إلى هناك، لكن لم تُظهر لنا التفاحة أيَّ شيء بخصوص ميكيليتو أبدًا».

قال ليوناردو: «حسنًا لا يمكن أن يكون قد ألقى عليها تشيزاري لعنة لأنه لا أحد يتمتع بهذا القدر من الذكاء، لذا لا بُدَّ، كيف يمكنني قول هذا؟ لقد قررت ألا تكون متعاونة».

- لكن لمَ ستفعل هذا؟

- لمَ لا نسألها؟

ركز إتزيو مجددًا، وهذه المرة تهادت إلى أذنيه موسيقى سامية وعذبة وعالية، وسأل: «أيمكنكما سماعها؟».

قال الآخران: «نسمع ماذا؟».

وعبر الموسيقى جاء الصوت الذي سمعه من قبل قائلًا: «إتزيو أوديتوري لقد أبليت بلاء حسنًا، لكني قد أديت ما عليَّ وزيادة في مسيرتك وعليك الآن إرجاعي. خذني إلى القبو السري الذي ستجده تحت الكيبتولين، واتركني هناك ليجدني الأعضاء المستقبليون من أخويتك. لكن قُم بهذا على وجه السرعة! ثم عليك بعدها أن تنطلق إلى نابولي سريعًا، حيث ينطلق ميكيليتو إلى بلنسية. هذه المعلومة هي آخر هديةٍ لك مني. أنت تتمتع بالكثير من القوة تُغنيك عن وجودي بعد الآن. سأرقد في الأرض إلى أن تحتاج إليَّ الأجيال القادمة، لذا عليك ترك علامة للإشارة إلى موضع دفني. وداعًا يا مُعلم الأخوية! وداعًا! وداعًا!».

توقفت التفاحة عن التوهج وبدت خامدة، مثل كرة جلدية قديمة.

أخبر إتزيو سريعًا صديقيه بما قد أُفصح له به.

سأله ليوناردو: «نابولي؟ لمَ نابولي؟».

- لأنها في الأراضي الإسبانية، لا سلطة لنا هناك.

قال إتزيو: «ولأنه يعرف، بطريقةٍ ما، أن بارتولوميو يراقب أوستيا. علينا الإسراع بأقصى ما يمكننا. هيًّا!».

تهادى الغسق في السماء لما حمل ماكيافيلي وإتزيو التفاحة في صندوقها إلى أسفل سراديب الموتى أسفل الكولوسيوم، ومرا من الغرف المظلمة المخيفة لقصر نيرون الذهبي، حاملَين مشعلَين أمامهما وهما يسلكان طريقهما عبر متاهة من الأنفاق تحت الساحة الرومانية القديمة في مكانٍ قُرب كنيسة سان نيكولا في كارشيري. وهناك وجدا بابًا سريًّا داخل السرداب، وخلفه غرفة صغيرة مقببة، وفي وسطها ترتكز قاعدة عمود. فوضعا عليها التفاحة في صندوقها وانسحبا. وبمجرد أن انغلق الباب، كما لو أنه بمفعول السحر، لم يعد الباب مرئيًّا حتى بالنسبة إليهما، لكنهما عرفا مكانها وبالقرب منه رسما رموزًا مقدسة سرية لن يفهمها إلا عضو في الأخوية. ونقشا الرموز ذاتها على مسافاتٍ متباعدة على طول طريق عودتهما، ومرة أخرى عند فتحة المدخل بالقرب من الكولوسيوم الذي خرجا منه.

وبعد تجدد لقائهما بليوناردو، الذي أصرَّ على الانضمام إليهما، ركبوا بأقصى سرعة إلى أوستيا، حيث أخذوا سفينةً من أجل الرحلة الساحلية الطويلة إلى نابولي. ووصلوا في عيد منتصف الصيف، عام 1505، عيد ميلاد إتزيو السادس والأربعين.

ولم يريدوا الدخول إلى المدينة المزدحمة الجبلية، لكنهم بقوا في نطاق الأرصفة البحرية المحصنة، وانقسموا ليبحثوا بين البحَّارة

والتجَّار والمسافرين المنشغلين بقوارب صيدهم وزوارقهم وقوافلهم وسُفنهم الضخمة وسُفنهم الشراعية، وبزيارة الحانات والمواخير، وكل ذلك على عجالة من أمرهم. لأنه لا أحد، لا إسباني ولا إيطالي ولا عربي، يجيب عن سؤالهم: «هل رأيت رجلًا طويلًا ونحيلًا له يدان ضخمتان وندبة على وجهه يبحث عن رحلة إلى بلنسية».

وبعد مرور ساعة على هذا الحال تجمعوا على الرصيف الرئيسي.

وقال إتزيو وهو يجزُّ على أسنانه: «إنه ذاهب إلى بلنسية، لا بدَّ أنه ذاهب».

علق ليوناردو: «لكن ماذا لو أنه ليس كذلك؟ وإذا استأجرنا سفينة وأبحرنا إلى بلنسية على أيٍّ حال، قد نضيع أيامًا وحتى أسابيع، وبالتالي نُضيع ميكيليتو كليةً».

- أنت محق.

- لم تكذب التفاحة عليك. لقد كان هنا، أو إذا كنا محظوظين، هو لا يزال هنا. علينا فحسب إيجاد شخص يعرف هذا على وجه اليقين.

انسلَّت عاهرة بخفة نحوهم وهي تبتسم، فقال ماكيافيلي بحدة: «لسنا مهتمين».

كانت امرأة شقراء جميلة في الأربعينيات من عمرها، وطويلة ورشيقة لها عينان بنيتان داكنتان وساقان طويلتان متناسقتان، وثديان صغيران وكتفان عريضتان وخصر نحيف. وقالت: «لكنكم مهتمون بميكيليتو دي كوريلا».

التفت إتزيو إليها. بدت مثل كاترينا حتى إن رأسه دار للحظة. وسألها: «ما الذي تعرفينه؟».

ردت بالجدية التامة للعاهرات، وقالت: «ما قيمة هذا عندك؟». ثم بعدها ابتسمت ابتسامة مهنية مجددًا، وأردفت: «أنا كاميلا بالمناسبة».

- عشر دوكات.

- عشرون.

قال ماكيافيلي ساخرًا: «عشرون! لن تكسبي هذا في أسبوع وأنتِ تمارسين البغاء!».

- أيها الجذاب، أتريد المعلومات أم لا؟ أرى أنكم على عجالة من أمركم.

قال إتزيو وهو يُخرج جعبة النقود: «خمسة عشر إذن».

- هذا أفضل يا عزيزي.

قال ماكيافيلي بينما تمد كاميلا يدها لتأخذ النقود: «المعلومات أولًا».

- النصف أولًا.

ناولها إتزيو ما يزيد على ثمانية دوكات.

قالت المرأة: «أنت سخي. حسنًا، كان ميكيليتو هنا الليلة الماضية. وقد قضاها معي ولم يشق عليَّ الحصول على مالي من قبل مثلما كان الحال معه. كان ثملًا، وأساء معاملتي وفرَّ عند مطلع الفجر دون أن يدفع لي. كان المسدس موضوعًا في حزامه ومعه سيف وخنجر مريع. وفاحت منه رائحة كريهة كذلك، لكني أعرف أنه يملك المال لأني خمنت ما سيفعله وأخذت أجري من جعبته عندما غطَّ في النوم أخيرًا. وبالطبع تبعه حاجبو الماخور، رغم أني أظن أنهم خافوا بعض الشيء، لذا فقد أبقوا على مسافة بينهم وبينه».

قال ماكيافيلي: «وماذا بعد؟ لا شيء من هذا يفيدنا حتى الآن».

- لكنهم جعلوه في مرمى بصرهم. لا بدَّ أنه استأجر سفينة من الليلة السابقة لأنه ذهب مباشرةً إلى سفينةٍ ضخمة تسمى ماريا دي ألبا وأبحر مع مدِّ الفجر.

قال إتزيو لها: «صفِيه لنا».

- ضخم البنية، له يدان ضخمتان، لقد كانتا حول عنقي لذا فأنا أعرف هذا، وله أنف مجدوع ووجه مليء بالندوب، وبعض الندوب تبدو كأنها تمنح شفتيه ابتسامة دائمة. ولم يتكلم كثيرًا.

- كيف عرفتِ اسمه؟

أجابت ببساطة: «سألته من أجل فتح حديث بيننا، وأخبرني».

- وإلى أين كان ذاهبًا؟

- عرف أحد الحاجبين واحدًا من البحَّارة وسأله وهم يبحرون.

- أين؟

- بلنسية.

بلنسية. كان ميكيليتو راجعًا إلى مسقط رأسه، والتي كانت كذلك مسقط رأس عائلة تسمى بورجيا.

ناولها إتزيو سبعة دوكات إضافية، وقال: «سأتذكركِ، وإن كنت تكذبين، ستندمين على ذلك».

كان النهار قد انتصف. واستغرق الأمر منهم ساعة أخرى ليجدوا سفينة شراعية متاحة للاستئجار والاتفاق على السعر. وتطلَّب الأمر ساعتين أخريين لتزويد السفينة بالمؤن وإعدادها ثم تعيَّن عليهم الانتظار لقدوم موجة المد التالية. إن السفينة الشراعية أسرع من السفينة الكبيرة، لكن مع ذلك، لم تُرفع الأشرعة للإبحار إلا في باكورة المساء. وكانت الأمواج متلاطمة والرياح غير مواتية.

قال ليوناردو لإتزيو: «عيد ميلادٍ سعيد».

58

لم تكن ربات القدر راضيات عنهم كذلك. فقد أبحرت سفينتهم بسلامة، لكن لم يسكن هياج البحر وعصفت بهم الزوابع، فجعلت الأشرعة تتخبط في الهواء عكس مسار إبحارهم. وقد ضاعت فرصتهم المأمولة للحاق بسفينة ميكيليتو في البحر عندما رست سفينتهم المتضررة في ميناء بلنسية بعد خمسة أيام.

كان مكانًا مزدهرًا ومنتعشًا، لكن لا أحد من الثلاثة، إتزيو أو ليوناردو أو ماكيافيلي، يعرفه. وتنافس سوق الحرير الذي شُيِّد مؤخرًا في عظمته مع برج الجرس وأبراج كورات وقصر لاجنراليت. كانت في ذاك الحين مدينة كاتلونية مهيبة، واحدًا من أهم الموانئ التجارية في البحر المتوسط، لكنها كانت كذلك مُربكة ومزدحمة بالبلنسيين الذين انخرطوا في الشوارع المزدحمة بالإيطاليين والهولنديين والإنجليز والعرب، مما خلق مزيجًا من اللغات في الشوارع.

ولحسن الحظ فإن سفينة ماريا دي ألبا رستْ قُرب المكان الذي رستْ فيه سفينتهم الشراعية، وكان رُبَّانا السفينتين صديقين.

- أهلًا ألبرتو!

- أهلا فلين!

قال ألبرتو، وهو رجل سمين في الثلاثينيات من عمره، وهو يقف على سطح مؤخرة السفينة ويُشرف على تحميل حمولة مختلطة مؤلفة من الحرير والقهوة النادرة باهظة الثمن من أجل رحلة العودة.

- الأسوأ.

- أرى هذا من حالة سفينتك. لكن سيكون البحر هادئًا والرياح مواتية على مدار الأسبوع القادم، لذا فأنا أسرع بالعودة قدر الإمكان.

- لن أكون محظوظًا بهذا القدر. متى وصلت؟

- منذ يومين.

تقدم إتزيو، وقال: «والراكب الذي كان معك؟».

بصق ألبرتو، وقال: «يا له من رجل فظٍّ، لكنه دفع لي أجرًا سخيًّا».

- أين هو الآن؟

- لقد ذهب، أعرف أنه كان في المدينة، ويطرح الأسئلة، بيدَ أنه معروفٌ هنا ولديه الكثير من الأصدقاء، وصدِّق أو لا تُصدق»، بصق ألبرتو مجددًا، وتابع: «على شاكلته، ليسوا من الأخيار».

همس ليوناردو: «لقد بدأت أتمنى لو لم آتِ، فأنا لست رجل عُنف».

- أين ذهب؟ هل تعرف؟

- كان يمكث في نُزل الذئب الوحيد، يمكنك السؤال عنه هناك.

نزلوا من على سطح السفينة وتوجهوا مباشرةً إلى نُزل الذئب الوحيد، بعدما منحهم ألبرتو الاتجاهات، وأضاف بنبرة مخيفة: «إنه ليس مكانًا للنبلاء أمثالك».

قال ماكيافيلي: «ما الذي يجعلك تظن أننا نبلاء؟».

هزَّ ألبرتو كتفيه.

تفحص إتزيو الرصيف المزدحم. ومن زاوية عينيه رأى ثلاثة أشخاص مشبوهين يراقبونهم، مما جعله يتفقد واقي الرسغ والنصل الخفي. وعلَّق حقيبته على كتفه، تاركًا يديه خاليتين من أجل السيف والخنجر. ولما لاحظ ماكيافيلي هذا، فعل مثله في حين بدا ليوناردو مرتابًا.

وساروا معًا إلى المدينة، وبقوا متأهبين على الرغم من أن الأشخاص المشبوهين قد اختفوا.

قال إتزيو مقترحًا: «هل يمكننا البقاء في المكان نفسه مع هدفنا؟ سيكون المكان الأفضل لمعرفة مكانه».

كان النزل يقع في شارع ضيق مليء بالمباني السكنية العالية، والذي انعطف بعيدًا عن الشارع الرئيسي. كان مبنًى منخفضًا معتمًا على النقيض من الحداثة البراقة لمعظم باقي المدينة. كان الباب الخشبي القاتم مفتوحًا، ويؤدي إلى رواق معتم. دخل إتزيو أولًا، ثم دخل ليوناردو آخرًا في تردد.

وصلوا إلى قلب الردهة التي لم يتمكنوا من رؤية شيءٍ فيها إلا بعض الأثاث وطاولة طويلة منخفضة، وانغلق الباب من خلفهم بقوة. ثم انقضَّ عليهم عشرة رجال كانوا مختبئين من ورائهم في الظلام وكانت أعينهم قد اعتادت ظلمة المكان، ملقين بأنفسهم على ضحاياهم ومطلقين صرخات حماسية. ألقى إتزيو وماكيافيلي بحقائبهما في الحال، وبحركة واحدة استلَّ ماكيافيلي سيفه وخنجره واقترب من أول مهاجميه. وومض بريق السيوف في الغرفة شبه المظلمة التي كانت واسعة بما يكفي ما منح كلا الطرفين حرية الحركة.

هتف إتزيو: «ليوناردو! قف وراء الطاولة وأمسك بهذا».

ورمى سيفه إلى ليوناردو الذي التقطه، وأسقطه ثم التقطته ثانيةً في غضون ثانية واحدة. أطلق إتزيو النصل الخفي بينما ينقضُّ أحد الرجال فوقه، فطعنه به في جنبه واخترق أحشاءه. ترنح الرجل وهو يمسك ببطنه والدماء تتدفق من بين يديه. في حين اندفع ماكيافيلي للأمام رافعًا سيفه، وبسرعة البرق سدد سيفه في حلق أول خصومه، وفي الوقت نفسه ضرب مغبن الثاني بسلاحه الآخر. سقط الرجل أرضًا مطلِقًا صيحة أنين، متحسسًا جرحه بقلة حيلة، وهو يرتجف من الألم. اقترب ماكيافيلي وألقى على ضحيته نظرة سريعة، وركله ركلة أسكتته على الفور.

تراجع المهاجمون للحظة، مذهولين من أن كمينهم لم يحقق غرضه، ومن خفة ضحاياهم المستهدفين، ثم كرروا هجومهم بقوة مضاعفة. صرخ ماكيافيلي بسبب جرح تعرض له في ذراعه التي يحمل بها السيف من الخلف، لكن في غضون لحظة انقضَّ إتزيو على مهاجم صديقه، وسدد طعنة مباشرة من خنجره إلى وجه الرجل.

والشيء الذي أدركه إتزيو تاليًا، أن هناك رجلٌ ضخم تفوح منه رائحة قش السجون وعرق نتن تسلل من ورائه ورمى بطوق خنق حول عنقه. اختنق إتزيو ورمى بخنجره، رافعًا يده كي يمزق الحبل المشدود على قصبته الهوائية. قفز ماكيافيلي وطعن الرجل الضخم طعنةً اخترقت جسده وجعلته يصرخ من الألم المفاجئ، لكن ماكيافيلي لم يُصب هدفه وتمكن الرجل من دفعه بعيدًا. كان ذلك كافيًا لإفلات قبضته عن حبل الخنق رغم ذلك، ما مكَّن إتزيو من التحرر منه.

كان الضوء خافتًا للغاية لتمييز الأشكال المتشحة بالعباءات السوداء للناجين من المهاجمين، لكن لم يثنهم إخفاق هجومهم الفوري.

قال صوت جهوري مزعج: «اقضوا عليهم! فلا نزال خمسة ضد ثلاثة».

هتف آخر بينما يسدد إتزيو ضربة بخنجره الثقيل إلى عظمة صدر أحد البدناء شاقًّا صدره بدقة كما لو كان صدر دجاجة: «لقد ضربوا سانشو في صدره. صرنا أربعة ضد ثلاثة. إننا نتراجع!».

أمر الرجل الأول الذي تكلم قائلًا: «لا! أمسك بهم إلى حين أن أهرب!».

تحدث الرجل بالكتالانية. كان الرجل الضخم الذي حاول خنقه والذي لا تزال تعلق به رائحة السجن. ميكيليتو!

بعد لحظات فُتح الباب المؤدي إلى الشارع وانغلق بشدة ثانيةً بينما يفر ميكيليتو، وانعكس خياله لوهلة تحت ضوء الشارع. فاندفع إتزيو من خلفه لكن سدَّ طريقه واحدٌ من المهاجمين الثلاثة الناجين وهو يرفع سيفًا معقوفًا جاهزًا ليهوي به على رأسه. كانت المسافة بين إتزيو وبين مهاجمه قريبة جدًّا كي يتمكن من استعمال أيٍّ من أسلحته بفاعلية، لذا فقد ارتمى جانبًا مبتعدًا عن طريق الرجل. وبينما يتدحرج إلى المكان الآمن، نزل السيف المعقوف مترنحًا، لكن الرجل ضرب ضربة عنيفة متوقعًا أن يجد السيف جسد إتزيو، لكن هوى السيف للأسفل فانغرس في أعضاء الرجل التناسلية. وبصرخة مدوية أسقط الرجل السيف ووقع أرضًا، ممسكًا بجرحه في محاولةٍ منه لإيقاف نافورة الدم وهو يئن من الألم.

تصارع آخر رجلين للوصول إلى الباب من أجل الهروب، ونجح أحدهما، لكن الثاني كان قد جُرح في القتال وعرقله ماكيافيلي وارتطم بالأرض لما رمى ليوناردو بنفسه فوقه ليمنعه من النهوض. ولما اتضح أنه لن يقوم ثانيةً، وقف ليوناردو وجثا إتزيو وقلَّبه، وضغط بسن النصل الخفي على منخاره.

وقال: «أنا إتزيو أوديتوري مُعلِّم الحشاشين. أخبرني بوجهة سيدك وسأرحمك».

ردَّ الرجل بصوت متحشرج: «مستحيل!».

زاد إتزيو من ضغطه على سنِّ النصل الخفي. فبدأت حوافه شديدة الحدة تشق أنف الرجل ببطء.

- أخبرني!
- حسنًا! إنه ذاهب إلى قلعة لاموتا.
- ما الذي يوجد هناك؟
- هذا هو محبس تشيزاري.

دفع إتزيو النصل.

- ارحمني! أنا أقول الحق، لكنك لن تنجح في إحباطنا. سيعود آل بورجيا إلى السلطة وسيحكمون كل إيطاليا بقبضة من حديد. وسيجتاحون الجنوب ويطيحون بملك الإسبان القذرين وسيدمرون مملكتَي أراجون وقشتالة ويحكمونهما كذلك.
- كيف تعرف مكان تشيزاري؟ إنه سرٌّ غامض لا يعرفه إلا البابا يوليوس ومجلسه، والملك فريديناند ومجلسه.
- ألا تظن أن لنا جواسيسنا؟ حتى في الفاتيكان؟ إنهم بارعون أولئك الجواسيس. هذه المرة تفوقوا على جواسيسكم.

وبحركةٍ مفاجئة، رفع الرجل ذراعه اليمنى ممسكًا بسكين صغيرة وجهه نحو قلب إتزيو. وصدَّ إتزيو الضربة بذراعه اليسرى وهوت السكين التي ارتطمت بِواقي الرسغ لتسقط أرضًا دون أن تؤذيه.

هتف الرجل: «تحيا عائلة آل بورجيا الملكية!».

قال إتزيو: «ارقد بسلام».

تمتم ليوناردو قائلًا: «مرحبًا بكم في بلنسية».

59

كان نُزل الذئب الوحيد مهجورًا، لكن كانت هناك بعض الأسرَّة المتواضعة، وكان الوقت متأخرًا لما استجمع إتزيو ورفاقه شتات أنفسهم وارتاحوا من العراك الدامي مع الموالين المتعصبين لميكيليتو، ولم يكن أمامهم خيار سوى قضاء الليلة هناك. وقد وجدوا نبيذًا وماءً وطعامًا مؤلفًا من خبز وبصل وبعض من السلامي، واستبدَّ الجوع بليوناردو فما كان ليرفض مثل هذا الطعام.

في صباح اليوم التالي، استيقظ إتزيو مبكرًا، حريصًا على إيجاد خيول من أجل الرحلة المنتظرة. كان قائد سفينتهم القبطان فيلين على ظهر السفينة يعمل على إعادة تجهيز سفينته المتهالكة. وكان على دراية بموقع قلعة لاموتا، فأعطاهم الاتجاهات قدر ما استطاع، وأخبرهم بطريقة العثور عليها، لكن المسير سيكون طويلًا وشاقًّا وسيستغرق أيامًا عديدة. وساعدهم فيلين كذلك في تجهيز خيولهم، إلا أن التجهيزات استغرقت ثمانية وأربعين ساعة أخرى، إذ كان عليهم التجهز بالمؤن كذلك. إذ سيأخذهم المسير إلى المرور بالشمال الغربي عبر سلاسل الجبال البنية في وسط إسبانيا. ولم يملكوا أيَّ خرائط تُرشدهم، لذا فقط تنقلوا من قرية إلى أخرى، مستعينين بقائمة الأسماء التي أعطاهم إياها فيلين.

وبخروجهم من بلنسية، ومرور عدة أيام من رحلة الركوب الشاقة على أول مجموعة من الخيول، والشكوى المريرة من ليوناردو، دخلوا إلى الريف الجبلي الخلاب المحيط ببلدة كونيكا الجبلية الصغيرة. ثم نزلوا ثانيةً إلى السهل المنبسط لمدينة مدريد، ومروا من المدينة الملكية نفسها، حيث لقي قطاع الطرق الذين حاولوا نهبهم مصرعهم على الطريق. ومن هناك اتجهوا شمالًا نحو مدينة شقوبية والتي يحكمها القصر الأندلسي، حيث قضوا ليلتهم ونزلوا به ضيوفًا عند كبيرة خدم إيزابيلا، ملكة قشتالة.

ثم أكملوا مسيرهم في الأراضي المفتوحة حيث هاجمتهم وكادت تسطو عليهم عصابة من قُطاع الطرق المغاربة الذين تمكنوا بطريقةٍ ما من الإفلات من قبضة الملك فرديناند والبقاء في البرية لمدة اثنتي عشرة سنة. كان فرديناند، ملك أراجون وصقلية ونابولي وبلنسية مؤسس مَحاكم التفتيش الإسبانية ومعاناة اليهود، مما تسبب في عواقب وخيمة على اقتصاد بلاده من خلال محاكم التفتيش الكبرى التي يديرها توماس دي توركيمادا، ولكن بزواجه من زوجته المماثلة له في القبح إيزابيلا، وحَّد أراجون وقشتالة واستهلَّ مسيرة توحيد إسبانيا كدولة واحدة. كما كانت لدى فرديناند طموحات تجاه مملكة نبرة، رغم أن إتزيو تساءل عن مدى تأثير خطط الملك المتعصب على تلك الأراضي، حيث كانت لتشيزاري روابط عائلية وثيقة، كونه صهر ملك فرنسا.

وواصلوا مسيرهم مقاومين التعب وراجين أن يصلوا في الوقت المناسب لإحباط مُخطط ميكيليتو. ورغم إسراعهم بأقصى ما يمكنهم، إلا أن ميكيليتو قد سبقهم بمسافة كافية.

60

كبح ميكيليتو وجماعته الصغيرة من الموالين المتعصبين خيولهم ووقفوا في ركابها ينظرون إلى قلعة لاموتا. كانت القلعة تتسيد بلدة مدينا ديل كامبو الصغيرة وقد بُنيت لحماية البلدة من المغاربة.

كان ميكيليتو يتمتع بنظر ثاقب، فقد استطاع من على هذا البُعد رؤية الوشاح الأحمر الذي علَّقه تشيزاري من نافذة زنزانته. كانت أعلى نافذة في البرج المركزي ولم تكن ثمة حاجة إلى وضع القضبان فلم يحدث أن هرب أيٌّ أحد من قلعة لاموتا من قبل. وبالنظر يُعرف السبب. فقد بنى بناؤو القرن الحادي عشر الأسوار، رُصت قوالب الحجارة بمهارة جعلت السطح أملس كالزجاج.

وجيد أنهم وضعوا خطة استخدام الوشاح الأحمر وإلا شقَّ على ميكيليتو إيجاد سيده. كان الوسيط الذي يعمل رقيبًا للحراس والذي جُنِّد لصالح آل بورجيا في بلنسية قبل وقتٍ سابق مناسب تمامًا، وما إن أخذ رشوته، حتى أثبت أنه جدير بالثقة تمامًا.

ورغم هذا فإن عملية إخراج تشيزاري ستكون صعبة. إذ كان يداوم على حراسة باب زنزانته حارسان سويسريان من القوة المستعارة من البابا يوليوس، ولم يكن من طبع الحرس السويسري السماح بالتهاون ولا الفساد أبدًا. لذا فإخراج تشيزاري بالطريقة السهلة أمرٌ مستحيل.

قدَّر ميكيليتو ارتفاع البرج المركزي بعينيه. وما إن دخلوا إلى المكان، حتى تعين عليهم صعود سور يستحيل تسلقه وصولًا إلى زنزانةٍ ترتفع قدر مئة وأربعين قدمًا عن الأرض. لذا فقد كان هذا الأمر مستبعدًا. فكر ميكيليتو في المشكلة. كان رجلًا عمليًّا، لكنه اختص في القتل، وليس حلَّ المشكلات، وقد قادته أفكاره إلى الأداة الأساسية التي يستخدمها في مهنته، ألا وهي الحبل.

فقال لرفاقه: «لنقترب قليلًا بخيولنا». كانوا جميعًا يرتدون ملابس الصيد، بدلًا من أزيائهم السوداء المعتادة حتى لا يثيروا الشكوك. ورافقه عشرة رجال، أخذ كلُّ واحد منهم حبلًا طويلًا، كجزء من معداتهم الاعتيادية.

قال مساعده: «لا نريد الاقتراب بشدة، وإلا فسيرانا الحراس المتراصين عند حواجز الأسوار».

- وما الذي سيرونه؟ جماعة صيد آتية إلى بلدة مدينا من أجل التزود. لا تقلق يا جيرولامو.

ومنحت هذه الملحوظة ميكيليتو نواة لفكرة فتابع حديثه: «سنواصل سيرنا إلى البلدة».

استغرق مسيرهم نحو نصف ساعة، والتي التزم خلالها ميكيليتو الصمت أغلب الوقت، وعلا التجهم جبهته المثقلة بالتجاعيد. ولما اقتربوا من أسوار البلدة، زال التجهم عن وجهه.

وقال: «ألجموا خيولكم».

فعلوا ما أمرهم به ونظر إليهم ميكيليتو. كان أصغرهم، وهو فتى بعمر الثمانية عشر يُدعى لوكا، أملس الذقن له أنف مائلٌ قليلًا إلى الأعلى. كان قاتلًا متحجر القلب، لكن وجهه يشعُّ ببراءة المَلاك.

- أخرِجوا حبالكم وقِسُوها.

امتثلوا لأمره، كان مقياس كل حبل اثني عشر قدمًا، ويكون حاصل مجموعها عند ربطها بإحكام 120. وبإضافة حبل ميكيليتو كذلك يكون الحاصل 130 قدمًا. سيتعين على تشيزاري القفز من آخر عشرة أقدام تقريبًا، لكن هذا لن يكون معضلة بالنسبة إليه.

تمثلت المشكلة الثانية هي إيصال الحبل إلى تشيزاري. ولحلٍّ هذه المشكلة كان عليهم التواصل مع مُجَندهم، رقيب الحراس خوان، وهو أمر لم يكن بالعسير إذ إنهم يعرفون تحركات خوان وساعات عمله. وستكون تلك مهمة لوكا، إذ ببراءة وجهه لم يجذب الكثير من الانتباه، أما باقي جماعته، رغم أنهم يرتدون ملابس الصيادين، فهم يبدون على شخصياتهم الحقيقية: بلطجية قساة القلب. وكان لا بدَّ من رشوة خوان، ولم تخلُ جعبة ميكيليتو من مال احتياطي للحالات الطارئة بمقدار 250 دوك، وعُشر هذا المبلغ سيفي بالغرض، لكل المهمة.

يمكن لخوان الوصول إلى زنزانة تشيزاري وإيصال الحبل، فلن يشكَّ به الحرس السويسري. ويمكن لميكيليتو تزييف خطاب بختمٍ شبه رسمي كي يُرسل إلى تشيزاري كغطاء.

كان المَرقب الخارجي كبيرًا للغاية رغم هذا، وما إن يصل تشيزاري إلى سطح البرج المركزي، فسيتعين عليه عبور الباحات الداخلية والخروج، بطريقةٍ ما، من البوابة الوحيدة.

وكان الشيء الوحيد المستحسن في الأمر هو أن الغرض الوحيد من قلعة لاموتا هذه الأيام هو حراسة سجينها الوحيد. كان غرضها الأصلي هو دحر هجمات المغاربة، لكن هذا التهديد قد زال منذ زمن وغدا المكان الهائل بلا فائدةٍ مرجوَّة منه من كافة الجوانب، عدا حراسة تشيزاري، لذا فقد عرف من خوان أنها مهمة يسيرة إلى حدٍّ كبير.

تعيَّن عليهم جلب غيار ملابس لتشيزاري من حين لآخر، لذا فكر ميكيليتو بإمعان في أمر إيصال خوان «غيار ملابس» لتشيزاري، وستكون ملابس تنكرية لخداع الحراس، حينها قد ينجح الأمر. فلم يستطع الاتيان بفكرة أفضل من هذه، غير اقتحام المكان وإخراج تشيزاري بالقوة.

قال بحزم: «لوكا، لديَّ مهمة لك».

اتضح أن خوان يريد خمسين دوك من أجل المهمة بأكملها، لكن استطاع ميكيليتو تخفيضها إلى أربعين رغم أنه لم يضيِّع الكثير من الوقت في المساومة. وتطلَّب الأمر أن يذهب ويجيء ثلاث مرات، ثم أفاد في نهاية المطاف: «تم ترتيب الأمر. سيأخذ الحبل وزِيَّ حارس إلى تشيزاري عندما يصطحب الرجل الذي سيأخذ له وجبة المساء في تمام الساعة السادسة. ستكون البوابة الخلفية تحت حراسة خوان الذي سيتولى مناوبة حراسة البوابة من منتصف الليل إلى الساعة السادسة». كانت المسافة من القلعة إلى البلدة تستغرق خمس دقائق سيرًا على الأقدام.

***

كانت قدم تشيزاري اليسرى تؤلمه من تقرحات الداء الإفرنجي، لكن لم يكن بالقدر الكبير، مجرد ألم بسيط جعله يعرج عرجًا خفيفًا. وفي تمام الساعة الثانية ليلًا، بمجرد أن بدَّل ملابسه وارتدى زيَّ الحارس، ربط الحبل بإحكام في العمود المركزي لنافذة زنزانته وأسقط باقي الحبل بحذر في الظلام. ولما أُرخي الحبل تمامًا، ألقى بقدمه السليمة من فوق عتبة النافذة ثم أنزل الأخرى بعدها وأمسك الحبل بإحكام. ونزل وهو يتصبب عرقًا رغم برودة الجو ممسكًا بالحبل بيده مرة تلو الأخرى حتى أحسَّ كاحلاه بنهاية الحبل. ثم قفز في آخر عشرة أقدام، فشعر

بالألم في قدمه اليسرى عند نزوله، لكنه تجاهله ومشى وهو يعرج في الفناء الداخلي الخالي وفي الخارجي كذلك، حيث لم يُلقِ له الحراس النائمون بالًا لظنهم أنه واحد منهم.

ولما وصل عند البوابة أُوقف، وعندها خاف. لكن أتى خوان لإنقاذه.

- لا بأس سآخذه إلى مخفر الحراس.

ما الذي يجري؟ كان على وشك النجاح لكن هذا لم يتحقق.

قال خوان في سره: «لا تقلق».

كان مخفر الحراس يشغله اثنان من الحراس النائمين. ركل خوان واحدًا من الحراس ليوقظه.

- استيقظ يا دومينجو. هذا الرجل معه تصريح للذهاب إلى البلدة. فقد نسوا جلب المزيد من التبن من أجل الإسطبلات وهم يحتاجون إلى بعضٍ منه قبل أن ينطلقوا في دورية الفجر. أرجِعه إلى البوابة، ووضح الأمر للحراس هناك واسمحوا له بالخروج.

- أجل يا سيدي!

تبع تشيزاري الحارس للخارج عبر الباب الخلفي والذي أُحكم إغلاقه من خلفه، ومشى يعرج في ضوء القمر متوجهًا إلى المدينة. ويا لها من متعة بأن يشعر بنسيم الليل البارد من حوله بعد وقتٍ طويل. لقد حُبس في تلك المزبلة منذ عام 1504، لكنه كان حرًّا طليقًا الآن. وكان لا يزال في الثلاثين من عمره، وسيستعيد كل ما سُلِب منه، وسينتقم من أعدائه أشد انتقام، لا سيما أخوية الحشاشين، لدرجةٍ تجعل من عمليات تطهير كاترينا سفورزا في فرولي أمرًا طفوليًّا.

وسمع تشيزاري صوت الخيول وشمَّ رائحتها في مكان اللقاء المحدد. شكرًا للرب على وجود ميكيليتو. ثم رآهم، كانوا جميعًا هناك، متخفين

في ظل سور الكنيسة. كان بحوزتهم حصان أسود قوي مُعد له. نزل ميكيليتو من على حصانه وساعده على الركوب على السرج.

قال: «مرحبًا بعودة جلالتك. والآن علينا الإسراع. فالحشاش الوغد إتزيو أوديتوري في أعقابنا».

التزم تشيزاري الصمت، فقد كان يفكر في أبطأ ميتة ينزلها بالحشاش.

وتابع ميكيليتو: «لقد هيأت الأمور في بلنسية».

- جيد.

وانطلقوا في ظلمة الليل، ميممين نحو الجنوب الشرقي.

61

كان إتزيو قد قطع الأميال الأخيرة إلى لاموتا دون أن يستريح لا هو ولا رفقته ولا خيولهم، لكن وبحسٍّ متزايد بالقلق، قال: «هل هرب؟! بعد أكثر من سنتين؟ كيف؟».

أجاب الملازم التعيس الحظ المسؤول عن القلعة وهو رجل ممتلئ الجسم في الستين من عمره له أنف شديد الاحمرار: «كان أمرًا مدبرًا بعناية يا سيدي. إننا نجري بحثًا رسميًّا».

- وما الذي خلُصتم إليه؟

- حتى الآن...

لكن إتزيو لم ينصت، بل كان ينظر على قلعة لاموتا. كانت كما صورتها التفاحة. وقادته الفكرة إلى تذكُّر رؤية أخرى قد أُريت له: الجيش المحتشد على الميناء البحري... كان الميناء البحري هو بلنسية!

تأججت وتصارعت الأفكار في عقله.

ولم يستطع التفكير إلا في العودة إلى الساحل بأسرع ما يمكنه. فهتف قائلًا: «أحضروا لي خيولًا جديدة!».

- لكن يا سيدي...

تبادل ماكيافيلي وليوناردو النظرات. وقال ماكيافيلي: «إتزيو أيًّا ما كانت الضرورة المُلحة، فعلينا أن نرتاح، ليومٍ واحد على الأقل».

قال ليوناردو متأوهًا: «أسبوع».

ولما بانت الأمور فيما بعد، تأخروا لأن ليوناردو مَرض. كان منهكًا ويفتقد إيطاليا كثيرًا. ومال إتزيو إلى التخلي عنه، لكن نصحه ماكيافيلي بضبط النفس.

- إنه صديقك القديم، ولا يمكنهم جمع جيش وأسطول في أقل من شهرين.

تراجع إتزيو عن قراره. وأثبتت الأحداث صحة رأى ماكيافيلي، وأثبتت أهمية وجود ليوناردو.

62

عاد إتزيو ورفاقه إلى بلنسية في غضون شهر، حيث وجدوا المدينة في حالة فوضى. وقد استهان ماكيافيلي بمدى سرعة جريان الأمور في مثل هذه المدينة الغنية.

كان الرجال قد بدأوا بالتجمع سرًّا، وفي هذا الوقت كان هنالك خارج بلنسية معسكر ضخم من الجنود تعداده نحو ألف رجل. كان آل بورجيا يدفعون أجورًا سخية للمرتزقة، وانتشر الخبر سريعًا. فبدأ النشء من الجنود بالقدوم من أماكن بعيدة مثل برشلونة ومدريد، ومن جميع أنحاء مقاطعتَي مورسية ولامانشا. وضمنت أموال آل بورجيا تأسيس أسطول مؤلف من خمسة عشر سفينة تقريبًا، سفن ناقلة للجنود سريعة التشغيل معها ستة سُفن حربية صغيرة لحمايتها.

قال ماكيافيلي: «حسنًا، لا نريد التفاحة أن تخبرنا ما الذي يخطط له صديقنا القديم تشيزاري».

- هذا صحيح. فهو لا يحتاج إلى جيش عرمرم كي يستولي على نابولي، وما إن يهيئ لنفسه مكانًا أفضل هناك، فسيُجند المزيد من الرجال لأجل قضيته. فخطته هي هزيمة مملكة نابولي، ثم كل إيطاليا. سأل ماكيافيلي: «وما الذي يفعله فرديناند وإيزابيلا حيال الأمر؟».

- سيجمعون قوة لسحقه. لذا فإننا سنضع مساعدتهم في الحسبان.

ردَّ مكيافيلي: «سيستغرق الأمر الكثير من الوقت. ويتوجب على جيشهما السير من مدريد. وعليه يجب تعطيل الحامية الموجودة هنا. لكنكم ترون أن تشيزاري على عجلةٍ من أمره».

قال ليوناردو متفكرًا: «قد لا يكون الأمر ضروريًّا حتى».

- ما الذي تقصده؟

- القنابل.

سأل ماكيافيلي: «القنابل؟».

- بعض القنابل الصغيرة، لكنها ذات فاعلية كافية، لنقُل، لتحطيم السفن وتفريق المعسكر.

قال إتزيو: «حسنًا، إن كانت القنابل ستفعل هذا من أجلنا... فما الذي تحتاج إليه من أجل صنعها؟».

- الكبريت والفحم ونترات البوتاسيوم والفولاذ. وفولاذ رقيق من النوع المرن. وسأحتاج إلى معرض صغير وفرن.

استغرق الأمر منهم بعض الوقت، لكن لحسن حظهم، كانت سفينة القبطان ألبرتو المسماة ماريا دي ألبا مربوطة عند مينائها المعتاد. وحياهم بإشارة ودية، وقال: «مرحبًا مجددًا. أولئك الأشخاص الذين أخبرتكم عنهم... الذين لم يكونوا سادة محترمين. لا أظن أنكم سمعتم بالشجار الذي وقع في نُزل الذئب الوحيد بعد وصولكم بقليل؟».

ابتسم إتزيو وأخبره بما يحتاجون إليه.

- اممم. أعرف رجلًا هنا قد يساعدكم.

سأله ليوناردو: «متى ستعود إلى إيطاليا؟».

- لقد أحضرتُ شحنة من مشروب الجرابا، وسآخذ الحرير عند عودتي، ربما بعد يومين أو ثلاثة. لمَ؟

- سأخبرك لاحقًا.

سأل إتزيو الذي اعتراه حسٌّ بالتوجس، رغم أنه لم يستطع لوم ليوناردو على رغبته في المغادرة: «هل تستطيع ترتيب ما نريده سريعًا؟».

- بلا شك!

وفَّى ألبرتو بكلمته، وخلال ساعات قليلة رُتب كلُّ شيء وتهيأ ليوناردو للعمل.

سأله ماكيافيلي: «ما الوقت الذي سيستغرقه صُنع تلك؟».

- يومان بما أني لا أملك أيَّ مساعدين. ولديَّ ما يكفي من المواد لصنع عشرين قنبلة أو إحدى وعشرين. وبهذا يكون لكل فرد عشر قنابل.

قال إتزيو: «سبع لكل فرد».

- لا يا صديقي، عشر لكل فرد، مجموعة لك والأخرى لنيكولو هنا. يمكنكم إخراجي من الحسبة.

بعد مضي يومين، جُهزت القنابل. كانت في شكل ثمرة الكمثرى وحجمها، ويلفها الفولاذ ومزودة بمفتاح في الأعلى.

- كيف تعمل؟

- ابتسم ليوناردو بفخر، وقال: «تقلب هذا المفتاح الصغير، في الواقع هو أشبه برافعة، وتعدُّ إلى ثلاثة، ثم ترميها على هدفك. وتكفي واحدة من هذه لقتل عشرين رجلًا، وإن أصبت السفينة في الموضع الصحيح، ستعطلها تمامًا وربما حتى تُغرقها». ثم توقف للحظة، وأردف: «للأسف لا يوجد متسع من الوقت لبناء غواصة».

- ماذا؟

ابتسم ليوناردو بأسى، وقال: «لقد اكتفيت من إسبانيا، لذا حجزت رحلة مع ألبرتو. وسيبحر مع مدِّ هذا العصر. سألتقيكم مجددًا في روما، إن بقيتم على قيد الحياة».

تبادل إتزيو وماكيافيلي النظرات، ثم عانقا ليوناردو برصانة.

قال إتزيو: «شكرًا لك يا صديقي العزيز».

- لا عليك.

قال ماكيافيلي: «حمدًا للرب أنك لم تصنع هذه الأشياء لتشيزاري».

بعدما غادر ليوناردو، عبآ القنابل في حقائب من الكتان، وكان هنالك عشر لكل واحدٍ. ثم حملا الحقائب على كتفيهما.

قال إتزيو: «ستتولى أنت أمر مُعسكر المرتزقة، وسأتولى أنا أمر الميناء».

أومأ ماكيافيلي متجهمًا.

قال إتزيو: «عندما ننتهي من مهمتنا، سنلتقي عند زاوية الشارع حيث يوجد نُزل الذئب الوحيد. أظن أن نُزل الذئب الوحيد هو المكان الذي يتخذه تشيزاري مركزًا لعملياته. وما إن تعم الفوضى، فسيتجه إلى هناك من أجل إعادة تنظيم صفوفه مع رجاله المقربين. وسنحاول محاصرتهم قبل أن يهربوا ثانيةً».

ابتسم ماكيافيلي، وقال: «سأدعم حدسك لمرة واحدة. إن تشيزاري مغرورٌ للغاية حتى إنه لم يفكر في تغيير مخبأ الموالين المتعصبين لآل بورجيا. ويُفترض أنه أكثر سرية من القصر».

- حظًّا موفقًا يا صديقي.

- كلانا سيحتاج إلى الحظ.

تصافحا وافترقا كي ينطلقا في مهمتيهما المنفصلتين.

قرر إتزيو التوجه إلى السفن الناقلة للجند أولًا. ثم بالانخراط مع الحشد، سلك طريقه إلى الميناء، وما إن وصل إلى الرصيف حتى اختار هدفه الأول. فأخرج القنبلة الأولى وراح يصارع شكوكه الداخلية المريبة بأنها قد لا تعمل، ولدرايته بأن عليه أن يتصرف بسرعة، قلب المفتاح، وعدَّ إلى ثلاثة ثم قذفها.

كان يؤدي عمله على نطاق قريب وكانت دقة تصويبه قاتلة. فقد استقرت القنبلة مصدرة صوت خشخشة في باطن السفينة. ولعدة لحظات لم يحدث شيء، وأخذ إتزيو يسبُّ في سره، فماذا لو فشلت الخطة؟ لكن ما لبث أن دَوَّى انفجار عظيم، فانكسر صاري السفينة وسقط، وتطايرت قطع الخشب عاليًا في الهواء.

ووسط الفوضى التي أعقبت ذلك، اندفع إتزيو على طول الرصيف، وراح يتخير سفينة أخرى ويرمي القنبلة التالية. في بعض الأحيان أعقب الانفجار الأول انفجار آخر أشد، إذ إن بعض السفن الناقلة للجنود كانت محملة ببراميل البارود. وفي أحد الانفجارات، دمرت سفينة متفجرة تحمل البارود جارتيها.

دمر إتزيو اثنتي عشرة سفينة الواحدة تلو الأخرى، لكن الفوضى والذعر اللذَين نتجا عن ذلك كان لهما الأثر نفسه. وسمع على بُعد مسافة الانفجارات والصراخ والصيحات بينما يقوم ماكيافيلي بمهمته كذلك.

وفي طريق إتزيو إلى مكان لقائهم، أمل أن يكون صديقه قد نجا.

عمَّت الفوضى أرجاء بلنسية، لكن سلك إتزيو طريقه في الاتجاه المعاكس للحشد، وصل إتزيو إلى مكان اللقاء في عشر دقائق. لم يكن ماكيافيلي موجودًا هناك، لكن إتزيو لم يكن عليه الانتظار طويلًا. فسرعان ما أتى رفيقه الحشاش والتعب بادٍ عليه ووجهه مسود.

وقال: «ليبارك الرب ليوناردو دافنشي».

- هل نجحت؟

ردَّ ماكيافيلي: «لم أرَ في حياتي مثل هذه الفوضى والهرج. إن الناجين يفرون من البلدة بأسرع ما يمكنهم. وأظن أن معظمهم سيُفضلون المحراث على السيف بعد هذا».

- جيد! لكن لا يزال لدينا عمل نقوم به.

مشيا عبر الشارع الضيق ووصلا إلى باب نُزل الذئب الوحيد ليجداه مغلقًا. وبخفة القطط، تسلقا إلى السقف. كان البناء مكونًا من طابق واحد وأوسع مما يبدو عليه من المقدمة. وبالقرب من قمة الرف المرتفع، كان هنالك كوَّة مفتوحة. فاقتربا منها ونظرا بحرص من فوق الحافة.

كانت غرفة مختلفة عن تلك التي نُصب لهم فيها الكمين، وفيها بالأسفل رجلان: ميكيليتو يقف إلى الطاولة وفي مقابله جلس تشيزاري بورجيا. حينها بدا وجه تشيزاري شاحبًا بفعل الغضب، وجهه الذي تبددت وسامته بسبب قرح الداء الإفرنجي.

- لقد دمروا خططي! أولئك الحشاشون! لمَ لم تقضِ عليهم؟ لمَ خذلتني؟

قال ميكيليتو وبدا محبطًا: «سيادتك، أنا..».

- عليَّ أن أهرب حيث لا يعثر عليَّ أحد. سأذهب إلى فيانا في نبرة سأعبر الحدود فحسب. وليحاولوا الإمساك بي ثانيةً حينها. لن أنتظر هنا كي يأتي رجال فرديناند ويأخذوني ويزجوا بي مرة أخرى في سجن قلعة لاموتا. ملك نبرة صهري وسيساعدني بلا شك.

- سأساعدك كما ساعدتك دومًا. فقط دعني آتي معك.

زمَّ تشيزاري شفتيه القاسيتين، وقال: «لقد أخرجتني من لاموتا، بالطبع، وجعلتني أبني آمالي، لكن انظر إلى ما ورطتني به!».

- يا سيدي كل رجالي قُتلوا. لقد بذلت ما في وسعي.
- وفشلت!

شحب وجه ميكيليتو، وقال: «هل هذا جزائي؟ عن كل سنوات التي قضيتها في خدمتك بإخلاص؟».

- اغرب عن وجهي أيها الكلب. أنا مستغنٍ عنك! اذهب واعثر على بالوعة تموت فيها.

انقضَّ ميكيليتو بصرخة غضب على تشيزاري ويداه تنثنيان لتُحكما الخناق على حلق سيده السابق. لكنهما لم تصلا إليه أبدًا. وبسرعة البرق، استلَّ تشيزاري واحدًا من المسدسين الموجودين في حزامه وأطلق عليه النار من مسافة قريبة.

دُمر وجه ميكيليتو لدرجة يصعب معها التعرف عليه. وسقط باقي جسده على الطاولة. وقفز تشيزاري للخلف، مبتعدًا عن كرسيه حتى لا يتلطخ بالدم.

تراجع إتزيو للخلف حتى يكون خارج مرمى البصر ولكن في الوقت نفسه ليس خارج مرمى السمع، وكان يستعد للقفز من السطح والإمساك بتشيزاري وهو يخرج من الباب الأمامي للنزل. لكن ماكيافيلي مال للأمام كي يرى المواجهة المروعة رؤية أفضل، وحينها أفلت دون قصد قرميدة من السقف، ما جعل تشيزاري ينتبه لوجودهما.

نظر تشيزاري سريعًا إلى الأعلى، واستلَّ مسدسه الثاني. ولم يتسع الوقت لمكيافيلي للتراجع قبل أن يطلق تشيزاري النار، مسددًا طلقة اخترقت كتفه وهشمت عظمة الترقوة قبل أن يلوذ بالفرار.

فكر إتزيو للحظة في ملاحقته. فقد سمع تشيزاري يقول إنه ينوي الذهاب إلى فيانا، وسوف يلاحقه هناك، لكن ليس قبل أن يتفقد صديقه المجروح.

في تأوهاته من الألم راح ماكيافيلي يعتذر عن كل شيء، بينما يسحبه إتزيو من على السطح. على الأقل، قدر على السير رغم إصابته الجسيمة.

وما إن وصلا إلى الشارع الرئيسي، حتى استوقف إتزيو أحد المارة، واضطر إلى إيقافه بالقوة بينما كانت الفوضى تنتشر من حولهم.

وقال بإلحاح: «أريد طبيبًا. أين يمكنني أن أجد طبيبًا؟».

ردَّ الرجل: «الكثير من الأشخاص يريدون طبيبًا!».

هزه إتزيو وقال: «صديقي جرحه بالغ. أين يمكنني أن أجد طبيبًا؟ الآن!».

- اتركني! يمكنك أن تجرب الطبيب أكوستا. إن مسكنه في آخر الشارع. وثمة لافتة بالخارج.

أمسك إتزيو بماكيافيلي الذي أوشك على الإغماء وسنده. ثم أخرج وشاحه من ردائه وربط به الجرح بأفضل ما يمكنه. كان نيكولو يفقد الكثير من الدماء.

وما إن رأى أكوستا الجرح، حتى أجلس ماكيافيلي على مقعد. وأخذ زجاجة من الكحول وبعض المسحات ثم ضمده بعناية.

شرح الطبيب بلكنة إيطالية ركيكة: «لقد اخترقت الطلقة الكتف. لذا على الأقل لن أضطر إلى إخراجها. وهو جرح نظيف لكن بالنسبة إلى عظمة الترقوة، سيتعين عليَّ إرجاعها لموضعها. وآمل ألا تكونا تخططان للسفر قريبًا؟».

تبادل إتزيو وماكيافيلي النظرات.

قال ماكيافيلي بابتسامة متكلفة: «لقد كنت أحمق مرة أخرى».

- اخرس يا نيكولو.

- استمِر في طريقك. لاحقه، وسأتدبر أنا أمري.

قال أكوستا: «يمكنه البقاء هنا معي. لديَّ ملحق صغير يحتاج إلى مريض. وعندما يُشفى، سأرسله ليلحق بك».

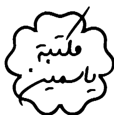
- كم سيستغرق هذا؟

- ربما أسبوعين، أو أكثر.

قال ماكيافيلي: «أراك في روما».

ردَّ إتزيو: «حسنًا. اعتنِ بنفسك يا صديقي».

قال ماكيافيلي: «اقتله من أجلي. ورغم ذلك، لقد وفر علينا عناء التعامل مع ميكيليتو».



الجزء الثالث

لقد وصلنا إلى الحقبة الأخيرة من أنشودة النبوءة.

لقد حبلَ الزمان بتسلسل عظيم من العصور تستأنف سيرها من جديد.

وقد عادت العدالة العذراء لتسكن معنا من جديد، وعاد لنا حكم ساتورن.

وأول مولود للعصر الجديد في طريقه من السماء العالية نزولًا إلى الأرض.

فيرجيل، أناشيد الرعاة، الأنشودة الرابعة

63

سافر إتزيو ثانيةً في أنحاء إسبانيا في رحلة طويلة ووحيدة، متجهًا شمالًا نحو فيانا. ووصل إلى هناك في شهر مارس من ميلاد السيد المسيح 1507. وبدت المدينة التي رآها من على بُعد ميل أو نحوه مشابهة تمامًا لتلك الموجودة في الرؤية التي أرته له التفاحة، وكان لها أسوار قوية وقلعة محصنة في مركزها، لكن هناك اختلاف.

وحتى قبل أن يعبر إتزيو الحدود إلى نبرة، أخبرته عيناه المتمرستين بأن المدينة وقعت تحت الحصار. ولما وصل إلى إحدى القرى القريبة، لم يُجب معظم السكان المحليين عن أسئلته سوى بهزِّ رؤوسهم في صمت، لكن عندما وصل إلى الكاهن الذي تمكَّن من الحديث معه باللاتينية، فهم الأمر إجمالًا.

- ربما تعرف أن ملكنا وملكتنا لديهما نوايا سرية لضم نبرة. إنها أرضٌ غنية ويريدان ضمها لإسبانيا.

- لذا فهما يريدان الاستيلاء على فيانا؟

- لقد قاموا بذلك بالفعل. أن الكونت ليرين يحتلها نيابة عنهما.

- ومَن هم المحاصرون لها؟

- إنها قوات من نبرة. أظن أنهم سينتصرون.

- ما الذي يدفعك لقول هذا؟

- لأنهم تحت قيادة صهر ملك نبرة، وهو قائدٌ مخضرم.

تعالت ضربات قلب إتزيو، لكنه لا يزال يحتاج إلى التأكيد، فسأل: «ما اسمه؟».

- إنه مشهور للغاية على ما يبدو. دوق فالانس، تشيزاري بورجيا. يُقال إنه قاد جيش البابا نفسه في السابق. لكن القوات الإسبانية شجعان. وقد مضوا بالمعركة إلى العدو، وجرت معارك دامية في الحقول الموجودة خارج البلدة. لا أنصحك بالابتعاد أكثر من ذلك في هذا الاتجاه يا بُني، فلا يوجد هناك إلا الدمار والدم.

شكره إتزيو وهمز حصانه للمضي قُدمًا.

***

وصل إتزيو إلى ساحة المعركة ليجد معركة محتدمة تجري أمامه، والضباب يلفُّهم من كل جانب. وفي منتصفها وقف تشيزاري يضرب أيَّ عدو يتقدم نحوه. وعلى حين غرة وجب على إتزيو نفسه محاربة فارس آخر، كان من نبرة ويرتدي شعارًا يحمل درعًا أحمر يتقاطع مع سلاسل صفراء. لوَّح إتزيو بسيفه في وجه الرجل، لكن انخفض خصمه في اللحظة المناسبة ليفوت ضربة السيف وكاد إتزيو ينقلب بسبب زخم حركته. ولما استعاد إتزيو توازنه في الوقت المناسب أدار حصانه وعاد للرجل. كان الفارس يستلُّ سيفه من جديد لتسديد ضربة لخاصرة إتزيو المكشوفة، إلا أن إتزيو انقضَّ عليه بضربة سريعة من ذراعه التي يحمل بها السيف. اخترق سنُّ السيف صدر الرجل، وتراجع متألمًا، مما سمح لإتزيو بتسديد ضربة قوية موجهة للأسفل شقَّ بها كتف خصمه اليمنى حتى صدره. وسقط الرجل دون حتى أن يُصدر صرخة ألم وأنهى جنود المشاة الإسبان حياته.

وقف تشيزاري على قدميه في ساحة المعركة، وقرر النزول عن حصانه والسير على قدميه لأنه سيسهل عليه الاقتراب منه دون اكتشاف أمره، واندفع في ساحة المعركة باتجاهه.

وأخيرًا وقف وجهًا لوجه مع عدوه اللدود. تخضب وجه تشيزاري بالدماء والغبار وأجهده الإرهاق، لكن لما رأى إتزيو اكتسى وجهه ببأسٍ شديد.

- الحشاش! كيف وجدتني؟

- تعطشي للثأر لماريو أوديتوري قادني إليك.

تضاربا بسيفيهما حتى أسقط إتزيو سلاح تشيزاري من يده. ثم لما أغمد سيفه، انقضَّ على سليل آل بورجيا، واضعًا يديه حول حلقه. لقد تعلم تشيزاري بعض الأشياء من ميكيليتو حول فن القتل بالخنق، ورغم هذا نجح في تحرير نفسه بدفع ذراعَي إتزيو بعيدًا. فأطلق إتزيو النصل الخفي، لكن تشيزاري تصدى للضربة، ومرة أخرى نجح في الدفاع عن نفسه، بينما تدور المعركة من حولهما.

في تلك اللحظة دوت أبواق الإسبان معلنة التراجع. صاح تشيزاري صيحة انتصار على أقرب قوات نبرية قائلًا: «اقتلوه! اقتلوا الحشاش. مزِّقوا الوغد اللعين إربًا!». ولما تكاثف الضباب وتلاشى تشيزاري فيه، أطبقت جنود نبرة على إتزيو. قاومهم إتزيو بشراسة لفترةٍ طويلة قبل أن يتغلب الإرهاق عليه ويسقط أرضًا، منسيًّا وسط وطيس المعركة الحامي ودوران الضباب من حوله، وقد تركه الجنود على أنه ميت.

***

لما استفاق إتزيو في وقتٍ لاحق، كان مستلقيًا على ظهره وسط أرض المعركة؛ كان عليه أن يزيل جثة عن جسده حتى يمكنه الجلوس.

كانت أحداث ساحة القتال تدور تحت سماء مُلبدة بالغيوم ومصبغة بحمرة الدم، وعلى بُعد مسافة كانت الشمس حامية محتقنة. وعلق الغبار في الهواء فوق طريق واسع غير مُعبد مليء بالجثث.

رأى إتزيو غرابًا يقف فوق ذقن جثة، وينقر عينيها بنهم. ومر جواد بلا فارس بجانبه، وقد أصابه الجنون من رائحة الدم. وراحت الأعلام الممزقة ترفرف في الهواء.

قام إتزيو متأوهًا من جراء تعبه، وفي البداية مشى متألمًا في الساحة الممتلئة بالموتى. ووجد أنه فقد سيفه وخنجره، رغم أن النصل الخفي وواقي الرسغ لم يجدهما أحد ولم ينهبهما.

كانت مهمته الأولى هي استعادة أسلحته. ولاحظ بالقُرب منه فلاحًا يبحث بين غنائم المعركة. فنظر الفلاح إليه، وقال: «خذ ما تريد، هناك الكثير ليكفي الجميع».

بحث إتزيو عن الضباط والفرسان المطروحين أرضًا، فهم سيكونون مسلحين أفضل تسليح، لكن على أيٍّ حال وصل أحدٌ ما إليهم قبله. وفي النهاية، وجد قائدًا ميتًا معه سيفٌ جيد وخنجر شبيه بخنجره. فأخذهما بامتنان.

وذهب فيما بعد ليبحث عن حصان لأنه سيسعفه في هذا الطريق. وحالفه الحظ، فعلى بُعد نصف ميل من طرف ساحة المعركة، وعلى بُعد مسافة من معسكر النباريين، صادف حصانًا حربيًّا بسرجه ولجامه الكاملين يرعى في حقل عشب، وكان ظهره ملطخًا بالدماء، لكنها لم تكن ناتجة عن إصابة فيه. تحدث إليه إتزيو برفق ثم امتطاه. قاوم الحصان في البداية قليلًا، لكن سرعان ما هدأه إتزيو، ثم ركبه عائدًا من حيث أتى.

بالعودة إلى ساحة القتال، قابل المزيد من الفلاحين يسلبون الجثث ممتلكاتها بقدر الإمكان. فتخطاهم وأسرع صاعدًا أعلى التلة نحو صوت قتالٍ آخر. عند وصوله إلى القمة، رأى سهلًا مستويًا بالأسفل حيث استؤنفت المعركة، بالقرب من أسوار البلدة ذات الشرفات الدفاعية، حيث انطلقت نيران المدافع.

64

أدار إتزيو حصانه إلى أحد جوانب المعركة، مارًّا من أحد بساتين الزيتون حيث التقى دورية من قوات النباريين، وقبل أن يتمكن من الالتفاف والعودة، أطلقوا نيران بنادقهم عليه، ولم يصيبوه لكنهم أسقطوا حصانه من تحته.

واستطاع الهرب بين الأشجار وواصل سيره على قدميه، حريصًا على تجنُّب القوات الإسبانية، التي كانت تتجول في كافة الأرجاء. وزحف مقتربًا من حقل مكشوف، رأى فيه جنديًّا إسبانيًّا طريحًا على الأرض بسبب جراحه في حين يبذل آخر جهده كي يُسري عنه.

قال الرجل الجريح: «من فضلك، ساقاي. لمَ لا يتوقف النزيف؟».

- يا رفيقي، لقد فعلت كلَّ ما بوسعي من أجلك. والآن عليك الوثوق بالرب.

- أوه، يا بابلو أنا خائف! ساقاي! ساقاي!

- اهدأ الآن يا ميغيل. فكِّر في كل المال الذي سنحصل عليه عندما نفوز بالمعركة. والغنائم!

- مَن ذاك العجوز الذي نحارب لأجله؟

- مَن؟ كونت ليرين؟

- أجل، إننا نحارب من أجله، أليس كذلك؟

- أجل يا صديقي. وهو يخدم مَلكنا وملكتنا، وإننا نخدمه، وعليه فنحن نحارب.

- يا بابلو الشيء الوحيد الذي أُقاتل لأجله الآن هو حياتي.

وصلت دورية أخرى على الجانب الآخر من الحقل.

فقال الرقيب: «واصلا التقدم، علينا الالتفاف من حولهم».

فقال بابلو: «إن صديقي مصاب، ولا يمكنه التحرك».

- فلتتركه إذن. هيًّا.

- امنحني بضع دقائق.

- حسنًا، إننا متجهون نحو الشمال، اتبعنا، واحرص على ألا يراك أحد من النباريين.

- هل سنعرف أننا التففنا حولهم؟

- سيكون هناك إطلاق نار، سنباغتهم في المكان الذي لا يتوقعونه. استخدم الأشجار للتستر.

- أمهلني لحظة يا سيدي.

- ما الأمر؟

- سأتبعك الآن.

- في الحال؟

- أجل يا سيدي.

- أجل، يا سيدي. رفيقي ميغيل مات.

***

وما إن غادروا، حتى انتظر إتزيو عدة دقائق، ثم اتجه نحو الشمال قبل أن يغير اتجاهه نحو الشرق، إلى الوجهة التي توجد فيها بلدة فيانا. غادر بساتين الزيتون ورأى أنه قد تخطى ساحة القتال وراح يلتفُّ حولها من جانبها الشمالي. وتساءل عما حدث للجنود الإسبان، حيث لا توجد علامة على نجاح تطويقهم وبدت المعركة كأنها تسير لصالح النباريين.

وجد إتزيو في طريقه قرية مُدمرة. فتجنبها، حيث رأى القناصة الإسبان مختبئين خلف الأسوار المفحمة والمهدمة، مستخدمين بنادق بقفل دولابي طويلة الفوهة لإطلاق النيران على أيٍّ من القوات النبارية عند أطراف المعركة.

ثم صادف جنديًّا، غطت الدماء رداءه لدرجة أن إتزيو لم يستطع تحديد أيِّ جهة يقاتل في صفها الجندي. كان جالسًا مستندًا على شجرة زيتون برية، يحتضن نفسه في أسًى، وجسده كله يرتجف، وقد وضع بندقيته أرضًا.

لما وصل إلى أطراف البلدة، وبين المستوطنات الجاثمة تحت حصونها، رأى إتزيو هدفه أخيرًا أمامه. كان تشيزاري برفقة الرقيب النباري وبدا واضحًا أنه كان يُقدر أفضل طريقة لاختراق أسوار فيانا الهائلة أو تقويضها.

وكان الإسبان الذين استولوا على فيانا من الثقة بمكانٍ جعلهم يسمحون لبعض أتباع معسكرهم بالاستقرار في منازل موجودة هنا، لكن اتضح أنهم لم يكونوا بالقوة الكافية لحمايتهم في تلك اللحظة.

وعلى حين غرة، خرجت امرأة من أحد الأكواخ وركضت نحوهم تصرخ وتحجب طريقهم.

وصرخت قائلة: «ساعدوني! ساعدوني! ابني! ابني مصاب!».

ذهب الرقيب إلى المرأة، وأمسك بها من شعرها، وسحبها ليزيحها من طريق تشيزاري.

فصرخت قائلة: «ساعدوني».

قال تشيزاري وهو يتفحصها ببرود: «أخرِسوها، هلا فعلتم؟».

استلَّ الرقيب خنجره، وشقَّ حلق المرأة.

65

بينما يتتبع إتزيو تشيزاري، شهد المزيد من المشاهد الوحشية التي اقترفتها القوات النبارية ضد المتطفلين الإسبان المكروهين.

ورأى شابةً يعاملها جندي نباري بقسوة.

فصرخت قائلة: «اتركني في سلام!».

قال لها الجندي بنبرة وحشية: «كُوني فتاة مطيعة. فلن أؤذيكِ! بل في الواقع قد تستمتعين بالأمر أيتها العاهرة الإسبانية».

وعلى مسافةٍ أبعد من ذلك، وقف رجل يبدو من مظهره أنه طاهٍ واليأس يتملكه بينما يمسك به جنديان ويجبرانه على مشاهدة جنديين آخرين يضرمان النيران في منزله.

والأنكى من هذا، كان هناك رجل لا شك في أنه جندي إسباني بُترت ساقاه، يركله اثنان من جنود المشاة النباريين من على عربته. ووقفا يضحكان بينما يحاول في يأسٍ الابتعاد عنهما على طول الممر.

فقال واحد منهما: «اركض! اركض!».

وأضاف رفيقه: «ألا يمكنك الإسراع أكثر من ذلك».

***

انتهت المعركة على ما يبدو لصالح النباريين، لأنه تسنى لإتزيو رؤيتهم وهم يجلبون أبراج الحصار إلى أسوار المدينة. أخذت القوات

النبارية تتسلقها سريعًا وكان هنالك قتال محتدم على الشرفات الدفاعية بالفعل. لو كان تشيزاري في أيِّ مكان، سيكون في مقدمة رجاله، لأنه بقدر ما كان قاسيًا، كان شرسًا وجسورًا.

وفي مكانٍ ما من خلفه راح واعظ إسباني يُنشد في جَمع غلب عليه الشعور باليأس قائلًا: «لقد جلبتم هذا على أنفسكم بذنوبكم. وهذا عقاب الرب لكم. وربنا عادل وهذا عدله. الحمد للرب! شكرًا لك يا رب لأنك تعلمنا التواضع. ولأنك تجعلنا نرى عقابنا الذي نستحق، دعوة منك لنا للروحانية. أنت يا رب مَن تُعطي وتأخذ. وهذا هو الحق المكتوب. آمين!».

فكر إتزيو في نفسه قائلًا: *الطريقة الوحيدة للدخول إلى المدينة هي بالصعود إلى واحد من تلك الأبراج*. كان البرج الأقرب إليه قد دُفع باتجاه السور، وجرى إتزيو ولحق بالرجال المتسلقين له سريعًا، وانخرط فيهم رغم أن الوضع لم يحتج إلى ذلك، فلم يكن ليلاحظه أحد وسط كل صيحات وهدير المُحاصِرين المفعمين بالحماس الذين استشعروا النصر أخيرًا.

كان المدافعون قد تأهبوا لهم في ذلك الوقت، وراحوا يصبون على أعدائهم الموجودين بالأسفل مزيجًا من القار والزيت يسمونه النار اليونانية. ووصلت صرخات الرجال المحترقين إلى أولئك الذين كانوا في البرج، وكان إتزيو من بينهم وأصبح الإسراع في الصعود بعيدًا عن الألسنة المشتعلة عند أسفل البرج أمرًا محمومًا وجنونيًّا. رأى إتزيو من حوله رجالًا يدفعون رفاقهم من طريقهم حتى ينجوا بحياتهم، وسقط بعض الجنود وهم يصرخون في النيران.

أدرك إتزيو أن عليه الصعود إلى القمة قبل أن تصل إليه النيران. ولما وصل إليها قفز قفزة إيمان أعمى كبيرة على الشرفات الدفاعية

في اللحظة التي ينهار فيها البرج الذي تأكله النيران من تحته، مسببًا فوضى قاتلة بالأسفل.

كانت تجري معارك طاحنة على حواجز الأسوار، لكن نجح مئات الجنود النباريين من النزول والدخول إلى البلدة بالفعل، ودوَّت الأبواق الإسبانية معلنة التراجع إلى القلعة في وسط فيانا. وبدت البلدة كأنها قد جرى الاستيلاء عليها مرة أخرى.

سينتصر تشيزاري وسيكافئه صهره الثري ببذخ بلا شك. ولن يسمح إتزيو بحدوث هذا.

ركض إتزيو على طول السور العالي، وهو يتحرك ببراعةٍ بين الجنود المتقاتلين في حين يقضي النباريون على القوات الإسبانية التي تُركت في أثناء الانسحاب. حدد إتزيو مكان تشيزاري، وشقَّ طريقه من بين قوات العدو كطفل يستخدم عصا ليقطع العشب الطويل. كان تشيزاري على عجالة من أمره من أجل الاستيلاء على القلعة، وما إن خلا طريقه من الرجال الذين اعترضوه، حتى نزل مسرعًا من دَرج في السور الداخلي يؤدي إلى داخل المدينة، وكان يفصل إتزيو عنه بضع لحظات.

كانت أبواب القلعة مفتوحة أمامهما بالفعل. ولم تتبقَّ أيُّ فرصة للإسبان للقتال، واستعد كونت ليرين للتفاوض، لكن تشيزاري لم يكن رحيمًا.

فصرخ لقواته: «اقتلوهم! اقتلوهم جميعًا!». وبسرعةٍ خارقة، ركض نحو القلعة وصعد الدرج الحجري الضيق الموجود فيها، وأخذ يقتل مَن يعترض طريقه أيًّا كان.

جاراه إتزيو في السرعة إلى أن وصلا إلى أعلى الشرفات الدفاعية في القلعة، حيث وقف تشيزاري وحده وقطع سارية العلم التي تحمل

العلم الإسباني. ولما استدار لم يكن ثمة طريق للخروج إلا طريق واحد واعترضه إتزيو.

قال إتزيو: «لا سبيل إلى فرارك يا تشيزاري. حان الوقت لدفع ديونك».

قال تشيزاري مستهزئًا: «هيَّا إذن يا إتزيو! لقد دمرت عائلتي. لنرَ كيف ستُسوي ديونك».

وفي حمية غضبهما الملتهب، انقضَّ بعضهما على بعض في الحال، رجل لرجل، أسلحتهما قبضات أيديهما.

استهلَّ تشيزاري القتال بتسديد الضربة الأولى، إذ لوح بقبضة يمناه بضراوة باتجاه رأس إتزيو. فخفض إتزيو رأسه متفاديًا ضربته، لكن تأخر للحظة، فلمست مفاصل قبضة تشيزاري صدغ الحشاش. ترنح إتزيو من أثر الضربة، فصاح تشيزاري بنبرة انتصار قائلًا: «أيًّا ما تفعل، فسأهزمك شر هزيمة، لكن قبل هذا سأقتلك أنت وكل مَن تحب. وبالنسبة إليَّ، أنا لا يمكنني الموت. ولن تخذلني فورتونا ربة الحظ أبدًا!».

ردَّ إتزيو قائلًا: «لقد حانت ساعتك يا تشيزاري». واستعاد رباطة جأشه ورجع للوراء، ثم استلَّ سيفه.

أخرج تشيزاري سيفه في المقابل وراح الرجلان يتقاتلان بهمة. لوَّح إتزيو بسيفه بشراسة نحو رأس خصمه، وحرك سيفه في الهواء بحركةٍ دائرية ثابتة قاتلة. صُدم تشيزاري من سرعة الهجمة، لكنه تمكن من رفع سيفه لصد الضربة صدَّة متعثرة، واهتزت ذراعه من قوة الاصطدام. فارتدَّ سيف إتزيو وتقدم تشيزاري للهجوم، واستعاد توزانه وتركيزه. بدأ الرجلان يدوران حول الحاجز، ويضربان بسِنَّي سيفيهما في اندفاع سريع في مبارزتهما بالسيف. تقدم إتزيو للأمام سريعًا، فرمى بسيف تشيزاري يمينًا ولوى معصمه ثم وجَّه سنَّ سيفه إلى خاصرة تشيزاري

اليسرى المكشوفة. كان تشيزاري سريعًا في تحركاته للغاية رغم ذلك، وضرب سيف إتزيو جانبًا. ثم انتهز الفرصة لتسديد ضربة خاطفة بسيفه إلى إتزيو، الذي تحاشى ذلك برفع معصمه واستخدام واقي الرسغ لصدِّ الضربة. وتراجع كلا الرجلين في حذر مرة أخرى. وبدا أن مهارة تشيزاري في المبارزة بالسيف لم تتأثر بالداء الإفرنجي.

- تبًّا أيها العجوز. لقد انتهى جيلك. وحان دوري الآن، ولن أنتظر أطول من ذلك. ولا بدَّ أن تزول أنظمتكم وقواعدكم وهياكلكم العتيقة، كلها جميعًا.

كان كلا الرجلين قد أُرهقا، وراحا يتقاتلان وهما متقطعا الأنفاس.

ردَّ إتزيو: «سيجلب نظامك الجديد الطغيان والبؤس على الجميع».

- أنا مَن يعرف ما يصلح لأهل إيطاليا وليس ثلة من العجائز الذين أهدروا طاقتهم في القتال من أجل الصعود للقمة منذ سنوات مضت.

- إن أخطاءك أسوأ من أخطائهم.

- أنا لا أقترف الأخطاء، أنا المستنير!

- الاستنارة نتاج سنوات من التفكير، وليست نتاج القناعة العمياء.

- لقد حانت ساعتك يا إتزيو أوديتوري!

ضرب تشيزاري بسيفه، مسددًا ضربة مفاجئة وجبانة، لكن إتزيو كان سريعًا بما يكفي ليتفاداها، وواصل قتاله وقبض على تشيزاري في لحظة اختلال توازنه، وأمسك بذراعه ونزع السيف من قبضته، وألقاه أرضًا على حجر الرصف.

كانا على حافة الشرفات الدفاعية، وقد بدأت القوات النبارية في الاحتفال بعيدًا في الأسفل. ولم تحدث عمليات نهب فقد استعادوا بلدةً كانت لهم بالأساس.

حاول تشيزاري الوصول إلى خنجره، لكن إتزيو ضرب معصم خصمه بالسيف، فقطع أوتاره وجعل معصمه يتدلى وشلَّ حركته. ترنح تشيزاري إلى الوراء وتكشر وجهه من الألم والغضب.

وقال كطفل فقد لعبته: «كان العرش لي!».

- الرغبة في الشيء لا تمنحك الحق في امتلاكه.

- ما الذي تعرفه أنت؟ ألم ترغب في شيءٍ بهذا القدر من قبل؟

- القائد الحقيقي يقوِّي ظهر الشعب الذي يحكمه.

- لا يزال بوسعي قيادة بني البشر إلى عالم جديد.

لما رأى إتزيو أن تشيزاري يقف على بُعد شبر من الحافة، رفع سيفه، وقال: «ليُطمَس ذكرك في التاريخ. ارقد بسلام».

- لا يمكنك قتلي! لا يمكن لأي بشر قتلي!

- إذن سأتركك في يد ربة القدر.

ألقى إتزيو سيفه، وأمسك بتشيزاري بورجيا بحركة واحدة ماهرة، ثم ألقاه من فوق الشرفات الدفاعية. سقط تشيزاري على حجر الرصف على بُعد مئة قدم في الأسفل، لكن إتزيو لم ينظر إلى الأسفل، فقد أُزيح عن كاهله عبء صراعه الطويل مع آل بورجيا.

66

جاء يوم الانقلاب الصيفي من جديد، والذي حلَّ فيه عيد ميلاد إتزيو الثامن والأربعون. اجتمع إتزيو وماكيافيلي وليوناردو في المقر الكائن في جزيرة التيبر المُجدد حديثًا، والذي أضحى مبنًى فخمًا يسر الناظرين.

علق ليوناردو قائلًا: «إنه حفل عيد ميلاد بسيط. والآن لو تركتني أُصمم لك شيئًا استعراضيًّا حقيقيًّا...».

ابتسم إتزيو وقال: «أجِّل ذلك لعامين. لقد دعوناك لغرضٍ آخر».

سأل ليوناردو والفضول يتملكه: «وما هو؟».

قال ماكيافيلي الذي يعاني اعوجاجًا في الكتف لكن جرحه شفي تمامًا: «نريد أن نقدم لك دعوة».

- دعوة أخرى؟

قال إتزيو برصانة: «نريدك أن تنضم إلينا. وأن تصبح عضوًا زميلًا في أخوية الحشاشين».

ابتسم ليوناردو بأسى، وقال: «إذن كانت قنابلي ناجحة». ولاذ بالصمت للحظة، ثم أردف: «أشكركم أيها المحترمان، أنتما تعلمان أني أحترم أهدافكم وسأدعمها ما حييت. ولن أفشي أسرار الحشاشين إلى أيِّ أحد». وأطرق، ثم قال: «لكني أسلك دربًا مختلفًا، وهو طريق فردي، فسامحوني».

- إن دعمك لا يقل أهمية عن أن تكون فردًا من جماعتنا. لكن ألا يمكننا إقناعك يا صديق الأيام الخوالي؟

- لا يا إتزيو. إلى جانب أني مغادر.

- مغادرٌ؟ إلى أين؟

- عليَّ العودة إلى ميلان، سأذهب إلى أمبواز.

- إلى فرنسا؟

- يُقال إنها بلدٌ راقٍ، وأحب قضاء ما تبقى من عمري هناك.

نشر إتزيو ذراعيه، وقال: «إذن علينا السماح لك بالرحيل يا صديق الأيام الخوالي». وأطرق ثم قال: «إذن هذا مُفترق طُرقنا».

سأل ليوناردو: «كيف ذلك؟».

ردَّ ماكيافيلي قائلًا: «أنا عائدٌ إلى فلورنسا. فلم ينتهِ عملي هناك بعد -وغمز لإتزيو- ولا يزال عليَّ تأليف هذا الكتاب».

- ماذا ستسميه؟

نظر ماكيافيلي بفتور إلى إتزيو وردَّ قائلًا: «الأمير».

- ابعث إليَّ بكلاوديا.

- سأفعل ذلك. إنها تفتقد روما، وتعلم أنها ستساندك ما دمت تواصل عملك في منصب مُعلم الأخوية.

حدَّق ماكيافيلي إلى الساعة المائية، وقال: «لقد حان الوقت».

نهض الرجال الثلاثة في الوقت نفسه، وعانقوا بعضهم بعضًا برصانة.

- وداعًا.

- وداعًا.

- وداعًا.

قائمة بالشخصيات

ماريو أوديتوري: عم إتزيو ورئيس أخوية الحشاشين

إتزيو أوديتوري: حشاش

ماريا أوديتوري: أمُّ إتزيو

كلاوديا أوديتوري: أخت إتزيو

آنجيلينا تشيريزا: صديقة كلاوديا

فيديريكو: سائس إسطبلات ماريو

آنيتا: مُدبرة منزل آل أوديتوري

باولا: أخت آنيتا وعضوة في أخوية الحشاشين

روچيرو: رقيب أول في حرس ماريو أوديتوري

***

نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلي: حشاش وفيلسوف وكاتب (1469-1527)

ليوناردو دافنشي: فنان وعالم ونحَّات، إلخ. (1452–1519)

أنتونيو: حشاش

فابيو أورسيني: حشاش

بارتولوميو دا ألفيانو: قائد إيطالي وحشاش (1455–1515)

بانتاسيليا باجليونى: زوجة بارتولوميو

بالداساري كاستيليوني: حشاش مساعد

بيترو بيمبو: حشاش مساعد

جيليبرتو الثعلب: حشاش ورئيس جمعية اللصوص

بينتو: عضو في جمعية اللصوص

تريمالكيو: عضو في جمعية اللصوص

كلاوديو: لص وابن تريمالكيو

باجانينو: لص في نهب مونترجيوني

***

السيدة سولاري: صاحبة ماخور ومتعاونة مع الحشاشين

آنييلا: مومس من ماخور الوردة المتفتحة

لوتشيا: مومس من ماخور الوردة المتفتحة

سارجينيا: مومس من ماخور الوردة المتفتحة

مارجريتا ديلجي كامبي: أرستقراطية رومانية ومتعاونة مع الحشاشين

ياكوبو: بحَّار

كاميلا: مومس من نابولي

فيلين: قبطان سفينة

القبطان ألبرتو: قبطان سفينة ماريا دي ألبا

أكوستا: طبيب من بلنسية

كونت لورين: كونت إسباني (1430–1508)

كاترينا سفورزا: كونتيسة فرولي وابنة غالياتسو (1463–1509)

لورينزو ميديشي: لورينزو العظيم، رجل دولة إيطالي (1449–1492)

الحاكم بييرو سوديريني: حاكم فلورنسا (1450–1522)

أمريكو فسبوتشي: صديق سوديريني ومستشاره (1454–1512)

***

رودريغو بورجيا: البابا ألكسندر السادس (1431–1503)

تشيزاري بورجيا: ابن رودريغو (1476–1507)

لوكريتزيا بورجيا: ابنة رودريغو (1480–1519)

فانوتزا كاتاني: أم تشيزاري ولوكريتزيا بورجيا (1442–1518)

جوليا فارنيزي: عشيقة رودريغو (1474–1524)

الأميرة تشارلوت دالبرت: زوجة تشيزاري (1480–1514)

خوان بورجيا: رئيس أساقفة مونريالي والمصرفي الشخصي لتشيزاري (1476–1497)

الجنرال الدوق أوكتافيان دي فالوا: الجنرال الفرنسي وحليف آل بورجيا

ميكيليتو دي كوريلا: اليد اليمنى لتشيزاري.

لوكا: موالي متعصب لميكيليتو

أغوستينو كيجي: المصرفي الشخصي للبابا ألكسندر (1466–1520)

لويجي تورشيلِّي: نائب المصرفي الشخصي لتشيزاري

توفانا: خادمة لوكريتزيا

جاسبر توريلًّا: الطبيب الشخصي لتشيزاري

يوهان بيرشارد: مسؤول تنظيم احتفالات البابا ألكسندر السادس

خوان: حارس في قلعة لاموتا

***

إجيديو تروكي: عضو مجلس شيوخ روماني

فرانشيسكو تروكي: أخو إجيديو والحاجب الملكي لتشيزاري

***

مايكل آنجلو بوناروتي: فنان ونحات، إلخ (1475–1564)

فينتشو: أحد معارف ماكيافيلي

الكاردينال جوليانو ديلا روفيري (1443–1513)

الكاردينال أسكانيو سفورزا (1455–1505)

أنيولو وإنوشينتو: مساعدا ليوناردو دافنشي

بيترو بينتندي: ممثل روماني

الطبيب برونليسكي: طبيب روماني

كاردينال روان: جورج دامبواز (1460–1510)

البابا بيوس الثالث: الكاردينال بيكولوميني (1439–1503)

البابا يوليوس الثاني: جوليانو ديلا روفيري، كاردينال كنيسة سان بيترو في فانكولي (1443–1513)

برونو: جاسوس

ملحوظة المؤلف

معظم الترجمات من اللغات الأجنبية في النص تعود إليَّ، أما الاقتباسات فهي من كتاب الأمير لماكيافيلي وأناشيد الرعاة لفرجيل (رغم أني تصرفت في الأخيرة بعض الشيء). وأنا مدين للعالمَين الراحلين جورج بول (1929–2001) وإي. في. ريو (1887–1972) على التوالي.

أوليفر بودين، باريس، 2010

شكر وتقدير

شكر خاص لـ

إيف غيلموت

جيفرى يوحالم

كوري ماي

إيثان بيتي

مات تيرنر

جين غويسدون

وكذلك لـ

آلان كور

لوران ديتوك

سيباستيان بويل

جيفروي ساردان

صوفي فير-بيدو

كزافييه غيلبير

تومي فرنسوا

سيسيل روسيل

كريستيل جالادي

قسم الشؤون القانونية في يوبيسوفت

تشارلي باترسون

كريس ماركوس

إريك غالان

ماريا لوريتو

غيوم كارمونا

